شعر الجهاد في الحروب الصليبية

في بلاد الشام

تأليف

الدكتور محمد علي الهرفي

دار المعالم الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

دار المعالم الثقافية
للنشـــر والطبـــع والتوزيع
الأحساء ـ المنطقة الشرقية ـ هاتف ٥٨٦٢٠٦١
المملكـة العربيـة السـعوديـة

المقدمة

تعارف المؤرخون على أن بداية الحروب الصليبية كانت سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة هجرية (١٠٩٥ م) . ولم تظهر هذه التسمية إلا فى العصور الوسطى ، مقترنة بظهور القوى الصليبية الوافدة على بلاد الشام ، والتى اتخذت شارة الصليب علامة مميزة لها[١] .

والحقيقة أن الصراع بين الديانتين الإسلامية والنصرانية بدأ قبل هذا الزمن بفترة طويلة ، عندما بدأ المسلمون غزو بلاد الروم فى عصر صدر الإسلام .

وقد استمر الصراع بين الإسلام والنصرانية حتى العصر الحاضر ، متخذاً أشكالاً عديدة ، من أبرزها التبشير .

وقد تحدث الأستاذ محمود شاكر عن أخطار التبشير فى كتابه « أباطيل وأسمار » ، فقال عن خطره : « فمن تمام الجهل أن يظن المرء أن معنى التبشير هو اقتصار فئة من الرهبان أو القساوسة بالدعوة إلى دينهم ، من حيث هو عقيدة يسمعها المرء فيرضاها ، أو ينكرها . فهذا أمر باطل أشد البطلان ، لا من حيث الواقع فحسب ، بل من حيث شرح المبشرين أنفسهم لمعنى التبشير عندهم ، وهم الممارسون له ، وهم لذلك أدرى به . وأشد بطلاناً ، أن يتصور امرؤ أن التبشير بمعزل عن الغزو الحربى ، والغزو الاقتصادى ، والغزو الفكرى ، والغزوالسياسى ، وعن محاولة الجنس الأوروبى أن يخضع الأمم لسيطرة تدوم ما دامت له حضارة »[٢] .

---

(١) سياسة صلاح الدين الأيوبى فى بلاد مصر والشام والجزيرة ، ص ٤٩ .
(٢) أباطيل وأسمار ، ج ١ ص ١٨٤ .

وأول من بدأ عملية التبشير فى البلاد الإسلامية « ريمون لول » ، وذلك بعد فشل الحروب الصليبية ، فتعلم هذا المبشر اللغة العربية ، وطاف فى البلاد الإسلامية ، وناقش علماءها فى كثير من المسائل[١] .

وحيث إنه لابد من تحديد فترة زمنية لأى دراسة علمية ، فقد جعلت الفترة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بالحروب الصليبية – والتى بدأت سنة ٤٨٨ هـ – ١٠٩٥ م ، وانتهت بعد قرنين من هذا التاريخ – مسرحاً لهذه الدراسة .

وقد كانت بلاد الشام[٢] هى المستهدفة من هذه الحروب ، لوجود بيت المقدس فيها . ولذا آثرت أن أجعل دراستى لشعر الجهاد فى فترة الحروب الصليبية فيما تعلق منه بأحداث بلاد الشام بوصفها مركزاً لهذه الحروب .

وقد كان لشعر الجهاد أثر بارز فى أحداث الحروب الصليبية ومجريات أحداثها . فقد نشط الشعراء فى بعث الحمية فى نفوس المسلمين واستنهاض هممهم للجهاد ، واسترداد مقدساتهم . كما نشط الشعراء كذلك فى تسجيل الوقائع ، ووصف أحداثها ، ومدح القادة المجاهدين الذين أبدوا بسالة ومهارة فى هذه الحروب .

وقد وجدت أن شعر الجهاد فى فترة الحروب الصليبية فى بلاد الشام يستحق دراسة علمية وافية ، تبرز جوانبه المتعددة ، وتتحدث عن خصائصه ومميزاته .

وقد كنت أعرف منذ البداية أن هذا العمل تكتنفه صعوبات عديدة ، منها أن الدارسين المحدثين لم يتطرقوا إلى هذا الموضوع بشكل

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ، ص ٢٩ .

(٢) جعل ياقوت حدود بلاد الشام من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية وأما عرضها فمن جبلى طىء من نحو القبلة إلى بحر الروم . ومن أمهات المدن التى فيها منبج وحلب وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة . وفى الساحل أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغير ذلك . (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ص ٣١١ – ٣١٤) .

مفصل ، بل اكتفوا بإشارات عابرة عن الحروب الصليبية ، لا تعطى القارئ أو الباحث صورة واضحة عن شعر الجهاد ، وأهميته ، ودوره فى معارك التحرير .

ومن الصعوبات التى واجهتنى كذلك ، ندرة المصادر العربية القديمة التى تشير إلى شعر الجهاد ، فكنت فى بعض الأحيان أقرأ كتاباً بأكمله فلا أجد فيه شيئاً يتعلق بموضوعى ، وأحياناً أخرى لا أجد إلا النزر اليسير .

وهكذا وجدت نفسى أيمم شطر المخطوطات العربية القديمة ، أتلمس فيها قصائد الجهاد ، وأحداث الحروب ، وتراجم الشعراء . فقمت بعدة رحلات إلى بلاد الشام وتركيا ومصر ، واطلعت على كثير من المخطوطات التى كنت أرجح أن أجد فيها شيئاً عن هذا الموضوع .

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أقسمه إلى [أربعة أبواب] ، مع مقدمة تمهيدية ، تحدثت فيها عن سبب اختيارى لمنطقة الشام لتكون مجال دراسة شعر الجهاد ، وقد بينت أن السبب فى ذلك يرجع إلى حرص الصليبيين على الاستيلاء على الأماكن المقدسة فى فلسطين ، وحرصهم كذلك على امتلاك الموانى البحرية التجارية فى بلاد الشام عموماً ، وبالتالى فإن الشام هى المسرح الرئيسى الذى دارت عليه أحداث هذه الحروب .

وتحدثت فى هذه المقدمة كذلك عن فكرة الجهاد ومعناه فى الإسلام ، وبينت أهميته ، ودوره فى حياة المسلم فى الدنيا والآخرة .

كما خصصت الباب الأول للحديث عن تاريخ الحروب الصليبية وآثارها فى بلاد الشام ، وقسمته إلى فصلين ، تحدثت فى الفصل الأول : عن مراحل الصراع بين الإسلام والصليبية ، وأشرت إلى الأحداث الكبرى فى هذا الصراع ابتداء من سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وانتهاء بخروجهم من آخر بلاد الشام على يد الأشرف خليل سنة اثنتين وتسعين وستمائة للهجرة .

وتحدثت فى الفصل الثانى : عن الآثار الثقافية والإجتماعية التى خلفتها الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، فبينت أن الكُتَّاب المسلمين والشعراء كذلك استعملوا بعض الكلمات الأجنبية بسبب تأثرهم بالصليبيين، كما تأثرت بعض صورهم الشعرية بأجواء الحروب الصليبية .

ومن الآثار الاجتماعية التى خلفتها الحروب الصليبية ، كثرة الطرق الصوفية التى لجأ أصحابها إلى العبادة وابتعدوا عن الجهاد . ومنها كذلك تردى الأحوال الاقتصادية فى بلاد الشام عموماً ، وانتشار الرقيق والخمور ، وبينت أثر هذا على الشعراء آنذاك .

أما الباب الثانى فجعلته عن الشعر فى فترة الحروب الصليبية وقسمته إلى فصلين ، الأول منهما : عن الشعر بصفة عامة ، وظواهره الفنية . وقد تحدثت فيه عن أهم موضوعات الشعر التى كانت سائدة آنذاك ، وعن ظواهره الفنية المختلفة ، وقد تبين لى أن معظم شعراء هذه الفترة كانوا يثقلون أشعارهم بالمحسنات اللفظية التى تبعد الشعر عن غاياته الأساسية .

وتحدثت فى الفصل الثانى عن : شعر الجهاد من الناحيتين التاريخية والأدبية ، فبينت أن هذا الشعر واكب الحروب الصليبية منذ بدايتها وحتى نهايتها . وكان الشعراء يصفون أحداث هذه الحروب ، ويثيرون الحمية فى نفوس المجاهدين ، ويشجعونهم على استرداد بلادهم وطرد الغزاة منها . كما كان الشعراء يحملون على أمراء المسلمين الذين يتقاعسون عن الجهاد ، وتأدية الواجب الإسلامى فى الدفاع عن حرمات المسلمين .

وكان شعر الجهاد صادق العاطفة ، يعبر عن أحاسيس الأمة الإسلامية وتطلعاتها وآمالها . وقد تميز شعر الجهاد عن غيره بالجدية والالتزام ، فكان للشعراء هدف يسعون إليه ، وغاية نبيلة يرجون تحقيقها ، فارتفعوا بشعرهم لغة وأسلوباً ومعنى .

أما الباب الثالث فى هذه الرسالة ، فخصصته : لإجراء دراسة

تحليلية لشعر الجهاد فى فترة الحروب الصليبية ، وجعلت الفصل الأول منه ، فى الحديث عن موضوعات شعر الجهاد ، وذلك كى أعطى القارئ تصوراً واضحاً عن موضوعات هذا الشعر التى تختلف كلياً عن موضوعات الشعر الأخرى السائدة آنذاك .

وقد أوضحت فى هذه الدراسة بالتفصيل ، أن شعر الجهاد واكب الحروب الصليبية منذ بدايتها ، فدعا الشعراء إلى الجهاد ، ومدحوا القادة المسلمين ، ووصفوا المعارك وأحداثها ، ورثوا الشهداء .. إلخ .

وخصصت الفصل الثانى : لدراسة الظواهر الفنية لشعر الجهاد ، فتحدثت عن لغة الشعر وموسيقاه ، وبينت أن شعراء الجهاد كانت لديهم القدرة الكافية على استيعاب المعانى ، وصياغتها بلغة عربية فصيحة تتلاءم مع موضوع شعر الجهاد .

وتحدثت كذلك عن الصبغ البديعى (١) لشعر الجهاد ، وتبين لى أن شعراء الجهاد استخدموا بعض ألوان البديع وخاصة الجناس والطباق ، وقد ابتعدوا فى هذا الاستخدام عن التكلف والتقعر ، فجاء أكثر شعرهم جميلاً .

وكان ثالث العناصر الفنية التى تحدثت عنها ، هى الصورة الفنية فى شعر الجهاد ، والتى تشمل التشبيه والاستعارة ، وبينت الصور القديمة والجديدة التى استعملها شعراء الجهاد .

وتحدثت أخيراً عن نهج قصيدة الجهاد فى فترة الحروب الصليبية ، وتبين لى أن شعراء الجهاد لم يلتزموا بنهج القصيدة العربية القديمة ، وذلك أن طبيعة الموضوع الذى يتحدثون عنه يختلف تماماً عن الموضوعات الشعرية التى كان يتحدث عنها الأقدمون . كما أوضحت كذلك أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا وحدهم الذين ابتعدوا عن نهج القصيدة العربية القديمة .

---

(١) الأسلوب البديعى .

وقد اقتبس شعراء الجهاد بعض المعانى والصور من سابقيهم ، وخاصة المتنبى وأبو تمام ، ولكن كانت لهم بطبيعة الحال ذاتيتهم الخاصة فى صورهم ومعانيهم .

أما الباب الرابع والأخير ، فكان ترجمة لأهم شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية ، وقسمته إلى فصلين ، الأول منهما : ترجمت فيه لأربعة من أهم شعراء الحروب الصليبية وهم : ابن القيسرانى ، وابن منير الطرابلسى ، وأسامة بن منقذ ، والشهاب محمود الحلبى . وقد راعيت فى اختيار هذه التراجم ، أن تشمل فترة الحروب الصليبية ، لكى تكون الدراسة مستوفية لكل عناصرها .

وحيث إن الحروب الصليبية امتدت إلى مصر ، ووجهت بعض الحملات الصليبية إليها ، فقد شارك بعض الشعراء المصريين فى وصف أحداث هذه الحروب ، وخاصة ما وقع منها فى بلاد الشام ، وكان يدفعهم إلى هذه المشاركة شعورهم بالوحدة الإسلامية بين أقطار المسلمين كلها . ولهذا كان من تمام المنهج العلمى فى هذا البحث ، أن أترجم كذلك لأشهر الشعراء الذين شاركوا فى أحداث هذه الحروب من غير الشاميين . وقد ترجمت لشاعرين مصريين هما : ابن سناء الملك ، والملك الصالح طلائع بن رزيك ، وتحدثت عن منهجهما فى قصائدهما الجهادية .

دراسة المصادر :

اعتمدت فى إعداد هذه الرسالة على كثير من المصادر المتنوعة من مطبوعة ومخطوطة . وسوف أتحدث عن أهم المصادر التى اعتمدت عليها فى هذه الدراسة .

ويعتبر كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » للمؤرخ شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف : بأبى شامة المقدسى (ت ٦٦٥ هـ) فى مقدمة هذه المصادر ، إذ يعتبر هذا الكتاب تاريخاً دقيقاً لأهم فترات الحروب الصليبية التى شملت

الدولتين النورية والصلاحية ، وكان المؤلف دقيقاً فى ذكر التواريخ وإيراد الأحداث الهامة فى هذه الحروب .

وبالإضافة إلى الاستفادة التاريخية من هذا المؤلَّف القيم ، فقد اعتمدت عليه كذلك فى إيراد شعر أهم شاعرين تحدثا عن هذه الحروب وهما : ابن القيسرانى ، وابن منير الطرابلسى . إذ أورد كثيراً من قصائدهما فى مناسباتها الحربية .

أما كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » لمؤلفه عماد الدين محمد الأصفهانى الكاتب (ت ٥٩٧ هـ) فقد اعتمدت عليه كذلك فى تراجم أشهر شعراء الحروب الصليبية ، وإيراد بعض مقتطفات من أشعارهم ، ويعتبر هذا الكتاب من أوثق الكتب التى تتحدث عن شعراء تلك الفترة ، حيث إن المؤلف عاصر عدداً منهم ، وحرص على تدوين ما وصل إليه من أشعارهم .

وقد حرصت كثيراً على قراءة دواوين عدد من الشعراء للاستفادة من بعض القصائد فى دراسة شعر عصر الحروب الصليبية عامة ، ثم شعر الجهاد بصفة خاصة ، كديوان ابن الخياط ، وابن القيسرانى ، والأبيوردى وغيرهم .

وقد اعتمدت كثيراً على كتب التراجم ، فكنت أرجع إليها عند البحث عن ترجمة شخصية هامة ، من ذلك كتاب « وفيات الأعيان » لمؤلفه شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) وكتاب « الوافى بالوفيات » لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى (ت ٧٦٤ هـ) وكذلك كتاب الأعلام للزركلى ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة .

أما كتاب « معجم الأدباء » لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦ هـ) فقد كان من المصادر الهامة التى اعتمدت عليها فى الترجمة للأدباء بصفة خاصة ، إذا إن هذا الكتاب يعد من أهم المصادر وأوسعها فى بابه .

وكانت كتب التاريخ من المصادر الأساسية فى هذه الدراسة ، وذلك أن هذه الكتب بالإضافة إلى المعلومات التاريخية المتوافرة فيها عن فترة الحروب الصليبية .. تتضمن بعض القصائد أو الأبيات التى تتحدث عن أحداث الحروب الصليبية .

ومن هذه الكتب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، و « البداية والنهاية » لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) و « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ) .

وإضافة إلى المراجع التى ذكرتها ، فقد استفدت كذلك من الدراسات الأدبية القديمة والحديثة ، التى يجد القارئ لها ثبتاً تفصيلياً فى آخر هذه الرسالة .

والله أسأل أن يوفقنا لما فيه الخير ، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، إنه سميع مجيب .

المؤلف

* * *

تمهيد

١- لماذا حددنا الشام لدراسة شعر الجهاد؟

٢- فكرة الجهاد ومعناه في الإسلام

(أ) الشام وشعر الجهاد :

لماذا حددنا بيئة الشام لتكون مجال دراسة شعر الجهاد ؟

الواقع أن منطقة الشام كانت الهدف الرئيسى لغزوات الصليبيين ، لوجود بيت المقدس ، وكان النصارى يعتقدون أنهم آثمون إذا لم يقوموا باسترجاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وأنهم إذا ماتوا فى سبيل هذا الهدف فإنهم سيخلدون فى النعيم الدائم .

ونحن نلاحظ أن البابا إربان الثانى الذى شجع النصارى على قتال المسلمين ، ركز على ذكر بيت المقدس ، فقال لهم فى أثناء اجتماعه بهم فى مدينة كليرمون الفرنسية : « تقدموا إلى البيت المقدس ، انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهى تدر سمناً وعسلاً . إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ، وإن خذلتم فستقضون حيث مات يسوع فتخلدون فى النعيم الدائم . اذهبوا إلى القتال ، وسنرتب أموركم وأموالكم فى غيابكم ، سأغفر لكم ذنوبكم وخطاياكم بالقوة التى زودنى بها الله »[(١)] .

فهذا النص يدل دلالة واضحة على أن الهدف الرئيسى من تلك الحروب كان من أجل بيت المقدس .

ولقد كان النصارى يعتقدون أن المسيح لن يرضى عنهم إلا إذا أخذوا القبر المقدس من أيدى المسلمين ، وأنقذوا قبره من غير المؤمنين بدينه[(٢)] .

ولقد استجابت جموع غفيرة لدعوة البابا أربان الثانى ، ووعدوه بالرحيل إلى فلسطين ، وجعلوا شعارهم صليباً من القماش الأحمر يجعل فى الكتف[(٣)] .

ومما يؤكد أهمية بلاد الشام بالنسبة للصليبيين ، وحرصهم الشديد على أخذها من المسلمين ، ما ذكره ابن العينى عندما تحدث عن أعياد الفرنج فقال : « وفى أيام أعيادهم

(١) القدس ومعاركنا الكبرى ، ج ١ ص ٣٦٦ .
(٢) خطط الشام ، ج ١ ص ٢٤٨ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٤٩ .

وشعانينهم يخرج القساوسة والرهبان ومعهم أنواع الزينة والصلبان ، ويخرجون الأرغل وآلات الطرب ، ويغنى لهم ، ويذكر وقائع سلفهم مع العرب ، ويتأسفون على خروج ملك الشام عن أسلافهم ، ولهم فى ذلك وأمثاله أشعار يغنون بها »[١] .

ولقد عرّف بعض المؤرخين المحدثين الحروب الصليبية بقوله : « الحروب الصليبية عبارة عن الحملات العسكرية التى قامت بها أوروبا الصليبية خلال قرنين من الزمن ، قصد استخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين من جهة ، والحد من الزحف الإسلامى الذى أصبح يغزو العالم من جهة أخرى »[٢] .

أعود لأقول : إن الاستيلاء على الشام بصفة عامة ، وبيت المقدس على وجه الخصوص ، كان الهدف الرئيسى لغزوات الصليبيين ، وخروجهم من بلادهم وسنتحدث إن شاء الله بشىء من التفصيل عن حقيقة الدوافع التى جعلتهم يقومون بهذه الغزوات فى الباب القادم .

لا شك أن الصليبيين وجهوا بعض حملاتهم إلى مصر ، وحاولوا الاستيلاء عليها أكثر من مرة ، ولكنى أعتقد أن السبب وراء هذه الحملات كان اعتقادهم بأن الاستيلاء على مصر يغنى بالنسبة لهم الاستيلاء على بلاد الشام كلها ، وعدم حدوث مقاومة تذكر من قبل أهالى الشام ، وكان اعتقادهم هذا صحيحاً ، لأن مصر كانت تقف دائماً وراء الشام بكل ثقلها ، ولكن الله خيب آمالهم . فلم يحققوا فى مصر أى نصر يذكر ، وكان هذا من دواعى القضاء عليهم نهائياً ، وإخراجهم من بلاد الشام كلها .

سبب آخر جعلنى أخص بلاد الشام بدراسة شعر الجهاد الذى قيل فيها أثناء الحروب الصليبية ، وهو أن الشعر فى هذه المرحلة كان يواكب المعارك ، ويتحدث عنها بالتفصيل ، وكان الشعراء يتحدثون عن هذه المعارك ويصفون حال المسلمين ومشاعرهم ، ويصورون تطلعاتهم وآمالهم ، منذ بداية الحروب الصليبية وحتى نهايتها .

عندما شاع خبر مجىء الحروب الصليبية إلى بلاد الشام ، قال ابن الخياط قصيدة طويلة ، قدمها إلى عضب الدولة زعيم الجيوش ، حثه فيها على الجهاد ومقاومة الغزو الصليبى ، جاء فيها قوله :

---

(١) عقود الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مخطوط) ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) صلاح الدين بطل حطين ، ص ٥٩ .

أنوما على مثل هد الصَّفَاة وهزلا وقد أصبح الأمر جِدًّا
وكيف تنامون عن أعين وترتم فأسهرتموهن حِقدا
بنو الشرك لا ينكرون الفساد ولا يعرفون مع الجور قصدا
فحَامُوا عن دينكم والحرمِ محاماةَ من لا يرى الموت فَقْدا
وسُدُّوا الثغور بطعن النُّحُورِ فمن حَقِّ ثَغْرٍ بكم أن يُسَدَّا [1]

وعندما أخذ الإفرنج بيت المقدس ، سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، قال أبو المظفر الأبيوردى قصيدة باكية ، يتأسف على ضياع القدس ، ويحث المسلمين على استرجاعها ، مطلعها قوله :

مَزجْنا دماءً بالدموع السَّواجِم فلم يبق منا عُرْضةً للمَرَاجِم [2]

واشتدت المعارك بين المسلمين وأعدائهم فى زمن عماد الدين زنكى ، ثم ولده نور الدين محمود ، فلم يغفل الشعراء عن وصف هذه المعارك ، والإشادة ببطولة المجاهدين . فهذا ابن قسيم الحموى يمدح عماد الدين بعد معركة خاضها سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وانتصر فيها ، فقال ابن قسيم يمدحه ويصف فرار ملك الروم بقوله :

كَأَنك فِى العَجاجِ شهابُ نُورِ توَّقدَ وهو شيطانٌ رجِيم
أَراد بقاءَ مُهجَتِه فولَّى وليس سِوى الحِمام لَهُ حَمِيم
يُؤَمِّلُ أنْ تجودَ بِهَا عَلَيْهِ وأنْتَ بها وبالدُّنْيا كَرِيم
أَيلتَمِسُ الفِرنجَةُ مِنْكَ عفواً وأنْتَ بِقطْعِ دابِرها زَعِيم [3]

وهذا ابن منير الطرابلسى يحث نور الدين على مواصلة الجهاد ، وذلك بعد معركة خاضها سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وانتصر فيها فقال :

إِن الأُولى أَمِنوا وِقاعَك بَعْدَها غُرُّوا وقد ركبوا الأَغرَّ غُرورا
أَلقِ العصا فيمن أَطاعَ وَمَنْ عَصَى منهم وَدمِّرْ أرضَهم تدميرا [4]

(١) ديوان ابن الخياط ، ص ١٨٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥١ .
(٣) الروضتين ، ج ١ ص ٣٢ .
(٤) الروضتين ، ج ١ ص ٨٧ .

ويأتى بعد هؤلاء صلاح الدين الأيوبى ، ليحقق الله على يديه استرجاع بيت المقدس ، فيخلد الشعراء هذا الحدث العظيم ، ويذكرون صلاح الدين بكل خير ، ويلهجون بالثناء عليه ، والدعاء له ، إذ أعاد للمسلمين العزة والكرامة ، وحقق لهم النصر العظيم ، الذى كافحوا من أجله سنين عديدة .

ومن جملة هؤلاء الشعراء العماد الأصفهانى الذى مدح صلاح الدين وخلد هذا الانتصار بقصيدة طويلة قال فيها :

رأَيتُ صلَاح الدين أفضلَ من غدا ... وأشرفَ من أَضحى وأَكرمَ من أَمسى

وقيل لنا فِى الأَرْضِ سبعةُ أَبحر ... ولسنا نَرى إلَّا أَناملَه الخمسا

ومن قبل فتحِ القدسِ كنتَ مُقَدَّسا ... فلا عدمتْ أخلاقُك الطُّهرَ والقُدْسا

نزعتَ لِباس الكفر عن قُدْسِ أَرضها ... وأَلبستها الدينَ الذيِ كشف الملْبسا(١)

وتستمر الحروب الصليبية قرابة المائتى عام ، إلى أن يتمكن الأشرف خليل من طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ، ويذكر الشعراء تلك المعارك ويكون للأشرف نصيب وافر منها . فمن جملة مادحيه الشهاب محمود الحلبى ، الذى قال قصيدة طويلة بمناسبة استيلاء الأشرف على السواحل الشامية سنة إحدى وتسعين وستمائة مطلعها :

لك الرايةُ الغرَّاءُ يقدمُها النصر ... فمن كقيباذَ إن راما وكيخسرو

وفتحٌ أَتىَ فى إثر فتح كأَنَّما ... سماءٌ غدتْ تترى كواكبُها الزهْر

فكم وَطِئَتْ طوعاً وكرهاً مَعَاقلًا ... مضى الدَّهرُ عنها وهى عانسة بِكْر(٢)

... إلخ .

ومع أن شعراء الشام تحدثوا عن الحروب الصليبية منذ البداية حتى النهاية ، إلا أننا نلاحظ أن هناك شعراء من بلاد إسلامية أخرى شاركوا فى ذكر أحداث هذه الحروب ، بدافع شعورهم بالوحدة الإسلامية بين المسلمين ، ومن هؤلاء الملك الصالح طلائع بن رزيك ، ونجم الدين يوسف بن الحسين من مصر ، وأمين الدولة محمد بن عبد الله التعاويذى من العراق وغيرهم .

---

(١) معجم الأدباء ، ج ٧ ص ٨٨ .

(٢) المنتخب فى تاريخ حلب ، ص ٢١٠ .

(ب) فكرة الجهاد ومعناه فى الإسلام :

مكانة الجهاد فى الإسلام عظيمة جداً ، فقد جعل الله للمجاهدين فى سبيله أجراً عظيماً ، والذى لا يلبى نداء الجهاد بنفسه وماله لا يعد مسلماً ، وإنما هو فى عداد المنافقين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . أما غاية الجهاد فى الإسلام فهى : « هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه ، وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام فى مكانها ، واستبدالها بها » [١] .

والجهاد فى الإسلام فريضة على كل المسلمين رجالاً ونساء ، وذلك إذا هوجم المسلمون فى عقر دارهم ، لأن الإسلام لا يرضى لأتباعه المذلة والهوان . ولذا جاء الأمر للمسلمين بإعداد أسباب القوة والمنعة عند الجهاد فقال تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ...** ﴾ [٢] . والإسلام لا يعتمد فى الأمر بالجهاد على التشريع وحده ، بل يجمع بينه وبين التربية ، فهو إلى جانب الأوامر لا يغفل وازع الضمير الحى [٣] .

وقد مر الجهاد فى الإسلام بثلاثة أطوار :

الطور الأول : الإذن للمسلمين بالجهاد ، من غير إلزام لهم به ، قال الله تعالى :

﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ [٤] .

الطور الثانى : الأمر بقتال من قاتل المسلمين ، والكف عمن كف عنهم ، قال الله تعالى :

﴿ **وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [٥] .

---

(١) الجهاد فى سبيل الله ، ص ٣٥ .
(٢) سورة الأنفال آية : ٦٠ .
(٣) الجهاد فى الإسلام ، ص ٩٦ .
(٤) سورة الحج آية : ٣٩ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٩٠ .

أما **الطور الثالث** : فكان الأمر بجهاد المشركين كافة ، ليتحقق الخير لأهل الأرض كلهم ، وليزول دعاة الإلحاد والضلال عن طريق الدعوة الإسلامية ، قال الله تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله ...﴾ (١) .

وهذا آخر ما نزل في القرآن الكريم مما يتعلق بموضوع الجهاد ، ومات عليه الرسول ﷺ (٢) .

أما فضل الجهاد ، والدعوة إليه ، والحث عليه ، والترغيب فيه ، فقد ذكرها القرآن الكريم في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ ويُقْتلونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ والْقُرآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ﴾ (٣) .

وقال الله تعالى أيضاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتم تَعْلَمُونْ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤) .

وتنوعت كلمة الجهاد في القرآن ، فهي لم تقتصر على معنى الحرب والقتال فقط ، بل تعدى معناها ليشمل معاني جهاد النفس ، والصبر على الأذى في سبيل الله . يدل على هذا قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإِنَّ الله لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٣٩ .

(٢) فضل الجهاد والمجاهدين ، ص ٤٠ ، وزاد الميعاد ، ج ٢ ص ٦٤ .

(٣) سورة التوبة الآية : ١١١ .

(٤) سورة الصف الآيات : ١٠ - ١٣ .

(٥) سورة العنكبوت الآية : ٦٩ .

وقال تعالى : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (١) .

وما دمت قد تحدثت عن مكانة الجهاد فى الإسلام ، فإننى أؤكد أن المسلمين الأوائل فهموا حقيقة الجهاد ، وتمثل هذا الفهم فى حياتهم العملية ، ولذا نراهم آثروا الحياة الأخرى على الدنيا الفانية ، ولم تستطع زخارف الحياة أن تشدهم إليها ، فهذا النابغة الجعدى (٢) يخرج غازياً فى سبيل الله ، فتحاول زوجته أن تثنيه عن عزمه ، وتغريه بالبقاء إلى جانبها ، فليس لها غيره ، ولكنها تفشل فى ذلك ، ونراه يقول لها ، وكله عزم وإصرار :

باتتْ تُذَكِّرُنى بالله قاعِدةً ... والدَّمعُ يَنْهَلُ من شَأْنَيْهما سَبَلا
يا بنت عمى كتابُ الله أخرجنى ... كرها ، وهل أمنعنَّ الله ما فعلا
فإن رجعتُ فَرَبُّ النَّاسِ يرجعُنى ... وإن لحقتُ بربى فابْتَغِي بدلا
ما كنتُ أَعرجَ أَو أَعمى فَيعذُرَنِى ... أو ضارعاً من ضنىً لم يستطع حولا (٣)

واكب شعر الجهاد الفتوحات الإسلامية فى عصر صدر الإسلام ، وكان الشعراء يلهجون بوصف المعارك ، ويثيرون فى النفوس الحمية الإسلامية ويدفعونهم إلى الجهاد دفعاً .

وعندما انطلق المسلمون فى زمن عمر بن الخطاب ، الخليفة الثانى للمسلمين ، يفتحون البلاد شرقاً وغرباً ، ويحققون الانتصارات العظيمة على فارس والروم لم يغفل الشعراء عن وصف هذه المعارك وتصوير حياة المجاهدين ومشاعرهم ، كما أنهم أيضاً وصفوا أعداءهم ، ويُعَدُّ الشعر الذى قيل فى تلك الحروب وثيقة تاريخية هامة للعصور الإسلامية الأولى (٤) .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٥٢ .

(٢) هو عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة . أسلم فى زمن النبى ﷺ وعاش إلى عهد ابن الزبير ، وسمى بالنابغة لأنه قال الشعر فى الجاهلية ، ثم أقام نحو ثلاثين سنة لا يقول الشعر ، ثم نبغ فيه بعد ذلك فسمى بالنابغة .

(٣) الشعر والشعراء ، ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٤) شعر الفتوح الإسلامية ، ص ١٢٧ .

كانت معركة القادسية[1] من المعارك الكبرى فى تاريخ المسلمين ، وقد حشد لها عمر بن الخطاب خيرة فرسان المسلمين .

وقد أدى الشعر دوره كاملاً فى هذه المعركة ، فكان الشعراء يطوفون بين صفوف المقاتلين ، ويرغِّبونهم فى القتال ، ويحضونهم عليه .

فى اليوم الأول للمعركة برز غالب بن عبد الله الأسدى وهو يرتجز قائلاً :

قد علمت واردة المسالح ... ذات البنان واللبان الواضح
أَنى سمام البطل المشايح ... وفارج الأمر المهم الفادح[2]

فبرز إليه هرمز أحد أبطال الفرس فأسره غالب ، وخرج بعده من المسلمين عاصم ابن عمرو التميمى ، وهو يرتجز قائلاً :

قد علمت بيضاءُ صفراءُ اللَّببْ ... مثل الُّلجَيْن إذ تغشَّاه الذهب
أنى امرؤُ لا من يُعِينُه السبب ... مثلِي على مثلك يغريه العتب[3]

ولما انتهت المعركة بانتصار المسلمين ، وقتل رستم قائد جيشهم ، قال القعقاع بن عمرو :

نحن قتلنا معشرا وزائدا ... أَربعة وخمسة وواحدا
نحسب فوق اللَّبدِ الأساودا ... حتى إذا ماتوا دعوتُ جاهدا
الله ربى واحْتَرزتُ عامِدا[4]

وفى معركة نهاوند[5] التى تسمى فتح الفتوح ، لأنه لم يكن بعدها بين المسلمين والفرس حرب خطيرة ، انتصر المسلمون بفضل جهادهم وشجاعتهم ، فصور القعقاع ابن عمرو بلاء المسلمين وجهادهم فقال :

---

(١) اختلف المؤرخون فى تحديد سنة هذه المعركة ، والراجح أنها وقعت سنة خمس عشرة للهجرة . وانتصر فيها المسلمون على الفرس .

(٢) مروج الذهب ، ج ١ ص ٥٢٧ ، والطبرى ، ج ٤ ص ١١٧ .

(٣) مروج الذهب ، ج ١ ص ٥٢٧ ، والطبرى ، ج ٤ ص ١١٧ .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ١٣١ .

(٥) وقعت هذه المعركة سنة إحدى وعشرين للهجرة .

ونحنُ حبسنا فِي نَهاوِنْدَ خيلَنا ... لشر ليالٍ أُنتجت للأَعاجم
ملأنا شعابا فِي نهاوند منهم ... رجالًا وخيلا أُضرمت بالضرائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا ... فلم ينجه منها انفساخُ المخارم(1)

مما سبق نستطيع أن نؤكد أن الشعراء المسلمين كانوا على دراية تامة بما يدور حولهم من الأحداث ، وأنهم شاركوا - فى كثير من الأحيان - قولاً وعملاً فى الفتوحات الإسلامية ، واستطاعوا بهذه المشاركة دفع المجاهدين إلى القتال ، وتحقيق النصر على الأعداء .

ولهذا لا نستغرب أبداً إذا عرفنا أن الشعراء المسلمين فى فترة الحروب الصليبية نهجوا نهج أسلافهم ، فتحدثوا عن المعارك ، ووصفوا المجاهدين ودفعوهم إلى الجهاد ، كما وصفوا الأعداء أيضاً ، وحققوا بهذا العمل الجليل نفعاً عظيماً للأمة الإسلامية .

* * *

---

(1) معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣١٤ .

الباب الأول

الحروب الصليبية في بلاد الشام

تاريخها وآثارها

الفصل الأول

مراحل الصراع بين الإسلام والصليبية فى بلاد الشام

اتفق معظم الباحثين على تعريف الحروب الصليبية ، بأنها « حركة نبعت من الغرب الأوروبى المسيحى فى العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربى استعمارى على بلاد المسلمين ، وبخاصة فى الشرق الأدنى بقصد امتلاكها ، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى سادت غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين فى الشرق ضد المسلمين شعاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق »(١) .

ولقد كان الهدف من غزو الصليبيين للشرق الإسلامى احتلال بيت المقدس ، والحد من الزحف الإسلامى الذى كان يغزو العالم(٢) ، وقد اتخذت هذه الحركة الصبغة الدينية سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين(٣) .

وقد اتفق أكثر المؤرخين كذلك على الأسباب التى حملت الصليبيين على غزو الشرق الإسلامى ، وهى أسباب عديدة منها :

١ - الأسباب الدينية :

كان الحجاج النصارى الذين يفدون إلى بيت المقدس لزيارة قبر المسيح والأماكن المقدسة يلاقون معاملة طيبة من الحكام المسلمين ، فلما جاء التركمان وحكموا بيت المقدس ، عاملوا هؤلاء الزوار بجلافة وقسوة ، وقد تأثر البابا أربان الثانى URBAN II

---

(١) الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦ .

(٢) صلاح الدين بطل حطين . ص ٥٩ وتاريخ العصر الوسيط فى أوروبا ص ٨٤٢ .

(٣) الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص ١٠ .

بهذه المعاملة ولا سيما أنها صورت له أكثر من حقيقتها ، فقام بالدعوة إلى غزو بلاد المسلمين ، وأخذ بيت المقدس وقد اغتنم فرصة اجتماع المجمع الدينى العظيم ، الذى التأم فى مدينة كليرمون ، وحضرته ألوف من الفرسان ، ليحرض المؤمنين من النصارى على حمل الصليب ، لفتح القبر المقدس ، فوعده جمهور كبير من جميع طبقات الشعب أن يرحلوا إلى فلسطين (١) ووعدهم البابا بالغفران التام ، وتوعد كل من يمس أموالهم فى أثناء سفرهم .

وقد استغل بعض النصارى ضعف المسلمين آنذاك وتفرقهم ، فحاولوا إيقاظ الشعور العدائى عند النصارى تجاه المسلمين ، واتخذوا من الأماكن المقدسة هدفاً لهذه الدعوة (٢) .

٢ - الأسباب التجارية :

حرص تجار الغرب على إيجاد موانىء تجارية لهم فى بلاد الشرق على الساحلين الشرقى والجنوبى للبحر المتوسط ، كى تتصل أوروبا عن طريق هذه الموانى ببلاد المسلمين الشرقية ، فبذل هؤلاء التجار أموالاً طائلة للتشجيع على تلك الحروب والدعوة لها (٣) .

ومن الدلائل البارزة على تغلب العنصر التجارى عند المحاربين ، أنهم حينما احتلوا مدينة دمياط فى الحملة الخامسة ، عرض عليهم الملك الكامل أن يعطيهم بيت المقدس ، ومعظم مدن فلسطين ، مقابل تركهم لدمياط والسواحل المصرية ، ولكنهم رفضوا هذا العرض ، « ولو كان غرضهم دينياً فقط ما ترددوا فى قبوله ، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتصلة بأصول الديانة المسيحية ، وهى المدن التى قامت الحروب الصليبية من أجلها بادعاء المنادين لها » (٤) .

---

(١) خطط الشام ج ١ ص ٢٥٠ . وتاريخ العرب (مطول) ج ٢ص ٧٥٢ - ٧٥٣ .
(٢) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٥ ص ٤٠٧ .
(٣) المرجع نفسه ص ٤٠٨ وخطط الشام ج١ ص ٢٤٨ وقصة الحضارة ج ٤ ص ١١ .
(٤) كفاحنا ضد الغزاة : ص ٢١٢ والحركة الصليبية ج ١ ص ٢٨ - ٤٢ . والشرق الأوسط والحروب الصليبية ج ١ ص ٨٦ . والناصر صلاح الدين الأيوبى ص١٨ .

وقد كان السبب الرئيسى لهذا الرفض ، أن المدن الإيطالية التى شاركت فى هذه الحروب بدافع تجارى محض ، عز عليها أن تفقد هذا المرفأ الهام ، الذى تستطيع بواسطته إيصال تجارتها إلى داخل البلاد المصرية .

٣ - الأسباب السياسية :

كان السلاجقة الأتراك يحكمون بلاد الشام ، وقد ضايق الأمير السلجوقى برسق إمبراطور الروم ألكسيوس ، واضطره إلى أن يدفع جزية لسلطان المسلمين مقدارها ثلاثمائة ألف دينار سنوياً وثلاثون ألف دينار يأخذها هو كل عام كذلك[١] فأرسل الإمبراطور رسلاً إلى البابا إربان الثانى يطلب مساعدته بشكل عاجل ، وكان مما قاله للبابا فى رسالته : « إن من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسيا بدل أن تنتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربة الغربية »[٢] .

وفى سبيل توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سيطرته استجاب البابا لهذا الطلب ، ودعا إلى الحرب الصليبية ضد المسلمين[٣] .

٤ - الأوضاع الداخلية فى أوروبا :

كان النظام الإقطاعى سائداً فى أوروبا آنذاك ، وقد نتج عن هذا النظام وجود طبقة من الفرسان المحترفين الذين رغبوا فى إظهار بطولتهم على أرض جديدة لكسب المال والشهرة . كما أن النزاع المتواصل على الأراضى الزراعية تسبب فى تعطيل الزراعة ، فزاد الغلاء ، وحدثت المجاعات ، وقد دفعت هذه الأحوال المتردية الكثيرين إلى الهجرة إلى بلاد الشرق الغنية والمستقرة ، فشكل هؤلاء المهاجرون جانباً لا يستهان به من الجيش الصليبى المحتل ، ولا سيما فى بداية الحروب الصليبية[٤] .

انطلقت الدعوة إلى الحروب الصليبية من فرنسا ، وكان أول من دعا إلى هذه

---

(١) خطط الشام : ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢) قصة الحضارة : ج ٤ ص ١١ .

(٣) الدولة الإسلامية تاريخها وآثارها ص ٢٤٨ . وأثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية ص ١٧١ . ونور الدين محمود ص ٥٩ ، والحرب الصليبية الأولى ص ١٩ .

(٤) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية : ج ٥ ص ٤٠٧ ونور الدين محمود ص ٥٩٠ والحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ٩ .

الحروب البابا أربان الثانى فى خطاب ألقاه فى مجمع كليرمونت عاصمة إقليم أوفرن فى فرنسا فى شوال سنة ٤٨٨ هـ ، وكان أكثر المشتركين فى هذه الحرب - ولا سيما فى بدايتها - فرنسيين[1] . وكان مما قاله البابا محرضاً جمهور السامعين على قتال المسلمين : « أنتم هنا فقراء تعساء ، وهناك ستكونون سعداء ، يهبط عليكم الرخاء ، وأصحاباً مخلصين لله ، لا تأخير بعد اليوم ، لتكونوا على الأهبة للخروج للقتال عندما يبلغكم النداء ، وسيكون الله مرشدكم »[2] .

وأخذ بزمام الدعوة بعد البابا أربان الثانى « بطرس » الملقب بالناسك ، فأخذ يطوف البلاد الأوروبية على حماره يدعو لقتال المسلمين ، ويدعى أنه أراد زيارة الأماكن المقدسة فمنعه المسلمون ، وقال لسامعيه : إن المسيح على وشك النزول إلى الأرض ، وأنه لا ينبغى أن يعود إلا وقد استرد أتباعه بيت المقدس ، وتجمعت حوله أعداد كبيرة خرج بهم إلى بلاد المسلمين ، واستطاع المسلمون السلاجقة القضاء عليهم بسهولة[3] .

بدأ الإفرنج بالسير إلى بلاد المسلمين عام تسعين وأربعمائة للهجرة ، فعبروا خليج القسطنطينية ، ووصلوا بذلك إلى أوائل بلاد المسلمين . قال أبو يعلى فى كتابه « ذيل تاريخ دمشق » : « وفى هذه السنة كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الإفرنج من بحر القسطنطينية فى عالم لا يحصى عدده ، وتتابعت الأنباء بذلك ، فقلق الناس لسماعها ، وانزعجوا لاشتهارها ، وصحت الأخبار بذلك عند الملك داود بن سليمان ابن قتلمش ، وكان أقرب إليهم داراً ، فشرع فى الجمع والاحتشاد ، وإقامة مفروض الجهاد »[4] وكانت « نيقية » أول بلد فتحه الصليبيون ، ثم شرعوا بعد ذلك فى أخذ بلاد المسلمين الواحدة تلو الأخرى[5] .

حالة الشرق الإسلامى عند بداية الحروب الصليبية :

وجدت أنه من الضرورى إعطاء فكرة مبسطة عن أحوال المسلمين عند بداية الغزوات الصليبية ، وذلك كى تتضح الأسباب التى جعلت الصليبيين ينتصرون فى بداية

(١) الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ص ٧٠ والتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص ٤١٩.
(٢) نور الدين محمود : ص ٦٤ .
(٣) المرجع نفسه : ص ٦٤ .
(٤) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٢١٠ والكامل لابن الأثير ج١٠ ص ٢٧٢ .
(٥) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٦ .

هذه المعارك ، ويحتلون المسجد الأقصى دون مقاومة تذكر ، فقد كانت عوامل الضعف والانحلال تنخر فى جسم الأمة الإسلامية ، كما أن عوامل تفرق السلطة واختلافها كان من أقوى الأسباب التى أدت إلى هزيمة المسلمين . ففى بغداد كان مركز الخلافة العباسية السنية ، وقد سيطر الأتراك السلاجقة على الخليفة ، فكان كالدمية فى أيديهم ، واستطاعوا اقتسام مملكته بينهم ، ولم يكن له سوى السلطة الاسمية فقط . وفى القاهرة كان مركز الخلافة الفاطمية الشيعية ، وكانت هذه الخلافة ضعيفة جداً ، يدير الأمر فيها الوزراء والأمراء، ولا يسعون إلا فى مصالحهم الذاتية ، وكان الخلاف على أشده بين هاتين الخلافتين ، وسعى كل خليفة لأخذ ما يستطيعه من بلاد الآخر (١) ، وحتى داخل الخلافة نفسها كان هناك نزاع مستمر بين الأمراء .

فبلاد الشلام قبيل الحروب الصليبية كانت منقسمة على نفسها ، فدمشق يحكمها رضوان بن تتش بن ألب أرسلان ، وبيت المقدس يحكمه نعمان بن أرتق التركمانى ، وأنطاكية يحكمها باغسيان التركمانى (٢) ولم يكن لأحدهم علاقة بالآخر ، اللهم إلا علاقة العداء والكراهية ، ومحاولة الاستيلاء على أرض غيره .

ولم يكن نجاح الصليبيين فى بداية الأمر إلا بسبب تفكك المسلمين وحالة الفوضى التى كانت سائدة آنذاك ، والباحث فى تاريخ الحركة الصليبية بصفة عامة ، يتبين فى غير عسر ، أن ما أصابه الصليبيون من نجاح حربى كان فى الغالب على حساب ضعف الولايات الإسلامية وانقسامها وتفككها ، وأنه كلما تناسى المسلمون خلافاتهم واتحدوا كان ذلك بشيراً بتكتل إسلامى ، يعقبه حملات مضادة على الفرنج الدخلاء ، وإماراتهم فى الأراضى المقدسة (٣) وليس أدل على تفكك المسلمين وبعدهم عن منابع عقيدتهم ، مما ذكره ابن جبير فى رحلته ، من أنه شاهد المسلمين الواقعين تحت حكم الصليبيين يعاملون معاملة أفضل من معاملة المسلمين الواقعين تحت حكم إخوانهم المسلمين ، « وهذه الفجائع الطارئة على المسلمين ، أن يشتكى الصنف الإسلامى جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ، ويأنس بعدله ، فإلى الله المشتكى من هذه الحال » (٤) .

---

(١) الحرب والسلام ص ٧ والدولة الإسلامية - تاريخها وحضارتها ص ٢٥٣ .
(٢) الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص ٣ .
(٣) العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ١٩٠ ومدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٨ .
(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٧٥ .

الأحداث الكبرى فى تاريخ الحروب الصليبية :

دخل الصليبيون بيت المقدس يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان عام اثنين وتسعين وأربعمائة للهجرة بعد حصار طويل ، « وكان يحكمه افتخار الدولة ، وهو والٍ من قبل الفاطميين فى مصر » وقد فعل هؤلاء الغزاة بالمسلمين أفعالاً شنيعة ، دلت على مدى حقدهم الهائل على المسلمين .

قال ابن الأثير فى وصف المذبحة التى أحدثها الصليبيون : « وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان ، وجاور بذلك الموضع الشريف »(١) .

وقال روى ول ديورانت عن القس ريمند الأجيلى الذى حضر هذه المذبحة قوله : « وشاهدنا أشياء عجيبة ، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين ، وقتل غيرهم رمياً بالسهام ، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج ، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ثم أحرقوا بالنار ، وكنت ترى فى الشوارع أكوام الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل » .

وقد شاهد عيان آخر : « إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ، ويقذف بهم من فوق الأسوار أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد ، وذبح سبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا فى المدينة »(٢) .

وبلغ من حقد الصليبيين أنهم انطلقوا إلى المساجد والمنازل والشوارع يقتلون كل من يصادفهم دون تمييز(٣) .

« وقد ازداد خطر الصليبيين فى بلاد الشام ، وكثر استهتارهم بالمسلمين ، حتى أنهم حينما حاصروا حلب عام ثمانية عشر وخمسمائة قطعوا الأشجار ، ونبشوا قبور الموتى ، وكانوا يعمدون إلى من لم تنقطع أوصاله منهم فيربطونه فى حبل ، ويسحبونه أمام المسلمين ، قائلين لهم : هذا نبيكم ، وأحياناً هذا عليكم . وكانوا كذلك كلما أمسكوا

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ١٠ ص ٢٨٢ . وانظر المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج ٩ ص ١٠٨ .
(٢) قصة الحضارة ج ٤ م ٤ ص ٢٥ .
(٣) تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٤٠٤ .

بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره [1] . وقد استطاعوا - لضعف المسلمين - أن يفرضوا على كل بلد تجاورهم إتاوة في مقابل كف آذيتهم عنهم ، ثم أرسلوا إلى مدينة دمشق فاستعرضوا الرقيق الذين أخذوا من كل البلاد النصرانية ، وخيروهم بين البقاء عند أربابهم أو العودة إلى ديارهم ، فمن أحب البقاء تركوه ومن رغب فى العودة أعادوه » [2] .

استمر المسلمون على ضعفهم ، حتى ظهر عماد الدين زنكى ، فالتفوا حوله ، وثارت حميتهم ، واشتدت حماستهم للجهاد فى سبيل الله .

وكان عماد الدين أول زعيم مسلم قاد المسلمين إلى الجهاد ، وتحمل مسئولية المسلمين ، واستعادة ما سلب منهم ، وقد قام بهذه المهمة خير قيام [3] .

وكان إيمان عماد الدين بأهمية وحدة المسلمين عاملاً أساسياً فى نجاحه وقد بذل قصارى جهده ، لتحقيق هذه الوحدة التى وقف بعض الأمراء عقبة دون تحقيقها ، وقد كان هؤلاء يستنجدون بالصليبيين كلما أحسوا أن إماراتهم فى خطر ، وأن ملكهم على وشك الزوال [4] .

فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، اتجه عماد الدين إلى مدينة حلب لضمها إلى ملكه ، وذلك فى سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية ، وقد رحب به الحلبيون واعتبروه منقذهم من سيطرة الصليبيين ، وكان انضمام حلب إلى ملكه أولى الخطوات نحو تحقيق الوحدة الكبرى [5] .

بعد ذلك بدأ عماد الدين بمهاجمة الصليبيين ، فقام فى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة بحصار حصن بارين ، واستولى عليه . وكان هذا الحصن يشكل خطورة كبرى على المسلمين ، لأن أهله كانوا يقطعون الطرق ، وينهبون البلاد التى تجاورهم ، فأراح الله المسلمين من شرهم ، كما استطاع فى هذه السنة أيضاً أن يستولى على المعرة وكفر طاب [6] .

---

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٢٤ .
(٢) الروضتين ج ١ ص ٣٠ .
(٣) قيام الدولة الأيوبية فى مصر ص ٣٣ .
(٤) الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥٩ .
(٥) التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل ص ٣٨ .
(٦) الروضتين ، ج ١ ص ٣٤ .

وفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، حاصر عماد الدين مدينة الرها ، واستطاع أن يأخذها ، وكانت هذه المدينة معظمة عند النصارى ، فكان أخذها منهم نصراً عظيماً للمسلمين [١] .

واستطاع عماد الدين بهذه الانتصارات أن يكسر شوكة الصليبيين ، كما استطاع أن يعيد للمسلمين ثقتهم بأنفسهم ، ولكن الله عز وجل لم يمهله طويلاً ، واختصه بالشهادة ، إذ قتل فى الليلة الخامسة من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وهو يحاصر قلعة جعبر ، قتله أحد غلمانه [٢] « وقد كان زنكى من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً ، وكان شجاعاً مقداماً حازماً ، خضعت له ملوك الأطراف ، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية ، وأجود الملوك معاملة ، وأرفقهم بالعامة » [٣] .

بعد وفاة عماد الدين زنكى آل القسم الشرقى من دولته إلى ولده سيف الدين غازى ، والقسم الغربى منها إلى ولده نور الدين محمود ، وعاصمته مدينة حلب ، وقد كان نور الدين يتوقد حماسة وشجاعة ، وقد وضع نصب عينيه إخراج الصليبيين من بلاد الإسلام ، وأوقف حياته كلها على هذا الهدف النبيل .

« وقد ساعده على تحقيق أهدافه أن المشكلات التى كانت تعترض والده كالنزاع مع الخليفة ، أو الأكراد فى شمال العراق ، زالت عن طريقه ، لأن هذه المشكلات ارتبطت بالقسم الشرقى الواقع تحت حكم أخيه سيف الدين غازى ، ولذا استطاع أن يركز أعماله الحربية ضد الصليبيين [٤] .

بدأ نور الدين بتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين ، فقام فى سنة ست وأربعين وخمسمائة بحصار دمشق ، وكان فى أثناء الحصار يتجنب قتال المسلمين ، ويقول لجيشه : « لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدى بعضهم بعضاً ، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم فى مجاهدة المشركين » [٥] .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٣٦ والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج ١٠ ص ١١٢ .
(٢) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ص ٣٤١ .
(٣) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢١ ، وروض الناظر فى علم الأوائل والأواخر ص ٦٦ .
(٤) قيام الدولة الأيوبية فى مصر ص ٧١ .
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ .

ولما رأى حاكم دمشق مجير الدين آبق إصرار نور الدين على فتح دمشق طلب منه أن يجتمع إليه ، وعرض عليه أن يدخل فى طاعته على أن يبقيه حاكماً لدمشق ، فقبل ذلك .

ولكن حاكم دمشق عاد مرة أخرى يمد يد العون إلى الفرنج ، ويعطيهم الأموال ، ويسمح لهم بدخول البلد ، وقد كان تصرفه هذا دافعاً لنور الدين على إعادة المحاولة مرة أخرى عام تسعة وأربعين وخمسمائة ، واستطاع هذه المرة أن يستولى على دمشق وحقق بهذا أهم خطوة عسكرية خطاها المسلمون منذ بدأوا الجهاد حتى ذلك اليوم [1] ، وقد كان هذا العمل فاجعة كبرى للصليبيين ، لأن نور الدين كان يهاجمهم دائماً ، وينتصر عليهم قبل أن يستولى على دمشق قاعدة بلاد الشام ، فماذا سيكون مصيرهم الآن وقد استولى عليها ؟ وفوق هذا فقد كان حاكمها السابق مجير الدين يتعاون معهم ، ويدفع لهم مالاً كل سنة ، وتنازل لهم عن مدينة بانياس ، فكانوا يتخذونها قاعدة لهم للهجوم على المسلمين .

« وكان هدف نور الدين عندما أخذ دمشق أن يجعلها طريقاً له إلى بيت المقدس وبلاد الساحل التى بيد الصليبيين ليستعيدها منهم ، وما كان يستطيع هذا ودمشق فى يد حاكم ضعيف يتعاون مع أعدائه ، ويمدهم بالمساعدات » [2] .

وبعد أن استولى نور الدين على دمشق جد فى مهاجمة الصليبيين على حصن حارم سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، كما استولى على بانياس فى السنة التى تليها [3] . واستطاع بعد ذلك أن يستولى على دلوك ، وراوندان وعزاز وبزاعة وأرتاح ومعرة النعمان وأفامية وأنب وكفر طاب والبارة وغيرها من بلاد المسلمين الواقعة تحت حكم الصليبيين عدا بيت المقدس وبعض المدن الساحلية ، وبذلك اتصلت أملاكه من دجلة إلى نهر العاص فى الشام [4] .

اتجه نور الدين إلى الديار المصرية ، محاولاً ضمها إلى أملاكه ليحقق بذلك الوحدة

---

(١) نور الدين محمود ص ٢٤٤ .
(٢) مرآة الزمان ص ٢٢٠ ، والتاريخ الباهر ص ١٠٧ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ١٠٨ .
(٤) نور الدين محمود ص ٢٨٠ .

الكبرى بين بلاد المسلمين ، وجرت أولى محاولاته سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، عندما أرسل قائده شيركوه لمهاجمة مصر التى كان يتزعمها شاور الوزير المصرى ، وكان هذا يتعاون مع الصليبيين ، شأنه شأن بعض ضعاف الإيمان من أمراء الشام . ولم يستطع نور الدين أن يحقق هدفه فى هذه السنة ، لتدخل حاكم بيت المقدس الصليبى عندما استنجد به الوزير المصرى .

وقد تم توحيد البلدين سنة أربع وستين وخمسمائة فى المحاولة الثالثة التى أقدم عليها نور الدين ، ونجح فيها [1] . « وقد كان لدخول مصر فى دولة نور الدين دوى بعيد لا فى مملكة بيت المقدس وحدها بل فى الغرب الأوروبى كله » [2] .

وعندما تم لنور الدين ما أراد من توحيد البلاد الإسلامية ، اتجه ببصره إلى الهدف الأسمى وهو تحرير بيت المقدس ، ولا سيما أن مركز الصليبيين فى الشام كان قد ضعف كثيراً لاستيلائه على أكثر البلاد التى فى أيديهم ، ولموت كثير من خيرة فرسانهم فى المعارك الكثيرة التى خاضوها .

« حاول نور الدين بالاتفاق مع صلاح الدين الهجوم على بيت المقدس ولكن ظروفاً طارئة حالت دون ذلك ، ثم جاء موته لينهى بذلك أهم خطوة كان يحلم بها نور الدين ، وهى تحرير بيت المقدس » .

توفى نور الدين يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بعلة الخوانيق [3] ، وقد كان لموته « رجة عنيفة فى عالم الإسلام كله ، فوجم أهل الشام والجزيرة ومصر جميعاً وجوم الذاهلين ، وخرج الرجال والنساء فى دمشق يشيعون جثمان البطل العظيم ، والبلد يضج بالنحيب ، فقد كانت أمة العرب والإسلام تعرف أى رزء أصيبت به بموت ذلك العظيم الذى جمع رفق الأب الحانى ، ومهارة الإدارى القادر ، وإقدام البطل الذى لا يهاب الموت ، وإيمان الأتقياء الصالحين » [4] .

(بعد وفاة نور الدين محمود ، نشأت مشكلة كبرى هى اختلاف القائمين على

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٥٤ .
(٢) نور الدين محمود ص ٣١٩ .
(٣) تحفة الأنباء فى تاريخ حلب الشهباء ص ٦٣ والروضتين ج ١ ص ٢٢٨ .
(٤) نور الدين محمود ص ٣٥٧ .

الحكم فى البلاد الإسلامية الهامة ، فورث نور الدين الأول ولده الصالح إسماعيل ، وكان عمره عند وفاة أبيه أحد عشر عاماً ، وهو لصغر سنه لم يكن يصلح للحكم ولذا قام عمه سيف الدين غازى حاكم الموصل باحتلال بعض أملاكه كالجزيرة وحران والرها . وقام نزاع عنيف بين أقوى أمرائه شمس الدين بن الداية وشمس الدين محمد ، وسبب النزاع هو الخلاف على وصاية الصالح إسماعيل ، ونتج عن هذا النزاع أن احتل ابن الداية قلعة حلب ، وأمسك الآخر بالصالح إسماعيل الذى كان مقيماً فى دمشق آنذاك (١) .

فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين كان صلاح الدين الأيوبى يحكم مصر ، وليس له منازع فى حكمها ، ولما رأى ما آل إليه أمر المسلمين فى الشام ، وطمع الصليبيين فى الاستيلاء على ممتلكاتهم ، عزم على الخروج إليهم ، وتوحيد القوى الإسلامية بعد هذا التفكك الطارئ ، فخرج من مصر فى سنة سبعين وخمسمائة إلى دمشق ، فلما وصل إليها سلمها له نائبها شمس الدين ابن المقدام ، فاتجه بعد ذلك إلى حمص وحماة وأخذهما (٢) . ولما وصل إلى حلب قاومه حكامها مقاومة شديدة ، ولما شاهدوا إصراره على أخذها استعانوا بالحشاشين ، وطلبوا منهم قتل صلاح الدين ، ولما فشل هؤلاء فى مهمتهم ، أرسل الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس يطلبون مساعدته مقابل مبلغ كبير من المال ، وكان ريموند يدرك تماماً أهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب . لذلك أسرع ريموند الثالث إلى نجدة حلب والقيام بدور حامى الصالح إسماعيل بن نور الدين (٣) .

استطاع الحلبيون بالتحالف مع الصليبيين أن يمنعوا صلاح الدين من أخذ حلب فترة قصيرة من الزمن ، لكنه عاد مرة أخرى فاستطاع هزيمة الحلبيين ومن والاهم ، وأخذ مدينة حلب ، وتم له مراده من تحقيق الوحدة الإسلامية بين مصر والشام (٤) .

كان صلاح الدين يدرك تماماً أنه لا يمكنه القيام بعمل حاسم ضد الصليبيين إلا إذا أوجد وحدة كاملة بين أقطار المسلمين ، فقضى خمسة عشر عاماً يعمل على جمع

---

(١) مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ص ٣٠٦ .
(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٨٨ .
(٣) مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ص ٣٠٩ .
(٤) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٤٢ .

الشمل ، واستطاع بعد ذلك أن يكون جبهة إسلامية قوية تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً ، وكانت الخطوة المنطقية بعد هذه الوحدة هى القيام بهجوم شامل على الصليبيين لتخليص بيت المقدس من أيديهم » (١) .

كان صلاح الدين يحب الجهاد فى سبيل الله ، وقد نشأ على ذلك ، إذ تربى فى بلاط نور الدين ، وشاهد أكثر حروبه مع الصليبيين ، وكانت أمنيته أن يموت وهو يدافع عن المسلمين .

روى ابن شداد فى النوادر السلطانية أن صلاح الدين قال له يوماً : « أما أحكى لك شيئاً . قلت : بلى . قال : فى نفسى أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم ، أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » . قلت : ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يسير فى البحر العساكر ، وهو سور الإسلام ومنعته ، فلا ينبغى أن يخاطر بنفسه. فقال : أنا أستفتيك : ما أشرف الميتات ؟ فقلت : الموت فى سبيل الله . فقال : غاية ما فى البال أن أموت أشرف الميتات » (٢) .

كان لدى صلاح الدين اقتناع تام بوجوب القضاء على الوجود الصليبى فى بلاد المسلمين ، وقد وصل إلى هذا الاقتناع عن رضى واختيار ، وكان بإمكانه أن يعيش فى دعة وأمن واستقرار لا سيما وهو يحكم مصر والسودان واليمن وهى بلاد غنية جداً ، ولكنه رفض هذه الحياة وفضل حياة الجهاد ، ولم تكن له أهداف شخصية إنما كان الجهاد هدفه . « إن مفتاح شخصية صلاح الدين هو أنه كان مسلماً صادق الإسلام ، والمسلم الحقيقى لا يطيق احتلال الصليبيين لبيت المقدس وتدنيس أولى القبلتين وثالث الحرمين » (٣) .

وبعد أن انتهى صلاح الدين من توحيد البلاد الإسلامية ، اتجه إلى حرب

---

(١) قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ص ٨٤ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٢٣ .
(٣) تأملات فى الاحتلالين الصليبى والصهيونى ص ١٠٩ . وانظر كذلك فى تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٥٨ .

الصليبيين ، وقد كانت محاولة البرنس أرناط صاحب حصن الكرك الاستيلاء على مكة والمدينة ، دافعاً قوياً لصلاح الدين للتعجيل باتخاذ خطوات حاسمة ضد الصليبيين[1] ففى أول محرم من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة جهز صلاح الدين جيشاً تعداده اثنا عشر ألفاً ، وخرج إلى الأردن لملاقاة الصليبيين فجمعوا له جيشاً قوامه خمسون ألفاً ، والتقى الجيشان فى مكان قرب طبرية يقال له حطين ، « وعسكروا فى مكان قرب نبع صفورية ، وهذا المكان اشتهر بكثرة مائه ، وتوافر الطعام فيه ، أما صلاح الدين فعسكر جنوب بحيرة طبرية حيث الماء المتوافر والمرعى والمؤن » .

حاول صلاح الدين جر الصليبيين إلى مكان آخر لا يتوافر لهم فيه الماء والمرعى . فقام بهجوم على طبرية ليجبرهم على ترك مكانهم ، واستطاع فتح المدينة ، ثم بدأ بحصار قلعتها ، وكانت تسكنها زوجة ريموند أحد قادة الصليبيين .

ولما علم الصليبيون بما فعله صلاح الدين أسرعوا بترك مكانهم ، والتوجه ناحية صلاح الدين ، وبهذا نجحت الخطة التى رسمها للإيقاع بهم .

وصل الجيش الصليبى قرب طبرية وهو منهك من التعب ، بالإضافة إلى أن المكان الذى عسكروا فيه لم يكن فيه ماء . ولما كان الجو حاراً فقد اجتمع عليهم حرارة الجو وحرارة العطش والتعب الشديد[2] .

بدأت المعركة فى صبيحة يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، واستطاع المسلمون بفضل تصميمهم على الجهاد وبفضل الخطة الحربية الذكية التى رسمها صلاح الدين أن ينتصروا على الصليبيين ، ويأسروا ملك بيت المقدس ، وعدداً كبيراً من فرسانه ، « وقد كانت حطين أعظم من مجرد نصر حربى أحرزه المسلمون ، لقد كانت فى حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين فى القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم فى العصور الوسطى »[3] ، وقد وصفها المقدسى فى كتابه الروضتين فقال : « غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسى مقدمة ، ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة »[4] .

---

(١) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٦ . ومرآة الزمان ج ٨ قسم ١ ص ٣٦٩ .
(٢) الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص٨٣٠ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٤ .
(٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٠٦ .
(٤) الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

وقد بلغ عدد الأسرى فى هذه المعركة ثلاثين ألفاً والقتلى مثلهم (1) .

وقد أجمع المؤرخون على أن هذه المعركة كانت مقدمة لفتح بيت المقدس ، لأن الصليبيين جمعوا فيها خيرة فرسانهم ، ولم يكن لديهم عدد آخر يستطيع مجابهة صلاح الدين الذى قام بعمل حاسم لفتح بيت المقدس فى تلك السنة أيضاً (2) .

فتح بيت المقدس :

بعد أن انتهى صلاح الدين من فتح عسقلان وما جاورها من بلاد الساحل ، اتجه إلى بيت المقدس ، وكان ذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وقد استعد الصليبيون للقتال ، وتجمع لديهم جيش عظيم ، لأن كل من انهزم من نواحى بيت المقدس لجأ إليهم ، وكان كل منهم يرى أن « الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ، ويأخذوه منهم ، ويرى بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه » (3) وقد بذل الصليبيون كل ما يمكنهم بذله للدفاع عن بيت المقدس ، أما صلاح الدين فحاصر البلد من الناحية الشمالية لأنها أضعف نواحى المدينة ، وفى العشرين من رجب من تلك السنة نصب المجانيق ، وعندما تقابل جيش الإسلام وجيش الكفر تقاتلوا قتالاً عنيفاً لأن كل منهم يرى الدفاع عن المدينة واجباً لا يمكن التهاون فيه (4) .

ولما رأى الصليبيون ضعفهم وقوة خصمهم وأنهم على وشك الهزيمة أرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون الأمان ، فأجابهم بقوله : « لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها » (5) . وبعد محاولات جادة من قبل الصليبيين وافق صلاح الدين على إعطائهم الأمان ، مقابل فدية يدفعها كل منهم ، وتسلم المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب » (6) .

كان لتسامح صلاح الدين وأخلاقه الفاضلة عندما فتح بيت المقدس أثر كبير على

---

(1) الأنس الجليل ج ١ ص ٣٢٠ .
(2) الدولة الإسلامية ص ٢٦٦ .
(3) الكامل ج ١١ ص ٥٤٦ .
(4) الروضتين ج ٢ ص ٩٢ .
(5) الكامل ج ١١ ص ٥٤٧ .
(6) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨ . وغيرها من كتب التاريخ .

الصليبيين ، وقد امتدحه مؤرخوهم ، وأثنوا عليه كثيراً ، فقال رنسمان : « الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمانٍ وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه . إذ صار رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب ، يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين »(١) « والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين فى الحملة الصليبية الأولى »(٢) .

وذكر ديورانت أن صلاح الدين عندما أقبل على بيت المقدس ، أعطى الإفرنج فرصة كافية لتحصين المدينة ، كما عرض عليهم أن يزرعوا الأراضى التى حول المدينة إلى خمسة عشر ميلاً ، ووعدهم ألا يتعرض لمزروعاتهم ، وفوق هذا عندما أخذ المدينة أطلق سراح سبعة آلاف أسير من الفقراء دون فدية ، وهذا ما لم يفعله الصليبيون عندما احتلوا بيت المقدس سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة(٣) .

أصاب النصارى فى أوروبا روع عظيم عند سماعهم بأخذ المسلمين لبيت المقدس ، وقد كان للحملة الهائلة التى قام بها رجال الدين عندهم أثر كبير فى زيادة حماستهم لاسترجاع بيت المقدس ، فقد صور هؤلاء المسيح عليه الصلاة والسلام مع صورة رجل عربى يضربه ، وجعلوا الدماء على صورة المسيح ، وأوهموا النصارى أن المسيح قد قتله محمد ﷺ ، فعظم هذا الأمر عليهم ، وحشدوا كل رجالهم وحتى بعض نسائهم وخرجوا إلى ديار المسلمين للقتال(٤) .

خرج على رأس تلك الجموع ثلاثة ملوك هم : ملك فرنسا وملك ألمانيا وملك انجلترا ، واتجهوا إلى مدينة عكا لأخذها ، وسار إليهم السلطان صلاح الدين وبدأ بقتالهم فى أول شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وقد دارت بين المسلمين وأعدائهم معارك هائلة مات فيها عدد كبير من الطرفين وانتهت باستيلاء الصليبيين على المدينة نظراً لكثرتهم وتوالى الإمدادات إليهم من البر والبحر(٥) .

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ٧٥٢ .
(٢) المرجع نفسه ٢٩٠ ص ٧٥٣ .
(٣) قصة الحضارة ، ج ٤ ، م ٤ ص ٣٧ .
(٤) الكامل ، ج ١٢ ص ٣٣ .
(٥) الكامل ، ج ١٢ ص ٣٢ وما بعدها .

اتجه الصليبيون بعد ذلك إلى بيت المقدس ، وكان السلطان صلاح الدين قد أخذ كل الاحتياطات اللازمة لحماية المدينة المقدسة ، وجمع قادة جيشه ، وخطب فيهم قائلاً : « الحمد لله والسلام على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم فى ذممكم معلقة ، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم ، وأن هذا العدو ليس من المسلمين من يلقاه من العباد والبلاد غيركم ، فإن وليتم والعياذ بالله طوى البلاد ، وأهلك العباد ، وأخذ الأموال والأطفال والنساء ، وعبد الصليب فى المساجد ، وعزل القرآن والصلاة وكان ذلك كله فى ذممكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله ، وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم ، وتنصروا ضعيفهم ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام »[١] وبعد هذه الكلمة وعده قادة جيشه بالقتال حتى الموت .

ومن لطف الله بالمسلمين أن وقع خلاف حاد بين قادة الصليبيين ، إذ أصر ملك انجلترا على العودة إلى بلاده نظراً لقلة الماء ، وخوفه من هلاك جيشه ، وعلى هذا فقد عقد الصليبيون هدنة مع صلاح الدين على أن يقرهم على البلاد الساحلية التى بأيديهم ، وله ما يقابلها من البلاد الجبلية ، وتم الأمر على هذا وعاد السلطان إلى دمشق بعد غياب دام أربع سنين[٢] .

لم يعش صلاح الدين طويلاً بعد عودته إلى دمشق ، إذ توفى بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة[٣] ، وقد حزن المسلمون لوفاته حزناً عظيماً .

ذكر المقدسى فى كتابه الروضتين : إن يوم وفاة صلاح الدين « كان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى »[٤] وعندما أخرجوه للدفن ورآه الناس « عظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً ، وغشى الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة ، وصلى عليه الناس أرسالاً »[٥] .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ٣٤٧ .
(٢) البداية والنهاية ، ح ١٢ ص ٣٤٨ .
(٣) درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ص ١٩٠ .
(٤) الروضتين ، ج ٢ ص ٢١٣ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢١٣ .

كان حزن الناس على وفاة صلاح الدين حزناً حقيقياً نابعاً من القلوب ، ذلك أنه حقق للمسلمين أعظم نصر فى تاريخ الحروب الصليبية ، وهو إخراج النصارى من بيت المقدس ، كما استطاع كذلك بانتصاراته المتعددة عليهم أن يهيئ لمن بعده فرصة سهلة لإخراجهم من بلاد المسلمين .

وكان رحمه الله محباً للجهاد ، عادلاً فى رعيته ، حريصاً على كل شئونهم .

ومع أن حكمه امتد إلى الشام ومصر واليمن والجزيرة ، فإنه كان زاهداً فى متع الحياة ، حتى إنه لم يخلف بعد وفاته إلا سبعة وأربعين درهماً وجراماً واحداً من الذهب وليس له أى شيء من أنواع الأملاك (١) .

بعد وفاة صلاح الدين تولى الحكم من بعده أبناؤه الثلاثة ، وحصل بينهم نزاع وحروب ، كل يطمع فى أملاك الآخرين ، واستطاع الملك العادل أخو صلاح الدين بدهائه وحكمته أن ينزع الملك منهم ويستولى عليه وحده ليصبح بعد ذلك حاكماً بمصر والشام وغيرهما دون منازع . ولم يكن له دور بارز ضد الصليبيين ، إذ كان جل اهتمامه منصرفاً إلى توحيد البلاد الإسلامية تحت سيطرته (٢) .

وبعد وفاة العادل ، تولى الحكم أبناؤه الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف ، وكالعادة وقع نزاع شديد بينهم ، وكانت الخطورة فى هذا النزاع استنجاد الملك الكامل حاكم مصر بالملك فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية ضد أخيه المعظم حاكم دمشق ، وقد تعهد الكامل للخليفة الصليبى بإعطائه بيت المقدس وجميع البلدان الساحلية التى أخذها صلاح الدين مقابل مساعدته . ومع أن الكامل لم يعد بحاجة فيما بعد إلى تلك المساعدة نظراً لوفاة أخيه المعظم ، إلا أنه وفَّى بوعده وسلم بيت المقدس والناصر وبيت لحم وصيدا وتبنين للملك فردريك الثانى ، وشَرَط عليه أن يبقى الحرم بأيدى المسلمين (٣) .

وهكذا نلاحظ أن المسلمين كلما اتفقوا وتوحدت كلمتهم وأخلصوا نياتهم انتصروا على أعدائهم ، وكلما تفرقوا وتباعدوا وجعلوا الحكم هدفهم ضعفوا وانهزموا وأُخذت ممتلكاتهم ومقدساتهم .

---

(١) خطط الشام ، ج ٢ ص ٦٢ .
(٢) مصر فى العصور الوسطى ص ٣٣٥ وما بعدها .
(٣) مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦٤ .

وقد بقى بيت المقدس فى أيدى الصليبيين حتى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، حينما اتفق الملك الصالح أيوب حاكم مصر مع الخوارزمية على مهاجمة الصليبيين وأخذ بيت المقدس . وقد نجحت خطتهم وأعادوا القدس تحت السيادة الإسلامية مرة أخرى [(١)] .

استمرت أوضاع المسلمين مع الصليبيين فى ضعف وتهاون ، حتى جاء الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، فاستطاع بفضل الله وتوفيقه ، ثم بعزمه على الجهاد ، أن يطهر البلاد الإسلامية من رجس الصليبيين [(٢)] .

تولى الملك الظاهر على مصر فى السابع عشر من ذى الحجة سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة . وقد اتسمت سياسته مع الصليبيين بطابع العنف والقسوة ، ويعود السبب فى ذلك أن الصليبيين تعاونوا مع المغول ضد المماليك [(٣)] .

قام الظاهر بأعمال عنيفة ضد الصليبيين ، إذ استولى على مدينة صفد فى الثامن عشر من شوال سنة أربع وستين وستمائة ، وقتل كل مقاتليها ، وسبى نساءهم وأخذ أموالهم ، ثم أرسل جيشه يميناً ويساراً ، فأخذ ما يقرب من عشرين حصناً ، كما استولى على مدينة سيس ، وقتل أكثر سكانها انتقاماً منهم لمساعدتهم التتار ضد المسلمين . وفى سنة ست وستين وستمائة استولى على مدن يافا وطرابلس وأنطاكية وحصن الشقيف وقلعة بغراس ثم عاد إلى دمشق [(٤)] .

كان استيلاء الظاهر على أنطاكية ضربة قاصمة للصليبيين ، ذلك أنها أول إمارة صليبية أُسست فى الحملة الأولى ، وكان سقوطها إيذاناً بانهيار البناء الصليبى فى الشام وإعلاناً لحركة الجهاد التى شنها السلاطين المماليك ضد الصليبيين ، وهى الحركة التى لم تنته إلا سنة ١٢٩١ بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام [(٥)] .

كانت نهاية الصليبيين فى بلاد الشام على يد الملك الأشرف خليل ابن المنصور قلاوون ، ففى سنة تسعين وستمائة جمع عساكر الشام ومصر وحاصروا مدينة عكا واستطاع فتحها عنوة وأخذ أموالها وقتل عدداً كبيراً من رجالها . وفى السنة نفسها أخذ

---

(١) مصر فى العصور الوسطى ص ٣٧٧ .
(٢) عقود الجمان ، ج ٢ ص ٢٥٤ .
(٣) قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ص ٢٢٢ .
(٤) البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٤٦ وما بعدها ، ودرة الأسلاك فى دولة الأتراك ج ١ ص ٦٩ .
(٥) الظاهر بيبرس ، ص ٧٢ .

صور وصيدا ، وبذلك أصبح الساحل كله بيد المسلمين ، كما أخذ كذلك بيروت وأنطرسوس وجبيل [1] . وفى سنة اثنتين وتسعين وستمائة أكمل الأشرف أخذ بعض المدن من الصليبيين ، فاستولى على بهنسا من الأرمن ، وباستيلائه على تلك المدن وخاصة عكا انتهت دولة الصليبيين فى بلاد الشام [2] . « وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوربى ، وطُرد من عكا آخر جندى صليبى بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير ، بدأه عماد الدين زنكى ، وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير: نور الدين محمود ، وصلاح الدين ، وبيبرس ، وقلاوون ، ثم كان التطهير على يد الأشرف خليل بن قلاوون » [3] .

وإذا أردنا أن نستعرض فى نهاية هذا الباب النتائج التى حققتها الحروب الصليبية وجدنا أنها أخفقت إخفاقاً تاماً ، فالصليبيون لم يحققوا أى غرض من أغراضهم ، فالقدس عادت إلى أيدى المسلمين ، والثغور الإسلامية كلها أصبحت بأيد إسلامية ، ولم يبق للصليبيين أى ميناء فى بلاد الشام يستقبل تجارتهم ، كما أن الحكام المسلمين بسبب الهجمات المتكررة على بلادهم من الصليبيين لم يعودوا يتسامحون معهم ، وعاملوهم بعنف . وهكذا « أثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية فى رقتها وأسباب راحتها وتعليمها وأساليبها الحربية » [4] .

والواقع أن حماسة المسلمين وإيثارهم مصلحة الإسلام على مصالحهم الشخصية ، وحبهم للجهاد ، ورغبتهم فى إخراج الصليبيين من بلادهم ، والتفافهم حول القادة المصلحين الذين قادوهم إلى الجهاد ، كل هذه الأمور جعلت أهداف الصليبيين تخفق بشكل تام ، ونحن لاحظنا أنه كلما تناسى المسلمون خلافاتهم وأخلصوا أعمالهم لله ، كلما حققوا انتصارات باهرة على أعدائهم ، وأنهم كذلك كلما تفرقوا واختلفوا حَلَّ بهم الدمار ، وأخذت ممتلكاتهم . كما لاحظنا أيضاً وجود سلبيات من بعض الحكام فى بداية الحروب الصليبية وفى أثنائها ، ولكن تصميم القادة الكبار المخلصين على الجهاد والتضحية كان يقضى على تلك السلبيات ، وحقق فى النهاية النصر الكامل على الصليبيين .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٢٠ ، وخطط الشام ، ج ٢ ص ١٢٣ .
(٢) مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ص ٢٦٦ .
(٣) تاريخ مصر الإسلامية ، ج ٢ ص ٢٤٠ .
(٤) قصة الحضارة ، ج ٤ مجلد ٤ ص ٦١ ، وانظر العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٣٦٢ .

الفصل الثانى

الآثار الثقافية والاجتماعية للحروب الصليبية

تركت الحروب الصليبية التى جرت فى البلاد الإسلامية آثاراً بعيدة المدى على الشعوب الإسلامية ، ثقافية واجتماعية ونفسية ، فهذه الحروب لم تكن مجرد كر وفر ، وقتال ودماء ، ومعارك ونزال ، فالصليبيون الذين يضمون أجناساً شتى يؤمن أكثرها بالمسيحية طال مقامهم فى بلاد المسلمين سنوات طويلة ، وكان بعضهم مقيماً بصفة مؤقتة ، ولكن الغالبية العظمى منهم استقروا فى بلادنا ، وخالطوا أهلها ، وتأثروا بهم وأثروا فيهم .

وما من شك فى أن دراستنا لشعر الجهاد إبان الحروب الصليبية دفعتنا إلى دراسة مراحل الصراع السياسى والعسكرى تدفعنا أيضاً إلى ملاحظة الآثار الاجتماعية والثقافية التى تؤثر فى الشعراء وشعر الجهاد فى العصر الذى نتحدث عنه .

(أ) الأثر الثقافى :

استعمل الكُتَّاب المسلمون نتيجة للاحتكاك بالصليبيين بعض الكلمات الأجنبية فى كتاباتهم ، ونجد مثالاً لذلك عند ابن شداد فى كتابه « النوادر السلطانية » عندما تحدث عن الصلح الذى وقع بين المسلمين والإفرنج فى عصر صلاح الدين ، عندما حاصر الإفرنج مدينة عكا ، واتفقوا على ترك المسلمين يخرجون من المدينة دون أذى ، مقابل فدية تدفع لهم ، وأن هذه الفدية « تدفع فى تروم ثلاثة ، كل ترم شهر »[1] . والترم كلمة إنجليزية تعنى الفصل ، أما المقريزى فقد استعمل كلمة « القومص » وهى كلمة لاتينية ، وقصد بالقومص الكونت رايموند الثالث حاكم طرابلس[2] . كما

(١) النوادر السطانية ، ص ١٧٣ .

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٩٢ .

استعمل بعض الكلمات الأخرى كقوله عن لويس التاسع ملك فرنسا : « وكان هذا ريد أفرنس من أعظم ملوك الفرنجة ، وأشدهم بأساً . وأفرنس هى أمة من الفرنج ومعنى ريد أفرنس ملك أفرنس ، فإن ريد فى لغتهم معناها ملك »[1] .

ومن الكلمات الشائعة فى كتابات المؤرخين القدامى كلمة البرنس بمعنى الأمير ، ذكرها سبط بن الجوزى فى حديثه عن أحداث سنة أربع وأربعين وخمسمائة عندما خرج نور الدين قاصداً أنطاكية « فخرج إليه البرنس وكانت بينهم وقعة عظيمة كسرهم نور الدين الكسرة المشهورة وقتل من جنودهم ألفاً وخمسمائة وأسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل رأسه إلى نور الدين »[2] .

ومن الكلمات التى استعملها ابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » كلمة : « سير » بمعنى السيد عندما قال : « وتم فى سنة ثمانٍ وثمانين وستمائة فتح طرابلس ، وهو أن صاحب طرابلس كان قد وقع بينه وبين سير تلمية الفرنجى وكان من أصحاب صاحب الحصن الذى أخربه صاحب طرابلس رضاء للملك المنصور قلاوون »[3] .

ومن الملاحظ أن هناك كلمات أجنبية أوردها بعض المؤرخين المسلمين محرفة بعض الشىء إلى العربية كقولهم : « الكند والأمبرور والإنكتار » ويعنون بها الكونت والإمبراطورية والإنجليز[4] .

ومثل هذه الكلمات الأعجمية التى تسربت إلى لغة الكتابة فى هذا العصر ، نجد لها صدى فى شعر الجهاد أيضاً ، حين يتحدث الشعراء عن أعدائهم من الصليبيين وهى مظهر للتغير الثقافى وإن لم يكن كبير الأثر ، إلا أنه ينبغى أن يوضح لشبهه القريب بما حدث من غزو الكلمات الأعجمية وخاصة الفارسية إبان التقاء اللغة العربية باللغات المحلية فى البلاد المفتوحة ، عقب حركة الفتوح الإسلامية ، وقد نبه الجاحظ فى « البيان والتبيين » على كثير من هذه الكلمات التى تسربت إلى لغتنا العربية فى لغة التخاطب والكتابة .

---

(١) المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ٦٢ .
(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٠١ .
(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٠ .
(٤) الحروب والسلام ص ١٩٢ .

وردت بعض الكلمات الأجنبية فى شعر الجهاد كقول ابن منير الطرابلسى فى قصيدة له يمدح فيها نور الدين ويذكر بعض وقائعه فقال فيها :

فَبرنسْتَ البرنسَ لفاعَ خُفٍّ وجَرَّعَ مر جوسِك جوسلين[(١)]

وقد وردت كلمة « البرنس » فى قصائد أخرى لابن منير ، منها قصيدته التى قالها بمناسبة فتح عزاز والتى جاء فيها قوله :

تبرنسَ منها البرنسُ الثيابَ وحلته من وَقْعِ أخلابِها[(٢)]

ولم يكن ابن منير وحده الذى يورد مثل هذه الكلمات إذ شابهه فى ذلك ابن القيسرانى ، حيث استعمل كلمة « القومص » فى بعض قصائده فقال :

كما أهدتِ الأَقدارُ للقمصِ أسرَهُ وأَسعدَ قرن مَنْ حواهُ لَكَ الأَسْرُ
طَغى وبَغى عدواً على غلْوائِه فأُوبَقَهُ الكفران عدواهُ والكفرُ[(٣)]

وبالإضافة إلى استعمال شعراء هذه الفترة لبعض الكلمات الأعجمية فى أشعارهم ، فقد أكثروا من استخدام ألفاظ « الكفر ، والشرك ، والصليب » فى صورهم الشعرية .

شبه العماد الأصفهانى الكفر بالإنسان الذى يعض يديه بحسرة ومرارة من شدة الندم على إهماله وتفريطه ، وهو يرى الإسلام ينتصر ويعظم فقال فى ذلك :

واهْتَزَّ عِطفُ الإسلام مِنْ جَذَلٍ وافترَّ ثغرُ الإيمانِ وابتسمَا
واستبشرتْ أوجهُ الهدى فَرَحاً فَلْيَقْرعِ الكفرُ سِنَّه نَدَما[(٤)]

وعندما أراد عمارة اليمنى أن يعبر عن ذلة المشركين وهوانهم ، جعل الشرك كالإنسان الذى يطأطئ رأسه خجلاً وخزياً مما يرى من هوانه ، وقلة شأنه ، أمام عظمة خصمه ، وهو الإسلام . فقال فى ذلك :

غَزوا عُقْر دار المشركين بغزة جِهاراً وطرفُ الشِّرك خزيانُ مُطْرِقُ[(٥)]

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٨٢ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٧١ .
(٣) الكامل (١١ -١٥٤) .
(٤) الروضتين ١ - ١٩٥ .
(٥) الروضتين ١ - ١٩٣ .

أما مجد الدين بن الظهير الأربلى فقد شبه الشرك بالليل الأسود عندما مدح ذرية صلاح الدين فقال :

وردُوا إلى البيتِ المقدَّس نُورَهُ   وقد كان فى ليلٍ مِنَ الشِّرْكِ أسْودِ (١)

ومن التأثير الثقافى كذلك اتجاه الشعراء إلى موضوعات لها علاقة بوجود الصليبيين ، كرثاء المدن ، وهجاء المتخاذلين .

فلما استولى الصليبيون على معرة النعمان فى بداية غزوهم لبلاد الشام ، ورثاها وجيه بن عبد الله التنوخى ، بأبيات حزينة باكية ، تأسف على ضياعها وموت أهلها ، فقال :

هذهِ بلدةٌ قَضَى الله يا صاح   عليها كما ترى بالخراب
فَقِفِ الْعِيس وقفةً وابك من   كان بها مِنْ شِيوخِها والشَّباب
واعتبرْ إنْ دَخلتَ يوماً إليها   فَهِى كانت منازلُ الأحباب (٢)

وعندما سقطت بعض بلاد الشام ولم يتحرك أمراء المسلمين لنصرة إخوانهم ، وإنقاذهم مما وقعوا فيه ، هجاهم أبو المظفر الأبيوردى بقصيدة طويلة قال فيها :

وإخوانُكم بالشَّام يَضْحى مقيلُهم   ظهورُ المَذَاكى أوْ بطونِ القشَاعِم
تَسومُهمُ الرومُ الهوانَ وأَنتمُ   تجرُّون ذيلَ الخَفْضِ فِعْل المُسالم
دعوناكُمْ والحَربُ ترنُو مُلحَّة   إلينا بأَلحاظِ النُّسورِ القَشَاعِم
فإن أَنتمو لم تَغْضَبوا بَعَدَ هَذِهِ   رمينا إلى أعدائِنَا بِالجَرائِم (٣)

وبحكم اختلاط المسلمين بالصليبيين الموجودين فى بلاد الشام ، عرف بعض الشعراء عادات الصليبيين فى عباداتهم ، وانعكس ذلك فى شعرهم (٤) .

ومن التأثير الثقافى الذى وجد آنذاك بسبب الحروب الصليبية اتجاه عدد من المؤلفين إلى الكتابة عن الجهاد لتحريض الناس على مقاومة المعتدين .

ذكر سبط بن الجوزى أن جده ألْفَّ كتاباً فى الجهاد ضمنه أحاديث العدل والجهاد

---

(١) المصدر نفسه ١ - ١٩٦ .
(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ١ ص ٣٢ .
(٣) الكامل ١٠ - ٢٨٤ .
(٤) انظر ديوان القيسرانى ص ٧٠ .

وبعض المواعظ وذكر أيضاً أن نور الدين ألْفَّ كتاباً فى الجهاد وهو فى دمشق [١] .

واتجه عدد آخر من الكتاب عندما شاهدوا ما تسببه الحروب من ضياع للكتب إلى كتابة الملخصات والمعاجم ، فظهرت المعاجم الأدبية والتاريخية والجغرافية [٢] .

(ب) الأثر الاجتماعى :

اشتدت حركة التصوف فى فترة الحروب الصليبية ، وذلك أن الأخطار التى أحدقت بالمسلمين وهددتهم فى حياتهم وأرزاقهم جعلتهم يقلعون عن كثير من المعاصى ، ويلجأون إلى الله لكشف الضر عنهم . ولذا فقد كثر أصحاب الطرق الصوفية ولا سيما فى مصر [٣] وقد ابتعد أكثر هؤلاء عن ميادين الجهاد ، واشتغلوا بكثرة الصلاة والصيام ، وجاور بعضهم بمكة أو المدينة ، وقد ظنوا أن هذا يغنيهم عن الجهاد ، وبذل الأنفس والأموال فى سبيل الله [٤] .

ومن آثار الحروب الصليبية هبوط الحالة الاقتصادية فى بلاد الشام إلى حد كبير ، لأن الأموال كانت تؤخذ من الناس لصرفها على المقاتلين فكثر الفقر والجوع ، وانتشرت السرقات والمجاعات ، وارتفعت الأسعار حتى عجز الفقراء عن تحصيل لقمة العيش .

ومما يؤكد وجود هذه الحالة أن السلطان صلاح الدين عندما عرضت عليه الهدنة مع الإنجليز استشار قواده فأجمعوا على قبولها ، وقالوا معللين سبب قبولهم : « فانظر إلى أحوال البلاد ، فإنها خربت وتشعثت ، والرعايا فإنها تعكست وتعلثت ، والأجناد فإنها نصبت ووصبت .. إلخ » [٥] .

وقد أثر شيوع الفقر أيام الحروب الصليبية وسيادة النظام الإقطاعى على شعر هذه الفترة ، بحيث أصبح وسيلة هامة من وسائل الحصول على الرزق ، ولذا نراه مليئاً بالتملق والتزلف وطلب العطاء . نجد أمثلة لذلك فى شعر ابن عنين ، حينما قال يمدح الملك الأشرف موسى بن الملك العادل :

---

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ١ ص ٣١٣ .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١١ .
(٣) الظاهر بيبرس ، ص ١٥٠ .
(٤) الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى ص ٣٥ .
(٥) المرجع نفسه ص ٣٨ .

وَلَرُبَّ لائمةٍ علىَّ حريصة باتَتْ وقد جمعتْ عَلَىَّ العذَّلا
قالتْ أَما تخشى الزمانَ وصرفه وتُقِلُّ من إتلافِ مالك قلت : لا
أَأَخافُ من فقرٍ وجودُ الأَشرف السلطان فى الآفاق قد ملا الملا
الواهبُ الأَمصارَ محتقرا لها إنْ غيرهُ وَهَب الهِجان البُزَّلَا
ما زارَ مغناهُ فقيرٌ سائل فيعود حتى يستماحَ ويُسألا (١)

وله قصيدة أخرى فى الملك الأشرف مدحه فيها وطلب العطاء والنوال وبالغ فى ذلك كثيراً فقال :

وافيتُه والسيلُ قد بلغ الزُّبَى عندِى وَوَرْد العُمر رنقُ المشرع
فبلغتُ من نُعماه ما لا ينتهى أَملى ولم يطمحْ إليهِ مطمعِى
ونهى الحوادثَ أَن تلم بمنزلى وصروفَ دهرِى أنْ تطوفَ بمرتعى
متبرعٌ بالجود قبل سؤَالِه والجودُ جود البادئ المُتَبرِّع
فغدوتُ أنشدُ جودَه متمثلًا ونوالُهُ مثل السيولُ الدُّفع (٢)

وهذا شرف الدين الأنصارى يمتلئ ديوانه بشعر المديح وطلب العطاء والمبالغة فى وصف الممدوح حتى يخرجه ذلك عن الحد المألوف فى المدح ، مثال ذلك قوله فى مدح الملك الناصر بن العزيز ملك حلب :

إليك مَدائحُنا الوافدهْ ومنك منائحُنا الزائدة
أَلا أَيها الناصرُ بن العزيز ومَنْ لم يزلْ كابتًا حاسدة
علوتَ الملوكَ فتيجانُها لتاجك راكعةٌ ساجدة
وَسُسْتَ الرعايا فغادرتَها لعدلِك شاكرة حامدة (٣)

ولقد كان من آثار الحروب الصليبية كذلك وقوع بعض ضعاف النفوس من المسلمين فى المحرمات ، فقد ذكر العماد الأصفهانى ، أن الإفرنج كانوا يشجعون فتياتهم

---

(١) الديوان ص ١١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢ .
(٣) الديوان ص ١٧١ .

على الخروج إلى أرض المعركة للترفيه عن المقاتلين ، وكانوا يعتقدون أن هذا الفعل يقربهم إلى الله .

ذكر صاحب الفتح القيسى « أنه فى إحدى المعارك قدمت ثلاثمائة فتاة جميلة للمشاركة فى الترفيه عن المقاتلين وإدخال السرور على نفوسهم ، وعلم المسلمون بهذا الأمر وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية ، وأبق من المماليك والأغبياء ، والمدابير الجهلاء ، جماعة جد بهم الهوى ، واتبعوا من غوى ، فمنهم من رضى اللذة بالذلة ، ومنهم من ندم على الزلة »[١] .

ولقد كان لانتشار الرقيق بأجناسه المختلفة ودور اللهو فى بلاد الشام إبان الحروب الصليبية أثر كبير على الشعر ، فكثرت فيه الموضوعات الماجنة[٢] .

وقد تصدى ابن قيم الجوزية رحمه الله لمحاربة هذا الاتجاه الفاسد وألَّفَ كتابه « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » يعالج هذا الاتجاه الخطير فى المجتمع الإسلامى فى عصره[٣] .

وبسبب انتشار الرقيق كذلك ، كثر التغزل بالنساء ، وأفحش الشعراء فى أوصافهن والتغزل بهن فى كثير من الأحيان ، بل إن الشاعر ابن حمويه جعل ديوانه كله غزلاً ، وذكر فى آخره أنه إنما ألَّفَ هذه القصائد « لتفرج هم من تعذر عليه المطلوب ، أو بعد عنه المحبوب »[٤] .

وقد شاع فى المجتمع الإسلامى غزل المذكر وغزل المؤنث ، نتيجة العكوف على لذة النساء واللذات الجسدية لقلة ما كان يشغل مثل هذا المجتمع من مشاغل سياسية ، وخاصة فى العصور المتأخرة ، عصور الركود والانحدار والتدهور ، فلم يجد الناس شغلاً يملأون به الفراغ الكبير الذى يحسونه سوى الخلوة بالنساء والغلمان[٥] .

وقد انتشر الغزل الفاحش فى هذا العصر ، ونجد أمثلته فى الجزء الثالث من ديوان

---

(١) الفتح القيسى ص ١٧١ .
(٢) انظر : ديوان فنيان الشاغورى ص ١٢٣ ، ٤١٥ .
(٣) الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى ص ٤٠ .
(٤) الديوانت ص ٦٠ .
(٥) الأدب فى العصر الأيوبى ص ٢٣٩ .

ابن سناء الملك ، إذ جعله كله غزلاً فاحشاً نعف عن ذكره فى هذا البحث .

وبتأثير من الصليبيين كذلك ، انتشرت الخمور فى الأوساط الإسلامية وكثرت الخمارات ، وقد حرص قادة المسلمين الأتقياء كصلاح الدين الأيوبى ، والظاهر بيبرس على محاربة هذه الظاهرة ، فأمروا بإغلاق الحانات وعقاب شاربى الخمور ، إذ كان الجهاد يتطلب إعداداً خلقياً وجسمياً من نوع خاص .

وهكذا نلاحظ أن التغيرات الاجتماعية والثقافية التى حدثت للمسلمين بسبب الحروب الصليبية كانت لها آثار ظاهرة وإن لم تكن عميقة الأثر فى نفوسهم أو جوهرية فى حياتهم ، ويعود السبب فى ذلك إلى أن المسلمين كانوا أكثر حضارة ورقياً من الصليبيين ، ولذا فقد استفاد الصليبيون منهم أشياء كثيرة كان لها أثرها الكبير على حياتهم ونهضتهم فيما بعد .

* * *

الباب الثانى

الشعر في فترة الحروب الصليبية

الفصل الأول
موضوعات الشعر بصفة عامة وظواهره الفنية

لم تختلف موضوعات الشعر فى هذا العصر كبير اختلاف عن الموضوعات الشعرية التى كانت سائدة من قبل ، غير أن بعض الشعراء تأثروا بالهجوم الصليبى الذى وقع على بلاد الشام ، ثم بحركة الجهاد الكبرى التى أعقبت هذا الغزو ، وانتهت بطرد الصليبيين من بلاد الشام ، فأوقفوا معظم مدائحهم على قادة المسلمين وأمرائهم . وسنبين ذلك عند حديثنا عن شعر الجهاد فى الحروب الصليبية .

وقد تطرق شعراء هذه الفترة إلى شتى موضوعات الشعر ، وسنتحدث عن هذه الموضوعات بشىء من التفصيل :

المدح :

كان المدح من أهم موضوعات الشعر فى هذه الفترة ، وكان الشعراء يوقفون مدائحهم على الأمراء والقادة وأصحاب الجاه والسلطان ، وكان طلب العطاء من أهم دواعى المدح عند الشاعر .

مدح ابن عنين الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بقصيدة طويلة مطلعها :

جعل العتابَ إلى الصُّدودِ تَوصُّلا ⁂ رِيمٌ رمى فأَصاب مِنى المقتلا

وبعد مقدمة غزلية طويلة تخلص إلى المدح فقال :

وَلَرُبَّ لائمةٍ عَلَيَّ حريصة ⁂ باتت وقد جمعت عليَّ العذَّلَا

قالت أما تخشى الزمانَ وصَرفَه ⁂ وتُقِلُّ مِنْ إتلافِ مالك قلت : لا

أَأَخافُ من فقر وجودُ الأَشرفِ الـ ⁂ ـسلطان فى الآفاق قد ملأ المَلَا

الواهبُ الأَمصارَ محتقرا لها إنْ غيره وهب الهِجانَ البُزَّلا
ما زارَ مَغْنَاهُ فقيرٌ سائلٌ فيعود حتَّى يُسْتَمَاحَ ويُسْألا
ملك غدا جيدُ الزمانِ بجوده حَالٍ ولولاه لكان مُعَطَّلا
يا أيها الملكُ الذى إنعامُه لم يُبْقِ فِى الدنيا فقيرا مرسلا
لقد اتقيتَ الله حَقَّ تُقاتِه ونهجتَ للناس الطريقَ الأَمْثَلا
وَعَدلتَ حتى لم تجد متَظَلِّما وأخَفْتَ حتى صَاحَب الذئبُ الطِّلا
ورفعتَ للدينِ الحنيفِ منارةً فَعَلَا وكنتَ بنصره متكفلا
حاشا لدينٍ أنتَ فيه مُظَفَّرٌ أن يُستباح حِماه أو أَن يُخْذلا
فالله يخرِقُ فِى بقائك عادة الـ ـدنيا ويُعْطيك البقاءَ الأطولا (١)

فى الأبيات السابقة نلاحظ أن الشاعر أثنى على ممدوحه بعدة صفات أهمها : الكرم وبذل المال لكل سائل ، فالملك الأشرف لا يعطى المال وحده ، بل يمنح البلاد ، وهو عندما يفعل ذلك تكون عطاياه أحقر شىء فى نفسه لأنه لا يقيم لها وزناً .

ويضرب الشاعر مثلاً على جود ممدوحه الذى لا يحد ، فيذكر أنه لو زاره فقير معدم ، لعاد من عنده يبذل الأموال لمن يطلب منه من كثرة ما أخذه من الأعطيات .

وممدوح الشاعر كذلك يتميز بالتقى ، والعدل بين الرعية ، وأمنت رعيته على نفوسها وأموالها ، حتى إن الطلا كانت تمشى إلى جانب الذئاب وهى آمنة مطمئنة .

ويواصل الشاعر مديحه فيذكر أن الملك الأشرف عمل على رفع راية الدين ، وتكفل بنصره وإظهاره .

ويدعو له فى نهاية القصيدة بطول الحياة ، والبقاء فى هذه الدنيا فترة طويلة على غير المألوف فى حياة الآخرين .

ابتعد الشاعر عن المحسنات البديعية المتكلفة ، فلا نكاد نجد فى قصيدته شيئاً منها عدا الجناس فى البيت الثالث بين « ملأ ، الملا » والبيت السادس بين « جيد ، جود » وهى

---

(١) الديوان ، ص ٩ - ١٢ .

جناسات لطيفة تنسجم مع ألفاظ الأبيات ومعانيها .

ومدح ابن سناء الملك [1] القاضى الفاضل بقصيدة طويلة مطلعها فى الغزل :

باتت معانقتى ولكن فى الكرى ... أَتُرى درى ذاك الرقيبُ بما جرى

وبعد المقدمة الغزلية الطويلة عدل إلى مدح الفاضل فقال :

ذاك الكريمُ وإن سمعتَ بغيرِه ... خُذْ ما تراه وَعدِّ عَمَّنْ لا ترى
وإذا سألت مَن الكريمُ فإنَّـهُ ... عبد الرحيم وإنه مولى الوَرَى
يختارُ أَن يَهَبَ الخريدَة كاعبًا ... والأَلْفَ ألف والكلامَ مجوهرا
فسوى منائِحه نوالٌ يُجْتوى ... وسوى مدائحه حديث يفترى
يقرى الضيوف شعاعَ تبرٍ أحمرٍ ... فشعاع ذاك التِّبر نيرانُ القِرى
بلغ السماءَ معاليا ومكارماً ... ظهرتْ ويبلغُ فوق ذلك مظهرا
ما أَنت سيدُ أَهل مصر وحدهم ... بل أنت سيدُ كلِّ مَن وَطِئ الثَّرىَ
حسدتْ معاليك الكرامُ نفاسةً ... ولطالما حسد المقلُّ المكثرا
راموا اللحاقَ به فمنهم من وَنَى ... عجزاً ومنهم من جَرىَ فتَعَثَّرا
من رامَ شأْوَ عَلاكَ عاش مُغَصَّصاً ... إن عاش أَو إن ماتَ ماتَ مُحسَّرَا
الغيثُ أنت وأنت أَنْدَى راحةً ... والدر أنت وأنت أَشرفُ عنصرا [2]

بدأ الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية طويلة على عادة الأقدمين فى مدائحهم وبعد أن انتهى من تلك المقدمة بدأ يمدح القاضى الفاضل وأكثر مدائحه فيه ، فأثنى فى البداية على كرمه الذى لا يعرف الحدود ، فهو وحده الكريم ، أما غيره من الكرام فلا يصلون إلى مستواه .

والقاضى الفاضل - كما يقرر الشاعر - يختلف عن غيره من الناس ، فهو لا يقرى الأضياف طعاماً ، بل يعطيهم الذهب الأحمر ، وهو أغلى من الطعام بكثير .

---

(١) الديوان ، ص ٣٥١ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق .

ويشبه الشاعر شعاع الذهب بالنيران الملتهبة التى كان يوقدها بعض الكرام ليستدل عليهم الأضياف ويلجأون إليهم عند الحاجة ، ويبالغ الشاعر كثيراً فى مدحه ، فيذكر أن مجد ممدوحه وعلاه بلغ السماء ، بل وصل إلى أبعد من ذلك ، وهو بهذا المعنى يقلد النابغة الجعدى فى قوله :

بلغنا السماءَ مجدنا وجُدودنا وإنَّا لنرجو فوقَ ذلك مظهرا

وتزداد مبالغة الشاعر حينما يقرر أن القاضى الفاضل هو أفضل من وطئ الثرى ، وسيد الجميع دون استثناء .

وفى آخر القصيدة يذكر الشاعر أن ممدوحه فوق الجميع ، وأن غيره مهما حاول اللحاق به فإنه سيعجز عن ذلك .

لجأ الشاعر إلى بعض المحسنات البديعية فى قصيدته ، فنحن نلاحظ بعض أنواع الطباق فى البيت الأول بين « خذ ، عد » و « تراه ، لا ترى » ، والجناس فى البيت الرابع بين « منائح ، مدائح » وفى البيت الخامس بين « يقرى ، القرى » ، والطباق كذلك بين « المقل ، المكثر » فى البيت الثامن وبين « عاش ، ومات » فى البيت العاشر .

ونجد التشبيه فى البيت الأخير ، إذ شبه ممدوحه بالغيث وجعله أكثر عطاء منه ، كما شبهه كذلك بالبدر وجعله كذلك أشرف منه معدنا ، وهذه التشبيهات لا نجد فيها تجديداً ، إذ سبقه الأقدمون إليها ، ولكنها فى الوقت نفسه تتمشى مع جو القصيدة ومعانيها .

ومع وجود المبالغة فى شعر المديح فى فترة الحروب الصليبية ، فقد كان بعض الشعراء يبالغون كذلك فى استعمال المحسنات البديعية ، ويخرجون عن الحد المألوف فى استعمالها ، بحيث تبدو القصيدة ضعيفة الأسلوب ، مهلهلة السبك .

مثال ذلك : ما نجده عند فتيان الشاغورى فى قصيدته التى مدح بها الأمير شمس الدين ابن منكورس حيث قال فيها :

وكذاك شمسُ الدين قد حاز الحماسَةَ والسَّماحه
رَبُّ الأَصالةِ والإصابة والحَصافَةِ والفَصاحه

وفتى العبارةِ والبراعة والشجاعةِ والسَّجَاحَه
يأْوى إلى عرضٍ حِما هُ ببذلِ أموالٍ مُباحَه
آراؤه بسدادِها تُبدى النَّصاعَةَ والنصاحه
ظَفِرتْ وما صفرت لمن يمتاحُه فى الدهر راحه
مولا شمسُ الدين يا بانِى النوال على الإباحه
لك باحة هِى للإناخة من عُفاتِك خيرُ باحه[1]
لا حلَّتِ الأَسواءُ عنـ ـدك ساعةً أَبدا بساحه[2]

فالقصيدة مليئة بأنواع الجناس المتكلف ، والمبالغة الممجوجة فى الإطراء، والاستخذاء فى طلب العطاء .

كان طابع المبالغة هو الطابع السائد عند شعراء المديح فى هذه الفترة ، فها هو ذا الشاعر شمس الدين محمد بن دانيال الموصلى يمدح الأشرف خليل عندما استولى على عكا عام تسعين وستمائة ، فيبالغ فى مدحه كثيراً ، إذ يجعله أعظم الملوك قاطبة ، كما يجعل الأرض تميد من شدة الخوف منه ، فنراه يقول :

ما رأَى الناسُ مثل ملكك ملكا ملأ الخَافِقَيْنِ للحرب تُرْكا
وجيوشا لو صادمتْ جبل الشرك لدكَّتْهُ بالسنابكِ دكّا
ونظمتَ الرؤوسَ بالطعن حتى ظن قومٌ تلك الذوابلَ سِلْكا
قَبَّلتْ هيبةً لمقدمك الأرْضُ ومادتْ لشدةِ الخوفِ منكا[3]

وظهر فى هذا العصر لون جديد من ألوان المدح هو مدح الأتراك والإشادة ببطولتهم وجهادهم ، وكان سبب ذلك أن الأتراك هم الذين قاوموا الصليبيين ، ووجد منهم عدد كبير من حكام هذا العصر وقادته ، فلا غرابة أن يثنى عليهم الشعراء ويجعلوا لهم جزءاً من مدائحهم .

---

(١) **الباحة** : هى الساحة .
(٢) الديوان ، ص ٨٦ - ٨٧ .
(٣) التذكرة الصفدية ، ج ١٤ ص ٤٧ .

فهذا العماد الأصفهانى يمدح الترك ويصف شجاعتهم بقصيدة طويلة منها قوله :

وفتية من كماةِ الترك ما تركتْ ... للرعد كبَّاتُهم صوتا ولا صِيتا
قوم إذا قُوبلوا كانوا ملائكةً ... حُسْنًا وإن قُوتِلوا كانوا عفارِيتا [(١)]

إن شعر المديح فى فترة الحروب الصليبية فى بلاد الشام كثر كثرة هائلة ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه من أكثر الموضوعات الشعرية التى وجدت فى تلك الفترة . وقد قدمت نماذج يسيرة له تسعى إلى إبراز فضائل الشجاعة والنخوة والبطولة ، وهى معانٍ تضمنها مديح ذلك العصر ، كما أشار محمد زغلول سلام [(٢)] .

ولم يخرج شعراء المديح فى هذه الفترة عن الأوصاف التى اقتبسوها من سابقيهم كالوصف بالشجاعة والنخوة والجود وبذل الأموال وما إلى ذلك .

الهجـــاء :

اتسع فن الهجاء إلى حد كبير فى عصر الحروب الصليبية بصفة عامة ، ولم يكد يخلو ديوان شاعر منه ، ولسنا بصدد تأريخ هذا الفن فى ذلك العصر وتلمس جوانبه المختلفة ، ولكننا يجب أن نلقى بعض الضوء عليه لنتعرف فى هذا الفصل على فنون الشعر التى كانت سائدة حتى يمكن تبين شعر الجهاد من بينها .

وممن اشتهر بالهجاء فى هذا العصر الشاعر ابن عنين [(٣)] ، وكان هجاؤه مقذعاً فاحشاً ، هجا الرشيد النابلسى [(٤)] بعدة قصائد منها قوله :

قالوا الرشيدُ بغِاؤُه مستحدثٌ ... كَسَبوا خَطِيئَتَهُ وباءُوا بإثـمه
مـا ذاك إلَّا عـادةٌ مـألـوفـةٌ ... طَبْعاً لَهُ مذُ كان فى بطنِ أمْه [(٥)]

---

(١) خريدة القصر – قسم شعراء الشام ، ج ١ ص ٩ .

(٢) الأدب فى العصر الأيوبى ، ص ١٧٠ .

(٣) هو محمد بن نصر الله بن الحسين بن عنين الدمشقى الأنصارى . ولد بدمشق عام تسعة وأربعين وخمسمائة ، وقد برع بالهجاء واشتهر به . له ديوان شعر مطبوع . وتوفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . انظر : معجم الأدباء ١٩ – ٨١ النجوم الزاهرة ٦ – ٢٩٣ .

(٤) هو رشيد الدين بن بدر النابلسى ، شاعر مدح بنى أيوب ، توفى بدمشق سنة ٦١٩ هـ « فوات الوفيات ١ – ٢٥٥ » .

(٥) ديوان ابن عنين ص ١٨٧ .

ولم يكتف ابن عنين بهجاء الناس وثلب أعراضهم ، بل تعدى ذلك إلى هجاء أبيه فقال عنه :

وجَنَّبنِى أنْ أفعلَ الخيرَ والدٌ ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهلُ المناسب
بعيد عن الحسنى قريب من الخنَا وضيعُ مساعى الخير جَمُّ المعايب
إذا رمْتُ أَن أَسمو صعودًا إلى العلى غدا عِرقُه نَحوَ الدَّنِيةِ جاذبى[1]

نلاحظ فى أبيات الشاعر السابقة أنه بالغ كثيراً فى هجاء والده ، فلم يترك له منقبة حسنة ، فهو بعيد عن كل خير ، كما أنه وضيع النسب حقير الأصل ، اجتمعت فيه كل المعايب والدنايا .

ويبالغ الشاعر فى تأكيد تلك المعانى فيقول : إننى كلما أردت أن أرقى درجات المجد ، وبذلت جهدى فى ذلك لم أستطع أن أحقق شيئاً ، لأن صلتى بذلك الوالد تجذبنى إلى كل رذيلة .

ابتعد الشاعر عن المحسنات البديعية المتكلفة ، فجاءت أبياته سهلة الأسلوب واضحة المعانى ، غير أننا نجد أن الشاعر لجأ إلى المقابلة فى البيت الثانى بين « بعيد عن الحسنى ، قريب من الخنا » وطابق فى البيت الثالث بين « العلى والدنية » ومثل هذه المحسنات تعد شيئاً ضئيلاً إذا ماقيست بما كان يثقل الشعر فى هذه الفترة من زينة بديعية .

ومن شدة ولع ابن عنين بالهجاء قال قصيدة طويلة فى الهجاء سماها : « مقراض الأعراض » هجا فيها أعيان دمشق وجماعة كبيرة منهم[2] .

ومما أجاد فى الهجاء فتيان الشاغورى فهجا بنى عصرون بقصيدة قال فيها :

على بيت عصرون العفاءُ فما لهم قديمٌ ولا عند الفخار حَديثُ
إذا ركبَ القومُ البغالَ أَو ابتدوا فَما لَهم فِى المكرمات حديث
بغالا ترى أَذنابَها كلحاهمُ فتضرط من أفواههم وتَرُوثُ
وما لهمُ وُدٌّ ، بلى إن كُلَّهم يعوق عن الجدوى وليس يغوث[3]

(١) ديوان ابن عنين ص ٢٣٩ .
(٢) معجم الأدباء ، ج ١٩ ص ٨٢ .
(٣) الديوان ص ٧١ .

نلاحظ أن الشاعر فى قصيدته هجا بنى عصرون كلهم لم يستثن منهم أحداً ، فبالغ فى ذلك كثيراً ، كما أنه جردهم من كل الصفات الطيبة التى يفخر بها الناس عادة ، فنراه فى البيت الثالث يشبه لحاهم بأذناب البغال ، ويسرف فى البيت الأخير فينفى الود عنهم أجمعين ، ثم يؤكد هذا الذم عندما يتوقع السامع أنه سيمدحهم فيجعلهم معوقين عن كل فائدة وليس فيهم من يغيث عند الطلب .

وبتتبع القصائد التى قيلت فى الهجاء وجدت أنها قليلة فى عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام بالنسبة لما هو معروف من اتساع هذا الفن فى العصور المتأخرة ، كما قرر محمد زغلول سلام فى كتابه : « الأدب فى العصر الأيوبى »[(١)]، والذى يظهر لى أن السبب فى ذلك يعود إلى أن الشعراء كانوا منصرفين إلى ذكر الأحداث الكبرى التى كانت تجرى فى بلاد المسلمين آنذاك من هجوم الصليبيين وجهاد المسلمين ضدهم ، فالحض على الجهاد وذكر مثالب الأعداء كان مهماً إلى حد بعيد ، ولذا آثر الشعراء هذا النوع من الشعر ، وبالإضافة إلى ذلك فإن المجازر الكبرى التى قام بها الصليبيون فى بداية الحروب الصليبية ثم فى بعض المعارك التى حدثت بعد ذلك جعلت الروابط تقوى وتشتد بين المسلمين ، وشعروا بضرورة الوحدة الشاملة ، وأدركوا خطر التمزق والاختلاف ، ومن هذا المنطلق أحجم معظم الشعراء عن هجاء بعضهم بعضاً وعن هجاء غيرهم كذلك ، أو لعلهم وجدوا ما يشغلهم عن هذا الفن الذى كان باباً واسعاً للمعابثة ورياضة العقول أكثر من أن يكون فناً له دواعيه الخاصة الملحة عند الشعراء .

الرثـــاء :

كان الرثاء من الموضوعات التى تطرق إليها شعراء فترة الحروب الصليبية ، ولكن هذا الجانب كان قليلاً فى أشعارهم ، لا سيما إذا استبعدنا منه ما يتعلق برثاء أبطال الحروب الصليبية الذى سنتحدث عنه فى الباب الثالث إن شاء الله .

رثى الشاعر ابن عنين الأمير بدر الدين الجعبرى[(٢)] الوالى بقلعة دمشق بقصيدة طويلة قال فيها :

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ص ٢٣٦ .

(٢) هو بدر الدين الجعبرى وَالى قلعة دمشق أيام الملك المعظم . توفى سنة ثلاث وعشرين وستمائة فى دمشق ونقل إلى نابلس حيث دفن عند أهله « ذيل الروضتين ص ١٥١ » .

لا يَخْدعَنَّكَ صحةٌ ويَسَارُ مَالا يدومُ عليك فهو مُعارُ
يغشى الفتى حُبُّ الحياةِ وزينة الدنيا وينسى ما إليه يُصارُ
وإذا البصائِرُ عن طرائِقِ رُشدِها عَميتْ فماذا تنفعُ الأَبصارُ
لا تَغْتَرِرْ بالدَّهرِ إن وافاك فِى حال يُسرك إنه غَرَّارُ
انظر إلى مَنْ كان قبلك واعتبرْ ستصيرُ عن كَثَبٍ إلى مَا صَارُوا
تُرْزَا الكرامُ ولا كرزءِ عَشِيرةٍ فجعت بمن منهم إليه يُشارُ
الله جارُك يا ابن يوسف ثاويا وسقى ضريحَك وابلٌ مِدْرارُ
حتى تُرى جنبات قبركَ روضةً مُخْضرَّةً وَيَحُفُّهُ النُّوَّارُ
يا بدرُ كنت لنا اليمين وما عسى تُغنى إذا مضت اليمينَ يسارُ
كنتَ المعين على الزمانِ لنا إذا غاضَ المعينُ وعزَّتِ الأَنصار
أَعْزِزْ عَلَيَّ بأَن يضيقَ بك الثرى ويميل عن عَرصَاتِكَ الزُّوار
قد كنتَ ذُخراً للملوكِ وعُمدةً فبرأْيك الإيرادُ والإصْدارُ
ولكمْ برأْيكِ مِنْ ورائِك قد سَرى نحوَ الأَعادِى جَحْفَلٌ جرَّارُ
كانَ الجوادَ بما حوى وقد استوى فِى مالِهِ الإِقلالُ والإِكثارُ
صافِى أَديمِ العرضِ لا ينأَى النَّدى عنه ولا يدنو إليه العار
يا بدرُ لو أَبْصَرتَ بعدك حالَنا لشجاكَ ما جاءَتْ به الأَقدار
ما العيش بعْدك بالهنيءِ ولا صَفَتْ فيه الحياةُ ولا الديارُ ديار
هيهاتَ أنْ يَلْتَذَّ جفنِى بالكرى من بعد فقدك أو يقر قرار
غدر الزمانُ بنا ففرق بيننا إنَّ الزمانَ بأَهله غَدَّرا(١)

بدأ الشاعر رثاءه ببيان حال الدنيا وتقلباتها ، وأنها لا تدوم على حال واحدة ، فالصحة والغنى عارية مستردة ، ثم بيَّن الشاعر بعد ذلك وجوب الاعتبار بمن سبق ، لأن مآل الإنسان إلى الموت مهما طال عمره فى هذه الحياة .

---

(١) الديوان ، ص ٦٤ وما بعدها .

وبعد هذه المقدمة ، بدأ الشاعر بالدعاء لصاحبه بأن يجعل الله قبره روضة مخضرة مليئة بالأزهار والورود .

ويتحدث ابن عنين عن صفات بدر الدين ، ومآثره فى حياته ، فيذكر أنه كان يعين على نوائب الدهر ، كما كانت آراؤه الصائبة خير عون للملوك والحكام فى تصرفاتهم كلها .

ومن صفات بدر الدين - كما يذكر الشاعر - أنه كان جواداً كريماً لا يبخل بالمال على طالبه ، كما كان نقى العرض ، بعيداً عن كل الصفات السيئة التى لا تليق بكرام الناس .

وبعد أن استعرض الشاعر بعض صفات صاحبه ، بدأ بالحديث عن حالته ، ووصف مشاعره بعد أن فقد صاحبه فقال : إنك يا بدر الدين لو أبصرت حالتى بعد ذهابك لأصابك الحزن والهم ، فعيشى مهما صفت الدنيا لى فهو متكدر ، وجفنى لم يعد يلتذ بمنام ، بل إن الديار لم تعد تتسع لى أو تطيب لى فيها الحياة .

ونرى أن الشاعر وفق فى اختيار ألفاظه ومعانيه التى عبرت عن حزنه العميق على وفاة صاحبه، واختار لأبياته الموسيقى الهادئة الحزينة لتساير الألفاظ والمعانى فى إظهار فجيعته وألمه .

ووجد فى هذا العصر كذلك من رثى العلماء، وأشاد بفضلهم وعلمهم . ففى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة توفى الشريف بهاء الدين الموسوى وكان مفضلاً وأثيراً لدى نور الدين، فرثاه أحد الشعراء بقصيدة قال فيها :

نَعى الناعِى بهاءَ الدِّينِ لمَّا ... أتاهُ نازلُ القدر المتُاح
فَرَوَّعَ كل ذى علم وفضلٍ ... من الأُدباءِ والعَربِ الفِصاح
بكته غزالةُ الآفاقِ حُزنًا ... وأَظلمَ رُزْؤه ضوءَ الصَّباح
وأَسبلت العيونُ دماً عليه ... كذلك عادةُ المُقل الصِّحاح
فكم مُتفجع يبكِى عليه ... بِرقَّةِ موجَع دامِى الجراح
وينشر فضله فِى كل نادِ ... بألفاظ مُحَبَّرة فِصاح

على حسناته تبكِى المعالِى بدمعةِ ثاكلٍ خُودٍ رَدَاح
فلو رام البليغُ لها صفات لَقَصَّرَ عن مَرَاثٍ وامتداح[1]

وكان من أنواع الرثاء الذى وجد فى هذا العصر رثاء الديار ، ففى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة حدثت زلازل عنيفة فى بلاد الشام ، فانهدمت حماة وشيزر ومات من أهلها وتشرد الكثير كذلك «ولو لم تدرك العباد والبلاد رحمة الله تعالى ولطفه ورحمته ورأفته لكان الخطب الخطير والأمر الفظيع والمزعج»[2] فنظم بعض الشعراء فى هذه الأحداث قصيدة منها :

رَوَّعَتْنا زلازل حادثات بقضاء قضا رب السماءِ
هدَّمت حصنَ شيرزٍ وحماةٍ أَهلكتْ أَهلَها بسوءِ القضاءِ
وبلادًا كثيرةً وحصونا وثغورا موثقات البناءِ
وإِذا ما رَنَتْ عيونٌ إليها أجرت الدمْعَ عندها بالدماء
وإِذا ما قضى من الله أَمرٌ سابقٌ فِى عباده بالمضاءِ
حَارَ قلبُ اللبيب فيه وَمَنْ كا ن له فِطنةٌ وحسنُ ذكاءِ
وتراهُ مُسَبِّحـًا باكِى العين مُرَوَّعاً من سخطةٍ وبلاءِ
جل ربِّى فِى ملكه وتعالى عن مقال الجهال والسفهاءِ[3]

وكان رثاء الديار التى احتلها الصليبيون ونكلوا بأهلها من أنواع الرثاء التى وجدت فى ذلك العصر بسبب الحروب الصليبية ، وسنتحدث عن هذا النوع من الرثاء بالتفصيل فى الباب القادم إن شاء الله .

* * *

أما **الغزل** فقد كثر فى هذا العصر ، وقصده الشعراء قصداً ، وجعلوه هدفاً من أهدافهم فكان البعض يورده فى مطالع القصائد على عادة الأقدمين ، والبعض الآخر

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ٣٣٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٤ .

يجعل قصائده كلها غزلاً ، وقد تنوع الغزل فى هذا العصر ، فهناك الغزل العفيف وهناك الغزل الفاضح ، الذى يُسرف فيه الشاعر إلى حد الاستهجان والتبذل .

ولابد من الإشارة إلى أن الحروب الصليبية قد أثرت على هذا النوع من الشعر وجعلته رائجاً مستساغاً ، إذ إن كثرة الأسرى بسبب الحروب جعلت عامة الناس يحرصون على اقتناء أعداد كبيرة منهم ويتباهون بذلك ، وجعلت الشعراء يصفون حسنهم وجمالهم ، ويكثرون من ذكر أوصافهم[1] .

الحكم والزهــد :

ومن جملة موضوعات الشعر التى وجدت فى فترة الحروب الصليبية شعر الحكم ، فدعا ابن منير الطرابلسى فى إحدى قصائده إلى الارتحال فى طلب المجد والغنى ، وعاب على الكريم أن يبقى فى مكان يجد فيه الفقر والذل وقرر أن ذهاب النفس ليس هو الموت إنما حياة الذل هى الموت الحقيقى وانظر إليه يقول :

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نزيلَه ... فِى منزلٍ فالحَزْمُ أنْ يَتَرَحَّلَا
كالبدرِ : لما أن تضاءَل جَدَّ فِى ... طَلَب الكمال ، فَحازَه مُتنقِّلَا
سَفَهاً لِحِلْمِكَ إن رَضيتَ بمشربٍ ... رَنِقٍ ، ورزقُ الله قَدْ مَلأَ الملَا
ساهمتَ عِيسَك مُر عَيْشِكَ قاعداً ... أَفَلَا فَلَيت بِهِن ناحيةِ الفَلَا
فَارِق ، ترق كالسَّيفِ سُلَّ فبَان فِى ... مَتْنَيه ما أَخْفى القرابُ ، وأَخْمَلَا
لا تحسبَنَّ ذهابَ نفسك ميتةً ... ما الموتُ إلَّا أن تَعيشَ مُذلَّلَا
للقَفْرِ لا للفقر هَبْها ، إنَّما ... مَغْنَاكَ مَا أَغناكَ أن تَتَوسَّلَا[2]

وهذه القصيدة قوية الأسلوب والمعنى ، مع أن الشاعر أكثر من استعمال المحسنات اللفظية كالاستعارات والجناس .

وللشاعر محمد بن سعد أبيات فى الحكم ملأها بالجناس ، فجاءت القصيدة

---

(١) انظر : ديوان ابن حمويه الدمشقى ، إذ جعله غزلاً كله ، وانظر كذلك التلعفرى ص ٤٣ ، ٤٤ وديوان أسامة بن منقذ ص ٤٤ وغيرها . وكذلك خريدة القصر قسم شعراء الشام ١ - ٨٠ وغير ذلك .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ١ ص ١٥٦ ، شذرات الذهب ٤ - ١٤٦ .

ضعيفة الأسلوب ، يبدو فيها التكلف والتصنع ، وجارى بذلك شعراء عصره فقال :

نفسُ الفتى إنْ أَصلحتْ أَحْوالَها ... كَانَ إلى نيلِ التُّقَى أَحْوَى لَهَا
وإنْ تَـرَاهَـا سَـدَّدتْ أقـوالَـهـا ... كانَ عَلَى حملِ العُلى أَقْوى لَهَا
فلو تبدتْ حَالُ مَنْ لَهَا لَهَا ... فِي قبرهِ عِندَ البِلى لَهَا لَهَا [1]

نلاحظ أن الشاعر جانس بين « أحوالها ، أحوى لها » فى البيت الأول ، وبين « أقوالها ، أقوى لها » فى البيت الثانى ، وبين « لها لها ، لها لها » فى البيت الثالث ، وهى جناسات متكلفة .

ولابن القلانسى [2] أبيات نهى فيها عن القنوط واليأس ، لأن الشدائد مهما اشتدت فسوف تهون فى يوم من الأيام ، وعلى الإنسان أن يؤمن بالقضاء والقدر ، فإن ما قدره الله كائن لا محالة . يقول :

إيَّاكَ تَقْنَط عند كلِّ شديدةٍ ... فشدائدُ الأَيام سوف تَهُونُ
وانظرْ أَوائل كل أَمر حادث ... أَبدا فما هو كائنٌ سيكون [3]

كما وجد أيضاً فى هذا العصر بعض الشعراء قالوا شعراً فى الزهد دعوا فيه إلى الابتعاد عن ملذات الدنيا وزينتها ، والانصراف إلى العمل الصالح ، لنيل الجنة فى الآخرة .

والذى يظهر لى أن الصراع الدامى فى المنطقة أثر على هذا النوع من الشعراء بسبب إحساسهم المرهف ، وإدراكهم أن الحياة مهما طالت فإن الموت هو النهاية لكل كائن حى ، ولقد كان منظر القتلى لا من المعارك فحسب بل من المجاعات والزلازل والأوبئة التى كثرت فى هذه العصور يطالعهم دائماً ، ويذكرهم بالموت وآلامه ، وما يقاسيه الإنسان عند الوفاة وما ينتظره بعدها من أحداث وأهوال لا ينجيه منها إلا عمله الصالح .

---

(١) ذيل الروضتين ص ٥٢ .
(٢) هو حمزة بن أسد بن على أبو يعلى التيمى المعروف بابن القلانسى . ألف ذيل تاريخ دمشق . وتوفى فى دمشق سنة خمس وخمسين وخمسمائة للهجرة « الأعلام ٢ - ٣٠٨ » - وشذرات الذهب ٤ - ١٧٤ .
(٣) النجوم الزاهرة ٥ - ٣٣٢ .

ولقد كان ابن قدامة المقدسى[1] رحمه الله من هذا النوع الذى يتذكر الآخرة دائماً وقد عبَّر عن هذا بقصيدة حزينة باكية فقال:

أَبعدَ بياض الشعر أَعمرُ مَسْكناً ... سوى القبر إنِّى إنْ فعلتُ لأَحْمَقُ
يُخَبِّرُنى شَيْبى بأَنِّىَ ميتٌ ... وَشِيكاً وينعانِى إلىَّ فيصدق
يُخَرِّقُ عُمرى كلَّ يوم وليلةٍ ... فهل مستطيعٌ رَفْوَ ما يَتَخرَّقُ؟
كَأَنى بجسمى فوقَ نعشٍ مُمَدَّدٍ ... فمن ساكت أو مُعْوِلٍ يتحرقُ
إذا سُئلوا عنِى أَجابُوا وأَعْولوا ... وأَدمُعُهمْ تنهلُّ : هذا الموفق
وغُيِّبْتُ فِى صدعٍ من الأَرْضِ ضيق ... وأُودعتُ لحداً فوقه الصخرُ مُطْبِقُ
وَيحثو علىَّ التربَ أوثقُ صاحب ... ويسلمنى للقبر مَنْ هُوَ مُشْفِقُ
فيارَبِّ كُنْ لِى مُؤنِساً يَوْمَ وحشتى ... فـإنِّـى بمـا أَنـزلَـتـهُ لمصَـدِّقُ
وما ضرنى أَنِّى إلى الله صائرٌ ... وَمَنْ هُوَ من أهلِى أَبرُّ وأَوثق[2]

أما أبو شامة المقدسى فقد قنع باللقمة والعافية، واعتبرهما غاية ما يجب أن يطمع فيه الإنسان العاقل، فقال:

الثوبُ واللقمةُ والعافية ... لِقَانِع من عيشه كافيه
ومَا يزِدْ فالنفسُ ليست بِهِ ... وإن تكنْ مملكة راضيه[3]

واعتبر القناعة كافية عن كل شىء آخر فقال:

أَنـا فِـى عِـزِّ الـقـنـاعـة ... رافِـلٌ فِـى كـلِّ سـاعـة
رَبُّ أَتِمْـهـا بـخـيـرِ ... فِـى مـعـافـاة وطـاعـة[4]

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسى. شيخ الحنابلة فى عصره ومن أفاضل العلماء. ولد فى نابلس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وكانت وفاته يوم السبت أول شوال سنة عشرين وستمائة ودفن فى دمشق «البداية والنهاية ١٣ - ٩٩» «الأعلام ٤ - ١٩».

(٢) ذيل الروضتين ص ٤٣.

(٣) ذيل الروضتين ص ٤٣.

(٤) ذيل الروضتين ص ٤٣.

أما الحصفكي [1] فقد قرر أن الذل للدنيا والتهالك عليها ليس من طبع الحر ، لأن هذه الدنيا مهما أعطت الإنسان لا تستحق هذا التكالب ، فكيف وأنها متاع زائل فقال :

وَاللهِ لو كانتِ الدُّنْيا بأَجمعها ... تُبْقِي علينا ويأْتِي رزقها رَغَدَا
ما كان من حقٍّ حُرّ أَنْ يَذِلَّ لها ... فكيفَ وهِيَ متاع يَضْمَحِلُّ غَدا [2]

هذه هي أهم موضوعات الشعر في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية بصفة عامة ، ومن النماذج التي قدمتها يمكن القول بأن شعراء هذا العصر قلدوا سابقيهم في الموضوعات وفي المعاني ، وفي بعض الأحيان كانوا يحاكون سابقيهم في المعنى والوزن والقافية ، وقد أشار العماد الأصفهاني إلى هذا المعنى عندما ذكر أن أسامة بن منقذ قلد أبا فراس الحمداني عندما قال :

وإذ عددتُ سِنِيَّ ثُمَّ نقصْتُها ... زَمَنَ الهموم فتلكَ ساعةُ مولدى

إذا أخذ هذا المعنى من أبيات أبي فراس التي يقول فيها :

ما العمرُ ما طالتْ به الدهورُ ... العمرُ ما تَمَّ به السرورُ

وقد علق الأصفهاني على هذا بقوله : « فالفضل للمتقدم في ابتكار المعنى وللمتأخر في المبالغة ، حيث ذكره في بيت واحد ولم يجعل له نصيباً من العمر إلا ساعة مولده ، فجميع الحياة على الحقيقة نصب وألم وتعب » [3] .

وممن قلد في المعنى ابن الشحنة الموصلي عندما قال :

وإنِّي امرؤٌ أَحببْتُكم لمكارم ... سمعت بها والأُذنُ كالعين تَعْشَقُ [4]

أخذه من قول بشار بن برد في بيته المشهور :

---

(1) هو يحيى بن سلامة بن الحسن الحصفكن ، ولد بطنزة وهي قرية في ديار بكر ، ثم انتقل إلى ميارفارقين . كان إماماً في كثير من الفنون . وتوفى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة للهجرة . « الأعلام ٩ - ١٨٣ » .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٢٨ .

(٣) خريدة القصر ، ج ١ ص ٥٠١ .

(٤) النجوم الزاهرة ٦ - ٥٨ .

يا قوم أُذنِى لبعض الحى عاشقةٌ   والأُذنُ تعشقُ قبل العين أَحيانا

أما الشهاب العزازى فقد قلَّد فى المعنى والقافية والوزن فى قصيدته التى مطلعها :

بـدأنـا بـاسـم ربِّ الـعـالمينا   وَثَـنَّـيْنا بـخـيـر المُرسـلِـينا
نـبـى أَشـرف الـثـقـلـين قَـدْرًا   وأَوضـحُ هـذه الأَديـان ديـنـا

والتى يقول فيها :

لنا الدنيا وساكِنها جميعاً   ونحنُ ملوكُها والمُلكُ فينا
ونحنُ السابقون إلى المعالى   ونحـنُ الحاكـمـونَ الآمـرونـا
ونحـنُ الغـالبون إذا غَزوْنا   ونحنُ الصابرون إِذا غُزينا (٥)

حيث قلد عمرو بن كلثوم فى معلقته المشهورة التى يقول فى مطلعها :

أَلا هُبِّى بصحْنِك فاصْبحِينَا   ولا تُبقى خُمورَ الأَنْدَرِينَا

وقد قلَّد غيرهم من الشعراء الذين تحدثوا عن أحداث الحروب الصليبية ووصفوا معاركها ، وسنشير إلى ذلك فى الباب القادم إن شاء الله .

ولا شك أن الشعر فى هذه الفترة انصب أكثره على وصف المعارك ، والدعوة إلى الجهاد ، لأن هذا الأمر كان يشغل بال المسلمين جميعاً ، وقد أدى هذا الأمر إلى ترك الشعراء الأوصاف الفنية للشعر ، وتمسكهم بالمحسنات اللفظية من جناس وطباق واهتمامهم بالتصوير الذى يعتمد على الاستعارة والتشبيه ، بحيث ابتعد الشعر عن غاياته النبيلة من التعبير عن الأحاسيس الحقيقية عند الشاعر ، وأصبح يحمل فى طياته المبالغة المستهجنة ، والصنعة الثقيلة ، التى تحول بين الشعر وبين التعبير الصادق عن الانفعالات النفسية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن كون أكثر الممدوحين من الأمراء والحكام من أصل غير عربى ، فهم لا يجيدون فهم اللغة العربية ، الأمر الذى حدا بأكثر الشعراء إلى تبسيط لغة أشعارهم ومعانيها لتعجب السامعين وتنال رضاهم .

* * *

---

(١) ديوان العزازى ص ٥٧ .

الفصل الثانى

شعر الجهاد من الناحيتين الأدبية والتاريخية

تبين لى من دراسة شعر الجهاد أن هذا الشعر واكب الحروب الصليبية منذ بدايتها حتى نهايتها .

وقد تحدث شعراء هذه الفترة عن الحروب الصليبية ، منذ بدأها عماد الدين زنكى ، وحتى انتهت بإخراج الصليبيين نهائياً من بلاد الشام .

وقد وصف هؤلاء الشعراء فى قصائدهم احتلال الصليبيين للبلاد الإسلامية فى بداية قدومهم لبلاد الشام ، كما وصفوا المعارك الهائلة التى خاضها قادة المسلمين لاسترجاع بلادهم ومقدساتهم .

وقام شعراء المسلمين فى هذه الفترة بجهود مشكورة فى حث المجاهدين على القتال ، ودفعهم للتضحية بأنفسهم فى سبيل الله ، وتشجيعهم على طرد الصليبيين من بلاد المسلمين .

وحمل الشعراء كذلك على بعض أمراء المسلمين الذين تركوا الجهاد ومالأوا الصليبيين ، كما هجوا الضعفاء والمتقاعسين ، وكشفوا خيانات الأعداء وحثوا على قتالهم .

وشعر الجهاد يعد وثيقة تاريخية هامة لدارسى الحروب الصليبية ، لأن شعراء المسلمين فى تلك الفترة وصفوا معظم المعارك التى وقعت بين المسلمين وأعدائهم ، كما تحدثوا عن أسلحة هذه المعارك ، وأماكنها التى وقعت فيها ، وأنواع الأسلحة التى استعملت فيها ، كما أشاروا فى قصائدهم إلى أسماء الشخصيات الهامة التى اشتركت فى هذه الحروب .

حين شاع خبر مجئ الصليبيين إلى بلاد الشام عام تسعين وأربعمائة كانت البلاد الإسلامية مفككة الأوصال ، وقد اشتغل أمراء المسلمين بالمنازعات التى كانت دائرة بينهم ، ولم يعدوا العدة لمقاومة الجيوش الغازية ، وقد حاول ابن الخياط [1] تحريك همة « عضب الدولة » زعيم الجيوش فى دمشق فقال قصيدة طويلة يحثه على إعداد العدة للجهاد مطلعها قوله :

فدتكَ الصَّواهلُ قُبًّا وجردا ... وَشُمُّ القبائِلِ شِيباً ومُرْدًا
وذلت لاسيافِكَ البِيضُ قُضْبا ... ودانتْ لأَرماحِك السُّمْر مُلْدَا [2]

إلى أن يقول :

وإنِى لمهدٍ إليكَ القَريض ... يُطوى على النُّصحِ والنُّصحُ يُهدَى
إلى كم وقد زَخَرَ المشركون ... بسيل يُهال له السيلُ سَدًّا
وقد جَاشَ من أَرض إفرنجة ... جيوشٌ كمثلِ جبال تردا
أَنوماً على مثل هدِّ الصفاة ... وَهَزْلاً وقد أَصبحَ الأَمرُ جدًّا
وكيفَ تنامونَ عن أعينٍ ... وترتم فاسهرتموهنَّ حِقْدا
بنو الشركِ لا يُنكرون الفسادَ ... ولا يَعرفونَ مع الجور قَصْدا
ولا يردعونَ عن القتل نفسا ... ولا يتركون مِنَ الفتك جُهدا
فكم من فتاةٍ بهم أصبحتْ ... تَدُقُّ من الخوف نَحْرًا وخدا
وأمٍّ عواتقَ مَا إنْ عَرَفْن ... حَرًّا ولا ذُقْن فِي الليل بَرْدا
تكادُ عليهنَّ مِنْ خِيفةٍ ... تذوبُ وتَتلفُ حزنا وَوَجْدا [3]

وبعد أن وصف الشاعر حال المشركين وقسوتهم ، وحال المسلمين معهم بدأ يحرض عضب الدولة على الجهاد فقال :

---

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن على التغلبى ، المعروف بابن الخياط ، الشاعر الدمشقى الكاتب . وهو من الشعراء المجيدين . ولد سنة خمسين وأربعمائة بدمشق ، وتوفى بها فى حادى عشر من شهر رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة « وفيات الأعيان ، ج ١ ص ١٤٤ » .

(٢) ديوان ابن الخياط ص ١٨٢ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٢ وما بعدها .

فحاموا عن دينكم والحريم محاماةَ من لا يرى الموتَ فَقْدَا
وسُدُّوا الثغورَ بطعن النُّحورِ فَمِنْ حقِّ ثَغرٍ بكم أَنْ يُسَدَّا
فقد أينعت أرؤس المشركين فلا تغفلوها قِطافاً وحَصْدا
فلابد من حَدِّهِمْ أن يُفَلّ ولابد من ركنهم أن يُهَدّا [1]

ولكن المسلمين يتقاعسون فى بداية أمرهم ويتركون للإفرنج حرية احتلال بلادهم والتمثيل بأهلها ، وهكذا يحتل الصليبيون معرة النعمان فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ويقتلون من أهلها خلقاً كثيراً [2] .

وقد ذكر رنسيمان فى تاريخه أن الصليبيين عندما دخلوا المدينة « أمعنوا فى قتل كل من يصادفهم ، واقتحموا الدور ونهبوها وأحرقوها ، أما اللاجئون الذين ارتكنوا إلى حماية بوهمند فإن الرجال منهم لقوا مصرعهم فعلاً ، بينما تقرر بيع النساء والأطفال رقيقاً » [3] .

وقد أثرت هذه الأفعال الشنيعة على الشاعر وجيه بن عبد الله بن نصر التنوخى فقال أبياتاً حزينة يرثى بها معرة النعمان ويندب حظها العاثر وهى قوله :

هَذِه بلدةٌ قضى اللهُ يا صاح عليها ما تَرَى بالخَرابِ
فقفِ العيسَ وقفةً وابْكِ مَنْ كان بها من شيوخها والشباب
واعتبرْ إنْ دخلتَ يوماً إليها فهِى كانت منازلُ الأَحباب [4]

وفى العام نفسه يحتل الصليبيون بيت المقدس مسرى النبى عليه الصلاة والسلام ، وأولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين ، وعندما دخلوا المدينة المقدسة « انطلقوا فى شوارع المدينة ، إلى الدور والمساجد ، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز » [5] وذكر ابن الأثير فى تاريخه « أن عدد قتلى المسلمين زاد على

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٨٢ وما بعدها .
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ . ذكر ابن الأثير أن عدد القتلى زاد على مائة ألف . الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٨ .
(٣) تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٣٦٩ .
(٣) مرآة الزمان ، ج ٨ القسم الأول ص ٣٣ .
(٥) تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤٠٤ .

سبعين ألف قتيل ، منهم عدد كبير من أئمة المسلمين وعلمائهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور فى بيت المقدس »[1] وقد روى شاهد عيان ما فعله الصليبيون عندما دخلوا القدس فقال : « إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ، ويقذف بهم من فوق الأسوار ، وتهشم رؤوسهم بدقها بالعمد ، وذبح سبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا فى المدينة[2] .

وقد كان لاحتلال بيت المقدس أثر بالغ فى نفوس المسلمين عامة ، والشعراء منهم على وجه الخصوص ، فقالوا عدة قصائد فى ذكر هذه الواقعة المفجعة ، تحسروا فيها على ما حل بالمسلمين ، ومدينتهم المقدسة ، وذكروا ما فعله الإفرنج بمقدسات الإسلام من امتهان وازدراء ، وطالبوا المسلمين بالنهوض العاجل للجهاد ، فقال بعضهم :

أَحلَّ الكفرُ بالإسلام ضَيْماً ... يطولُ عليه للدِّين النَّحِيبُ
فَحَقٌّ ضائعٌ وحِمن مُباح ... وسيفٌ قاطعٌ وَدَمٌ صَبِيب
وكم من مسلمٍ أمسى سليبا ... ومسلمةٍ لها حرَمٌ سَليبُ
وكم من مسجد جعلوه دَيْراً ... على مِحْرابهِ نُصِبَ الصَّليبُ
دَمُ الخنزير فيه لهم خَلوقٌ ... وتحريق المصاحف فيه طيبُ[3]
أَمور لو تأَملهنّ طفلٌ ... لَطَفَّلَ فِى عوارضه المَشِيبُ[4]
أَتُسبى المسلماتُ بكل ثَغر ... وعيشُ المسلمين إذًا يَطِيبُ
أَمَا لله والإِسلام حقٌّ ... يُدافع عنه شُبان وَشِيبُ
فقل لذوى البصائر حيث كانوا ... أَجيبوا الله وَيْحَكُمُ أَجيبوا[5]

ولما رأى خليفة المسلمين ما حل بالقدس الشريف وأهله ندب الفقهاء والعلماء لدعوة الناس للجهاد وحثهم عليه .

---

(١) الكامل ، ج ١ ص ٢٨٢ .
(٢) قصة الحضارة ، ج ٤ م ٤ ص ٢٥ .
(٣) **خلوق** : الخلوق بالفتح ضرب من الطيب .
(٤) **طفل** : أى دنا وقرب .
(٥) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥١ .

وقد وصف الشاعر أبو المظفر الأبيوردى[1] حالة المسلمين وتفرقهم ، واحتلال بلادهم ، بقصيدة رائعة تمتلئ حماسة وقوة واندفاعاً للجهاد مطلعها قوله :

مَزَجْنَا دماءً بالدموع السَّوَاجِم فلم يبقَ منا عُرْضَةٌ للمَرَاجِم[2]

وقد وصف الشاعر حالة المسلمين فى بلاد الشام وما فعله الإفرنج بهم فقال :

وإِخوانكم بالشام يضحى مَقيلُهم ظهورَ المَذَاكى أَو بطونَ القشاعم
تَسومُهُمُ الرومُ الهوانَ وأَنتُم تجرُّون ذيلَ الخفض فِعْلَ المسالم
وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومن دُمى توارى حياءً حسنُها بالمعاصم[3]

وأنهى الشاعر قصيدته باستثارة همة المسلمين فقال :

فليتهم إِذ لم يذودوا حِميَّةً عنِ الدين ضَنُّوا غيرة بالمحارم
وإِن زَهِدوا فى الأَجر إِذ حَمِيَ الوغى فَهَلَّا أَتوه رغبةً فِى الغنائم
دعوناكم والحربُ تَرْنُو مُلِحَّةً إلينا بأَلحاظِ النسور القَشَاعم
فإِن أَنتمو لم تغضبوا بعد هذه رمينا إلى أعدائنا بالجرائم[4]

نلاحظ فى هذه القصيدة ، والقصائد الأخرى التى أوردناها فى بداية هذا الفصل ، أن الشاعر يعبِّر فيها عن أحاسيسه ومشاعره التى يثيرها فى نفسه اعتداء الصليبيين على بلاده وأمته ، ولذا فإن كلماته كانت تأتى صادقة معبرة عن الواقع الذى يعيشونه ، بعيدة عن الخيال والمبالغات والكلمات الزائفة التى لا طائل تحتها ، والتى كانت تقال لجمع المال ، والحصول على مكاسب مادية .

وفى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة فتح عماد الدين حصن بارين الذى وصفه ابن الأثير بأنه كان من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فمدحه ابن منير الطرابلسى ، وذكر هزيمته للفرنج ، بقصيدة حاول أن يقلد فيها أبا العتاهية فى قصيدته التى يقول فيها :

---

(١) هو أبو المظفر محمد بن أبى العباس الأبيوردى : شاعر مشهور له ديوان شعر . توفى بأصبهان فى شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة . «وفيات الأعيان ٤ - ٤٤٤ » .
(٢) الكامل فى التاريخ ١٠ - ٢٨٤ .
(٣) الكامل ١٠ - ٢٨٤ .
(٤) المصدر نفسه ١٠ - ٢٨٤ .

أَتـــه الخلافــةُ مُـنــقَــادَةً إلــيــه تُجَـرِّرُ أَذيــالَــهــا
فلـم تَـكُ تـصلـح إلّا لـهُ ولم يك يصلح إلّا لَـهَا

فقال ابن منير :

فَـدَتْـكَ الملـوكُ وأَيـامُـهَـا ودامَ لِـنَـقْـضِـكَ إبْـرامُـهـا
وزلَّـتْ لـعـيـشـك أقـدامُـهـا وزال لـبـطـشـك إقـدامـهـا
وَلَوْ لم تُسَلِّمْ إليكَ القلو بُ هَوَاها لما صحَّ إسلامُها
أَيا محيي الدِّين لَمَّا نعَا هُ أَيامى البرايا وأَيتامُها
ومستنقذ الدِّين من أُمة أزالَ المحاريبَ أَصنامُـهـا
دلفتَ لها تقتفيكَ الأُسو د والبيضُ والسُّمْر آجامها
جررتَ جزيرتها بالسيو ف حتى تشاءَمها شامها
وصـارت عـواريُّ أَكـنـافـه متى شئتَ أَرْخَصَ مُسْتَامَها[1]

تحدث ابن منير عن حبه لممدوحه ودعا الله أن يجعل ملوك الصليبيين فداء له ، وأن يزلزل أقدامهم ، ثم تحدث عن جهاده ، وأنه أحيا الدين وأنقذه عندما تخلى عنه الآخرون .

وقصيدة أخرى لابن منير قالها سنة أربع وأربعين وخمسمائة بمناسبة انتصار نور الدين على الإفرنج فى معركة حصن فامية « وهو حصن منيع على تل مرتفع عال ، من أحصن القلاع ، وأمنعها ، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيزر وينهبونها ، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار »[2] فسار إليه نور الدين وحاصره حتى فتحه وأنقذ المسلمين مما هم فيه .

وقد مدحه ابن منير الطرابلسى بقصيدة طويلة مطلعها :

أَسنى الممالك ما أَطلتَ مَنارَهَا وجعلتَ مُرْهفة الشِّفارِ دِثَارهَا
وأَحق من مَلَك البلادَ وأَهلَها رءُوفٌ تَكنَّف عدلُه أَقطارَهَا

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٥ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٦٢ .

وقد أشار ابن منير فى هذه القصيدة إلى الوضع المتدهور الذى كان عليه المسلمون فى السابق ، وكيف أن الله أعزهم بنور الدين فقال :

آلِ الرعيةَ وهْى تجهل آلها ... وتعاف نُطْفَتَها وتكره دارَها
فأقرّ ضَجْعَتَها وأنبت نِيّها ... وأساغ جرعتها وأثبت زارَها

وقد كان هذا الفتح طريقاً واسعاً لانتشار ملة الإسلام ، وبعث المسلمين من مرقدهم ، قال الشاعر :

أَنْشَرْتَ يا محمود مِلَّةَ أحمد ... من بعد ما شَمِلَ البلىَ أَصْحَارَها
فى كل يوم مِنْ فُتوحِكَ سورةٌ ... للدِّين يحمل سِفْرُه أَسْفَارَهَا
هِممٌ تَحَجَّلتِ الملوكُ وراءها ... بدم العِثار وما اقتفت آثَارَهَا

وقد وصف الشاعر هذه المعركة ، فذكر أن نور الدين أدرك ثأره من الصليبيين ، واستطاع أن يقضى على الصليب وأهله ، كما كانت هذه المعركة طريقاً لإحلال العدل ، وسلماً لوضع مهابة المسلمين فى قلوب أعدائهم ، يقول فى ذلك :

أَدركتَ ثأركَ فِى البُغاة وكنتَ يا ... مختارَ أَمّةِ أحمدِ مُخْتَارَها
خَرَّ الصليبُ وقد علت نغماتُها ... واسْتَوْبَلَتْ صلواتُه تِكْرارَهَا
ماض إذا قَرَع الرِّكاب لبلدة ... أَلْقَتْ له قَبْلَ القِرَاع إزَارهَا
مَلأَ البلادَ مواهباً ومهابة ... حتى اسْتَرقّتْ آيةٌ أَحْرارَهَا (١)

وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة هاجم نور الدين حصن حارم « وهو للفرنج فحصره ، وخرب ربضه ، ونهب سواده ، ثم رحل عنه إلى حصن آنب فحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية ، وساروا إليه ليرحلوه عن آنب فلم يرحل ، بل لقيهم ، وتصاف الفريقان ، واقتتلوا وصبروا ، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر فى الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس ، وانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج ، وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً . وفيمن قُتل البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج ، وذوى التقدم فيهم » (٢) .

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٨ .

وقد مدح الشعراء نور الدين بعدة قصائد ، وهنأوه بهذا الفتح ، ومن جملة هؤلاء ابن القيسرانى الذى قال قصيدة جميلة تذكرنا بقصيدة أبى تمام فى مدح المعتصم عندما فتح عمورية التى مطلعها :

السيفُ أصدق أَنباءً من الكُتبِ ... فِى حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللّعبِ

فقال ابن القيسرانى قصيدته التى مطلعها :

هَذِى العزائمُ لا ما تَدّعِى القُضُبُ ... وذى المكارم لاماقالتِ الكُتبُ
وهذه الهِمَمُ اللَّاتِى متى خَطَبتْ ... تعثرتْ خلفَها الأَشعارُ والخُطَبُ (١)

ثم قال فى وصف المعركة :

أَغرت سيوفُك بالإفرنج رَاجِفَة ... فؤادُ رومية الكبرى لها يَجبُ
ضربتَ كبشهمُ منها بقاصمة ... أَوْدَى بها الصُّلبُ وانحطَّتْ بها الصلب
قُلْ للطغاةِ وإن صُمَّت مسامِعُها ... قولاً لِصُم القنا فِى ذكره أَربُ
أَغرَّكمْ خدعةُ الآمال ظنكم ... كم أَسلمَ الجهلُ ظنّا غرة الكذب
غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْكَ رضى ... وكانَ دين الهدى مرضاتُهُ الغَضَبُ
طهّرتَ أَرضَ الأَعادِى من دمائهم ... طهارة كل سيف عندها جُنُبُ
حتى استطارَ شَرارُ الزند قادِحُهُ ... فالحربُ تُضْرَمُ والآجالُ تُحْتَطَبُ
والخيلُ من تحت قتلاها تقر لها ... قوائم خانهنَّ الركضُ والخَبَبُ
وَالنّقْعُ فوق صِقَال البِيضِ مُنْعَقِدٌ ... كما استقلّ دُخان تحته لَهَبُ
وَالنّبْلُ كالوَبْلِ هَطَّالٌ وليس ... سوى القسِى وأَيد فَوْقها سُحُبُ
خانوا فخانتِ رماحُ الطعن أَيديهم ... فاستسلموا وهِى لا نَبْعٌ ولا غَربُ
كذاك من لم يوق الله مُهْجَتَهُ ... لاقى العِدى والقَنَا فِى كفه قَصَبُ (٢)

وختم ابن القيسرانى قصيدته بدعوة نور الدين إلى استرجاع بيت المقدس وتطهير المسجد الأقصى من نجاسات المشركين ، فقال :

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٥٩ .

فانهضْ إلى المسجدِ الأَقصى بذى لجب   يوليك أَقصى المنى فالقدس مُرْتَقَبُ
وائذن لِمَوْجِكَ فِى تطهير ساحله   فإنما أنت بحر لُجُّهُ لجب [(1)]

نلاحظ أن الشاعر وصف المعركة وصفاً دقيقاً ، فتحدث عن الأسلحة التى استعملت فيها ، كالسيف ، والرمح ، والنبال ، كما وصف حالة المشركين البائسة وهم يلاقون هذه الهزيمة المنكرة ، فلا يملكون إلا الاستسلام ، بعد أن لعب الموت فيهم ، يقول :

خانوا فخانت رماحُ الطعن أيديهم   فاستسلموا وهى لا نَبْعٌ ولا غرب
أَجسادُهم فِى ثياب من دمائهم   مسلوبةٌ وكأَن القوم ما سُلبوا

كما أشار الشاعر كذلك إلى مقتل البرنس صاحب انطاكية ، وأبدى سروره بمقتله ، فقال فى ذلك :

مَنْ للشَّقى بما لاقت فَوارِسُه   وإن يُسَايِرُها من تحته قَتَبُ
عجبتُ للصعدةِ السمراءِ مُثْمِرَةً   برأسه إنْ إِثْمَار القَنا عَجَبُ
ما فارقت عذباتُ التَّاج مفرقه   إلا وهى منه لا تاجٌ ولا عذب
إذا القناةُ ابْتَغَتْ فِى رأسه نَفَقاً   بَدَا لِتَغْلِبِها من نَحْرِه سَرَبُ [(2)]

وقد تحدث ابن منير الطرابلسى عن هذا الفتح بقصيدة طويلة ، فذكر أن نور الدين أعاد إلى الإسلام عزته وكرامته ، وأعاد المسلمين إلى عصورهم الذهبية ، قال :

أَقوى الضلالُ وأَقْفَرتْ عَرَصَاتُه   وَعَلا الهُدى وَتَبَلَّجتْ قَسَماتُه
وانتاشَ دينَ محمد محمودُه   مِنْ بعد ما غلبت دَماً عَبَراتُه
فتح تعممت السماءُ بفخره   وَهَفَتْ على أَغصانِها عَذَباته
سَبَغْتَ على الإسلام بِيضَ حُجولهِ   واختال فِى أَوْضاحِها جَبَهاتُه [(3)]

ووصف الشاعر المعركة التى خاضها نور الدين ، والتى استطاع فيها أن ينتصر على

---

(١) المصدر السابق ص ٦٠ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٥٩ .
(٣) المصدر نفسه ص ٦٠ .

الصليب وأهله ، وأن يقتل البرنس صاحب أنطاكية ، ويلقيه فى العراء فريسة للذئاب والطيور ، يقول :

صَدَم الصَّليبَ على صَلابة عُودِه ... فتفرقتْ أَيْدى سَبَا خَشَباتُه
وسقى البرِنس وقد تَبَرْنَس ذِلةً ... بالروح ممقر ما جَنَتْ غَدَراتُه
فانقادَ فِى خَطْم المنية أَنفُه ... يوم الخَطِيم وأَقْصَرَتْ نَزَواتُه
تمشى القناةُ برأسه وهو الذى ... نظمتْ مَدار النيرَيْن قَنَاتُه
ما انقاد قبلك أَنفُه بخزامه ... كلا ولا همتْ لها هَدَراتُه
والآن مُلْقىً بالعَرا يقتاتُه ... ما كان قبلُ يَصِيدُه يَقْتَاتُه (١)

لم يقف شعراء الجهاد عند وصف المعارك التى انتصر فيها المسلمون ، بل إنهم تحدثوا كذلك عن المعارك التى انهزم المسلمون فيها ، وهى قليلة إذا قيست بكثرة انتصاراتهم بعد تولى عماد الدين زنكى قيادة المسلمين ، وقيامه بمحاولة استرداد بلادهم من أيدى الصليبيين .

ومن الهزائم التى لحقت بالمسلمين وتحدث عنها الشعراء ، هزيمة الرملة التى وقعت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . فقد ذكر أبو شامة فى تاريخه أن صلاح الدين نزل بجيشه على عسقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، فقاتل أهلها ، وانتصر عليهم ، فلما أمن جانبهم بعد هذا الانتصار تفرق عسكره فى الأعمال مغيرين ومبيدين ، وتوجه السلطان ببعض عسكره قاصداً الرملة ، فلما وصلها فاجأه جيش الإفرنج وهاجموه ، فتلقاهم الملك المظفر تقى الدين شاهنشاه ، وقاومهم مقاومة عنيفة ، فاستشهد ولده وعدد من جيشه ، وتفرق جيش المسلمين ، أما السلطان فاتجه مع بعض جنده حتى وصل إلى القاهرة (٢) .

ونظراً للجهد الكبير الذى بذله الملك المظفر فقد مدحه العماد الكاتب بقصيدة قال فيها :

أَخفتَ الشِّركَ حتى الذُّعْرُ منهم ... يُرى قبل الولادةِ فِى الجَنِينِ
ويوم الرملة المرهوب بأسا ... تركتَ الشرك مُنزعج القَطِين (٣)

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٦٢ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٢٧٣ .
(٣) قطن بالمكان : أى أقام به وتوطنه .

وكنتَ لعسكرِ الإسلام كَهْفاً   أَوى منه إلى حصنٍ حصين
وقد عَرَفَ الفرنجُ سُطاك لَمَّا   رأَوا آثارَها عَيْنَ اليقين
وأَنت ثَبَتَّ دُون الدين تَحْمِي   حِماه أوان ولى كلُّ دِين (١)

وكما تحدث الشعراء عن انتصارات المسلمين وهزائمهم ، فقد تحدثوا عن الملوك الذين لا يشاركون فى الجهاد ، فانتقدوهم بقسوة ، وحملوا عليهم حملة شعواء ، وبينوا أن هؤلاء الذين يتركون الجهاد يصرفون أوقاتهم فى اللهو الذى لا طائل تحته ، وفى جمع الأموال لتبذيرها فى طرق الفساد .

وردت هذه المعانى فى قصيدة للفقيه ابن أسعد الموصلى قالها سنة ست وسبعين وخمسمائة عندما انتصر السلطان صلاح الدين الأيوبى على الإفرنج فى معركة حصن المناقير ، فمدحه الشاعر ، ثم تحدث عن الملوك المتقاعسين عن الجهاد فقال :

لِيفْدِ حياءُ وجْهِكَ كلَّ وجه   إذا سُئل الندى جَهْم وقاح
ملوك جُلُّهم مُغْرى بظلم   ومشغولٌ بلهوٍ أَو مزاح
إذا ما جالت الأَبطالُ وَلَّى   ويقدم نحو جائلةِ الوِشاح
يرى الإنفاقَ فِى الخيراتِ خُسْراً   وأنتَ تراه مِن خَيْرِ الرباح
هُمُوا جمعوا وقد فَرَّقْت لكن   جمعتَ به الرجالَ مع السلاح
وَبَونٌ بين مالك بيت مال   ومالك رق أَملاك النواحى (٢)

ولما منَّ الله على المسلمين بفتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة أكثر الشعراء من مدح صلاح الدين ، وصف أحداث المعركة وأهميتها الكبرى بالنسبة للمسلمين ، فهى المعركة التى ردت على المسلمين قدسهم ومسجدهم الأقصى ، كما أنها أعادت إلى المسلمين عزتهم وكرامتهم ، ومكنتهم من استرداد بقية بلادهم من الصليبيين فيما بعد .

وكان العماد الأصفهانى من جملة الشعراء الذين تحدثوا عن هذه المعركة ، فقال قصيدة طويلة منها قوله :

---

(١) **الدين** : هو الذليل المستبعد . والقصيدة فى الروضتين ، ج ١ ص ٢٧٤ .
(٢) مضمار الحقائق ص ٤٤ .

رأَيتُ صلاحَ الدين أَفضلَ من غدا ... وأَشرفَ من أَضحى وأَكرمَ من أَمسى
وقيل لنا فِى الأرض سبعة أَبحرٍ ... ولسنا نَرَى إلّا أَناملَه الخَمْسَا
سَجِيَّتُه الحُسنى وشيمته الرِّضى ... وبطشتُه الكبرى وعزمته القَعْسَى
جنودُك أَملاكُ السَّماءِ وَظَنُّهُم ... أَعاديك جِنًّا فِى المعارك أَو إنسا [1]
سَحَبْتَ على الأَرْدُنِّ رِدْناً من القنَا ... رُدَيْنِيَّةً مُلْداً وخَطِّيةً مُلْسَا
ونعم مجال الخيل حِطِّين لم تكن ... معاركها للجُرْدِ ضِرْسا ولا دَهَسَا
طردتهمُ فِى الملتقى وعكستهم ... مُجيدا بحكم العزم طَرْدَك والعكسا
فكيف مَكَسْتَ المشركين رؤوسَهم ... ورأْيُك فِى الإحسان أَن تُطلق المُكْسا
كسرتهم إذا صَحَّ عزمُك فيهم ... ونَكَّسْتَهم من بعد أَعلامهم نَكْسا
بواقعة رَجَّت بها أَرض جيشهم ... ومَارَتْ كما بُسَّتْ جبالُهم بَسَّا
بطونُ ذئابِ الأَرض صارت قبورَهم ... ولم تَرْضَ أرضٌ أَن تكون لهم رَمْسَا
ومن قبل فتح القُدس كنت مُقدَّساً ... فلا عَدِمَتْ أَخلاقكُ الطُّهرَ والقُدْسا
نزعتَ لِباسَ الكفر عن قُدْس أَرضها ... وأَلبستها الدِّين الذى كشف اللّبْسَا
جرى بالذِى تَهْوَى القضاءُ وظاهرتْ ... ملائكةُ الرَّحمن أَجنادَك الخُمْسا [2]

وكما أشرت سابقاً ، فإن قصيدة العماد طويلة جداً دلت على مدى العاطفة الجياشة التى كانت تعتمل فى نفس الشاعر ، وعبرت عن فرحته وفرحة المسلمين بهذا النصر العظيم .

ولما تم فتح بيت المقدس أرسل العماد الكاتب قصيدة إلى الخليفة الناصر يبشره بهذا الفتح العظيم الذى لم يكن يخطر على بال إنسان ، حتى جاء صلاح الدين فأحيا الهدى ، وأمات الشرك ، وقمع الطغاة .

وفى البيت الأخير قارن الشاعر بين ما فعله النبى عليه الصلاة والسلام عندما دخل

(١) وردت فى الروضتين ٢ - ١٠١ « لا الا نسا » وأرجح أنها الكلمة الصحيحة لأنها تناسب المعنى فى البيت .

(٢) معجم الأدباء ٧ - ٨٨ ، والروضتين ٢ - ١٠١ .

مكة فاتحاً ، إذ أخرج الأزلام والأنصاب من المسجد الحرام وقضى على الشرك والجاهلية ، فصلاح الدين عمل كذلك على إخراج الصلبان من المسجد الأقصى حينما دخل القدس فاتحاً وقضى بذلك على شرك الصليبيين وكفرهم .

عبر العماد عن هذه المعانى عندما قال فى قصيدته :

أَبْشِرْ بفتحِ أَمير المؤْمنين أَتى ... وَصِيتُهُ فِى جميع الأَرض جَوَّابُ
ما كان يُخطَرُ فِى بالٍ تَصَوُّرُهُ ... واستصعب الفتح لما أُغلق الباب
وحامَ عنه الملوكُ الأَقدمون وقد ... مَضَتْ على الناس من بلواهُ أحقاب
نَصْرٌ أَعادَ صلاحُ الدين رَوْنقَهُ ... إيجَازُه بِبَليغِ القَوْلِ إِسْهَابُ
أَحْيَا الهدى وأَمات الشركَ صارمُه ... لقد تجلى الهدى والشركُ مُنْجَابُ
بفتحه القدسَ للإسلام قد فُتِحتْ ... فى قَمْع طاغيةِ الإشراك أَبوابُ
ففى موافقة البيت المقدس ... للبيت الحرام لنا تيه وإعجاب
نَفَى من القُدس صُلباناً كما نُفيَتْ ... من بيت مكة أَزْلَامٌ وأَنْصَابُ (١)

ولما تم للمسلمين فتح طبرية فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة تحدث الشعراء عن هذا الفتح ، ووصفوا عظمته ، ومن هؤلاء أبوالحسن على ابن ساعاتى الذى وصف هوان الصليب ، وذلته بعد عظمته ، ثم تحدث فى مناعة المدينة وحصانتها ، فشبهها بالفتاة العفيفة الممتنعة على الخطاب ، ولكن الأسد صلاح الدين استطاع أن يصل إليها بالقوة ، وأن يحيل قسوتها إلى لين ، فتستسلم له وتسلم له قيادها . وهذه صورة جميلة أبدع فيها الشاعر وأجاد ، نلاحظ ذلك فى قوله :

ومـا طَـبَـرِيَّــةٌ إلا هَـدِىٌّ ... ترفع عن أَكُفِّ اللَّا مِسينا
حَصانُ الذَّيْل لم تُقْذَفْ بسوءِ ... وَسَلْ عنها اللَّيالَى والسِنينَا
فَضَضْتَ خِتامَهَا قَسْرًا وَمَنْ ذا ... يَصُدُّ اللَّيثَ أَنْ يَلجَ العرينا
لقد أَنْكَحْتَهَا صُمُّ العوالى ... فكان نَتَاجُها الحَرْبَ الزَبونا
قَسَتْ حتى رأَتْ كُفؤاً فَلاَنتْ ... وغايةُ كُلِّ قاسٍ أَنْ يَلِينَا (٢)

---

(١) الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٥ .

ثم تحدث عن حالة أهلها فقال : إن صباحهم انقلب إلى ظلام دامس ، وهذا كناية عن البؤس والشقاء الذى حل بهم ، كما أن صراخهم وزئيرهم تحول إلى أنين خافت ، وهذا أيضاً كناية عن الذل الذى لحق بهم من جراء هذا الفتح . وقد طابق الشاعر فى هذا البيت بين الصباح والظلام ، وبين الزئير والأنين ، ولم نلاحظ عليه التكلف أو ضعف المعنى . قال الشاعر :

جعلتَ صباحَ أَهليها ظلاماً　　　وأَبْدَلْتَ الزئيرَ بها أَنينا (١)

وعندما أراد الشاعر أن يعبر عن كثرة قتلى المشركين ذكر ذلك بصورة جميلة ممتعة ، فقال : إن أسيافك يا صلاح الدين وهى تضرب رؤوس المشركين تحدث صوتاً غنائياً جميلاً ، تهفو له أفئدة الطيور ، فتهبط من عليائها لتستمتع بهذه الموسيقى الجميلة ، وتملأ بطونها من جثث القتلى . قال الشاعر :

لِبِيضِكَ فِى جماجمهم غِنَاءٌ　　　لذيذٌ علَّمَ الطيرَ الحَنِينَا (٢)

لم يكن شعراء الشام وحدهم الذين تحدثوا عن الحروب الصليبية ، فقد شاركهم فى ذلك إخوانهم المصريون ، إذ إن المعركة ليست معركة الشاميين وحدهم ، فالمسلمون كلهم مسئولون عن إخراج الصليبيين من كل بلاد المسلمين . ومعروف فى تاريخ الحروب الصليبية أن مصر كانت أكبر مساعد فى إخراج الصليبيين إذا شاركت برجالها وأبنائها فى هذه الحروب الطاحنة من بدايتها حتى نهايتها .

وكما شارك المقاتلون فى هذه المعركة ، فقد شارك الشعراء فيها أيضاً فأجادوا وأفادوا . ومن هؤلاء الشاعر ابن سناء الملك (٣) الذى مدح الملك العزيز بمناسبة خروجه لقتال الفرنج سنة أربع وتسعين وخمسمائة عند نزولهم على حصن تبنين (٤) وكانوا قد ضايقوا الحصن وأوشكوا على أخذه ، فلما علموا بقدوم العزيز خافوا وقفلوا راجعين (٥) . فقال ابن سناء قصيدة طويلة يذكر هذه الحادثة ، منها قوله :

---

(١) الروضتين ، ج ٢ ص ٨٥ .
(٢) المصدر السابق ٢ - ٨٥ .
(٣) انظر ترجمته فى صفحة ٣٥٦ من هذا البحث .
(٤) **تبنين** : بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلدة بانياس بين دمشق وصور « معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٤ » .
(٥) الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣٣ .

جِئتَ لِتبْنِينَ ومنْ حَولها | قَوْمٌ كأَعداد الحَصَى للحِصَار
سَاق إليها الكفرُ أَجناسَه الـ | ـعظام قَادَتُها الملوكُ الكِبار
مِنْ كل من يزأَر من غيظه | كأَنه من مَغْرِب الشمس نَار
إمَّا على البر أَتى راكضا | أو بجناح القَلْع فِى البحر طار
وَطَبَّقوا البحر سَفِيناً فَمَا | بَانَ وساروا فوقها فى قِفَار
وَأَمُّوا الثّغْر وطافوا به | وأَحدقوا كالغلِّ لا كالّسِوَار
وكان ذاك الثغرُ مع أهله | فعندما أَطْلَلْتَ طاروا شَرَار
وانهزموا للبحر إذ أَبصروا | بَحْرَ وَغَىً تَغْرَقُ فيه البحار
وعذرهم إذ هربوا واضح | هل يثبت الليلُ أَمامَ النهار
يا ملكا يهزم أَعداءَه | بالرعب هذا وأَبيك الفَخَار (١)

نلاحظ أن الشاعر وصف جيش الصليبيين ، وكثرة أعداده وقوتهم واجتماعهم لأخذ الحصن ، ولكنهم لم يثبتوا أمام عزم الملك العزيز ففروا منه فرار الليل من النهار .

وكما وصف الشعراء انتصارات المسلمين وهزائمهم ، تحدثوا كذلك عن بعض المآسى التى كانت تلحق بهم بين الحين والآخر ، ومن هذه المآسى ما أورده ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة من أن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق قام سنة ست عشرة وستمائة بتخريب بيت المقدس حينما بلغه أن الفرنج عازمون على أخذه ، ولم يكن فيه من يستطيع الدفاع عنه ، فشرع فى هدمه فى أول محرم من تلك السنة (فوقع فى البلد ضجة عظيمة ، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ وغيرهم إلى الصخرة والأقصى وقطعوا شعورهم ، ومزقوا ثيابهم ، وفعلوا أشياء من هذه الفعال ، ثم خرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأهاليهم ، وما شكوا أن الفرنج تصبحهم وامتلأت بهم الطرقات ، فتوجه بعضهم إلى مصر ، وبعضهم إلى الكرك ، وبعضهم إلى دمشق . وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا ، ومات خلق كثير من الجوع والعطش ونهبت الأموال التى كانت لهم بالقدس ، وبلغ ثمن قنطار الزيت

---

(١) ديوان ابن سناء ص ٢٨٤ - ٢٨٧ .

عشرة دراهم ورطل النحاس نصف درهم . وذم الناس المعظم)[1] .

وقد أثرت هذه الحادثة المفجعة على كثير من الشعراء ، فألهبت عاطفتهم وأججت الحزن فى نفوسهم ، فتخريب الأقصى ليس بالأمر الهين على المسلمين ، وما نتج عن هذا التدمير كان أشد وأدهى .

وقد عبَّر شهاب الدين أبو يوسف يعقوب ابن المجاور عن هذه الحادثة فقال :

أَعينِى لا تَرْقِى من العبَرَات ... صِلى فى البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمعِ يطفئ فَيْضُها ... تَوَقُّد ما فِى القلب من جَمَرات
ويا قلب أَسعِرْ نارَ وجدك كلما ... خَبَتْ بادِّكارِ يَبْعَثُ الحسرات
ويا فَمُ بُحْ بالشَّجو منك لَعَلَّهُ ... يروح ما أَلقى من الكُرُبَات
على المسجد الأقصى الذى جَلَّ قَدْرُهُ ... على موطن الإِخْبَات والصَلَوَاتِ
على منزل الأَملاك والوحيِ والهُدَى ... على مَشْهَدِ الأَبْدَال والبَدَلَاتِ
على سُلَّم المعراج والصخرةِ التى ... أَنَافَتْ بما فِى الأَرض من صَخَرَات
على القبلة الأُولى التى اتَّجَهَتْ لها ... صلاةُ البرايا فى اختلاف جِهَاتِ
لِتَبْكِ على القدس البلادُ بأَسرها ... وتُعلن بالأَحزانِ والترحاتِ
لِتَبكِ عليها مكةٌ فهِى اختُها ... وتشكو الذىِ لاقتْ إلى عَرَفَات
لِتَبك على ما حَلَّ بالقُدس طَيْبَةٌ ... وتشرحه فى أَكرم الحُجُرات
فَمَنْ لِى بنواح يَنُحْن على الذى ... شَجَانِى بأَصْوَاتِ لَهُنَّ شجاة
يُرَدِّدْنَ بيتا للخُزاعِى قاله ... يُؤَبِّنُ فيه خيرة الخيرات[2]
مدارسُ آياتِ خَلَتْ من تلاوة ... ومنزل وَحْى مُقْفِر العَرَصَات[3]

نلاحظ أن هذه القصيدة تتناسب كثيراً مع الموقف الذى قيلت فيه ، فهى حزينة باكية ، تقطر كلماتها أسى ولوعة ، ومن ثنايا القصيدة تفوح رائحة البكاء والأنين ،

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٤٥ .

(٢) هود عبل الخزاعى .

(٣) الروضتين ، ج ٢ ص ٢٠٦ .

فالشاعر يبكى بحرقة ويطلب من الآخرين أن يشاركوه حزنه وألمه ، فالموقف يستحق البكاء والألم ، بل إنه يطلب من مكة والمدينة أن تشاركا اختهما القدس فى مصابها العظيم ، بل إن البلاد كلها مطالبة بأن تعلن عن حزنها ومصيبتها فى ضياع بيت المقدس . كما نلاحظ كذلك أن عاطفة الشاعر صادقة جياشة ، فحزنه حقيقى بعيد عن الافتعال أو التصنع ، وقد انعكست هذه العاطفة الصادقة على كلماته فجاءت بعيدة عن التكلف أو التعقيد مما جعلها تؤدى دورها كاملاً فى التأثير على نفوس السامعين .

استمر بيت المقدس فى أيدى الإفرنج أحد عشر عاماً حتى استطاع الملك الناصر داود استرجاعه مرة أخرى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وقد استبشر المسلمون بهذا الفتح ، وعبَّر عن ذلك جمال الدين بن مطروح فقال :

المسجد الأَقصى له آية ... سارتْ فصارت مثَلاً سائرا
إذا غدا للكفر مُستوطَناً ... أَن يبعثَ اللهُ له ناصرا
فناصرٌ طَهَّرَهُ أَولا ... وناصرٌ طهره ، آخرا [1]

وفى سنة ثمانٍ وثمانين وستمائة استطاع الملك المنصور قلاوون أن يفتح طرابلس بالقوة ، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، وغرق فى الماء جماعة منهم . وكانت طرابلس من أمنع البلاد وأقواها ، وبقيت فى أيدى الفرنج من سنة ثلاثٍ وخمسمائة حتى فتحها المنصور قلاوون [2] .

وقد استبشر المسلمون بهذا الفتح ، ووصفه الشاعر شهاب الدين أبو الثناء محمود [3] بقصيدة قال فيها :

علينا لمَنْ أَولاكَ نعمتَه الشُكرُ ... لأَنك للإسلام يا سيفه الذُخر
نهضتَ إلى عليا طرابلسَ التى ... أقل عناها أن خندقَها البحر
وقد ضَمَّها كالطوقِ إلَّا بقيةً ... كنحرٍ وأنت السيفُ لاحَ لَهُ النَّحْرُ
مُمَنَّعةٌ بِكرٌ وهل فِى جميع ما ... تملكته إلَّا ممنعة بكر

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ - ٣٢١ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .
(٣) انظر ترجمته فى هذا البحث .

فكم مَر من دهرٍ وما مَسها أَذى وكم راح من عصر وما راعها حَصر
ففاجَأْتها بالجيش كالموجِ فانثنت تَميدُ وقد أَربى على نحرها السَّبْرُ
كأَن المجانيق التى أُوترت ضُحى عليها لها فى ثَلْم أَبراجها وِتر
تُحَلِّقُ فِى جوٍّ السماءِ وترتمِى إليهم كما ينقض من حالق نسر
ومن تحتها تلك النقوبُ كأَنها إذا ما تَمَشَّتْ فِى ضمير الثرى سِرٌّ
فزلزلتها بالركض فانهدَّ رُكْنها ولم يبق من دون المنايا لها ستر
قَسمَتهم شَطْرَين غير غريقهم فللسيف شطر والقيودُ لها شَطْر[1]

أجاد الشاعر كثيراً فى حديثه عن هذه المعركة الخطيرة التىخاضها الملك المنصور قلاوون ، واستطاع تحقيق نصر عظيم على الصليبيين فيها .

وقد التزم الشاعر بالأمانة التاريخية فى وصفه لهذه المعركة ، والحديث عن مناعة المدينة ، وصعوبة الاستيلاء عليها .

وقد أشار الشاعر إلى نوع من أنواع أسلحة الحصار التى كانت تستعمل آنذاك ، وهى المجانيق ، وقد استخدمها قلاوون فى حصاره لطرابلس ، وكان لها أثر فعال فى استسلام المدينة .

وصنف آخر من صنوف القتال ذكره الشاعر فى قصيدته ، وهو قيام فئة متخصصة فى الجيش بعمل نقوب فى أسوار المدينة ، وإشعالها بالنيران كى تنهدم ، ويسهل دخول البلد بعد ذلك .

أما نتيجة هذه المعركة فهى وقوع الصليبيين بين أيدى المسلمين بين قتيل وأسير .

وفى بداية سنة تسعين وستمائة استولى الأشرف خليل على مدينة عكا بعد حصار طويل ، وقد كانت هذه المدينة من المدن الحصينة ، وكان الاستيلاء عليها يعنى نهاية الصليبيين فى بلاد الشام ، لأنها كانت أكبر مدينة باقية معهم ، وقد خلد هذا الفتح الشهاب محمود الحلبى بقصيدة منها قوله :

الحمدُ لله ذَلَّتْ دولةُ الصُّلبُ وعز بالترك دينُ المصطفى العربى

---

(١) درة الأسلاك فى دولة الأتراك ص ١٨٧ .

ما بعدَ عكا وقد هُدَّتْ قواعدُهَا فِي البحر للشرك عند الله مِنْ أَربِ
لم يبقَ من بعدها للكفر إذ خَرِبت في البر والبحر ما يُنجي سوى الهرب
يا يوم عكا لقد أنسيتَ ما سبقتْ به الفتوحُ وما قد خُطَّ فِي الكُتُبِ
أَغضبتَ عُبَّاد عيسى إذ أَبَدْتَهُمُ لله أَى رضى فى ذلك الغضب
وأشرفَ المصطفى الهادى البشيرُ على ما أَسلف الأَشرفُ السلطان من قُرْبِ
ما بعدَ عكا وقد لَانَتْ عريكَتُها لديك شىءٌ تلاقِيهِ على تَعَبِ
فانهضْ إلى الأَرضِ فالدنيا بأَجمعها مَدَّتْ إليك نواصيها بلا تَعَبِ (١)

كما وصفه بقصيدة أخرى ، بدأها بالحديث عن مناعة « عكا » ، وصعوبة الاستيلاء عليها ، وتخطى أسوارها وأبراجها المنيعة ، فقال :

سورانِ برٌّ وبحرٌ حول ساحتِها دارا وأَدناهما أَنْأَى من القُطب
خرقاءُ أَمنعُ سوريها وأَحصنه قلبُ الكماةِ وأَقواه على النُّوبِ
مثلُ الغمامة تهدِي من صواعقها بالنبل أَضعافُ ما تهدِي من السحب
كأنما كلّ بُرْجٍ حوله فَلَكٌ من المجانيق ترمِي الأَرض بالشهب

وبعد أن وصف مناعة المدينة ، بدأ بالحديث عن الجهد الكبير الذى بذله المنصور قلاوون فى حصارها ، كما أشار إلى المجانيق التى استعملت فى حصار المدينة ، وفتحها ، فقال :

وجئتهَا بجيوشٍ كالسيولِ على أمثالِها بين آجام من القُضُبِ
وحطتها بالمجانيق التى وقفت أَمام أَسوارها فى جَحْفل لَجِب
ورضْتها بنقوب ذللت سهما منها وأَبدت مُحَيَّاها بِلا نُقُب (٢)

كان لشعراء الجهاد طيلة فترة الحروب الصليبية أثر بارز وكبير فى دفع المقاتلين إلى بذل التضحيات ، وحث قادة المسلمين على استرجاع بلادهم ومقدساتهم .

وكان هؤلاء الشعراء ينتهزون كل فرصة للتعبير عن تطلعاتهم إلى تحقيق النصر

(١) المنتخب فى تكملة تاريخ حلب ص ٢٠٧ .
(٢) كنز الدرر ، ج ٨ ص ٣١٥ وما بعدها .

النهائى على الصليبيين ، وكانوا عقب كل معركة ينتصر فيها المسلمون ، يحثون القائد على تحقيق نصر آخر ، فعندما انتصر عماد الدين على الصليبيين فى معركة بارين سنة أربع وثلاثين وخمسمائة مدحه ابن القيسرانى بقصيدة طويلة ، طالبه فيها أن يستمر فى جهاده ، حتى يحرر بلاد الشام كلها . قال :

لا فَارَقَتْ ظل محيى الدين لامِعَةٌ ... كالصبح تَطوِى من الأَعداءِ ما نَشَرُوا
ولا أنثنى النصرُ عن أَنصار دولته ... بحيث كان وإن كانوا به نُصروا
حتى تعودَ ثُغورُ الشام ضاحِكَةً ... كأَنما حلَّ فى أَكْنافِهِمْ عُمَرُ (١)

وعندما انتصر نور الدين على الصليبيين فى معركة أنطاكية ، سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، مدحه ابن القيسرانى ، وطلب منه الاستمرار فى الجهاد حتى يتم له تحرير بيت المقدس . قال :

كنا نَعُدُّ حِمى أَطرافِنا ظَفَرًا ... فَمَلّكتْكَ الظُبى ما ليس نحتسبُ
عَمَّتْ فتوحُك بالعدوى مَعَاقِلَهَا ... كأَنَّ تسليم هذا عند ذا جَرَبُ
لم يبق منهم سوى بِيض بلا رَمَقٍ ... كما التوى بعدَ رأْس الحيةِ الذَّنَبُ
فانهضْ إلى المسجدِ الأَقصى بِذِى لَجَب ... يوليك أَقصى المُنى فالقدس مُرْتَقَبُ
وأْذن لِمَوْجِكَ فِى تطهيرِ ساحله ... فإنما أنتَ بحرٌ لُجُّه لَجَبُ (٢)

وقد كرر ابن القيسرانى هذا المعنى فى كثير من قصائده ، فبعد انتصار نور الدين على الصليبيين سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، مدحه بقصيدة طويلة ، حثه فيها على مواصلة الجهاد ، حتى يسترجع الأقصى ، فقال :

فسرْ واملأ الدنيا ضياءً وبهجةً ... فبالأُفق الدّاجِى إلى ذا السَّنَا فَقْرُ
كأَنِّى بهذا العزم لا فُلَّ حَدُّهُ ... وأَقصاه بالأَقصى وقد قُضِى الأَمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جارى الدماءِ له طُهْر (٣)

وقد كان طلائع بن رزيك الوزير المصرى الشاعر ، ممن حث على مواصلة جهاد

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٧٣ .

الصليبيين فى كثير من قصائده التى بعث بها إلى أسامة بن منقذ فى الشام ، وطلب منه إبلاغها إلى نور الدين .

ومن جملة قصائده قوله يخاطب أسامة :

ما لهذا الْمُهِمِّ مثلك مجد الدين   فانهضْ به فأَنت حَقِيقْ
قل له لا عَدَاهُ رأىٌ ولا زال   لديه لكل خير طريق
أنتَ فى حسم داءِ طاغيةِ الكـ   ـفار ذَاكَ المَرْجُوُّ والمرموق
فاغْتَنِمْ بالجهادِ أَجرَك كى تلـ   ـقى رَفيقاً له ونِعْمَ الرّفيق(١)

وعندما تولى صلاح الدين ملك مصر سنة أربع وستين وخمسمائة مدحه العماد الكاتب ، وحثه على استرجاع القدس ، وتدمير الصليبيين ، فقال :

فَصُبُّوا على الإفرنج سوْطَ عَذَابها   بأَن يُقسموا ما بينها القتلَ والأَسرا
ولا تُهملوا البيتَ المقدس واعزِموا   على فَتْحِه غازين وافْترعُوا البِكْرا
تُدِيمون بالمعروفِ طَيِّبَ ذكْرِكم   وما المُلكِ إلَّا أن تُدِيموا لَكمْ ذِكْرا(٢)

وقد استمر شعراء الجهاد فى تغذية روح القتال عند قادة المسلمين ، فواصلوا الدعوة إلى تحرير بلاد المسلمين كلها ، وطرد الصليبيين منها .

فعندما استولى الأشرف خليل على مدينة عكا سنة تسعٍ وثمانين وستمائة مدحه الشهاب محمود الحلبى بقصيدة قال فيها :

ما بعدَ عكا وقد لانَتْ عَريكَتُها   لديك شيءٌ تُلاقِيه على تَعَبِ
فانهضْ إلى الأَرْضِ فالدنيا بأَجمعِها   مَدَّتْ إليكَ نَواصِيها بلا نَصَبِ(٣)

* * *

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ١١٦ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٩ .
(٣) المنتخب فى تكملة تاريخ حلب ، ص ٢٠٧ .

لاحظنا أن شعر الجهاد سجل أحداث الحروب الصليبية ، فتحدث الشعراء عن انتصارات المسلمين ، وعن الهزائم التى لحقت بهم ، كما وصفوا كذلك النكبات التى كانت تصيبهم بين فترة وأخرى .

وصور شعراء هذه الفترة معارك الإسلام الكبرى ، وتحدثوا عن نتائجها ، وأشادوا بأبطالها ، ووصفوا الأسلحة التى استعملت فيها .

وقد أججت هذه الحروب التى دامت زهاء قرنين من الزمان ، نار الحقد والبغض فى نفوس المسلمين ضد الصليبيين ، فكان شعر هذه الفترة صادق العاطفة ، ينبعث من نفوس الشعراء بصدق وإخلاص ، لأنهم يعبرون عن قصائدهم عما يختلج فى نفوسهم من بغض للأعداء ، ورغبة ملحة فى طردهم من بلاد المسلمين ، كما كانوا يعبِّرون فى الوقت نفسه عن أمانيالشعب الإسلامى ، وتطلعاته فى استعادة بلاده ومقدساته .

وقد تميز شعر الجهاد فى هذه الفترة عن موضوعات الشعر الأخرى بالجدية والالتزام ، فكان لشعراء الجهاد هدف يسعون إليه ، وغاية نبيلة يرجون تحقيقها ، وفى سبيل ذلك حاولوا الارتفاع بشعرهم لغة وأسلوباً ، لتحقيق الغاية التى يريدونها .

وقد تميز شعر الجهاد كذلك ، بأنه كان نتيجة معاناة مر بها الشعراء فعبروا عنها ، وخلَّدوها فى أشعارهم ، ولم يكن هذا الشعر تقليداً لنماذج أدبية سابقة ، وإن اقتبس بعض الشعراء من سابقيهم كالمتنبى وأبى تمام ، إلا أنهم كانوا يصفون معارك حية وقعت أمامهم ، أو كانوا قريبين منها ، تؤثر عليهم أحداثها ونتائجها .

* * *

الباب الثالث

دراسة تحليلية لشعر الجهاد

في الحروب الصليبية

الفصل الأول
موضوعات شعر الجهاد

إن الذى يتأمل تاريخ الحروب الصليبية يتبين بوضوح الأثر الكبير الذى تركته هذه الحروب التى – دامت زهاء قرنين من الزمان – على حياة المسلمين فى بلاد الشام ، فقد أحدثت تغيراً كبيراً فى حياة المسلمين السياسية والاجتماعية والثقافية .

وكان لابد للأدب أن يشارك فى رسم صورة لحياة الجهاد التى كان يحياها المسلمون آنذاك .

وسنبين فى هذا الفصل ، أن شعر الجهاد واكب هذه الحروب منذ بدايتها وعاش معها فى كل مراحلها وتطوراتها المختلفة ، حتى انتهت بخروج الصليبيين من بلاد الإسلام .

حمل شعراء الجهاد على عواتقهم عبء الدعوة إلى الجهاد ومقاومة المحتلين ، وتوحيد الجهود الإسلامية المشتتة ، لمقاومة العدو المشترك الذى جاء ليقضى على المسلمين ، ويحتل ديارهم .

وعندما بدأت هذه الحروب ، وخاضها قادة المسلمين المخلصون ، نذر كثير من الشعراء أنفسهم لوصف هذه المعارك ، وتمجيد البطولات الإسلامية ، كما أنهم اعتنوا بصفة خاصة فى كثير من قصائدهم بحث المسلمين على مواصلة الجهاد ، وبذل الأنفس والأموال ، ومقاومة الصليبيين ، وتطهير بلاد المسلمين من رجسهم .

وكان لهذه القصائد التى تمتلئ حماسة وقوة أثر عظيم فى دفع المسلمين إلى مواصلة كفاحهم ، وتكثيف جهودهم ، حتى يستردوا ديارهم . ولم ينس شعراء الجهاد أن يخصصوا جزءاً من أشعارهم لمدح القادة العظام الذين حققوا للأمة المسلمة انتصاراتها بعد الذل والهوان الذى كانت فيه بسبب ضعف القادة السابقين وتخاذلهم وتفرقهم . وفى الوقت نفسه هجوا المتخاذلين المتقاعسين الذين لا هم لهم إلا مصالحهم الخاصة .

كما نلاحظ أيضاً أن شعر الجهاد خلد عظماء المسلمين ، الذين استشهدوا فى سبيل الله ، بقصائد رثائية فى غاية الجودة .

وباختصار سوف نلاحظ فى دراستنا لموضوعات شعر الجهاد ، أن هذا الشعرساير هذه الحروب ، وتحدث عنها ، وعن موضوعاتها المختلفة وسيتبين لنا ذلك كله من خلال دراستنا لموضوعات شعر الجهاد فيما يأتى :

أولاً : الدعوة إلى الجهاد :

تكتل الصليبيون فى الغرب المسيحى - كما سبق أن بينا - وجاءوا إلى بلاد المسلمين بجحافلهم الجرارة ، يدفعهم تعصب أعمى ضد المسلمين ، وتطلع لاحتلال بلادهم ، وأخذ خيراتها .

وفى طريقهم الذى شقوه فى البلاد الإسلامية ، دمروا كل شىء ، وقتلوا أعداداً كبيرة من المسلمين ، وأخذوا يقتطعون بلادهم .

وكان السبب الرئيسى لما حل بالمسلمين فى بداية هذه الحروب هو تفرقهم ، وانشغالهم بقتال بعضهم بعضا ، وضعف الوازع الدينى فى نفوس أمرائهم ، بحيث إن بعضهم كان يمالئ الإفرنج ضد إخوانه المسلمين .

وقد كان ابن الخياط [1] من أوائل الشعراء الذين دعوا إلى الجهاد ، فقد سمع بمجئ النصارى إلى بلاد المسلمين فثارت حميته ، وقال قصيدة طويلة قدمها إلى عضب الدولة زعيم الجيوش فى دمشق ، حثه فيها على الجهاد ، ومطلع هذه القصيدة قوله :

فدتكَ الصَّواهلُ قُبًّا وجُرْدا وَشُمُّ القبائل شِيباً وَمُرْدًا
وذلَّتْ لأَسيافِكَ البِيضُ قُضْبا ودانَتْ لأَرْماحِكَ السُّمْر مُلْدا [2]

ثم يقول له بعد أبيات عديدة ناصحاً وموجهاً ، ومبيناً له أن جيوش المشركين قد أقبلت إلى بلاد المسلمين ، وهى كالسيل المنحدر ، بل هى أعظم منه وأكبر ، إنها

---

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن على التغلبى ، شاعر دمشقى مشهور له ديوان شعر . كانت ولادته سنة خمسين وأربعمائة بدمشق ، وتوفى بها فى حادى عشر من شهر رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة . وفيات الأعيان ١ - ١٤٥ .

(٢) ديوان ابن الخياط ص ١٩٢ .

كالجبال العاتية لا يصح التراخى معها ، لأنها أقبلت تبادر إلى الحرب ، وتجعلها نقداً لا تأجيل فيها :

وإِنّى لَمُهْدٍ إليكَ القريضَ يُطْوَى على النُّصحِ والنُّصْحُ يُهدَى
إلى كم وقد زَخَر المشركون بسيل يُهالُ له السَيلُ مَدًّا
وقدْ جاش من أرضِ إفْرَنْجَةٍ جيوشٌ كمثلِ جبالٍ تَرَدًّا (١)

وبعد هذه الأبيات التى نلمس فيها اللطف والهدوء فى النصح ، وسرد أخبار قدوم الإفرنج ، يثور الشاعر ثورة عنيفة ، ويستنكر بشدة الحالة المزرية التى وصل إليها المسلمون ، ويقول : أيجوز النوم والكسل ونحن على هذه الحالة ؟ أيصح الهزل وقد انقلب الأمر إلى جد ؟ أيكون النوم مناسباً وهناك أعين حاقدة ؟ وبعد أن ينتهى الشاعر من هذه التساؤلات الاستنكارية يقرر حقيقة ملموسة ، وهى أن شر الضغائن ما كان دافعها الكفر ، ويريد الشاعر من هذا كله أن يدفع أمير دمشق لسرعة الاستعداد لمقاومة الإفرنج يقول :

أَنومًا على مثلِ هدِّ الصَّفَاةِ وهزلًا وقد أَصبحَ الأَمرُ جِدًّا
وكيفَ تنامون عن أَعينٍ وَتَرْتُم فأَسهرتُمُوهُنَّ حِقْدا
وشَرُّ الضغائنِ ما أَقبلتْ لديه الضغائنُ بالكفر تُحْدى (٢)

وبعد هذه الأبيات يبدأ الشاعر فى وصف أفعال المشركين ، والمآسى العظيمة التى ارتكبوها فى بلاد المسلمين ووصف حالة الشعب المسلم وتعاسته وشقائه فيقول : إن المشركين لا ينكرون الفساد ، ويبالغون فى الظلم والاعتداء ، ويسرفون فى القتل والفتك ، وإن حالة المسلمين أصبحت لا تحتمل ، فكثير من فتياتهم أصبن بالخوف والذعر إلى درجة أنهن يلطمن خدودهن ونحورهن وأنهن تربين فى نعمة ورفاهية فلم يعرفن الحر ولا البرد ، إذ توفر لهن أمهاتهن كل ما يقيهن شر هذا وذاك ، ولكن الأمهات الآن أوشكن على التلف خوفاً على بناتهن الشابات من اعتداء المعتدين ، الذين لا يرعون لمسلم إلا ولا ذمة . يقول فى وصف هذه الحالة :

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٨٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٢ .

بنو الشركِ لا ينكرون الفسادَ ولا يعرفونَ معَ الجَوْرِ قَصْدا
ولا يردَعونَ عن القتلِ نفسًا ولا يتركونَ من الفتكِ جُهْدَا
فكم من فتاةٍ بهم أَصبحتْ تَدُقُّ من الخوفِ نحراً وخَدّا
وأُمِّ عواتقَ[1] ما إن عَرفْـ ـن حرًّا ولا ذُقْنَ فى الليل بَرْدَا
تكادُ عليهنَّ من خيفة تذوبُ وتتلف حُزْنًا وَوَجْدَا[2]

أراد الشاعر من أبياته السابقة التى تمتلئ حزناً وأسى ولوعة أن يستثير همة المسلمين، كى يدافعوا عن دينهم وحريمهم، ونلاحظ أنه ركز على ذكر مصائب النساء فقط، وكان يهدف من ذلك فيما نرجح أن يؤجج فى نفوس سامعيه نار الثأر والانتقام، لأن العرب – كما هو معروف – اشتهروا بشدة غيرتهم على نسائهم ومحارمهم، كما عرفوا ببسالتهم النادرة فى القتال وانتصاراتهم السابقة فى المعارك.

وقد وفق الشاعر كثيراً فى تأكيد هذه المعانى لاستثارة النخوة والحمية وتثبيت العزم واستجاشة القوة، يقول:

فحامُوا عَنْ دينكم والحَرِيمِ محاماةَ من لا يَرى الموتَ فَقْدا
وَسُدُّوا الثغورَ بطَعْنِ النُّحُورِ فَمِنْ حقِّ ثَغْرٍ بكم أَن يُسَدَّا
فلنْ تعدمُوا فى انتشار الأُمور أَخَا تُدْرَأ حازم الرأى جَلْدَا[3]
يظاهرُ تدبيرُه بأْسَه مظاهرةَ السيف كفًّا وَزِنْدَا
كمثلِ زعيم الجيوش المليِّ بعزمٍ يَبِيتُ له الحزمُ ردا
وعاداتُ بأْسِكمُ فى اللقّا ءِ ليستْ تَحُولُ عن النصر عَهْدَا
فدونَكم ظفراً عاجلا بكم جاعلا سائرَ الأَرضِ مَهْدا
فقد أَينعتْ أرؤُس المشركين فلا تُغْفِلُوها قِطافًا وحَصْدا
فلابُدَّ مِنْ حدِّهِمْ أَن يُفَلَّ ولا بُدَّ من رُكنهم أَن يُهَدَّا[4]

---

(١) **عواتق**: جمع عاتق وهى الشابة التى لم تتزوج بعد.
(٢) ديوان ابن الخياط الدمشقى ص ١٨٢.
(٣) **تدرأ**: هى القوة والمنعة.
(٤) ديوان ابن الخياط ص ١٨٤.

ثم يقول الشاعر فى آخر قصيدته : إن العز والسؤدد فى هذه الأيام مقترنان بجهاد المشركين ، وإن الذى يريد العز لنفسه يجب عليه ألا يخلع الحديد عن جسمه ، وأن يواصل الجهاد صباح مساء ، وأن هذا العمل من أيسر أنواع المكابد والمعاناة ، لأنه فرض على المسلمين فرضاً ولم يسعوا إليه ، فلا بد من تحمله ، والصبر على ما يلاقونه فى سبيل ذلك . يقول :

مَنْ رامَ أَن يَلْبِسَ العِزَّ رَغْدا ... فما ينزِعُ اليومَ عنه الحديدَ
من الأَمر ما لم تَجِدْ منه بُدًّا[1] ... وأَيسرُ ما كابدتْه النفوسُ

وعندما أخذ الإفرنج بيت المقدس سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة اشتد حزن المسلمين على احتلال مقدساتهم ، وأخذ مدينة القدس مسرى نبيهم ، وأولى القبلتين ، وكانت للأفعال الشنيعة التى ارتكبها الصليبيون أثر بارز فى تأجيج عواطف المسلمين ، وتقوية شعورهم بالحزن . فقد ذكر المؤرخون أن الإفرنج قتلوا فى يوم دخولهم القدس حوالى ستين ألف مسلم ، فيهم عدد من العلماء والصالحين الذين كانوا يحاورون فى القدس الشريف .

وقد تحدث ابن كثير عن هذا فقال : « لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان من سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، أخذ الإفرنج - لعنهم الله - بيت المقدس ، وكانوا فى نحو ألف ألف مقاتل ، وقتلوا فى وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين ، وجاسوا خلال الديار ، وتبروا ما علوا تتبيرا . فلما علم الخليفة بذلك ندب الفقهاء لدعوة الناس للجهاد ، ولكن لم يفد ذلك شيئاً »[2] .

وقد عبر الشعراء عن حزنهم على هذا المصاب الجلل بقصائد تقطر أسى ولوعة ومن هؤلاء أبو المظفر الأبيوردى ، الذى قال قصيدة مطلعها :

مزجنا دماءً بالدُّمُوعِ السَّواجِمِ ... فلم يَبْقَ مِنَّا عُرضةٌ للمَراجِم[3]
وشرُّ سلاح المرءِ دمعٌ يُفيضُهُ ... إذا الحربُ شَبَّتْ نارَها بالصَّوارم
فأيهَا بنِى الإسلام ، إنَّ وراَكُم ... وقائعُ يُلْحِقْنَ الذُّرَى بالمَنَاسِمِ[4]

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٨٤ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ١٥٦ .
(٣) **المراجم** : جمع مرجمة وهى الكلام القبيح .
(٤) الكامل فى التاريخ جزء ١٠ ص ٢٨٤ .

وبعد هذه الأبيات الحزينة ، يستنكر الشاعر على المتقاعسين قعودهم عن نصرة إخوانهم فى الشام الذين يقضون أوقات المقيل إما على ظهور الخيل دفاعاً عن الإسلام أو فى بطون النسور التى التهمتهم بعد استشهادهم فى سبيل الله . ثم يصف حال المسلمين وما هم فيه من شقاء ، فيذكر أن الروم تسومهم سوء العذاب ، وتذلهم وتستبيح دماءهم وأعراضهم . ثم يذكر أن هذا الموضع يتطلب مشاركة كل المسلمين فى الجهاد ، وأن الذى يتقاعس طلباً للسلامة سيندم كثيراً . يقول :

وكيفَ تَنَام العينُ ملءَ جفُونِها ... على هَفَواتٍ أَيقظَت كلَّ نائِم

وإخوانُكم بالشام يَضْحى مقيلُهم ... ظهورَ المَذَاكى أو بطونَ القَشَاعِم (١)

تسومُهم الرومُ الهوانَ ، وأنْتُمُ ... تَجُرُّونَ ذيلَ الخَفْضِ فعل المسالم

وكم مِنْ دماءٍ قد أُبيحَتْ وَمِنْ دُمَى ... توارى حَياءً حُسْنها بالمَعَاصِم (٢)

بحيث السيوفُ البِيضُ مُحْمَرّةُ الظُّبى ... وسُمْرُ العوالِى داميات اللَّهاذِمِ

وبين اختلاف الطَّعْنِ والضرب وقفةٌ ... تظلُّ لها الوِلْدَانُ شِيبَ القَوادِمِ

وتلكَ حروبٌ مَنْ يَغِب عن غِمَارِها ... لِيَسْلَمَ يَقْرعْ بعدَها سِنَّ نَادِمِ (٣)

وفى نهاية هذه القصيدة يحاول الشاعر أن يستثير همة المسلمين ، فيقول لهم : إذا كنتم تركتم الجهاد لضعف دينكم فهلا جاهدتم غيرة على محارمكم ؟ وهنا يدخل الشاعر من نفس المدخل الذى دخله ابن الخياط فى القصيدة السابقة ، وهو استثارة غيرة المسلمين على محارمهم ، فهو يعرف أن من أكبر العار على العربى أن يشاهد محارمه تسبى وتستذل ، وهو قادر على حمايتها . بل إن من الواجب أن يبذل نفسه دون ذلك ، ويزيد الشاعر فى التأنيب والتوبيخ فيقول لهم : إذا كنتم لا تغارون على دينكم ومحارمكم ، ولا رغبة لكم فى الأجر والثواب ، أفلا تحاربون رغبة فى الغنيمة ؟ ، وفى هذا توبيخ لهم وأى توبيخ ، ودفع لهم على سرعة المبادرة إلى الجهاد ، يقول الشاعر :

فليتهمُ إذ لم يَذُودُوا حَمِيَّةً ... عَنِ الدِّين ، ضَنُّوا غيرةً بالمحَارِمِ

---

(١) **المذاكى** : هى الخيل التى كملت قوتها وتم سنها .. **والقشاعم** : جمع قشعم وهو المسن من النسور .

(٢) **دمى** : جمع دمية وهى الصورة الجميلة من العاج ، وأراد الشاعر هنا بالدمى النساء الجميلات .

(٣) الكامل فى التاريخ جزء ١٠ ص ٢٨٤ .

وإنْ زَهِدُوا فِى الأَجرِ إذ حَمِىَ الوَغَى | فَهَلَّا أَتوْهُ رغْبةً فِى الغَنَائِم
لئن أذْعنتْ تلك الخياشيم للْبُرَى | فلا عَطسوا إلا بأَجْدَعَ راغِم
دعوناكم والحربُ تَرْنُو مُلحّةً | إلينا بأَلْحَاظِ النُّسُورِ القَشَاعِم
تُراقِبُ فينا غارةً عربيةً | تُطيلُ عليها الرُّومُ عَضَّ الأَباهِم
فإن أَنتمو لمْ تغضبُوا بَعْد هَذِهِ | رميْنا إلى أَعدائِنا بالجرائِم[1]

لاحظنا أن القصائد السابقة كانت فى بداية الحروب الصليبية ، وأن الوضع السيئ للمسلمين والمتمثل فى تفرقهم ، وقتال بعضهم بعضاً ، وبعدهم عن جوهر الإسلام الصافى ، كان هذا الوضع بحاجة ماسة إلى من ينتشلهم منه ويذكرهم بالآخرة ، وأهمية الجهاد .

وقد أدى هذا الشعر دوره ، فاتحد المسلمون بعد ذلك ، وحققوا كثيراً من الانتصارات واستردوا القدس الشريف سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وشاء الله عز وجل أن يَضعفَ المسلمون مرة أخرى بسبب اختلاف قادتهم ، وتفرق كلمتهم ، فيأخذ الصليبيون منهم عكا بعد قتال عنيف وبعض مدن الساحل ، ويتجهون لأخذ القدس مرة أخرى، مستغلين حالة الضعف الطارئ الذى حل بالمسلمين .

وفى حوادث سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، يذكر ابن الأثير فى تاريخه ، أن الإفرنج أظهروا عزمهم على قصد بيت المقدس بعد أخذهم عكا من المسلمين سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وكان المسلمون فى حالة ضعف شديد ، فساروا بقيادة صلاح الدين إلى القدس لحمايته « وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره ، وتجديد ما رث منه ، فأحكم الموضع الذى ملك البلد منه ، وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج العضيل ، وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله[2] وتأهب المسلمون فى القدس للدفاع عن مدينتهم .

---

(١) الكامل فى التاريخ جزء ١٠ ص ٢٨٥ . وذكرت هذه القصيدة فى الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ١ ص ٣٠٦ ، كما ذكرت فى البداية والنهاية جزء ١٢ ص ١٥٦ ، وذكرت فى المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جزء ٩ ص ١٠٨ .

(٢) الكامل فى التاريخ جزء ١٢ ص ٧٤ .

وكان لابد أن يكون للشعر دور فى هذه المناسبة ، فالمسلمون فى خطر ، والقدس ستحاصر عما قريب ، ولا يعلم نتيجة هذا الحصار إلا الله ، وكان المسلمون بحاجة ماسة إلى من يقوى عزائمهم ، ويدفعهم إلى الجهاد وبذل الأنفس فى طاعة الله .

وقد تولى الشاعر الرشيد بن النابلسى هذه المهمة ، فقال قصيدة بهذه المناسبة ، تحدث فيها عن الإفرنج ، وكيف كان صلاح الدين والمسلمون معه يفرقون جموع الصليبيين ، ويكثرون فيهم القتل ، ويذيقونهم الذل والهوان ، كما تحدث عن بعض أوصافهم ، فهم جهلة مغفلون لا يعتبرون بما جرى لهم سابقاً من الذل والهوان والتشريد ، كما أنهم يتصرفون بحمق وسفاهة ، إذ ظنوا جهلاً أنهم سيتمكنون من المسلمين هذه المرة .

وقد أراد الشاعر بهذه المقدمة أن يثير حماسة المسلمين عن طريق التقليل من شأن الصليبيين ، وإظهارهم بمظهر الضعف والخسة والسفاهة ، بالإضافة إلى تذكير المسلمين بماضيهم المجيد فى قتال الصليبيين ، وانتصاراتهم المتكررة عليهم .

وفى نهاية القصيدة يحث الشاعر صلاح الدين على مقاومة الإفرنج والدفاع عن البيت المقدس ويثير فيه نخوته وأصالته الإسلامية عن طريق تشبيه بيت المقدس بالإنسان الشريف الذى يطلب الحماية والمساعدة والعون من صلاح الدين ، وهل يملك صلاح الدين إلا الإجابة ؟ يقول الشاعر :

ويحَ الفِرنجة بلْ ويل أُمهمُ أَمَا	فِيهم لَبِيبٌ على العِلَّاتِ يَعْتَبرُ
فكم نثرتَهمُ ضرباً إذا انتظَمُوا	وكم نَظَمْتَهم طعنا إِذا انْتَثَرُوا
كَمْ قد سقيتهم ذُلًّا فَلا عَجَبٌ	إنْ عَرْبَدُوا سَفَهاً فالقومُ قَدْ سَفَرُوا
إنْ يَمَّمُوكَ فَلَا بِدْعَ لجهْلِهم	تَسْعَى إلى الأُسدِ فِى غاباتها الحُمُرُ
زَاروا نُموراً ولا تُغْنِي وَقَاحتُهم	إذَا أُسُودك فِى أَبْطَالِهم زَأَروا
فحام عن حَوْطَةِ البيت المقدسِ لا	خَوف وَحَاشَاكَ مِنْ خَوْفٍ ولا ضررُ
هو الشريفُ وقد ناداكَ مُعْتصِماً	فما على مَجْدِه من بعدِها حَذَرُ
وسوف تستغفر الأَيامُ هَفْوتَها	وتَحصُدُ الفئةُ الأَوغادُ ما بذروا [1]

---

(١) الروضتين ، ج ٢ ص ١٩٤ .

وعندما هاجم الصليبيون بعض مدن الشام الساحلية وعبثوا بالثغور ولم يجد المسلمون من الحماسة والقوة ما يدفع عنهم نازلة الأعداء المهاجمين ، قال ابن النبيه المصرى قصيدة مدح بها الملك العزيز صاحب حلب وحثه على تجهيز الجيوش ، ومقاومة الأعداء الذين يريدون التشفى من المسلمين بسبب استردادهم القدس منهم ، ولقد استعمل الشاعر فى قصيدته أساليب النداء المؤثرة والمثيرة للعواطف ، واستحث المسلمين على ترك الإهمال والتكاسل ، الذى عبَّر عنه بالنوم ، ورغبهم بمغانم الدنيا والآخرة ، ولنستمع إليه فى قصيدته وهو يقول لممدوحه :

يا حارسَ الدينِ لما نامَ حارسُه ... وناظماً شملَه من بعدِ تَبْدِيدِ

يظُنكَ النَّاسُ فِى خفضٍ وفِى دَعَة ... جهلاً وكم مستريحِ الجسم مَكْدودِ

جَهِّزْ جيوشَك إنَّ الثغرَ قدْ عَبَثَتْ ... به الفرنْجُ فأَضْحَى غيرَ منضودِ

أَيُدْرِكُونَ به أَوتارَ قُدْسِهِمُ ... منكم وذلكَ مُلْكٌ غيرُ مردُودِ

يا لِلرجال أُناديكم لنازلةٍ ... تستنزلُ الماء مِنْ صُمِّ الجَلاميد

أَينَ الحِمَّية هُبُّوا من منامكمُ ... إمَّا لعاجل دُنْيا أَو لمعبود(1)

نلاحظ مما سبق أن شعر الدعوة إلى الجهاد واكب الأحداث الكبرى فى الحروب الصليبية ، وأن الشعراء كانوا يؤدون دورهم فى حمل المسلمين على الجهاد ، ومقاومة الأعداء، وبذل الأنفس فى سبيل ذلك ، كما نلاحظ أن معظمهم اشتركوا فى إثارة حمية المسلمين عن طريق ذكر حماية المحارم والدفاع عن الدين، ولقد كان لهذا الشعر دور بارز فى أحداث الحروب الصليبية كما سنرى .

ثانياً – وصف المعارك :

ومن الأغراض الهامة التى تطرق إليها شعر الجهاد وصف المعارك التى خاضها المسلمون ضد الصليبيين ، فتحدثوا عن مختلف مشاهد القتال ، وبعض الأدوات التى تستعمل فيه ، كما وصفوا سقوط الحصون والمعاقل الإفرنجية ، والمصير البائس الذى ينتهى إليه الإفرنج بعد المعركة من القتل والأسر والسبى والتشريد ، كما وصفوا فى بعض قصائدهم مناعة الحصون الإفرنجية واستعصاءها على الفاتحين ، ولكن هذه المناعة لم تقف

---

(1) ديوان ابن النبيه المصرى ص ٣٦٤ .

حائلاً دون القوى الإسلامية المجاهدة ، فسقطت تلك الحصون ، وتهاوت ، ودخلها المسلمون ظافرين .

ولقد صور بعض هذه المعارك الملك الصالح طلائع بن رزبك الوزير المصرى (١) ، وأسامة بن منقذ (٢) وزير نور الدين فى الشام بقصائد طويلة كان الوزير المصرى يكتب القصيدة ويبعثها إلى أسامة بن منقذ فى الشام ، فيرد عليه بقصيدة على نفس القافية يصف له بعض معارك المسلمين التى انتصروا فيها بقيادة نور الدين زنكى ، من هذه القصائد قصيدة لأسامة مطلعها قوله :

أَبى الله إلَّا أَنْ يكونَ لَنا الأَمرُ لتَحْيا بِنَا الدُّنْيا وَيفْتخر العَصْرُ

رد فيها على القصيدة التى أرسلها له طلائع بن رزبك والتى طلب منه فيها حث نور الدين على الاستمرار فى مواصلة الجهاد واسترداد بلاد المسلمين من الصليبيين ، ومطلعها قوله :

أَبى اللهُ إلَّا أَنْ يَدينَ لَنا الدهرُ ويخدمنا فِى مُلْكِنا العِزُّ والنَّصْرُ

وقد وصف أسامة فى قصيدته جيش المسلمين بأنه ينتصر دائماً ، ويقتل الأعداء ، وقد عرفت الطيور الجارحة هذه العادة ، فأصبحت تسير مع المسلمين كى تأخذ غنيمتها من جثث الصليبيين . وهذا البيت يرمز للنصر الدائم للجيش الإسلامى ، ثم وصف بعد ذلك جيش المسلمين بعدة أوصاف كلها تدل على البأس والقوة والشجاعة ، وتدخل الرعب والرهبة فى قلوب الصليبيين ، فبأسهم يذيب الصخر من قوته ، وهم كالأسود عندما تلاقى فريستها ، وكالسهام التى يحملونها فى المضاء والعزيمة . ثم ذكر أنهم يرون فى الموت خلوداً لهم ، وهم يتمنون هذا الخلود من كل قلوبهم ، فإذا كان الموت أمنية لهم ، فكيف يكون لقاؤهم للعدو؟ قال أسامة :

نَسِيرُ إلى الأَعداءِ والطيرُ فَوْقَنا لَهَا القوتُ مِنْ أَعدائِنا وَلَنا النَّصْرُ
فبأسٌ يُذيبُ الصَّخْرَ مِنْ حَرِّ نَارِه ولُطْفٌ له بالماءِ يَنْبَجِسُ الصَّخْرُ

---

(١) هو الملك الصالح طلائع بن رزبك وزير مصر فى زمن الفائز ، واستمر فى وزارته حتى قتل سنة ست وخمسين وخمسمائة، له ديوان شعر . « وفيات الأعيان ٢ - ٥٢٦ » .

(٢) أسامة بن منقذ الشيزرى . أمير شاعر ، ولد سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة وتوفى فى دمشق سنة أربع وثمانين وخمسمائة . « وفيات الأعيان ١ - ١٩٥ » .

وجيشُ إذا لاَقَى العَدُوَّ ظَنَنْتَهُمْ أَسُودَ الشَّرَى عَنَتْ لَهَا الأُدْمُ والعُفرُ
تَرَى كُلَّ شَهْمٍ فِي الوَغَى مثلَ سَهْمِهِ نُفُوذاً فَمَا يُثْنيه خوفٌ ولا كُثْرُ
هم الأُسْدُ مِنْ بيضِ الصوارمِ والقَنَا لَهُمْ فِي الوغى النَّابُ الحَديدَة والظُّفْرُ
يَرَوْنَ لَهُمْ فِي القتلِ خُلْداً فَكَيْفَ بالـ ـلقاءِ لِقَوْم قتلهمُ عِنْدَهم عُمْرُ[1]

وبعد عدة أبيات يستعرض أسامة بإيجاز بعض المعارك الإسلامية التى خاضها الجيش الإسلامى وانتصر فيها فيقول :

ونحنُ أَسرْنا الجُوسَلِينَ ولم يَكُنْ لِيَخْشى مِنَ الأَيام نائبةً تَعْرُو
وكان يظنُّ الغرَّ أَنَّا نَبيعُه بمالٍ وكم ظنٍّ به يَهلك الغِرُّ
فلما استبحنا مُلكَه وبلادَه ولم يَبْقَ مالٌ يُستباحُ ولا ثَغْرُ
كَحَلْناه نَبْغِى الأجر فِى فِعْلِنا به وفى مِثْلِ ما قَدْ نالَهُ يُحرزُ الأَجْرُ
ونحنُ كسرنا البَغْدَوِينَ وما لِمَنْ كَسَرْناه إبْلَالٌ يُرجَّى وَلَا جَبْرُ
فَسَلْه اللعينُ الحائنُ الخائِنُ الذِى لَهُ الغْدرُ دين : مَا بِهِ صَنَع الغَدْر[2]
وقد ضاقت الدنيا عليه بَرَحْبِها فلمْ يُنْجه بَرٌّ ، ولم يَحْمِه بَحْرُ
أَفى غدره بالخيلِ بعدَ يَمِينِه بإنجيله بينَ الأَنام لَهُ عُذْرُ
دعَته إلى نَكثِ اليمينِ وغدْرِه بذِمَّتِهِ النَّفْسُ الخسيسةُ والمكْرُ
وقد كان لونُ الخيل شتى فأَصبحتْ تُعادُ إلينا وهِى مِنْ دَمِهم شُقْرُ
تَوَهَّم عَجزًا حِلْمَنَا وأَناتَنا وَمَا العَجْزُ إلّا مَا أَتى الجَاهِلُ الغمْرُ
فلما تمادَى غَيُّهُ وضلَالُهُ ولم يُثْنه عن جَهلِه النَّهي والزَّجْرُ
برزنا لَهُ كاللَّيثِ فارقَ غيْلَهُ وعادَتُه كَسْرُ الفرائص والهَصْرُ[3]
وسِرْنا إليه حينَ هابَ لِقاءَنا وبانَ لَهُ مِنْ بأْسِنا البُؤْسُ والشَّرُّ
فولَّى يُبارِى عاثِراتِ سِهَامِنا وفِى سَمْعِهِ مِنْ وَقْع أَسْيافِنا وَقْرُ

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٠١ .
(٢) **حائن** : أى هالك .
(٣) **فرائص** : جمع فريصة وهى لحمة بين الجنب والكتف .

وَخلى لَنا فُرْسَانَه وحُمَاتهُ ... فَشطْرٌ لَهُ قَتْلٌ وشَطر له أَسْرُ
وَمَا تَنْثَنِ عنهُ أَعِنَّةُ خَيْلِنا ... ولو طارَ فِى أُفْقِ السماءِ به النَّسْرُ
إلى أنْ يزورَ الجوسلين مساهما ... لَهُ فِى دياجِ ما لِلَيْلَتِهَا فَجْرُ
ونرتجع القدسَ المطهرَّ منهم ... فلم يبقَ منها فِى مَمَالِكِهِمْ شِبْرُ
إذا استغلقتْ شُمُّ الحصون فِعنْدَنَا ... مفاتِحُها : بيض مضاربُها حُمْرُ
وإنْ بَلَدٌ عزَّ الملوكَ مرامُه ... ورُمْناهُ ذلَّ الصَّعْبُ واسْتسهلَ الْوعْرُ
وأَضْحَى عَلَيْها للسِّهام وللظُّبَا ... ووقْعُ المذاكِى الرعدُ والبرقُ والقَطْرُ
بنا استرجعَ اللهُ البلَادَ وأَمَّنَ العِبا ... دَ فَلا خوفٌ عليهم وَلَا قَهْرُ (١)

نلاحظ فى الأبيات السابقة أن الشاعر تحدث عن حدثين هامين فى تاريخ المسلمين، أحدهما أسر جوسلين وأخذه بلاده وهى القلاع التى تقع شمالى حلب، ولقد تحدث المقدسى عن أسر جوسلين فى حوادث سنة خمس وأربعين وخمسمائة فقال عنه: « وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الإفرنج فى حروبهم، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدة عداوته للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها، وتغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده. وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين، ولا يفى بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، وحاق به مكره، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم » (٢).

كما تحدث الشاعر بإسهاب وتفصيل عن المعركة التى وقعت بين المسلمين وبين بلدوين حاكم بيت المقدس والتى انتهت بانتصار المسلمين على الصليبيين وفرار بلدوين من المعركة. ونحن نلاحظ أن أسامة بن منقذ يكرر وصف المسلمين بالأسود التى تنقض على فريستها فلا تبقى لها أثراً. أما الصليبيون فإنهم كانوا يهابون لقاء المسلمين

---

(١) ديوان أسامة ص ٢٠٣ .
(٢) الروضتين، ج ١ ص ٧٢ .

ويحذرون من ذلك أشد الحذر ، فلما وقعت المعركة برغم أنوفهم ولوا هاربين ، لا يلوون على شىء ، وكان قائدهم فى مقدمتهم ، ولكن الهرب لم ينجهم ، فقد وقع نصفهم فى الأسر والنصف الآخر مات مقتولاً .

وفى نهاية الأبيات السابقة توعد الشاعر الملك الهارب بلدوين بأن المسلمين لن يقتلوه ، وسيقرنونه إلى جانب صاحبه جوسلين فى سجن مظلم ليس لليله فجر .

ثم يذكر الشاعر بعد ذلك العديد من المعارك التى انتصر فيها المسلمون بعد أسر جوسلين فيقول :

فتحنا الرُّهَا حين استباحَ عِدَاتُنا حِماهَا وسنَّى مَلكُها لهمُ الخُتْرُ[1]

وقال :

ونَحنُ فَتَحنا تَلَّ باشَرَ بعدَهَا وقد عَجِزَتْ عنه الأَكاسرةُ الغُرُّ

وقال :

وتل عزاز صَبَّحَتْهُ جُيوشُنا فَلَمْ تَحْمِه عنَّا الرجالُ وَلَا الجُدْرُ
وملنَا إلى بُرْجِ الرَّصَاصِ وإنَّهُ لكالسَّد لكنَّ الرَّصَاص لَهُ قَطْرُ[2]

وهكذا يستمر الشاعر فى ذكر الحصون والقلاع التى استردها المسلمون من أعدائهم قوة واقتداراً .

وفى قصيدة أخرى لأسامة بن منقذ أرسلها إلى الملك الصالح طلائع بن رزبك تحدث الشاعر عن معركة رهيبة خاضها الجيش المصرى فى بلاد الشام ضد الصليبيين ، معركة بدأت فى البر انتصر فيها المسلمون ، وانتهت فى البحر بنصر آخر ليس له مثيل .

وقد وصف الشاعر المعركة البحرية وصفاً حياً جميلاً أبرز فيه مهارة المسلمين فى قيادة المعارك البحرية ، ووصف الأسطول الإسلامى بالموج المتلاطم من كثرته ، أما الفرسان المسلمون فهم بحق فرسان البحر يقودون سفنهم التى تشبه الطير فى سرعتها بمهارة وجدارة ، ويصرفونها حسب أهوائهم ، وحسب مقتضيات المعركة القائمة .

---

(١) **الختر** : الغدر والخيانة .
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٠٤ .

وقد استطاع المسلمون فى معركتهم البرية والبحرية أن يقضوا على الصليبيين ، فلم ينج منهم أحد ، وكانوا بين قتيل وأسير ، يقول الشاعر فى وصف هذه المعركة :

غزوتَهمْ فِى أرضِهمْ وبلادِهِمْ ... وجَحْفلُهمْ فِى أَرْضِها مُتَزاحِمُ
فأَفنيتَهـمْ قتلًا وأَسراً بأَسْرِهم ... فَنَاجِيهُمْ مُسْتَسلمٌ أَوْ مُسـالِمُ
فلمَّا أَبادْتُهم سيوفُكَ وانجلتْ ... عَنِ الأَرْضِ منهـم ظلمةٌ ومَظالِمُ
غَزوتَهُمْ فِى البحـر حَتَّى كأَنَّمَا ... الأَسَاطِيلُ فيه موجه المُتَلاطِمُ
بفرسانِ بحرٍ فـوقَ دُهْمٍ كأَنَّها ... على المـاءِ طـيرٌ ما لهـنَّ قَوادِمُ
يُصـرِّفُـهـا فـرسانُـهـا بـأَعِنَّةٍ ... جَرَتْ حيثُ لم تُوصَلْ بِهنَّ الشَّكَائِمُ
إذا دفعُوها قلْتَ : فرسانُ غارةٍ ... سَرَوْا بجيادٍ ما لهن قَوائِمُ
يسوقُ أَساطيلَ الفرنجِ إليـهم ... حِـمامٌ وطـيرٌ لـلفرنج أَشَـائِمُ
دماؤهم فِى البحر حُمْر سوائحُ ... وهامُهُمْ فِى البرِّ سُحْمٌ جَوَاثِمُ [1]
فَلَمْ يَخْفَ فِى فَجٍّ من الأَرْضِ هاربٌ ... ولم يَنْجُ فِى لُجٍّ من الماءِ عَائِمُ
وعادَ الأَسارَى مُرْدَفين وسُفنهُم ... تُقادُ كما قَادَ المهارِىَّ الخزائم [2]

وفى سنة أربع وثمانين وستمائة فتح المسلمون حصن المرقب ، فخلد هذا الفتح الشاعر محمود بن سليمان الحلبى [3] بقصيدة ذكر فيها الحصن ومناعته ووصف السيوف فى أثناء المعركة وكأنها البرق المتألق وسط الغمام الأسود فى أثناء هطول الأمطار المتدفقة ، أما هذا الحصن فهو مرتفع كالسماء ، لا يقدر عليه أحد لمناعته ، وهو يبدو للناظر وقت الشفق وكأنه العروس التى ترتدى ثوباً مذهباً ، وهذا كناية عن جماله وبهائه وروعته .

وقد وصف الشاعر أيضاً أداة هامة من أدوات الحرب وهى المنجنيق الذى كان يستعمل فى أثناء الحصار لضرب الأسوار وتهديمها قال الشاعر :

ولقدْ ذَكرتكِ والحيـاةُ كريهةٌ ... والمَوْتُ يُرْقبُ تحت حِصْـنِ المَرْقَبِ

---

(١) **سحم** : الأسحم : الأسود .
(٢) ديوان أسامة ص ٢٢٤ .
(٣) انظر ترجمته بالتفصيل فى هذا البحث .

والبِيضَ من خُلَلِ السِّهام كأنَّها بَرْقٌ تألَّقَ فِي غَمَامٍ صَيِّبِ
والحِصْن من شَفَقِ الحديدِ كأنَّهُ عذراءُ ترفُلُ فِي رداءٍ مُذْهَبِ
سَامَى السماءَ فَمنْ تطاوَلَ نحوَهُ للسَّمعِ مُسْتَرِقاً رماهُ بكوكَبِ
والمنجنيق كأنه من رَمْيِهِ حَيْثُ استدارتْ مَركبٌ فِي لَوْلَب
والموت يَلْعَبُ فِي النفوسِ وخَاطِرى يَلْهُو بخَمْرَةِ ذَلِكَ المُسْتَعْذَبِ (١)

وقد أسهب الشاعر فى وصف المنجنيق ، والأضرار الكبيرة التى يلحقها بالأعداء فى أثناء الحصار فى قصيدة أخرى قالها بمناسبة استيلاء الملك المنصور قلاوون على طرابلس سنة ثمان وثمانين وستمائة بعد أن حاصرها أياماً وبعد أن تم له فتحها أحرقها ، وبنى مدينة أخرى عوضاً عنها ، قال الشاعر :

كَأَنَّ المجانيقَ الَّتى أُوتِرتْ ضُحى عليها لها فِي ثَلْم أَبراجِها وِتْرُ
تُحلِّقُ فِي جوِّ السَّمَاءِ وَتَرْتَمِي إليهِمْ كَما يَنْقَضُّ من حالقٍ نَسْرُ
ولَيستْ بِخَنْسَاء العَرَاينِ إذْ بَدَتْ لِنَاظِرِهَا يَوْماً وفِى قَلْبِها صَخْرُ
لهَا شَرَرٌ كَالقَصْرِ تَرْمى به العِدَا فلَا برج يستعصِى عليه ولَا قَصْرُ (٢)

وكان فى الجيش الإسلامى طائفة تسمى النقابين ، مهمتها نقب الأسوار فى أثناء الحصار ، ثم وضع النيران فى هذه النقوب ، ليتساقط السور ، وينفتح الطريق للمهاجمين لدخول البلد ، والاستيلاء عليها .

وفى وصف النقوب التى عملت فى هذه المعركة ، يقول الشاعر :

ومنْ تَحْتِها النُّقوبُ كأنَّها إذا ما تَمَشَّتْ فِي ضَمِيرِ الثَّرى سِرُّ
فَزَلْزَلَتها بالرّكْضِ فانْهَدَّ رُكْنُها ولم يَبْقَ مِنْ دُونِ المَنَايَا لَهَا سِرُّ
قَسَمْتَهمُ شَطْرين غَيْرَ غَرِيقِهم فَلِلسَّيْفِ شَطْر والقيودُ لَها شَطْرُ (٣)

كما وصف الشاعر أيضاً أبراج مدينة عكا وهى تتساقط بفعل النار التى وضعت

(١) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٦١ .
(٢) درة الاسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٨٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٧ .

فى ثقوب الأبراج ، فالتهمتها وأدت إلى سقوطها ، وكان وصفه جميلاً إذا قال : إن مدينة عكا كانت نصرانية ، ولكنها تركت دين النصرانية ، واتخذت المجوسية ديناً لها ، فلما شاهدت النار خرت لها ساجدة ، وهذه كناية لطيفة عن وقوع أبراجها ، وتساقطها بفعل النار ، قال الشاعر :

مررتُ بعكًّا عِنـدَ تغْلِـيقِ سُـورِهَا وزَنْدُ أوار النَّـارِ مِنْ تَحْـتِها وَار
فَعَايَنْتها بعد التَّنَصُّر قَدْ غَدَتْ مَجُوسِيَّةَ الأَبراجِ تَسْجُد للنَّارِ [1]

وفى سنة إحدى وتسعين وستمائة للهجرة خرج الملك الأشرف صلاح الدين ومعه الملك الظفر صاحب حماة إلى قلعة الروم ، وهى من القلاع المقدسة عند الصليبيين ، لأنها مقر البطريق خليفة المسيح ، وقد حاصر الأشرف هذه القلعة ، واستطاع فتحها بعد حصار دام ثلاثين يوماً .

وقال ابن كثير عن هذا الفتح : « وكان الفتح بعد حصار عظيم جدًّا مدة ثلاثين يوماً ، وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقاً » [2] وقد وصف هذه المعركة الشهاب محمود الحلبى ، وامتدح الأشرف صلاح الدين بقصيدة هائلة فاضلة [3] مطلعها قوله :

لَكَ الرايةُ الصفراءُ يَقْدُمُها النَّصْرُ فَمَنْ كَقيبَـاذ إن راما وكَيْخَسْـرُو
إذَا خَفَقَتْ فِى الأُفْـقِ هَدَّتْ بُنـودُها هَوَىَ الشِّرْكُ واسْتَعلى الهدى وانْجَلى الثَّغْرُ [4]

أما هذا الفتح فقال عنه :

وفتـحٌ أَتَى فِى إثْر فَتْـحٍ كَـأَنَّما سَمَاءٌ بَدَتْ تَتْرى كواكِبُهَا الزُّهْرُ [5]

وقد وصف الشاعر هذه القلعة الحصينة بأوصاف عديدة ، كلها تدل على مناعتها وقوتها ، وصعوبة الاستيلاء عليها . وقد أراد الشاعر من وراء هذا أن يدلل على قوة وشجاعة ممدوحه ، والمسلمين الذين معه ، فهم استطاعوا أخذ هذه القلعة مع كل الموانع التى كان من الممكن أن تحول بينهم وبينها لو لم يكن لديهم من الشجاعة ما يكفى لتحقيق هذا النصر العظيم .

---

(١) درة الاسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ٢٠٥ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٢٧ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١٣ ص ٣٢٨ .
(٤) و (٥) المنتخب فى تكملة تاريخ حلب (مخطوط) ص ٢١٠ .

وقد كانت عادة الشعراء منذ الجاهلية وصف أعدائهم بالقوة الهائلة ليدللوا على أنهم لم ينتصروا على ضعاف الناس، بل على أقويائهم، وهذا دليل على شجاعتهم العظيمة. وقد سلك شاعرنا هذا المسلك عندما قال عن هذه القلعة واصفاً إياها بأنها:

مُحَجَّبَةٌ بين الجبال كأنَّها ... إذَا ما تَبَدَّتْ فِي ضَمَائِرِها سِرٌّ (1)

ومع أنها بين جبال عالية مانعة، فهي كذلك بين نهرين يصعب اختراقهما بسهولة، وقد أحاط بها هذان النهران كما تحيط القلائد بالنحور.

يُحيطُ بها نهرانِ تبرزُ فيهما ... كَمَا لاحَ يوماً فِي قلائِدِه النَّحْرُ
لها قُلَةٌ لم ترضَ سُقْيَا فُراتها ... وفِي رَوْضِها ماءُ المَجَرَّةِ يَنْجَرُّ (2)

وقد أضاف الشاعر إلى أوصاف القلعة صفة أخرى، فهذه القلعة مع أنها بين الجبال، ويحيط بها نهران إلا أنها كذلك تقع فوق هضبة صماء أقوى من الحديد، وهذا العلو يعطيها قوة كبيرة، ويصعب على الأعداء مهاجمتها بسهولة، قال الشاعر:

على هُضُبٍ صُمٍّ يُكَلِّمُ صخرُها ... الحديدَ وفيها عَنْ إجَابتِهِ وقْرُ
يَضِلُّ القَطَا فِيها وَيخْشَى عِقَابَهَا ... العُقَابُ وَيهْفُو فِي مَرَاقِبِها النَّسْرُ (3)

وبعد أن ينتهى الشاعر من وصف هذه القلعة الحصينة، ينتقل إلى وصف الجيش الإسلامى الذى يهاجمها، فيقول عنهم: إنهم كالأسود فى القوة والشجاعة، وأن انتصاراتهم متوالية، فهم لم يعتادوا إلا النصر، وهم فى قتالهم متحدون، يقاتلون جنباً إلى جنب، حتى إن الريح لا تستطيع أن تجرى من بينهم، ولا ينزل من فوقهم القطر، أما إذا اشتدت الحرب فهم يخطبونها بأنفسهم، ويقبلون عليها بشوق ولهفة حتى يتم لهم النصر.

ليوثٌ من الأَتراكِ آجَامُها القَنَا ... لَهَا كلّ يوم فِي ذُرَى ظَفَر ظُفْر
فَلَا الرِّيحُ تَجْرِى بَيْنَهم لاشْتِباكِها ... عَلَيْهم وَلَا يَنْهَلُّ مِنْ فَوقهم قطْرُ
عيونٌ إذا الحربُ العَوانُ تَعَرَّضَتْ ... لخُطَّابِها بالنفس لم يُغْلِهَا مَهْرُ

(1) المنتخب فى تكملة تاريخ حلب (مخطوط) ص ٢١١.
(2) المنتخب فى تكملة تاريخ حلب (مخطوط) ص ٢١١.
(3) المصدر نفسه ص ٢١١.

ترى الموتَ معقودا بِهدْب نبالهم إذا ما رَمَاها القوسُ والنظر الشَّزْرُ [1]

وبعد أن ينتهى الشاعر من وصف القلعة ووصف الجيش الإسلامى الذى جاء لحصارها وفتحها يبدأ فى وصف المعركة الحامية التى دارت بين المسلمين وأعدائهم، فيذكر أن المسلمين أحاطوا بالقلعة إحاطة الخاتم بالمعصم، أو الحزام بالخصر، ثم صبوا على القلعة سحاب الردى من أكفهم قال :

أَداروا بها سُوراً فأَضحتْ كخاتم لدى خنصر أو تحت منطقة خَصْرُ
وأَرخوا إليها من أَكُفٍّ بحارهمْ سحابَ رَدَىً لم يَخْلُ من قَطْرِه قَطْرُ

وبعد أن أحاط المسلمون بالقلعة، أخذوا يضربون أسوارها بالمنجنيق ويقذفونها بالصخور العظيمة، شفعاً ووتراً، ليلاً ونهاراً، وكان النقابون فى أثناء هذا الرمى يقومون بعملهم خير قيام، فأحدثوا كثيراً من الفجوات بين صخور السور، وأضرموا فيها النيران العظيمة، حتى انهد السور، وانتهت المقاومة .

كأَنَّ المجانيق التى قُمْنَ حولها رواعدُ سُخْطٍ وَبْلُها النَّارُ والصَّخْرُ
أقامت صلاة الحرب ليلاً صخورُها فأَكثرها شفع وأَكبرها وتْرُ
ودارت بها تلك النقوب فأَسرفت وليس عليها فى الذى فعلتْ حَجْرُ
فأَضحت بها كالصَّب يخفى غرامه حذار أَعاديه وفى قلبه جَمْرُ
وشبت بها النيران حتى تمزقت وباحت بما أَخفته وانهتك السِّتْرُ [2]

وبعد أن دخل المسلمون القلعة طلب أصحابها العفو، فلم يجبهم السلطان إلى طلبهم، وأسر فى هذه المعركة ملك قلعة الروم، وكثير من أصحابه، ودخل بهم الأشرف دمشق، وهم يحملون رؤوس أصحابهم على رؤوس الرماح [3]، وقد ذكر الشاعر هذا فقال :

فلاذُوا بِذيْلِ العفوِ منك فلم تُجِبْ رجاءَهم لَوْ لَمْ يَشِبْ قصدَهم مَكْر [4]

---

(١) البداية والنهاية، ج ١٣ ص ٣٢٩ .
(٢) البداية والنهاية، ج ١٣ ص ٣٢٩ .
(٣) البداية والنهاية، ج ١٣ ص ٣٢٧ .
(٤) البداية والنهاية، ج ١٣ ص ٣٢٩ .

وبعد أن انتهت المعركة ، أصبحت قلعة الروم قلعة من قلاع الإسلام الحصينة تدافع عن الإسلام ، وتحمى المسلمين على مدى الأيام .

فأَحرزْتَها بالسيفِ قَهْـراً وهكذا ... فُتوحُـك فيما قد مضى كُـلُّه قَسْرُ
وأَضحتْ بحمد الله ثَغْرًا مُمَنَّعاً ... تَبيد الليالِي والعِدَى وهو مُفْتَرٌّ[1]

مما سبق نلاحظ أن شعراء المسلمين وصفوا بعض المعارك الإسلامية التى خاضها المسلمون ، وانتصروا فيها ، وقد شمل وصفهم بعض أدوات القتال المستعملة آنذاك ، كما وصفوا المعاقل الصليبية ، وحصونهم المنيعة ووصفوا أيضاً قوة الجيش الإسلامى وصلابته . وهذا يدل على أن شعر الجهاد كان يواكب حركة الفتوحات الإسلامية ، ولا يغفل عنها ، وإن الشعراء سجلوا مشاهداتهم ، وخلدوا انتصارات قومهم المسلمين .

* * *

ثالثاً – التحريض على مواصلة الجهاد :

ذكرنا فيما سبق أن الإفرنج فى بداية قدومهم إلى بلاد المسلمين احتلوا أجزاء كبيرة من البلاد الإسلامية ، وكانت القدس من جملة المدن الهامة التى أخذوها ، بل هى أهم مدينة إسلامية مقدسة احتلها الصليبيون ، وقد قتلوا فيها يوم دخولها حوالى ستين ألف مسلم . ولما شاء الله للمسلمين أن يستيقظوا من سباتهم العميق ، هيأ لهم قادة كانوا قمة فى علو الهمة والشجاعة والدين واستطاعوا أن يأخذوا بيد المسلمين إلى مدارج الرقى والفلاح ، وأن يحققوا كثيراً من الانتصارات ، حتى استطاعوا أخيراً استرجاع بيت المقدس من الصليبيين ومن أهم هؤلاء القادة نور الدين زنكى ، وصلاح الدين الأيوبى .

كان الجيش الإسلامى كلما دخل معركة وانتصر فيها يحث الشعراء قادته على مواصلة الجهاد ، والاستمرار فيه ، حتى يحقق الله للمسلمين النصر النهائى ، وحتى يُخرج المسلمون الصليبيين من بيت المقدس . ولقد كان استرجاع بيت المقدس أمنية كل مسلم غيور على دينه ، ولذا فليس من المستغرب أن نلاحظ أن الشعراء يؤكدون هذا المعنى فى أغلب قصائدهم ويلحون عليه بشكل واضح .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٢٩ .

ولقد فضلت أن أورد بعض ما قاله الشعراء فى تحريض قادة المسلمين على استرجاع بيت المقدس فى بداية هذا البحث ، نظراً لأن هذا الشعر هو المعنى البارز فى شعر التحريض على مواصلة الجهاد ، وإن كانت بعض القصائد التى قيلت فيه لا تخلو من التحريض على استرداد غيره ، باعتبار أن كل ما يسترد هو عبارة عن أجزاء مأخوذة من البلاد الإسلامية ، ومن واجب المسلمين أن يستردوها ، مهما بذلوا فى سبيل ذلك من مال أو نفس .

فى سنة خمس وأربعين وخمسمائة قاتل نور الدين جوسلين الذى كان يحكم البلاد التى تقع شمالى حلب ، وكان من أدهى قادة الفرنج ومن عتاتهم ، واستطاع نور الدين أن يأسره ، وأن يأخذ بلاده ، وكثيراً من البلاد الأخرى التى كان يحكمها الفرنجة . وقد استبشر المسلمون بهذا النصر ، وخلده الشعراء فى كثير من قصائدهم ، ومن هؤلاء ابن القيسرانى (1) الذى قال قصيدة مطلعها :

دَعَا ما ادَّعَى مَنْ غَرَّهُ النهْىُ والأَمرُ ... فما المُلْكُ إلَّا ما حَبَاكَ بِهِ الأَمْرُ

ثم قال بعد عدة أبيات يحث نور الدين على مواصلة الجهاد حتى يتم له فتح بيت المقدس :

فَسِرْ واَملأِ الدُّنْيا ضِياءً وبَهجةً ... فَبالأُفقِ الدَّاجى إلى ذا السَّنَا فَقْرُ
كأنِىّ بِهذَا العْزم لَا فُلَّ حَدُّهُ ... وأَقصاهُ بالأَقصى وقد قُضِىَ الأَمْرُ
وقد أصبحَ البيتُ المقَّدسُ طاهرا ... وليسَ سِوَى جَارِى الدماءِ لَهُ طُهْرُ
وقدْ أَدت البيضُ الحِدَادُ فُروضَها ... فَلَا عُهْدَةٌ فِى عُنْقِ سيف ولا نَذْرُ
وصلتَ بِمعراجِ النبىِّ صوارماً ... مساجدها شفع وساجدها وِتْرُ
وإنْ يَتَيَمَّم ساحلَ البحرِ مَالِكاً ... فلا عَجَبٌ أَن يملكَ الساحلَ البحرُ (2)

نلاحظ أن ابن القيسرانى فى الأبيات السابقة حث نور الدين على مواصلة الجهاد وأخذ بيت المقدس وذكره بأن هذا العمل الجليل لابد فيه من تضحية ولابد فيه من بذل النفوس حتى تجرى الدماء وتطهره من الرجس الذى هو فيه .

---

(١) انظر ترجمته بالتفصيل فى هذا البحث .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٧٣ ، ومعجم الأدباء ، ج ٧ ص ١١٣ .

وفى سنة سبع وأربعين وخمسمائة نزل نور الدين على حصن انطرسوس ، وقاتل من فيه من الإفرنج ، واحتل الحصن ثم ملك عدة حصون أخرى فقال ابن منير يمدحه ويحثه على مواصلة الجهاد قصيدة طويلة مطلعها :

أَبدا تباشِرُ وجْهَ غَزْوك ضاحكا   وتؤوبُ منه مُؤيدا منصورا
تُدْنِى لك الأَملَ البعيدَ سواهِمُ   مُحِقَتْ أَهِلَّتُها وكُنَّ بُدُورَا [1]

وبعد ذلك يحث الشاعر ممدوحه نور الدين على مواصلة الجهاد ، ونلاحظ أن الشعراء يذكرون غرضهم من أشعارهم مباشرة بطريقة موضوعية كقول ابن منير :

إنَّ الأُولى أَمِنُوا وقاعَك بعدها   غُرُّوا وقد رَكِبُوا الأَغرَّ غُرورا
أَلقِ العصى فيمنْ أَطَاعَ ومَنْ عَصَى   منهم ودمِّرْ أَرضَهم تدميرا
لا يُلْهِهِمْ أَنْ قد مننت وشُنَّها   شَعْواءَ تُصلي الكافرين سَعِيرا
باكِرْ بركزِ قنًا تُنسفُ أُسَّهَا   والخيلُ صَوِّرْ كَىْ تُزِيرك صورا
وتُرِيكَ لامعةَ التَّرِيك بساحةِ الـ   أَقصى مطهرةً لها تطهيرا [2]

ولقد كان الشعراء يستغلون كل مناسبة للتذكير بالجهاد ، حتى تلك الحروب التى كان يخوضها المسلمون لتوحيد البلاد الإسلامية وجعلها كتلة واحدة وتخليصها من حكامها الذين كانوا يقفون فى وجه الجهاد ، ويمالئون الصليبيين بهدف الإبقاء على إماراتهم ، وحتى هذه المعارك الجانبية كانت فرصة للتذكير ببقية البلاد الإسلامية الخاضعة لحكم الإفرنج ولا سيما القدس الشريف .

نجد مثالاً لهذا ما قاله العماد الكاتب فى مدح نور الدين زنكى عندما أخذ قلعة منبج من صاحبها ابن حسان ، وكان ذلك سنة ثلاث وستين وخمسمائة فقال مادحاً ، ومذكراً بالجهاد :

بُشْرَى الممالكِ فتحُ قَلعةِ مَنْبَج   فَليهن هذا النصرُ كُلَّ مُتَوَّج
أُعطيتَ هذا الفتــحَ مفتاحاً به   فى الملك يُفْتَح كلُّ باب مُرْتَج

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٨٧ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٨٧ .

وَافَى يُبَشِّرُ بالفتوح وراءَه ... فانهضْ إليها بالجيوش وعَرِّج
أَبشر فبيتُ القدسِ يَتلو مِنْبَجاً ... ولَمَنْبَجٍ لسِواهُ كالأُنْمُوذَج
ما أعْجزتْكَ الشُّهْبُ فِي أبراجها ... طلبا فكيف خوارج فى أَبرُج [1]

ثم قال بعد ذلك :

فانهضْ إلى البيتِ المقدسِ غازيًا ... وعلى طرابلسٍ ونابلسٍ عُج
قد سِرْتَ فِي الإسلام أَحسنَ سيرة ... مأْثورةٍ وسلكتَ أَوضَحَ مَنْهَجِ
وجميعُ ما استقريتَ من سُنَنِ الهُدَى ... جَدَّدْتَ منه كلَّ رَسْمٍ مُبْهِجِ [2]

وعندما فتح نور الدين مصر سنة أربع وستين وخمسمائة ، هنأه الشعراء بهذا الفتح ، لأن اتحاد مصر والشام كان من اقوى الأسباب لإخراج الصليبيين من بلاد المسلمين . وهذا ما دفع نور الدين لأخذ مصر وضمها إلى بقية البلاد الإسلامية ، ومن جملة مهنئيه العماد الكاتب الذى قال قصيدة مطلعها :

بملكِ مصرٍ أُهنِّى مالكَ الأُمَمِ ... فاستعدْ وأَبشِرْ بنصرِ الله عن أَمَم
أَضحى بعدلِكَ شملُ الملِك مُلْتَئِماً ... وهلْ بعدلِكَ شيءٌ غيرُ مُلتَئِم [3]

ثم يقول محرضاً على غزو الفرنج وتحطيمهم ، وتطهير القدس من رجسهم :

اغزُ الفرنجَ فهذا وقتُ غزوِهِمُ ... وحطِم جموعَهم بالذَّابِلِ الحَطِمِ
وطهرالقدسَ من رجسِ الصليبِ وَثِبْ ... على البغاثِ وثُوبَ الأَجْدَلِ القَطِمِ
فملكُ مصرٍ وملكُ الشامِ قد نُظِمَا ... فِي عِقْدِ عزٍّ من الإسلامِ مُنْتَظِم
محمودٌ المَلِكُ الغازى يَسوسُهمَا ... بالفضلِ والعدلِ والإفضالِ والنِّعمِ [4]

ومن المناسبات الطريفة التى استغلها الشاعر أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله الدمشقى لتذكير نور الدين بالجهاد وتحرير بيت المقدس أن نور الدين كان قد أعفى أهل دمشق من مطالبتهم بالخشب بمناسبة استيلاء عسكره على مصر ، فهنأه الشاعر ، وذكره

---

(١) و (٢) الروضتين ، ج ١ ص ١٥٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ض ١٧٤ .
(٤) الروضتين ، ج ١ ص ١٧٥ .

أن فتح القدس واجب إسلامى يجب عليه أن يسعى لتحقيقه لينال الأجر ، فالله سبحانه وتعالى يثيب على الجهاد ، ويجزى عليه أعظم الجزاء. كما أنه بالإضافة إلى الجزاء الحسن فسيحصل على الذكر الطيب بين الناس ، وهذا أعظم وأحسن من الفضة والذهب ، لأن المال يزول ، والذكر الحسن لا يزول . وحاول الشاعر فى هذه القصيدة ألا يترك مجالاً لنور الدين للاعتذار عن مواصلة الجهاد لأن ملكه اتسع ، فهو يملك من مصر إلى حلب ، وصاحب الموصل يمتثل لأمره ، وله من المنزلة الرفيعة والمكانة العالية ما يؤهله للقيام بهذا العمل الإسلامى الجليل . قال الشاعر :

لَـمَّا سمحتَ لأَهلِ الشَّام باخَشَبِ ... عُوِّضت مصر بما فيها من النَّشَبِ [(1)]
وإنْ بذلت لفتح القُدْسِ محتَسباً ... للأَجرِ جُوزيتَ خيراً غير مُحْتَسَب
والأَجرُ فِى ذاك عندَ اللهِ مُرتَقَبٌ ... فيما يثيبُ عليه خيرَ مرْتَقِبِ
والذكر بالخيرِ بينَ الناس تكسَبُه ... خيرٌ من الفضة البيضاءِ والذَّهَبِ
ولستَ تُعذَر فِى ترك الجهادِ وَقَدْ ... أَصبحتَ تملك من مصرٍ إلى حَلَبِ
وصاحبُ الموصلِ الفيحاءِ ممتثلٌ ... لما تُريدُ فبادِرْ فَجْأَةَ النُّوَب
فأَحْزمُ الناسِ مَنْ قَوَّى عزيمتَه ... حتى ينالَ بها العَالِى مِن الرُّتَبِ
وقد بلغتَ بحمدِ الله منزلةً ... عَلِيَّةً فاقصدِ العالى من القُرَبِ [(2)]
فالجِدُّ والجَدُّ مقرونان فى قَرَن ... والحزمُ فى العزمِ والإدراكُ الطَّلَبِ
وطهرِ المسجدَ الأقصى وحَوْزَتَهُ ... من النجاساتِ والإشراكِ والصُّلُبِ
عساكَ تظفرُ فِى الدنيا بحسنِ ثَنا ... وفِى القيامةِ تَلْقى حُسْنَ مُنْقلبِ [(3)]

ومن الفتوح الإسلامية التى انتهزها الشعراء لحث المسلمين على متابعة الجهاد حتى يتم تحرير كل الأراضى الإسلامية وفى مقدمتها المسجد الأقصى أن نور الدين عندما فتح الرها امتدح ابن القيسرانى وزير الموصل جمال الدين بقصيدة مطلعها :

---

(١) **النشب** : المال والعقار .
(٢) **قرب** : جمع قربة وهى كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من الأعمال الصالحة .
(٣) خريدة القصر وجريدة العصر ، ج ١ قسم شعراء الشام ص ٢٧٧ ، ووردت فى الروضتين ، ج ١ ص ١٦٠ .

أَمـا آن أَن يَـزْهَـقَ الـبـاطـلُ وأَن يُـنْـجِـز الـعِـدَةَ الماطِـلُ
إلى كـم يغب ملوكُ الضلا ل سيـفٌ بأَعـنـاقـهـا كَـافِـلُ

إلى أن يقول :

فـإن يَـكُ فـتـحُ الـرُّهَـا لُجَّةً فـسـاحِـلُـهـا الـقـدسُ والـسـاحـلُ
فهل علمْتَ علمَ تلك الدِّيا ر أَنَّ المقـيـمَ بـهـا راحِـلُ
أَرى القمصَ يأْملُ فَوْتَ الرما ح ولابُدَّ أَن يُضْرَبَ الشَّائِلُ
يـقـوى مـعـاقِـلَـهُ جـاهـدا وَهَـلْ عـاقـلٌ بـعـدهـا عـاقـل
وكـيـف بِـضَـبْـطِ بَوَاقى الجها تِ لمنْ فاتَ حسبتَهُ الحاصِلُ (١)

نلاحظ أن الشاعر يبدأ مباشرة فى ذكر موضوعه الذى سيتحدث عنه ، فهو يعلن فى بداية قصيدته اندماجه بالأمة الإسلامية ، لأنه يتحدث على لسانها ، ويحكى آمالها ، وينتظر كغيره من المسلمين أن يزهق الباطل، وأن يعود الحق إلى نصابه .

وفى الأبيات التى تلى مطلع القصيدة ، يتطلع الشاعر إلى استرداد بيت المقدس ، ومدن الساحل الشامى ، فيحث ممدوحه على مواصلة الجهاد لاستردادهما .

وفى الأبيات الأخيرة يتهكم الشاعر برئيس الفرنجة (القمص) وهذا التهكم يذكرنا بما كان يفعله المتنبى وأبو تمام عندما كانا يتهكمان بقادة الروم .

ومات نور الدين زنكى ، ولم يحقق الله على يديه فتح بيت المقدس ، وجاء بعده صلاح الدين ، فألح عليه الشعراء بتخليص مقدسات المسلمين وعلقوا عليه آمالهم .

وقد استطاع هذا القائد المسلم بما حباه الله به من صفات عالية ، وإيمان رفيع ، أن يقود المسلمين خير قيادة ، وأن يحقق معهم أروع الانتصارات وأن يخرج الصليبيين من بيت المقدس وهم فى حالة يرثى لها من الذل .

وسنستعرض بعض القصائد التى قيلت فى مدح صلاح الدين ، وحثه على مواصلة الجهاد ، وفتح بيت المقدس .

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٤٩ .

فممن مدحه الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه [1] بقصيدة حثه فيها على أخذ بيت المقدس ، قال فيها :

جاءَتْكَ أَرضُ القدسِ تخطُبُ ناكحا ... يَا كُفْأَهَا ما العذر عن عَذْرائِها
زُفَّتْ إليكَ عروسُ خِدرٍ تُجْتَلَى ... ما بينَ أَعْبُدِهَا وبينَ إمَائِهَا
إيه صلاح الدين خُذْهَا غادةً ... بِكْراً ملوكُ الأَرضِ مِنْ رُقَبائِهَا
كم خاطبٍ لجمالِها قد رَدَّهُ ... عن نيلها أَنْ ليس مِنْ أَكفائها [2]

شبه الشاعر بيت المقدس بالعروس الجميلة وقد جاءت تخطب صلاح الدين لينكحها ، وصلاح الدين خير كفء لها ، وقد حثه الشاعر على الاستجابة لمطلبها سريعاً ودون تردد ، لأن الكثيرين حاولوا جاهدين أن يحصلوا عليها ويستأثروا بها ، ولكن خابت آمالهم ، لأنهم ليسوا أكفاء لها .

وقد حاول الشاعر بهذا التشبيه الجميل ، أن يحبب فتح القدس لصلاح الدين ويحثه على الإسراع فيه قدر الإمكان . وقد وفق الشاعر كثيراً فى صوره للوصول إلى غايته .

أما العماد الكاتب فقد امتدح صلاح الدين ، وهنأه بملك مصر ، وكان ذلك سنة أربع وستين وخمسمائة ، وحثه فى قصيدته على قتال الإفرنج ، وقتلهم وتشريدهم ، واسترداد بيت المقدس منهم ، فقال :

فَصُبُّوا على الإفرنج سوطَ عذابها ... بأَن يَقْسِمُوا ما بينها القتلَ والأَسْرَا
ولا تُهمِلُوا البيتَ المقدسَ واعزمُوا ... على فتْحِه غازينَ وافترِعُوا البِكْرَا
تُديمون بالمعروفِ طَيِّبَ ذكركم ... وما الملكُ إلَّا أَنْ تُدِيموا لكم ذِكْرا [3]

وفى سنة ست وستين وخمسمائة غزا صلاح الدين بعض بلاد الإفرنج وانتصر

---

(١) هو الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى ، ابن أخى الملك الناصر صلاح الدين ، كان والياً على حماة وما جاورها ، وشارك فى جهاد الصليبيين ، وتوفى سنة سبع وثمانين وخمسمائة . « خريدة القصر – بداية قسم شعراء الشام ص ٨٠ » .

(٢) خريدة القصر ، بداية قسم شعراء الشام ص ٨٦ .

(٣) الروضتين ، ج ١ ص ١٧٩ .

عليهم فمدحه عمارة اليمنى[1] بقصيدة ذكر فيها جهاده وأفعاله فى المشركين، وتخريبه لديارهم، وحثه فى نهايتها على استرداد بيت المقدس، لأن فتحه يعنى فتح بقية بلاد الشام فقال:

وأَخربتَ من أَعمالهم كلَّ عامِرٍ ... يمرُ به طيفُ الخيالِ فَيَغْرَقُ
أَضفتَ إلى أَجر الجهادِ زيارةَ الـ ... ـخليلِ فابشِرْ أَنتْ غازٍ مُوَفَّقُ
وَهَيّجْتَ للبيتِ المقدس لَوْعَةً ... يطولُ بها منه إليك التَّشَوُّقُ
تَنَشَّقَ مِنْ مَلْقاكَ أَعظمَ نَفْحَةٍ ... تطيبُ على قلب الهدى حين تُنْشَق
وغزوك هذا سُلَّمٌ نحو فتحه ... قريباً وإلَّا رائِدٌ ومُطَرِّقُ
هو البيتُ إنْ تفتحه فالله فاعلٌ ... فما بَعْدَهُ بابٌ من الشام مُغْلَقُ[2]

وقد كان الشعراء يحرضون على الجهاد فى كل مناسبة، وبشتى الأساليب، لأن قضية استرداد بلاد المسلمين كانت شغلهم الشاغل، ولم يكن التحريض مقصوراً على أمراء المسلمين أو ملوكهم، بل تعداه إلى خليفة المسلمين فذكره الشعراء بالجهاد، وأخبروه أن سقوط أى بلدة من بلاد المسلمين ستؤدى حتماً إلى سقوط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، وإذا سقطت بغداد انتهى أمر المسلمين.

وقد أراد بذلك إثارة غيرته وحميته للدفاع عن ملكه أولاً وعن بلاد المسلمين ثانياً.

ذكر أبو شامة أن الفرنج قصدوا الطور سنة أربع عشرة وستمائة، وقاتلوا المسلمين فيه وحاصروهم، فأرسل الملك المعظم كتاباً إلى الخليفة يستنهض همته للدفاع عن المسلمين، وقد ضمن هذا الكتاب بيتين من الشعر للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبى وهما:

قل للخليفة لازالتْ عساكرهُ ... لَهَا إلى النصرِ إصْدَارٌ وإيرادُ
إنَّ الفِرنْجَ بحصن الطور قد نَزَلوا ... لَا تغفلنَّ فحصنُ الطورِ بغدادُ[3]

---

(١) هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبى الحسن بن أحمد الحكمى اليمنى، شاعر مشهور له ديوان شعر، سافر إلى مصر ومدح وزيرها الملك الصالح طلائع بن رزبك وكانت له منزلة عظيمة عنده. وقد قتله السلطان صلاح الدين فى ثانى شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة بالقاهرة وذلك بسبب تآمره مع جماعة من المصريين على إعادة حكم الفاطميين لمصر. «وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٣١ وما بعدها».

(٢) الروضتين، ج ١ ص ١٩٣.

(٣) ذيل الروضتين ص ١٠٣.

نلاحظ مما سبق أن الشعراء المسلمين كانوا يحرضون الأمراء والقادة والملوك ، ويثيرون فيهم الحمية والهمة لتخليص بلاد المسلمين ، وطرد الغاصبين المحتلين .

والملاحظ فى هذه القصائد أن أغلبها كان يشير بصفة خاصة إلى تخليص القدس الشريف ، فقلما نجد قصيدة من هذا النوع لا نجد فيها ذكراً للقدس ودعوة صريحة قوية إلى إنقاذها من أيدى الصليبيين . وما كان ذلك إلا لأن القدس هى أولى القبلتين ، وفيها ثالث الحرمين الشريفين ، وهى مسرى الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه . فليس غريباً على شعراء الأمة الإسلامية والناطقين باسمها أن يثيروا هذه القضية فى كل مناسبة ، بل إنهم كانوا يوجدون المناسبات لإثارتها والحديث عنها .

* * *

رابعاً – المديح :

كثر شعر المديح فى فترة الحروب الصليبية كثرة هائلة ، فقد خلد الشعراء أبطال الحروب الصليبية وقادتها وبعض المشهورين فيها .

والمتتبع لهذا الشعر يجد أن الشعراء مدحوا أبطال هذه الحروب فى كل مناسبة ، وبعد كل معركة خاضوها وانتصروا فيها . بل إنهم مدحوهم بعد بعض المعارك التى لم ينتصروا فيها ، واعتذروا عنهم ، وقووا عزائمهم للاستمرار فى الجهاد .

أما الصفات التى أطلقوها عليهم فكلها تتعلق بالجهاد ، وما يتطلبه من صفات البطولة والشجاعة والتضحية والبذل والعطاء والسماحة ، وفوق كل هذا الدين الخالص الذى لا تشوبه شائبة .

ولقد تبين لى من خلال دراسة هذه الأشعار أن قائليها كانوا يعبرون عما فى أنفسهم ، وعما يجول فى خواطرهم من أفكار وأحاسيس ، وتشوق صادق إلى تخليص بلاد الإسلام من الصليبيين ، ودليل ذلك أن أغلب مدائحهم كانت – كما قلت – تتعلق بصفات المجاهد الحقيقى ، وتصف الواقع المشاهد دون مبالغة تخرج الموضوع عن هدفه . أما الرغبة فى العطاء فلم تكن مقصداً إلا للقليل النادر منهم كما يتبين ذلك من خلال دراسة هذا النوع من الشعر .

أما أبطال الفتوح الذين حظوا بالاهتمام ، وخلدت أفعالهم ، فأهمهم عماد الدين زنكى وابنه نور الدين ، ثم صلاح الدين الأيوبى الذى فاق الجميع فى كثرة ما قيل فيه من شعر وقصائد ملحمية خلدت أمجاد هذا الرجل العظيم ، وسبب ذلك أن الله يسر على يديه فتح بيت المقدس ، واستطاع أن يضعف من شأن الصليبيين ، ويهيئ لمن يأتى بعده إمكان طردهم نهائياً من بلاد المسلمين .

ولأن هذه القصائد - كما قلت - كثيرة جداً ، فسنستعرض بعضها لإعطاء صورة واضحة من شعر المديح فى الحروب الصليبية .

ذكر المقدسى[1] أن ملك الفرنج حاصر قلعة شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ونصب عليها المجانيق ، فخرج إليه عماد الدين ، وناوشه وتهدده ، فانسحب ملك الفرنجة خوفاً منه ، فمدحه ابن قسيم الحموى بقصيدة قال فيها :

بعزمك أَيُّها المَلِكُ العظيم ... تَذِلُّ لك الصِّعابُ وتستقيم
أَلم تر أَنَّ كلَ الروم لمَّا ... تبينَ أَنك الملكُ الرحيم
فجاءَ يُطَبِّقُ الفلواتِ خيلاً ... كأَن الجحفلَ الليلُ البهيم
وقد نَزَلَ الزمانُ على رِضَاهُ ... فكان لِخَطْبِه الخطبُ الجسيم
فحينَ رَمَيتَهُ بك فِى خَمِيس ... تَيقَّنَ أَن ذلك لا يدوم
وأَبصر فى المفاضةِ منك جيشا ... فَأَحْزَنَ لا يَسير ولا يُقيم
كأَنكَ فِى العَجاج شِهابُ نُورٍ ... تَوَقَّدَ وهو شيطانٌ رجيم
أَرادَ بقاءَ مهجَتهِ فولَّى ... وليس سوى الحِمَام له حَمِيم
يؤمل أَن تجودَ بها عليه ... وأَنتَ بها وبالدُّنْيا كريم
أَيلتَمِسُ الفرنجة منك عفواً ... وأَنت بِقَطْعِ دَابِرِهَا زعيم
وكم جَرَّعْتهَا غُصَصَ المنايا ... بيومٍ فيه يَكْتَهِلُ الفَطِيم
ولما أن طلبتَهُمْ تَمَنَّى الـ ... ـمنيةَ جُوسَلَينَهمُ اللَّئيم
أَقام يُطَوِّفُ الآفاقَ حينا ... وأَنتَ على مَعَاقِلِهِ مُقِيمُ

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٢ .

فسارَ وما يُعَادِلهُ مليكٌ   وعـادَ وما يعـادله سَـقيم
إذا خَطَرَتْ سيوفُك فِي نُفوسٍ   فأَولُ ما يفارقها الجسُوم[1]

نلاحظ فى هذه القصيدة أن الشاعر مدح عماد الدين ببعض ما فيه من مزايا طيبة تتعلق مباشرة بالجهاد ، وما يتطلبه من صفات القوة والتضحية ، فالممدوح كالشهاب الحارق الذى ينقض على ما حوله فيهلكه ، والأعداء يفرون منه خوفاً وهلعاً ، ولكن عماد الدين مع بطشه وجبروته يعفو عند المقدرة وهذه صفات عظماء الرجال ، فعماد الدين يجود على خصمه بالعفو ، كما يجود بالدنيا كلها ، فهو كريم فى كل شيء. وفى الأبيات الأخيرة ذكر الشاعر بعض ما يفعله الممدوح بالأعداء ، فهو قد تكفل بقطع دابرهم ، وجرعهم كئوس الموت ، وأذلهم وشردهم ، أما نور الدين زنكى الذى يعتبر بحق من أقوى الشخصيات فى تاريخ الحروب الصليبية ، فقد حظى باهتمام كبير ومجَّد الشعراء أفعاله ، وعلقوا عليه الآمال العظيمة ، لإخراج الصليبيين من بلاد المسلمين .

ومن جملة ما قيل فيه ، قصيدة لأبى المجد المسلم بن الخضر بن قسيم الحموى ، الذى امتدحه وأثنى على شجاعته وقوته وحسن بلائه فى الجهاد ، فشجاعة نور الدين بادية على محياه لا تحتاج إلى دليل لإثباتها ، وهو مع كونه شجاعاً ليس متهوراً ، ففيه أناة المجرب ، وحكمة العاقل . ثم إن نور الدين كان يجاهد لإعلاء كلمة الله فى الأرض ، وليس لأهداف أخرى ، وكان يقينه بالله قوياً لا تشوبه شائبة ، ولهذا كله فإن الزمان لا يجود بمثل هذا الرجل الذى يتطلع إلى العلا دائماً وأبداً . وفى نهاية القصيدة يمتدح الشاعر نور الدين بأنه يعمل جاهداً لإعزاز الدين الإسلامى ، وإذلال الشرك ، وأنه أقسم بالله أن يبذل كل جهده لتبديد الشرك وأهله ، وأن الله سيبر يمينه . وفى البيت الأخير امتدحه بفتح الرها ، وذكر أن هذا الفتح فتح لنور الدين ممالك عديدة لا تزال محفوظة ومصونة . قال الشاعر :

تبدو الشجاعةُ مِنْ طَلاقَةِ وجهِهِ   كالرمح دَلَّ على القساوة لينُه
ووراءَ يقْظَتِهِ أَنَاةُ مُجَرِّبٍ   لله سَطْوَةُ بأسه وسكونُه

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٢ . والكامل فى التاريخ ، ج ١ ص ٥٨ . والتاريخ الباهر ص ٥٦، والخريدة ج ١ ص ٤٧٠ قسم شعراء الشام .

هذا الذى فِى اللهِ صَحَّ جهادُه   هذا الذى باللهِ صَحَّ يقينُهُ
هذا الذى بَخِلَ الزمانُ بمثلِهِ   والْمُشْمَخِرُّ إلى العُلا عرْنِينُهُ
ملكُ الورىَ مَلِكٌ أغرُّ مُتَوَّجٌ   لا غدرُه يُخْشى ولا تلوينُه
إنْ حَلَّ فالشرفُ التليدُ أنيسُهُ   أَو سَارَ فالظفرُ الطريفُ قرينُه
فالدَّهرُ خاذلُ من أَرادَ عِنَادَهُ   أَبداً وجبَّارُ السماءِ مُعِينُهُ
والدينُ يشهد أنه لَمُعِزُّهُ   والشركُ يعلم أَنَّهُ لَمُهِينُهُ
ما زالَ يُقْسِم أنْ يُبَدِّدَ شملَه   واللهُ يكره أن تَمِينَ يمينُه
فتح الرُّها بالأَمسِ فانفتحتْ لَهُ   أَبوابُ ملكٍ لا يزال يَصُونُه (١)

أما ابن منير الطرابلسى فقد امتدح نور الدين بقصيدة قال فيها :

أيا نورَ دينٍ خَبَا نُورُه   ومذ شاعَ عدلُكَ فيه اتَّقَدْ
رآكَ الصليبُ صليبَ القناةِ   أمِينَ العِثَارِ متينَ العُمُدْ
تَهمُّ فتسلبه ما اقتنى   وتَدْئَى فتشكلُهُ ما احْتَشَدْ (٢)
زَبَنْتَهُمْ أمسِ عن صَرْخَد   فَفَضُّوا كأَن نَعَاماً شَرَدْ
ويومَ العريمةِ أَقْبَلْتَهُمْ   عُراماً يُثَعلِبُ فيه الأَسد
حبستَ مليكهمُ فى الصِّفاد   وعفوك عنه أَعمَّ الصَّفَدْ
وقبلُ أَزرتهمُ فى الرُّها   موازقَ مزقن جُرْدَ الجُرَدْ
بقيتَ تُرَقِّعُ خَرْقَ الزما   ن قياماً لأَبنائه إن قعد
تَثقفُ من زَيْغِهِ ما التوى   وتُصْلِحُ من طَبْعِه ما فسد (٣)

نرى فى هذا النص أن الشاعر لم يمدح نور الدين مدحاً مجرداً أو مقترناً بالفضائل الحسية أو النفسية المعروفة فى شعر المديح ، ولكن مديحه لنور الدين كان موضوعياً مرتبطاً بفكرة الجهاد ، وبالدور الذى كان لنور الدين فى الحرب ضد الصليبيين ، فهو

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٢٤ .
(٢) **تدئى** : أى تراوغ .
(٣) الروضتين ، ج ١ ص ٢١ .

يقول له : لقد خبا نور الإسلام لقعود أبنائه عن نصرته والدفاع عنه ، ولكنه عاد إلى سابق قوته بفضل جهادك ، وأن الصليبيين رأوا فيك مسلماً قوياً لا تهتز ولا تلين ولا تتعثر فى طريقك ، وأنهم قد أصيبوا بك ، فاستطعت أن تسترد من أيديهم ما ملكوه من أرض ، واستطعت أن تقتل من أبنائهم الكثير .

ويضرب لذلك أمثلة من تاريخ الحروب الصليبية فيقول : إن نور الدين قد استطاع أن يجليهم عن صرخد ، فتفرقوا عنها بددا كالنعام الشارد وأنهم ذاقوا الهزيمة يوم العريمة ، بل يذكر أن نور الدين استطاع أن يأسر ملكهم ، ثم يطلق سراحه كرماً منه وعفواً . كذلك يذكر موقف نور الدين فى الرها حين فرق جموعهم ، ثم يخلص الشاعر من هذا المديح إلى القول بأن نور الدين قد استطاع أن يقوم اعوجاج الزمان ، وأن يصلح من طبعه ، لأنه بجهاده استطاع أن يغير تاريخ المسلمين فى تلك البقعة من الأرض فى ذلك العصر .

ومن المعانى الطريفة التى كان يمدح بها نور الدين أنه أعاد بفعله وانتصاراته المتكررة عهد الانتصارات فى زمن النبى ، وأنه أوجد مهاجرين وأنصاراً ، وجدد إسلام بعض المسلمين .

وكان الشعراء يتطرقون إلى هذه المعانى لربط المسلمين بماضيهم ، وتذكيرهم بانتصارات وأمجاد سلفهم الصالح ، وأنه من واجبهم السير قدماً على نفس الخط ، وبنفس الطريقة .

قال أحد الشعراء يمدح نور الدين بمناسبة انتصاره على الإفرنج فى موقعة دلوك سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، قصيدة جاء فيها :

أَعدتَ بعصرِكَ هذا الأَنيـ ـقِ فتوحَ النبِيِّ وأَعصارَها
وكان مهاجرُها تابعيـ ـكَ وأَنصارُ رأيك أَنصارَها
فجدَّدْتَ إسلامَ سلمانها وعَمّرَ جَدُّكَ عُمّارَها[1]

ومن المعانى الأخرى التى مدح بها نور الدين إحياؤه للعدل فى زمن نعى فيه العدل ، واستنقاذه دين الأمة الإسلامية من الضياع والهوان .

---

(١) الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ص ١٦٣ .

والواقع التاريخى يشهد له بذلك وقد أنقذ حقاً أمة الإسلام ودينها آنذاك من بطش الصليبيين وأحقادهم .

وقال ابن منير يذكر هذه المعانى بمناسبة فتح نور الدين لحصن بارين سنة أربع وثلاثين وخمسمائة من قصيدة له قال فيها :

أَيا مُحْيِىَ العدلِ لِمَّا نَعَا ... هُ أَيَامىَ البَرَايا وأَيتامُهَا
ومستنقذَ الدين من أمة ... أُزالَ المحاريبَ أَصنامُها[1]

ويمضى نور الدين إلى رحمة الله بعد جهاد طويل ، حقق الله فيه على يديه الكثير من الانتصارات ، وخلده الشعراء بقصائد عديدة ، سجلوا فيها وقائعه وجهاده ، وأغلب معاركه . ويأتى بعده صلاح الدين الأيوبى فيشاء الله أن يحقق على يديه أروع الانتصارات الإسلامية ، ويكون فتح القدس الشريف ، واستردادها من الصليبيين فى قمة تلك الانتصارات . فلا غرابة أن يتسابق الشعراء إلى مديحه ، وتسجيل انتصاراته والثناء عليه فى كل مناسبة . فقد حقق لهم وللمسلمين كافة أعز أمانيهم على الإطلاق .

ولقد حظى صلاح الدين الأيوبى بعناية فائقة من الشعراء والأدباء لم يحظ بها أحد غيره من أبطال الحروب الصليبية على الإطلاق . ومن كان له أن يحصل على هذا لولا فتحه للقدس .

وسنستعرض بعض القصائد التى قيلت فى مدحه فى مناسبات مختلفة ، فمن هذه القصائد ما قاله أبو على الحسن الجوينى عندما نزل السلطان على تل القاضى قرب بانياس ، ثم عزم على مهاجمة الفرنجة ، فرحل صوب البقاع ، فتجمع الصليبيون هناك ، فانتصر عليهم ، وأسر كثيراً من قادتهم ، وكان ذلك سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، فمدحه الجوينى فقال من قصيدة له :

لك ربُّ السماءِ خيرُ معين ... وكَفَاهُ بما تُحِبُّ ضَمينْ
فله الحمدُ أَى نصرٍ عزيز ... قد حَبَانا به وفتحٍ مُبينْ
أَدرك الثأر حين نازله المغـ ... ـوارُ جِيف الكفار ليثُ العرين
الهمامُ الغضنفرُ الملكُ النا ... صر مولى الورى صلاح الدين

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٥ .

يا مليكا أَضحى الزمان ينا جيهِ بلفظ المُذَلَّلِ المسكين
قذفتْ أَهلَـهَا الحصون إلى بأ سك حتى عَرَضْتَهُم بالسجون
وأَراهُمُ ربُّ السماءِ بأَسيا فِكَ مَا لَمْ يَجُلْ لهم فى ظُنون
لَكَ قلبٌ عنـد اللقـاءِ مكينٌ ولـه من تُقَـاه أَلف كَمِـيْنِ
يا مليـكا يلقى الحروبَ بحـول الله مستـعصما وصدق اليقين
إنَّ هذا الفتحَ المبينَ شفاءٌ لصـدور وقُـرَّةٌ لعـيـون
هو يومَ أَضحى يومَ حُنين سَهَّلَ الله نصره فى الحزون (١)

نلاحظ فى هذه القصيدة أنها لم تختلف عن سابقاتها من قصائد المدح التى قيلت فى غير صلاح الدين من حيث الموضوعية فى إعطاء الصفات الجليلة للممدوح ، وقد وقعت غزوة حنين فى سنة ثمانٍ بعد الفتح بين المسلمين من جهة وكفار الطائف من جهة أخرى .

وقد كان النصر فى بداية هذه المعركة للمشركين ، حيث فاجأوا المسلمين بالقتال ولكن الرسول ثبت مع نفر من أصحابه وعاد المسلمون المنهزمون مرة أخرى للقتال ، واستطاعوا الانتصار على المشركين (٢) .

وقد نزل فى هذه الغزوة قول الله تعالى فى سورة التوبة :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ الله مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

فالشاعر يلتزم بالصفات التى لها علاقة بالجهاد ، ويبتعد عن الصفات الحسية التى يبالغ فيها الشعراء عادة .

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٥ .
(٢) السيرة النبوية ، ج ٤ ص ٨٠ وما بعدها .
(٣) سورة التوبة الآيات : ٢٥ - ٢٧ .

فالشاعر هنا بدأ قصيدته بحمد الله وشكره على تحقيقه هذا النصر العزيز للمسلمين ، ثم ذكر أن صلاح الدين أبدل الصليبيين بحصونهم المنيعة سجوناً ضيقة ، وأنهم اطلعوا على قوته العظيمة ، وبأسه الشديد ، فرأوا ما لم يكن يخطر لهم على بال .

ومن الصفات الهامة التى يتطلبها الجهاد **تقى الله** عز وجل ، **والصبر** عند اللقاء **وصدق اليقين** بنصر الله ، ولا يتحقق النصر إلا بكل هذا ، ولذا أثبت الشاعر لصلاح الدين كل هذه الصفات .

وفى نهاية القصيدة أظهر الشاعر فرحه واستبشاره بهذا النصر ، لأنه شفاء لصدور المسلمين ، وقرة لعيونهم ، وقد سهل الله فيه النصر للمسلمين بعد العناء والتعب فى بداية القتال ولذا شبهه بيوم حنين ، وفى هذا التشبيه ربط حاضر المسلمين آنذاك بماضيهم ، وهذه لفتة جميلة فى هذا الموقف .

وقد مدح صلاح الدين أيضاً بجودة الرأى وحسن الخلق ، بالإضافة إلى سهره الدائم على مصالح المسلمين ، وجهاده المستمر للأعداء وإعداد العدة للقضاء عليهم .

نجد ذلك فى قصيدة لأمين الدولة محمد بن عبد الله ، المعروف بسبط ابن التعاويذى قالها بمناسبة انتصار صلاح الدين على الإفرنج فى موقعة مرج عيون سنة خمس وسبعين وخمسمائة .. قال الشاعر :

ملكٌ إذا عَلَقتْ يدٌ بِزمامه ... عَلقتْ بحبلٍ فى الحفاظ متينِ

قادَ الجيادَ معاقلًا وإن اكتفى ... بمعاقـلٍ منْ رأيه وحُصُـــون

وأَعدَّ للأعداءِ كلَّ مُهَنَّدٍ ... ومُثَقَّفٍ ومضاعفٍ مَوْضُـــون

سهرتْ جُفونُ عداهُ خيفَةَ ماجدٍ ... خُلقتْ صوارِمُه بغير جُفُون

لو أَنَّ لليث الهِزَبْرِ سُطَاهُ لَمْ ... يلجـأْ إلى غـابٍ لَـهُ وعَرِين

والبحر لو مُزِجَتْ به أَخلاقُه ... لغدتْ مياهُ البحرِ غير أَجُون (١)

والأَرضُ لو شِيبتْ بطيبِ ثناهُ لم ... تُنْبِتْ سوى الخيرِىِّ والنَّسرين (٢)

وقد مدحه ابن التعاويذى أيضاً بقصيدة أخرى سنة ثمانين وخمسمائة بمناسبة الخلع

---

(١) **أجون** : الآجن الماء المتغير اللون والطعم .

(٢) مضمار الحقائق وكنز الدقائق ص ٢٠ .

التى أرسلت إليه من الدار العزيزية إلى دمشق ، وأثنى عليه بعدة صفات أُخرى كلها أيضاً ذات صلة بموضوع الجهاد ، وقتال الصليبيين وهو الموضوع الذى كان يشغل بال المسلمين فى تلك الفترة من تاريخهم . يقول الشاعر : لقد نهضت يا صلاح الدين لنصرة الإسلام بصدق عزيمة ، وقوة إرادة ، وكان الإسلام بحاجة إليك لترأب صدعه وتسدد الخلل الذى وقع بأهله ، ولقد كان غضبك ورضاك كله فى الله ، فأنت لا تغضب لدنيا تزول ، أو أمر ليس للإسلام فيه نصيب ، وهذه صفة الصفوة من الرجال المسلمين الذين لا يغضبون لأنفسهم ، بل يغضبون غيرة على محارم الله ، وهكذا هم فى حال الرضى .

وبعد هذه المقدمة اللطيفة يتحدث الشاعر عن بعض فعل صلاح الدين بأعدائه فيقول : يا صلاح الدين ، لقد تركت أعداءك فى حالة يرثى لها ، فهم بين قتيل أو خائف يترقب الموت ، أم هارب ضاقت عليه الدنيا برحبها ، لأنه يعلم أنه لا مفر من القضاء عليه ، ولهذا أصبحت غزواته فى بلاد الروم متحققة النصر دائماً . يقول الشاعر مخاطباً صلاح الدين :

ونهضتَ للإسلام نهضَةَ صَادقِ العزمات تَرْأَبُ من ثُآه وتشعب (١)

وغضبْتَ للدينِ الحنيف ولَم تَزلْ ... فى الله ترضى منذ كنتَ وتَغْضَبُ

غادرتَ أَهلَ البغى بين مُجَدَّل ... لقى الحِمَام وخائفٍ يَتَرَقَّبُ

أو هاربٍ ضاقتْ عليه برحبها الـ ... أرْضُ الفضاءُ وأَين منك المَهْرَبُ

أصْبِحْ بلادَ الروم منك بغارةٍ ... للنصر فيها رائدٌ لا يكذب (٢)

ومن الصفات التى مُدِحَ بها صلاح الدين صفة الكرم ، والعفو عند المقدرة ، والقيام بأمر الدين خير قيام ، بالإضافة إلى إضعافه من شأن الفرنجة ، وإنصاف أهل التوحيد منهم .

نجد هذه المعانى فى قول الشاعر يوسف بن حسين بن المجاور من قصيدة له جاء فيها :

ملكٌ إذا أَمَّ الملوك جنابَه ... لاذوا بأكرم من يُوَمُّ أَشْرفِ

وإذا أَتَوْا أَسْرى إلى أَبوابِه ... وَقَفُوا بأَعظم من يَصُولُ وأَرأَف
مولَى غَدَا للدينِ أَكرمَ والدٍ ... حَدبٍ على أَبنائه مُتَرَفِّرِف
عَزَلَ الفرنجة ثُمَّ ولى جيشَه ... أَعْظم به من صارف ومصرف
قد أَنصفَ التوحيدَ من تثليثهم ... وأَقامَ فى الإِنْجيلِ حَدَّ المصحف [1]

وممن مدح صلاح الدين ، أسامة بن منقذ بقصيدة لم يخرج فيها كثيراً عن سابقيه ، بل كرر معظم الأوصاف التى قالوها ، حيث وصفه بنصرة الدين فى الوقت الذى تخاذل فيه الكثيرون عن نصرته ، وأن قيامه بأمر الدين حقق للمسلمين النصر على أعدائهم ، انظر إليه يقول :

يا ناصرَ الإسلامِ حين تخاذَلَتْ ... عنه الملوكُ ومُظهر الإيمان
بك قد أَعزَّ اللهُ حزبَ جنوده ... وأَذلَّ حزبَ الكفرِ والطغيانِ [2]

كما مدح فيه صفة الغضب لدين الله ، كما فعل ابن التعاويذى ، فقال أسامة :

وغضبتَ لله الذي أَعطاك فصـ ... ـل الحكم غضبةَ ثائرٍ حَرَّان [3]

ومن صفات المدح الجديدة التى أوردها أسامة بن منقذ فى قصيدته ، صفة بذل الأموال الطائلة للإنفاق على تجهيزات القتال ، وفى الصرف على المجاهدين ، وقد كانت الأموال قبل صلاح الدين محفوظة فى الخزائن لا يسمح لها بالخروج ، قال أسامة :

وبذلتَ أَموالَ الخزائنِ بعدما ... هَرِمتْ وراء خواتم الخُزَّانِ
من جمع كل مجاهد ومُجالد ... ومبارزٍ ومُنَازِل الأَقْران
من كُل مَنْ يرد الحروب بأَبيضٍ ... عَضْبٍ ويصدرُ وهو أَحمرُ قانى
ويخوضُ نيرانَ الوغى وكأَنه ... ظمآنُ خاضَ مواردَ الغُدْران [4]

وعندما فتح السلطان صلاح الدين القدس الشريف سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، تباشر الشعراء بهذا الفتح وعبَّروا عن سرورهم واغتباطهم بأجمل القصائد ،

---

(١) الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٣ .
(٢) خريدة القصر قسم شعراء الشام ، ج ١ ص ٥٣٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ٥٣٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٥٣٠ .

ومدحوا السلطان الذى أنقذ مقدسات المسلمين ، وكانت جملة القصائد التى قيلت بهذه المناسبة كثيرة ، نختار منها أبيات من قصيدة للعماد الكاتب قالها بهذه المناسبة جاء فيها :

رأيتُ صلاحَ الدينِ أَفضلَ من غَدَا ... وأَشرفَ من أَضحَى وأَكرمَ مَنْ أَمسى
وقيلَ لنا فى الأَرض سبعةُ أَبحرٍ ... ولسنا نرى إلَّا أَناملَه الخَمْسَا
سَجِيَّتُه الحسنى وشيمتُه الرِّضَى ... وبطشَتُه الكبرى وعزَّتُه القَعْسَا (١)

ثم تطرق بعد ذلك إلى الحديث عن المعركة ، ووصف شجاعة المسلمين وبسالتهم ، وما فعلوه فى المشركين ، وكيف تم لهم القضاء عليهم ، ثم يخلص من ذلك إلى مدح صلاح الدين بأنه وحده دون الناس قاطبة استطاع أن يفتح القدس الشريف ، وأن يطهرها من رجس الصليبيين ، وينزع عنها لباس الشرك ، ليلبسها ثوب الأمان . وبعد هذا الفتح العظيم استبدل ضرب الناقوس بالآذان فوق المنابر وهذا يعد من أكبر الانتصارات . قال الشاعر :

جنودُك أَملاكُ السَّماءِ وظنُّهم ... عداتك جِنّ الأَرض فى الْفتك لا الإنْسا
فلا يستحقُ القدسَ غيرُك فى الورى ... فأَنت الذى من دُونهم فَتَحَ القُدْسَا
ومن قبلُ فتح القُدْس كُنْتَ مُقَدَّساً ... فلا عَدِمَتْ أَخلاقُكَ الطُّهْر والقُدْسَا
وطَهَّرتَهُ مِنْ رجسهم بدمَائهم ... فأَذهبتَ بالرجس الذى ذَهَب الرِّجْسَا
نزعتَ لِباسَ الكفرِ عن قُدْس أَرضها ... وأَلبسْتَها الدينَ الذى كَشَفَ اللَّبْسا
وعادتْ لبيت الله أَحكامُ دينه ... فلا بطْرَكاً أَبقيتَ فيها ولا قسَّا
وقد شاعَ فى الآفاق عنكَ بشارةٌ ... بأَنَّ أَذانَ القُدْس قد بطل النُّقْسا
جرى بالذى تهوى القضاءُ وظاهرتْ ... ملائكةُ الرحمنِ أَجنَادَك الحمسا (٢)

وبعد أن انتهت الدولة الأيوبية ، وجاءت بعدها دولة المماليك ، استمر ملوكها فى مقاومة الصليبيين ، والقضاء عليهم ، حتى استطاعوا فى النهاية أن يحققوا حلم الأمة الإسلامية ، بإخراج كل الصليبيين من بلاد الشام ، وقد كان لهم الفضل الأول فى ذلك .

---

(١) معجم الأدباء ، ج ٧ ص ٨٨ .
(٢) الروضتين ج ٢ ص ١٠٢ . ومعجم الأدباء ج ٧ ص ٨٨ .

وكما قلنا كان الشعراء يتابعون تطورات المعارك ، ويقومون بواجبهم فى تحريض المسلمين على مواصلة الجهاد ، واستنهاض هممهم ، ومدح أبطالهم وقادتهم .

جاء فى مخطوط « درة الأسلاك فى دولة الأتراك » أن الملك المنصور قلاوون فتح حصن المرقب بالأمان سنة أربع وثمانين وستمائة ، ويعتبر هذا الحصن من أقوى معاقل الصليبيين وأشدها ، فامتدحه شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبى بقصيدة مطلعها قوله :

كم رامَ قبلك هذا الحصنَ من مَلِك فطالَ عنه وما فى بَاعه قِصَرُ
وكيف تمنحُهُ الأيَّامُ مملكةً كانت لدولتكَ الغرَّاءِ تُدَّخَرُ (١)

ثم أثنى على بأسه وقوته حتى أن الأعداء يصيبهم الخوف والذعر حينما يقدم إليهم محارباً ، قال :

ففاجأتْهُ جنودُ الله يَقْدُمها من بأسكَ المُنْذرَانِ الخوفُ والحَذَر (٢)

أما الممدوح فهو دائم الانتصار على أعدائه ، يرفع راية الإسلام فى كل معركة يخوضها وأصبحت هذه عادته التى لا يحيد عنها أبداً . قال الشاعر فى هذا المعنى :

رفعتَ أَعلاهُ أَعلاماً مُعَوَّدَةً أَن لا يزال بها الإسلامُ يَنْتَصِرُ
تبدو لها غُرر الطلعاتِ طالعةً من كل ناحيةٍ فى وجهها قَمَرُ (٣)

ذكرت فيما مضى بعض المدائح التى قيلت فى قادة المسلمين فى فترة الحروب الصليبية ، وقد كنت ذكرت فى بداية هذا المبحث أن هذه المدائح لم تقتصر على كبار الملوك المسلمين ، إنما تعدتهم إلى من هم أصغر منهم شأناً ممن شارك فى هذه الحروب . ومن هؤلاء تاج الملوك بورى ، فقد قاد معركة ضد الصليبيين عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة ، واستطاع هزيمتهم ، فمدحه ابن القيسرانى بقصيدة طويلة ذكر فيها : أن تاج الملوك بورى استطاع أن يعيد الحق إلى نصابه ، وأن يجعله مبتهجاً مسروراً ، كما استطاع أن يجعل السيف مبتسماً نتيجة هذه المعركة الرابحة وقد استطاع أيضاً أن يؤمن بلاد المسلمين من الأعداء .

---

(١) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٦٠ .
(٢) و (٣) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٦١ .

ثم يصف الشاعر بعدة أبيات فعل تاج الملوك فى هذه المعركة ، فعندما أحاط المشركون بالمسلمين ، وكانوا كالليل البهيم من كثرتهم ، استطاع تاج الملوك بما أوتى من حسن السياسة ، وبالعناية الربانية التى أحاطه الله بها ، أن يقود هذه المعركة بحكمة وقوة ليحقق فى النهاية النصر المؤزر . قال الشاعر :

الحقُّ مبتهجٌ والسيفُ مبتسمٌ ... ومال أَعدا مُجيرِ الدين مُقْتَسَمُ
قدتَ الجيادَ وَحَصَّنتَ البلادَ وأمـ ... ـنتَ العبادَ فأَنتَ الحِلُّ والحَرَمُ
وجئتَ بالخيلِ من أَقصى مرابطِهَا ... معاقِدُ الحزْمِ فى أَوساطها الحزم
حتى إذا ما أَحــاطَ المشركونَ بِنَا ... كالليل يلتهمُ الدُّنْيا لــه ظُلَمُ
وأَقبلوا لا مِنَ الإقْبــالِ فى عَدَد ... يؤُود حاســبه الاعياءُ والسَّأَمُ
أَجْرَيْتَ بحرًا من الماذىِّ مُعْتَكِرًا ... أمواجُه بأَواسى اليــأْس تَلْتَطُم
وسُسْتَ جُنْدَكَ والرحمنُ يكلؤه ... سياسةً ما يُعَفِّى إثرَهَا نَدَمُ
وقفتَ فى الجيش والأَعلامُ خافقةٌ ... بالنصر كل قناةٍ فوقها عَلَمُ
يحوطُك اللهُ صوناً عن عيونهم ... والله يعصــمُ من بالله يَعْـتَصِمُ
حتى إذا بَدَت الآراءُ ضاحكةً ... وأَقبلتْ أَوجهُ الإقْبالِ تَبْتَسِمُ
أَتبعت جنَّ سراياهم مضمرةً ... فيها نجومٌ إذا جدَّ الوغى رجموا
والنصرُ دانٍ وخيلُ الله مقبلةٌ ... ترجو الشهادةَ فى الهيجا وَتَغْتَنِمُ (١)

وممن مدح أيضاً ، معين الدين أنر حاكم دمشق ، بعد معركة ضد الإفرنج انتصر فيها ، فمدحه أسامة بن منقذ بقصيدة قال له فيها : إنك يا معين الدين كاسمك تعين الدين دائماً ، كما أنك سيف للإسلام ، تضرب فى سبيله بقوة وصلابة ، ولقد عز الإسلام بك ، وذل أهل الشرك والإلحاد . ثم يقول له : ثق يا معين الدين بأنك ستحقق ما تؤمله ، وسيجزيك الله خير الجزاء عن حسن صنيعك . فأنت كنت تضمر الجهاد وتفكر فيه دائماً وعندما سنحت لك الفرصة لم تتردد وإنما أقبلت على الجهاد بكل قواك ، ولذا فإن أفعالك ليست كأفعال الآخرين تزول بزوالهم وإنما تدوم ، لأنها أجر من الله وثناء من الناس ، قال الشاعر :

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٥٤ .

كلَّ يومٍ فتحٌ مبينٌ ونصرٌ   واعتلاءٌ على الأَعادى وقهْرُ
قد أَتاك الزمان بالعُذْرِ والإعْتـ   ـاب مِمَّا جناهُ إذ هو غِرُّ
صَدَقَ النَّعْتُ فيك أَنت معيـ   ـن الدين إن النعوتَ فألٌ وزجْرُ
أنتَ سيفُ الإسلام حَقًّا فلافـ   ـل غراريك أَيُّها السيفُ دَهْرُ
بك زاد الإسلامُ يا سيفَه المخْـ   ـذوم عزًا وذَلَّ شركٌ وكُفر [1]
ثق بإدراك ما تُؤَمِّلُ إن الله يجـ   ـزى العبادَ عمَّا أَسروا
لم تَزَلْ تُضْمِرُ الجهاد مُسرًّا   ثم أَعلنت حين أَمكنَ جَهْرُ
كلُّ ذُخْرِ الملوك يفنى وذخْـ   ـراكَ هُمَا الباقيانِ : أَجرٌ وشكرُ [2]

نلاحظ مما سبق أن أغلب شعر المديح كان يتميز بصدق العاطفة وحرارتها ، إذ إن أغلب الشعراء كانوا يقولون القصائد لا رغبة فى العطاء ، وإنما بدافع من إيمانهم ورغبتهم فى استرداد مقدسات المسلمين . ولذا نجد أيضاً أن أكثر هذه القصائد ابتعدت عن التكلف المقيت للمحسنات البديعية ، إذ إن الجو العام وهو جو المعركة ، والتعبير عن الفرحة بالانتصار يقتضى من الشاعر أن يقدم قصيدته بوحى عاطفته الصادقة دون تكلف أو عسر .

ونلاحظ من القصائد التى أوردناها فى هذا المبحث أن أبرز المعانى التى كان يتطرق إليها الشعراء فى قصائدهم وصف الممدوحين بالشجاعة وشدة البأس ، والحلم والأناة والحكمة ، وقيامهم بنشر العدل بين المسلمين ثم الإكثار من الحديث عن نصرتهم للإسلام ، وهزيمتهم لأعداء المسلمين . كل هذه الصفات تتعلق بطبيعة الموضوع الذى يتحدثون عنه ، وهو الجهاد . فهم كانوا يتحدثون غالباً عن الصفات التى لها علاقة بالجهاد ، أما النفسية والجسمية التى تتعلق بنموذج إنسان - قد لا يكون موجوداً بالفعل - فلم يتطرقوا إليها إلا لماماً .

ومن الملاحظات الهامة التى نلمحها فى هذه القصائد تشابه الصفات التى يطلقها كل شاعر على ممدوحه إلى حد ، كبير مع أن الممدوحين يختلف بعضهم عن بعض .

(١) **المخذوم** : أى القاطع .
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ١٧٠ .

وأعتقد أن سبب ذلك هو تشابه المناسبات التى يقال فيها هذا الشعر والرابطة المشتركة التى تجمع هؤلاء الممدوحين وهى الجهاد فى سبيل الله ، إذ إن المدح لا يقال غالباً إلا بعد الانتصار فى المعركة ، وما دام الانتصار فى المعركة يحتاج من القائد إلى بطولة وشجاعة وحكمة وأناة فى إدارة المعركة ، والصبر على الشدائد ، والاعتصام بالله ، فإن هذه الصفات هى التى تستعمل غالباً فى كل قصيدة . ولذا كان التشابه فى شعر المديح أمر لابد منه ، ولم يكن نتيجة تكرار أو تقليد ومتابعة .

وقد ربط شعراء المديح فى هذه الفترة بين ممدوحيهم وبين الشخصيات الإسلامية التى كان لها نصيب فى جهاد المشركين ، كما ربطوا كذلك بين معارك المسلمين الكبرى كبدر وحنين وعمورية وبين معارك ممدوحيهم . وقد كان هدفهم من ذلك شحذ هممهم وحثهم على الجهاد فى سبيل الله مهما كانت التضحيات .

* * *

خامساً - الهجـاء :

(أ) هجاء الصليبيين :

تحدث شعراء هذا العصر عن الصليبيين ، فذكروا صفاتهم السيئة ، وأكثروا من الحديث عنها فى قصائدهم الشعرية ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إما إلى تحذير المسلمين من أخطاء معاملتهم للصليبيين وإما إلى التقليل من شأنهم ، وتهوينهم فى أعين المسلمين ، وإظهارهم بمظهر الضعف والذلة والهوان ، لتحميس المسلمين ، وإذكاء روح الجهاد فى نفوسهم .

وقد أبرزوا فى حديثهم عن الصليبيين كثيراً من الصفات التى اشتهروا بها ، كالخداع والنفاق ، والجبن والهلع ، والفرار من المعركة ، وكان هجاؤهم لهم مرًّا شديداً قاسياً .

وسنورد فى الصفحات التالية أمثلة من هجاء شعراء المسلمين للصليبيين فى هذه الفترة .

ذكر شهاب الدين المقدسى ، أن صلاح الدين محمد بن أيوب العمادى صاحب

حماة خاض معركة حامية ضد جيش الروم عندما هاجموا بلدة حماة واستطاع الانتصار عليهم وإيقاع الهزيمة بهم .

وقد امتدحه ابن قسيم الحموى بقصيدة هجا فيها الروم فقال :

وما جاءَ كَلْبُ الروم إلَّا ليَحْتَوى ... حماةً وهل يسْطُو على الأَسد الكَلْبُ
أرادَ بها أن يملكَ الشَّامَ عَنْوةً ... وقد غلبتْ عنه الضَّراغِمَةُ الغُلْبُ
وما ذَمَّ فيها العيش حتى صَدَمْتَهُ ... فمالَ جناحُ الجيش وانْكَسر القَلْب
فولَّى وأَطرافُ الرماح كأَنَّها ... نجومٌ عليه بالمَنِيَّة تَنْصَبُّ[١]

فنحن نلاحظ فى هذه القصيدة ، أن الشاعر شبه قائد الروم بالكلب وتساءل هل يقدر الكلب على هزيمة الأسد . وهو استفهام إنكارى يحمل فى طياته قدراً كبيراً من السخرية اللاذعة .

ثم تحدث عن أمله فى احتوائها ليملك الشام قوة وغصباً ، وهذا أمر عجزت عنه الأسود الكاسرة من قبل . ثم وصف فراره من المعركة ، فذكر أنه انكسر من أول لقاء ، وفر فى الساعات الأولى من القتال ، وهذه عادة المشركين وديدنهم .

ونجد أن وصف قادة المشركين بالكلاب كان من عادة شعراء المسلمين عند هجائهم للصليبيين ، فليس هناك أحقر من الكلب ولا أذل منه .

كما أن الخوف والهلع والفرار من المعارك كان من أبرز الصفات التى أطلقها شعراء المسلمين على فرسان الإفرنج عند هجائهم ، ومثال ذلك ما نجده فى قصيدة ابن منير الطرابلسى عندما تحدث عن هزيمة جوسلين (عاتى الفرنج وشيطانهم ، والمقدم على رجالهم وفرسانهم)[٢] بمناسبة هزيمته فى موقعة الرها التى تمت فى جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وكانت (هذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا)[٣] . فقد ذكر الشاعر أن كلب الروم جمع جيوشاً أكثر عدداً من الرمل ، منوهماً أنه يستطيع بذلك أخذ بلاد الشام، وما درى هذا المسكين أنه سيكون

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٣٣ .
(٢) الروضتين ج ١ ص ٣٦ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ٣٦ .

وجيشه طعاماً لسيوف المسلمين . وعندما بدأت المعركة واشتد لهيبها ، ظهر عجزه ، وبان ضعفه ، وعرف أنه لا قدرة له حيال المسلمين ،ففر هارباً وكل ما فاز به روحه التى بين جنبيه ، أما ماعدا ذلك من بلاد وأموال فلم يقدر على شىء منه ، قال ابن منير :

وما يومُ كلبِ الروم إلَّا أخو الذى ... أَزجتْ به ما فى الجَنَاحَيْنِ من نَبْل

أَتاكَ بمثلِ الروم حشــداً وإنَّهُ ... لَيَفْضُلُ أضعافــاً كثـيراً عن الرمل

فـقـاتَـلْـتَـهُ بـالله ثُـمَّ بـعـزمـةٍ ... تَصُكُّ قلوبَ العاشقين بما يُسْلى

تَوَهَّمَ أَن الشامَ مرعى وما دَرَى ... بأَنكَ أَمضى منهُ فى الشَّزرِ والسَّحْلِ [1]

فطــارَ وخيرُ المَغْنَمَيْنِ ذِمَاؤه ... إذا ردَّ عنه مغنمُ المــالِ والأَهلِ [2]

ومن ردئ صفات الإفرنج التى هجاهم بها شعراء المسلمين نقضهم للعهود ، وعدم وفائهم بالتزاماتهم للمسلمين ، وهذه صفة بارزة فى الصليبيين تكررت أكثر من مرة .

ذكر القلانسى أن نور الدين محمود هاجم الإفرنج فى الملاحة سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة بسبب نقضهم هدنة كانت قائمة بينهم وبين المسلمين فهزمهم ، وقتل أعداداً كبيرة منهم ، ولم يقتل من المسلمين سوى رجلين [3] فقال أحد الشعراء يهجو الإفرنج ويذكر غدرهم بالمسلمين ، وعدم وفائهم لعهودهم ، وأنهم إنما استحقوا هذه الهزيمة لهذا السبب :

نَقَضُوا هدنةَ الصلاح بجهلٍ ... بعدَ تأْكيدها بِحُسْنِ الوَفَاءِ

وَلَقَوْا بغيهم بما كانَ فيه ... منْ فَسَاد يجلُّهُمْ واعتداءِ

لا حَمَى اللهُ شملَهم من شَتَات ... بمواضٍ تَـفُـوق حَـدَّ المَضَـاءِ

فجزاءُ الكَفُور قَتلٌ وأَسرٌ ... وجزاء الشَّكُورِ خيرُ الجَزاءِ

فَلربِّ العباد حمدٌ وشكرٌ ... دائمٌ مع تواصلِ النعماءِ [4]

أما النفاق والكيد للمسلمين عن طريق إشاعته . فكان من صفات الإفرنج التى

---

(١) **الشزر** : الشدة والصعوبة فى الأمر . **والسحل** : القشر والكشط .

(٢) **الذماء** : بقية النفس . أو بقية الروح فى المذبوح . والأبيات فى الروضتين ، ج ١ ص ٣٣ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤١ .

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٢ .

ذكرها الشعراء ، ومن أولئك ابن منير الطرابلسى ، الذى مدح نور الدين بقصيدة بمناسبة فتحه لقلعة حارم ، هجا فيها الإفرنج بقوله :

وإذا العِدَا زَرَعُوا النِّفاقَ وأَحصدُوا كيداً فعزمُك ناقضٌ حَصَّادُ [١]

وإذا أردنا أن نستعرض بعض الصفات الأخرى التى هجا بها المسلمون الإفرنج وجدنا أن الخديعة والخيانة كانتا من هذه الصفات ، وقد أبرزهما ابن القيسرانى عندما مدح نور الدين وقد استولى على سنجار والرحبة والفرات سنة أربعين وخمسمائة فقال :

وأَرى صياحَ القُمْص كانَ خديعةً فَطَغَى وَجَارَ وليس ثَمَّ وجَارُ
خانَ الصنيعةَ غيرَ مَحْقُوقٍ بِهَا والخيرُ يهدمُ ما بَنَى الخَتَّارُ
ذئبٌ إذا ما غبْتَ أَقدمَ عَاتياً إقدامَ منْ لم يَدْنُ منه قَرَارُ [٢]

وكذلك كان الغدر من صفات الإفرنج التى هجاهم بها الشعراء المسلمون كابن منير الطرابلسى الذى تحدث عن غدر جوسلين قائد الفرنج وتكرار ذلك منه ، فقال عنه :

ما زالَ يغْدُرُ ثم يغدُرُ قادرا حتى أَتاهُ بجامحٍ أَصحابُه [٣]

نلاحظ مما سبق أن أبرز الصفات التى هجا بها شعراء المسلمين الإفرنج كانت متصلة تماماً بموضوع شعر الجهاد ، ومتعلقة به ، ولذلك كان هجاؤهم موضوعياً وليس عاطفيًّا أو ذاتيًّا ، بحيث يخرج عن الموضوع الأساسى الذى قيل فيه . بل لم يحاول الشعراء أن يصطنعوا عيوباً بالإفرنج ليست فيهم ، أو يرموهم بنقائص لا يعانونها منهم .

ونرى عناصر إيجابية واضحة فى هجاء المسلمين للصليبيين ، فكل هذه العيوب التى كانت موضعاً للهجاء يعنى إبرازها تنبيه المسلمين إليها فى تعاملهم مع الإفرنج ، وتحذيرهم من مخاطر غدرهم وخيانتهم ، وزرعهم بذور الخلاف والنفاق ونقضهم العهود .

أما حين يبرز الشعراء إخفاق الإفرنج وهزيمتهم فلكى يثيروا الحماسة والحمية فى نفوس المسلمين . ولكن هذا كان جانباً واحداً من الهجاء المتصل بشعر الجهاد . وله جانب آخر هو هجاء المتقاعسين من المسلمين .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٠١ .
(٢) الروضتين ج ١ ص ٦٨ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ٨٨ .

(ب) هجاء المتقاعسين :

تحدث المؤرخون المسلمون عن وجود طائفة من أمراء المسلمين فى فترة الحروب الصليبية لم تشارك فى الجهاد ، وكانت تمالئ الإفرنج على المسلمين ، يدفعها إلى ذلك رغبة جامحة فى الحكم ، والاحتفاظ به مهما كان الثمن المدفوع فى سبيل ذلك ، ولم ينس الشعراء المسلمون هؤلاء الأمراء ، فهجوهم هجاء شديداً ، وفضحوا أعمالهم أمام شعوبهم ، وطلبوا منهم الكف عما هم فيه ، والعودة إلى حظيرة الإسلام ، وكان معين الدين أنر حاكم دمشق من هذا الصنف الذى تحدثنا عنه ، فهجاه أسامة بن منقذ بقصيدة قال فيها :

هَبْنَا جَنَيْنَا ذُنوباً لا يُكَفِّرُها ... عُذْرٌ فماذا جنى الأَطفالُ والحَرَم
أَلقيتَهم فى يَد الإفرنج مُتَّبِعاً ... رضَا عَدُوٍ يُسْخطُ الرحمنَ فعْلُهُم (١)

وأسامة هنا يقول : إذا كان رجال السياسة فى نظر معين الدين قد ارتكبوا جرماً فى حقه لا يغتفر فما ذنب نساء المسلمين وأطفالهم الذين ذبحوا على أيدى الصليبيين بممالأة معين الدين لهم ضد أبناء دينه .

وفى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة قصد الفرنج بيروت ، وكان يحكمها الأمير عز الدين أسامة الجبلى ، فهرب منها دون قتال واستولى الفرنج عليها . فهجاه بعض الشعراء بأبيات تهكمية ظريفة ، وصفوا فيها ضعفه ورغبته فى السلامة ، وأخبر أن هذا الفعل المخزى سُنَّةٌ سنَّها أسامة بين المسلمين ، ولعله أراد الإشارة إلى حديث الرسول الذى جاء فيه « **ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء** » (٢) .

وفى نهاية الأبيات تمنى الشاعر على الله أن يبعد هذا الرجل وأن يلحق الخزى بمن سام بيروت مشترياً . قال الشاعر :

سَلِّم الحصنَ ما عليكَ ملَامه ... ما يُلام الذى يَرُوم السَّلامَه
إنَّ أَخذَ الحُصونِ لَا منْ قتَالٍ ... سُنَّةٌ سَنَّهَا ببيروتَ سَامَه

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ١٤٨ .
(٢) صحيح مسلم ، ج ٢ ص ٧٠٤ .

أَبْعَادَ اللهُ تاجرا سنَّ ذا البيع وأخزى بِخزْيِه منْ سَامَه[1]

نلاحظ أن هذا النوع من الشعر كان قليلاً جداً بالنسبة لما يجب أن يكون عليه نظراً لكثرة المتقاعسين عن الجهاد لا سيما فى بداية الحروب الصليبية ، ويبدو لى أن مرد هذه القلة ترجع إلى أن المسلمين فى بداية هذه الحروب كانوا متفرقين شيعاً وأحزاباً ليس لهم رابطة تجمعهم ، ولا حاكم قوى ينضوون تحت لوائه ، ويذكى فيهم روح الجهاد والتضحية بالنفس فى سبيل نصرة الإسلام .

ولذا كان من العسير على الشعراء أن يوجهوا سهام هجائهم إلى المتقاعسين وهم كثير ، بل كان الشعراء أنفسهم تتنازعهم الأهواء السياسية ، والعلاقات الشخصية بهذا الأمير أو ذاك مما صرفهم عن مقالة الحق فى هجاء المتخاذل .

ولم يظهر هذا النوع من الشعر إلا بعد عماد الدين زنكى الذى كان أول قائد تجمع المسلمون حوله ، وهنا أصبح المتخاذلون عرضة للهجاء والتهجم ، ولكن ما لبثت روح الجهاد أن أذكت الحماسة فى القلوب فطوى الأمراء أهواءهم الشخصية فى سبيل نصرة الدين إلا من قلة أبت إلا المخالفة ، ومع تضاؤل عدد المخالفين المتخاذلين لم نجد شعراً كثيراً فى هذا النوع من الهجاء .

* * *

سادساً – الرثاء :

(أ) رثاء الأبطال :

ظهرت فى الحروب الصليبية بعض الشخصيات الإسلامية التى قادت المسلمين ، وحققت لهم كثيراً من الانتصارات الباهرة ، وجمعت شتاتهم بعد تفرق ، ومكنت المسلمين استعادة بلادهم التى أخذت منهم .

ومن هؤلاء عماد الدين زنكى أول قائد مسلم حقق للمسلمين انتصارات على الإفرنج وولده نور الدين الذى وسع دائرة هذه الانتصارات ، ومكن لصلاح الدين الأيوبى من بعده حيث استطاع إخراج الصليبيين من بيت المقدس ، وكان هذا الانتصار

---

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ص ٤٥٣ ، ومفرج الكروب ج ٣ ص ٧٤ ، والروضتين ، ج ٢ ص ٢٣٣ .

قمة الانتصارات التى حققها صلاح الدين للمسلمين .

وجاء بعد هؤلاء بفترة طويلة الملك المنصور قلاوون الصالحى الذى استطاع إخراج آخر بقايا الصليبيين من بلاد الشام .

كان لهذه الشخصيات أثر بارز فى حياة المسلمين آنذاك ، لأن خطر النصارى كان عظيماً ، فهم لا يتركون فرصة إلا واستغلوها لمهاجمة المسلمين ، فموت بطل له باع طويل فى حماية المسلمين لم يكن بالأمر السهل ، فإذا أضفنا إلى خطر النصارى خطراً أعظم منه كان يحدث فى حياة الأمة الإسلامية غالباً كما مات زعيم ، ألا وهو تفرق المسلمين واختلافهم لعدم وجود زعيم قوى آخر يخلف الزعيم الأول .

ولم يكن مستغرباً على الشعراء المسلمين إظهار الجزع والخوف على هؤلاء ، ورثائهم والتحسر على وفاتهم ، وذكر مآثرهم التى تركوها من بعدهم .

ذكر أبو يعلى القلانسى (١) أن عماد الدين استشهد ليلة الأحد السادس من شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، قتله غلام له فى أثناء محاصرته قلعة دوسر المعروفة بقلعة جعبر . فنظم قصيدة طويلة فى رثائه ، وذكر ما آلت إليه أحوال البلاد الإسلامية بعده ، مطلعها قوله :

كذاكَ عمادُ الدينِ زنكى تنافرتْ ... سعادَتُه عَنْهُ وخَرَّتْ دَعَائمُهْ
وكم بيت مالٍ من نُضَارٍ وَجَوْهَرٍ ... وأَنواعِ ديباجٍ حَوَتْها مَخَاتِمُهْ (٢)

إلى أن يقول :

وكم مَعْقلٍ قد رَامَهُ بسيوفه ... وشامخ حصنٍ لم تَفُتْهُ غَنَائمُهْ
ودانتْ ولاةُ الأَمرِ فيها لأَمرِهِ ... وقد أَمَّنَتْهُمْ كُتْبُهُ وَخواتمُهْ
وأَمَّنَ مَنْ فى كُلِّ قُطْرٍ بهيبةٍ ... تُرَاعُ بها أَعْرابُهُ وأَعاجمُهْ
وظالمُ قومٍ حينَ يُذْكرُ عدلُهُ ... فقد زال عَنْهُمْ ظلمُهُ وخَصَائمُهْ
وكم ثغرِ إسلام حَمَاهُ بِسَيْفه ... مِنَ الرُّوم لَمَّا أَدركَتْهُ مَرَاحمُهْ (٣)

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٨٤ .
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨٧ .

نلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر ذكر بعض صفات عماد الدين التى تمس حياته مجاهداً مناضلاً فى سبيل دينه ، وكان موضوعياً فى رثائه ، فعماد الدين فتح كثيراً من المعاقل الصليبية ، ودانت له الولاة فى جميع الأقطار ، واستتب الأمن فى عهده ، ورفع الظلم عن المظلومين ، وحمى ثغور الإسلام من الصليبيين . لأجل كل هذا كان الرثاء وكان البكاء ، فهو ليس من الأشخاص العاديين الذين لا يؤبه لهم ، ولا يتركون بعد موتهم أثراً .

وقد ذكر جهاده شاعر آخر فى مرثية أخرى ، فذكر أنه يقود الجيوش بنفسه ويكون فى مقدمة الصفوف ، ويلقى الجيش بمفرده غير هياب ولا وجل ، كما انه يتبع الفتح فتحاً آخر ، ويكون رأيه الصائب مشاركاً لعزمه القوى فى تحقيق الانتصارات يقول :

فاعجبْ لمن قادَ الجيوشَ ونفسُه … قسْـمانِ بين الكَـرِّ والإقْدَام

يلقى الكتائب مُفْـردًا بكتائب … من نفسه واليومَ مكدرُ حامى

لا يرعوى عن أن يقارعَ وحدَهُ … ألفاً بأَبيضَ صـارم صَمْـصَام

يأْتى الفتوحَ على الفتوح بسيفه … وبـرأيـه وبـعـزمـه المقـدام

حتى إذا الأجلُ انقضَى مُسْتَكْملاً … ما خُطَّ فى الألَواح بالأَقْلام

لاقى الحمامَ ولم يكن مُستيقناً … أنَّ الحمام سيُبْتَلَى بِحمَام (1)

وفى شهر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة توفى نور الدين زنكى ، (وكان قد اتسع ملكه جداً فملك الموصل وديار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام والديار المصرية واليمن ، وخطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وطبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله ، ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه) (2) فحزن المسلمون لوفاته كثيراً ، وكانوا يأملون أن يتم فتح بيت المقدس على يديه ، وبكاه الشعراء وتألموا لفقده ، ومن هؤلاء العماد الأصفهانى الذى رثاه بقصيدة طويلة أظهر فيها التفجع والتحسر لما أصاب الإسلام والمسلمين من البلاء العظيم لموت نور الدين ، فالدين الإسلامى أظلم بعد ضياء ، والدهر أصيب بالغم والحسرة لفقده أميره وحاكمه ، فليس على الإسلام إلا أن يندب حظه العاثر لموت حامى أهله وأتباعه ، وعلى

(1) التاريخ الباهر ص ٧٤ .
(2) الروضتين ج ١ ص ٢٢٩ .

الشام كذلك أن يشارك فى البكاء والتحسر ، لأن ثغوره أصبحت معرضة للأخطار ومدنه للضياع .

وبعد هذه المقدمة الحزينة ، يتحدث الشاعر عن الفراغ الكبير الذى تركه نور الدين فى حياة المسلمين ، فمن لنصرة الإسلام والمسلمين ، ومن لهزيمة الفرنج وأسر ملوكها ؟ ومن يتولى قيادة المسلمين إلى النصر والجهاد ؟ ليس لكل هذه الأمور إلا نور الدين ، ولكن أين نور الدين ؟

وفى نهاية القصيدة يتحدث الشاعر عن جوانب أخرى مضيئة فى حياة نور الدين فهو الذى أحيا شرع محمد بعد موات ، ونشره بعد اندثار ، وهو الذى كان يحفر الخنادق استعداداً للجهاد ، وهو الذى جاهد فى سبيل الله حتى فتح العديد من الحصون الصليبية وأعادها إلى حظيرة الإسلام ، قال العماد :

الدينُ فى ظُلَمٍ لِغَيبة نورِه ... والدهرُ فى غم لفقد أَميرِه
فليندبِ الإسلامُ حامى أَهلِه ... والشام حافظَ مُلْكه وثغورِه
من ينصرِ الإسلامَ فى غَزَواته ... فلقدْ أُصيبَ بُرُكْنه وظهيره
مَن للفرنج ومَنْ لأَسرِ ملوكها ... مَنْ للهدَى يبغى فكاكَ أَسيره
من للبلاد ومن لنصرِ جيوشها ... من للجهاد ومَنْ لحفْظ أُموره
من للفتوحِ محاولاً أَبكارَهَا ... بَرَوَاحه فى غَزْوه وبُكُورِه
أَنتَ الذى أَحييتَ شَرْعَ محمد ... وقَضَيْتَ بعدَ وفاته بِنُشُوره
كم قد أَقمتَ من الشريعة مَعْلَماً ... هُو مُنذْ غِبت مُعَرَّضٌ لدُثُورِه
كم قد أَمرت بحفرِ خندقِ مَعْقلٍ ... حتى سكنتَ اللَّحْدَ فى مَحفُوره
كم قيصر للروم رُمْتَ بِقَسْرِه ... إرواءَ بيض الهنْد من تَامُورِه (١)
أُوتيت فتحَ حصونه ، وملكت عقـ ... ـر بلاده وَسَبَيْتَ أَهلَ قُصوره (٢)

وفى يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة انتقل السلطان صلاح الدين الأيوبى إلى جوار ربه ، وكان يوم وفاته (يوماً لم يصب الإسلام

(١) **التامور** : النفس وحياتها أو الغشاء الذى يحيط بالقلب .
(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٤٤ .

والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص إلا ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس)[1] . وعندما أخرجت جثته للدفن ورآها الناس كثر بكاؤهم وضجيجهم (حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً ، وغشى الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة ، وصلى الناس عليه أرسالاً)[2] .

وقد كانت وفاة صلاح الدين كارثة عظيمة على الأمة الإسلامية كلها ، وترك خلفه فراغاً هائلاً يصعب ملؤه ، ولذا كان من الطبيعى أن يبكيه الشعراء ، ويحزنوا لوفاته ، وكان من الطبيعى أيضاً أن يعبروا عن آلام الأمة الإسلامية التى أصابتها فى الصميم ، وقد كان الأمر كذلك ، إذ رثاه العديد من الشعراء بقصائد تتفق ومكانته العظيمة ، ومن هؤلاء العماد الأصفهانى الذى قال يرثيه :

مَنْ للعُلا مَنْ للذُّرَى من للهُدَى ... يحميه مَنْ للبأس من للنَّائِلِ ؟
طَلَبَ البقاءَ لملكه فى آجل ... إذْ لم يَثِقْ ببقاءِ مُلْك العاجِلِ
بَحْرٌ أعاد البرَّ بحراً بِرُّهُ ... وبسيفه فُتِحَتْ بلادُ السَّاحلِ
من كان أهلُ الحقِ فى أيامه ... وَبِعزِّه يُرْدُونَ أَهلَ البَاطِلِ
وفتوحُه والقدسُ فى أَبكارها ... أَبقتْ له فضلاً بغير مُسَاجِلِ
ما كنتُ أَستسقى بغيرك وابلًا ... ورأيتُ جُودَكَ مُخْجِلًا للوابلِ
فسقاك رضوانُ الإله لأَننى ... لا أَرتضى سُقْيَا الغَمام الهَاطِلِ[3]

نلاحظ فى هذه القصيدة أن الشاعر التزم فى رثائه بالمضمون الحقيقى لحياة صلاح الدين والمعنى الذى من أجله تأثر لوفاته ، وأراد أن يعبر عن حزنه العميق ، لا لأن سلطاناً قد مات ، بل لأن مجاهداً بسيفه مدافعاً عن الدين قد سقط فى ساحة الجهاد ، ومن هنا كانت الفجيعة وكان الرثاء ولو أن الشاعر كان يتفجع على صلاح الدين كما

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ٢١٣ .
(٢) الروضتين ج ٢ ص ٢١٤ .
(٣) الروضتين ج ٢ ص ٢١٧ .

يتفجع كل الشعراء بإضافة الكرم والشجاعة إلى الميت لاختلف معنى الشجاعة هنا عن أى رثاء آخر ، لأنها ليست صفة تقليدية بل هى صفة حقيقية يدلل عليها الشاعر فى أبياته التالية ، بل فى البيت الأول نفسه حيث يتساءل : من بعد صلاح الدين يحمى دين الهدى ؟ ومن يسبق إلى المعالى بسيفه وبأسه ؟ ثم يؤكد هذا المعنى عندما يبين أن صلاح الدين لم يكن بجهاده طالباً للدنيا ، وإنما كان يؤمل فى الآخرة ، ولو أنه طلب الدنيا لعاش بعيداً عن المعارك والقتال .

ويضرب الشاعر أمثلة واقعية من تاريخ الحروب الصليبية تبين قيمة جهاد صلاح الدين فقد فتح بلاد الساحل ، وفتح القدس ، وأعاد العزة لأهل الحق وهم المسلمون ضد أهل الباطل وهم الصليبيون .

ومن هنا نجد رثاء العماد الكاتب موضوعياً وواقعياً وليس مجرد رثاء تقليدى لشخصية كبيرة يمكن أن يعمم فى أى مناسبة وفاة .. وقد رثاه العماد بقصيدة أخرى عدد أبياتها اثنان وثلاثون ومائتا بيت ، مطلعها قوله :

شَمْلُ الهدى والملكُ عَمَّ شَتَاتُه   والدهرُ ساءَ وأَقلعتْ حَسَنَاتُهُ
أَين الذى منْ لم يزل مخشيةً   مرجوةً رهباتُه وَهِبَاتُهُ
أَين الذى كانتْ له طاعاتُنا   مبذولةً ولربِّه طَاعَاتُهُ (1)

وبعد هذه المقدمة يعدد الشاعر بعض صفات صلاح الدين التى أهلته لاحتلال المكانة العالية فى قلوب المسلمين ، وجعلته يقوم بدور قيادى فى طرد الصليبيين من معظم بلاد الإسلام ، وأولى هذه الصفات وأهمها أن نيته فى جهاده كانت خالصة لله ، ومن كان عمله لله كان الله معه ، ولهذا نلاحظ أن الشاعر جعل هذه الصفة فى مقدمة صفات صلاح الدين .

وبعد ذلك يستعرض الشاعر بعض أعمال صلاح الدين ضد الصليبيين ، فيذكر أنه أذاقهم الذل حتى اضطرهم إلى الخنوع لبأسه وجبروته ، وكان جهاده ضدهم متصلاً وباستمرار دائم حتى استطاع تحقيق النصر لبنى الإسلام ، وكانت لذته الوحيدة فى هذا الجهاد ، وفى تحقيق الخير للمسلمين ولم يكن همه تحقيق اللذة لنفسه ، بل لغيره ، وكان

---

(1) الروضتين ، ج ٢ ص ٢١٥ ، وبدائع الزهور ، ج ١ قسم ١ ص ٢٤٨ .

يسهر دائماً ليفكر فى مصالح المسلمين وهو يعرف أن سهره فى الدنيا سيحقق الخير والسعادة له فى الآخرة .

وفى نهاية هذه الأبيات يبدى الشاعر تحسره وألمه لوفاة صلاح الدين ، فيذكر أن موته لا يعنى موت شخص واحد ، أو حتى عدة أشخاص ، بل يعنى موت أمة بأكملها ، وسبب ذلك أنه كان رمز قوتها ووحدتها ، وهو الذى حقق لها الحياة بشكلها الصحيح، حياة القوة والعزة والانتصارات ، ولذا كانت الفجيعة بموته ليست عادية .

وكما لاحظنا فى القصيدة السابقة سنلاحظ أيضاً أن الشاعر فى قصيدته هذه كان موضوعياً فى رثائه ، فذكر من صفات صلاح الدين ما كان له علاقة مباشرة بجهاده فى سبيل الله ، انظر إليه يقول :

بالله أَينَ النَّاصِرُ الملكُ الذى ... لله خالصةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ
أَين الذى مازالَ سُلطاناً لَنَا ... يُرْجى نَداهُ وتُتَقَّى سَطَوَاتُهُ
أَين الذى عَنَتِ الفرنجُ لباسه ... ذُلًّا ومنها أُدْرِكَتْ ثاراتُهُ
أَغلالُ أَعناقِ العدا أَسيافُه ... أَطواقُ أَجيادِ الوَرَى مِنَّاتُهُ
مَنْ فى الجهاد صِفاحُه ما أغْمِدَتْ ... بالنصر حتى أُغْمِدَتْ صَفَحَاتُهُ
مَنْ فى صدور الكفر صَدْرُ قَنَاتِه ... حتى توارتْ بالصياحِ قَنَاتُهُ
لَذَّ المتاعبَ فِى الجهاد ولم تَكُنْ ... مذ عاشَ قطُّ لِذَاتِهِ لَذَّاتُهُ
فى نُصرةِ الإسْلامِ يَسْهَرُ دائما ... ليطول فى رَوْضِ الجِنَانِ سناته
لا تحسبوه مماتَ شخصٍ واحد ... فمماتُ كلِّ العالمِينَ مَمَاتُهُ (١)

وفى سنة تسع وثمانين وستمائة توفى الملك المنصور قلاوون الصالحى (٢) وهو من ملوك المماليك الذين كان لهم باع طويل فى جهاد الصليبيين ، وقد انتصر عليهم فى كثير من المعارك ، ومكن لابنه من بعده الأشرف خليل من طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ، وقد قال عنه حسن بن عمر المعروف بابن حبيب (وطرد عسكر الفرنج عن

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ٢١٥ . والأنس الجليل ص ٣٩٥ . والنجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٦٠ . ومرآة الزمان ، ج ٨ قسم ١ ص ٣٤١ .

(٢) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٩٤ .

ساحل الشام ونفاه ولو لم يكن له غير فتح طرابلس الشام لكفاه)[1] .

وبعد موته رثاه شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبى بقصيدة قال فيها :

مَلِكٌ مضى لسبيلِهِ وسبيلُه ... فى نصرةِ الإسلامِ حُكْمٌ يُقتفى
سَلْ يومَ حمصَ عن الأُلوفِ وقد سَطَا ... فِى شَمْلِها هل بعد ذاكَ تَأَلُّفَا
وانظرْ تجِدْ تسعينَ ألفاً منهمُ ... ذهبوا ، كما حكمتْ صوارِمُه خَفَا
وغَدوْا وطاءً للورى فلَكَمْ تَرَى ... من حافرٍ قد داس خَدًّا مُتْرَفَا
والمَرْقَبُ العالِى الذِى سَامَى السما ... فَغَدَا على نَهْرِ المَجَرَّةِ مُشْرِفَا
وافى إليه بعزمةٍ جاءَتْ بِهِ ... يوم الإِبَاءِ مُسَلِّماً مُسْتَعْطِفَا
وكذا طرابلسُ التى لم يرجها ... مَلِكٌ سواه إذا تَنَبَّهَ أَوْ غَفَا
ولكم أَباد عِداً وكم أَبدى يَداً ... وندى وجدَّد رسم مَكرمةٍ عَفَا[2]

فنحن نلاحظ فى هذه القصيدة أن الشاعر لم يخرج عن منهج سابقيه فى أسلوب الرثاء ومنهجه ، فقد كان موضوعياً إلى حد بعيد ، ولم يورد أوصافاً لا علاقة لها بموضوع الجهاد .

وقد بدأ قصيدته بتقرير حقيقة ثابتة وهى : أن الملك المنصور أوقف حياته كلها لنصرة الإسلام والجهاد فى سبيله ، وقد مضى لربه وهو على هذه الحالة ، ولقد كانت حياته وجهاده مثلاً يحتذى .

وبعد هذه المقدمة التى تهيئ القارئ والسامع للاستماع إلى مزيد من الأوصاف عن هذا الرجل ، والتى يبدو لى أن الشاعر أراد بها أن يهيئ الأذهان لطلب المزيد من صفات هذا المرثى لمعرفته والحكم عليه ، بدأ يعدد بعض معاركه البارزة التى هزم فيها الصليبيين وكانت معركة حمص فى بداية هذه المعارك ، وقد انتصر فيها الملك المنصور قلاوون وقتل تسعين ألفاً من الصليبيين ، وداست أرجل خيله على خدودهم المترفة . وكذلك كانت معركة حصن المرقب ، وهو من الحصون المنيعة القوية ، وقد استطاع قلاوون أن ينتزعه من أعدائه ويضيفه إلى أملاك المسلمين .

---

(١) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٩٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٥ .

والمعركة الأخيرة التى تحدث عنها شاعرنا فى هذه القصيدة هى معركة طرابلس التى وقعت سنة ثمان وثمانين وستمائة وانتصر فيها قلاوون وقتل وأسر خلقاً كثيراً من أهلها وقد كانت بأيدى الصليبيين من سنة ثلاث وخمسمائة حتى هذه السنة (١) . ولذا عد المؤرخون انتزاعها من أيديهم نصراً عظيماً نظراً لحصانتها وقوتها .

ونجد قصيدة للشاعر فى رثاء الملك المنصور قلاوون تحدث فيها عن جهاده ، وبعض انتصاراته ، والمكاسب التى حققها للمسلمين . قال فى قصيدته :

وكم من حصونٍ قد فتحتَ شواهقٍ ... مصابيحها فى الأفقِ أَنجُمُه الزُّهْرُ
وأَطلعتَ فيها طائرَ السيفِ فاغتدَى ... وليسَ له إلَّا رؤوسُ العِدَى وَكْرُ
كأَن شعاع الشمسِ فوقَ احمراره ... على زرقةٍ فيه لناظره جَمْر
فلله كم بِيضٍ وسُمْرٍ كَواعبٍ ... على رَغْمِها قد حازتِ البيضُ والسمرُ
وكم فارسٍ من قيده ودمائه ... مراكبهُ دُهْمٌ وأَلوانُها شُقْرُ
وَفِى نَعْتِك المنصور سِرٌّ لو أنهم ... وَعَوْهُ لما قاموا أمامك بل فَرُّوا
أَمَا سَمِعُوا إذْ لم يروا كَسْرَك العدَا ... بحمصٍ إلى أَنْ لَيسَ يُرْجى لهم جَبْرُ
وكانوا كموج البحر لا حَدَّ يحتوى ... عليهم ولا يأْتى على عدَّتِهم حَصرُ
وكان لهم فى الأرض صيتٌ وسُمْعَةٌ ... فلم يَبْقَ فى الدنيا لَهُمْ بعدَها ذكْرُ
بل سمعوا أَخبارَ جيشك قبلَها ... فلما التقَوه صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ (٢)

* * *

٢ - رثاء الديار :

لم يتوقف شعراء الحروب الصليبية عند رثاء الأبطال وحدهم ، بل جاوزوا ذلك إلى رثاء بعض الديار الإسلامية التى سقطت فى أيدى الصليبيين ، وكان سقوط بيت المقدس فى المرتين الأولى والثانية من أصعب الأمور وأكثرها بلاء فى نفوس الشعراء المسلمين ، نظراً لمكانته الروحية عند المسلمين عامة .

(١) البداية والنهاية ، ج١٠ ص ٣١٣ .
(٢) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٩٤ .

وقد عبر هؤلاء الشعراء عن آلامهم وأحزانهم بجملة قصائد سنكتفى باستعراض بعضها لإعطاء صورة واضحة عن مضمون رثاء الديار الإسلامية لدى شعراء هذه الفترة وعلاقته الوثيقة بشعر الجهاد .

ذكر ابن الأثير فى تاريخه وهو يستعرض حوادث سنة إحدى وتسعين وأربعمائة أن الفرنج استولوا على معرة النعمان بعد حصار طويل ، ولما تخاذل أهل البلد ، وتركوا الأسوار ، دخلها الفرنج ووضعوا السيف فى المسلمين ثلاثة أيام ، وقتلوا ما يزيد على مائة ألف ، وأسروا الكثير وخربوا البلد (١) .

وقد عبَّر عن هذه الحادثة الشاعر وجيه بن عبد الله بن نصر التنوخى بقصيدة قال فيها :

هذه بلدةٌ قضى اللهُ يا صا ... حِ عليها كما تَرَى بالخَرَاب
فقفِ العِيسَ وقفةً وابكِ من ... كَان بها من شيوخها والشَّبَاب
واعتبرْ إنْ دخلتَ يوماً إليها ... فِهى كانَتْ منازلُ الأَحباب (٢)

ففى الأبيات السابقة نجد أن الشاعر يبكى بحرقة تلك المدينة المهدمة ، ويتأسف عليها كثيراً ، ويطلب من غيره أن يشاركه حزنه وألمه وبكاءه على قتلى المدينة من الشيوخ والشباب ، وفى البيت الأخير يطلب الشاعر من الجميع أن يعتبروا بما جرى لغيرهم من القتل والتدمير ، فالعاقل من يتعظ بغيره ، ولعل فى هذا المعنى إشارة إلى شدة التدمير التى حصلت فى المدينة ، وكثرة قتلاها ، لأن العبرة لا تقع إلا بحدوث مصاب عظيم .

وفى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة أخذ الفرنج بيت المقدس ، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف (٣) وقد كان لسقوط بيت المقدس دوى عظيم فى نفوس المسلمين عامة ، وتألموا لذلك كثيراً .

وقد عبر أحد الشعراء عن هذا المصاب الأليم بقصيدة حزينة باكية ، ذكر فيها أن

(١) الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٨ ، تاريخ معرة النعمان ص ١٤٢ ، وما بعدها ، وتاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٣٦٩ .
(٢) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، ج ٨ القسم الأول ص ٣٣ . والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٠٠ .
(٣) الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ص ٢٨٤ .

الكفر أوقع الضيم بالإسلام ، مما يستوجب البكاء والعويل لهول ما حدث .

وبعد أن ذكر هذه المقدمة المفجعة ، وهى غلبة الكفر على الإسلام ، بدأ يتحدث بالتفصيل عن أنواع الضيم الذى تحدث عنه فى البيت الأول . فذكر أن حقوق المسلمين قد ضاعت ، وأن حماهم قد استبيح ، وأن دماءهم تتدفق بغزارة من كثرة القتلى .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه إلى ما هو أسوأ ، إذ تحولت المساجد إلى كنائس تعلق فى محاريبها الصلبان ، وتذبح فيها الخنازير المحرمة ، وتحرق المصاحف فى المساجد .

وقد أراد الشاعر أن يعبِّر فى هذا البيت عن كثرة هذا الفعل القبيح الذى يفعله الإفرنج فى مساجد المسلمين وانتشاره ، فذكر أن الذى يراهم وهم يفعلون ذلك ، يتصور أنهم يتخذون من دم الخنزير طيباً وعطراً يتطيبون به ، وأن فى دخان النار الذى يتصاعد من أوراق المصاحف بخوراً يطيبون به أنفسهم كذلك ، وهذا الأمر المؤلم فيه ذل للمسلمين ما بعده ذل . ولذا نراه فى البيت الذى بعده يذكر أن هذه الأمور لو تأملها وعرفها الأطفال لشابت رؤوسهم هولاً وجزعاً .

وفى البيت الأخير يثير همة المسلمين ونخوتهم للدفاع عن الإسلام وحماية أهله ويطلب من المسلمين إجابة داعى الجهاد بأسرع ما يمكن . يقول الشاعر فى قصيدته :

أَحلَّ الكفرُ بالإسلامِ ضَيْماً ... يطولُ عليه للدِّينِ النَّحِيبُ
فَحَقٌ ضائعٌ ، وحمى مباحٌ ... وسيفٌ قاطعٌ ، ودَمٌ صَبِيبُ
وكم من مسلمٍ أَمسى سَليباً ... ومسلمة لَهَا حَرَمٌ سليب
وكم من مسجدٍ جَعَلُوه دَيْراً ... على محرابه نُصبَ الصَّليبُ
دمُ الخنزير فيه لهم خَلُوقٌ ... وتحريقُ المصاحف فيهِ طيبُ [1]
أَمورٌ لو تأَمَّلهنَّ طفلٌ ... لَطَفَّلَ فى عَوَارِضه المشيب [2]
أَتُسْبى المسلماتُ بكل ثَغْرٍ ... وَعَيْشُ المسلمين إذًا يطِيبُ
أَمَا لله والإسلامِ حقٌ ... يُدَافع عنه شُبَّانٌ وشِيبُ
فَقُلْ لذوى البصائرِ حَيثُ كانوا ... أَجِيبُوا الله وَيْحَكُمُ أَجِيبُوا [1]

---

(١) **الخلوق** : ضرب من الطيب وقيل الزعفران .   (٢) **سفل** : أقبل وأطل .

وفى سنة ست عشرة وستمائة يشاء الله أن يضعف حال المسلمين ، بعد أن كانوا قد استردوا المسجد الأقصى أيام صلاح الدين ، فيحاصرهم الإفرنج ، ويضيقون عليهم الخناق ، وذلك أيام الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، مما جعله يخرب بيت المقدس خشية استيلاء الفرنج عليه . وقد أثار عمله هذا سخط المسلمين ونقمتهم ، وذم الشعراء فعله ، وقيلت فيه عدة قصائد كلها تحمل عليه وتهول فعله[٢] . ومن جملة هذه القصائد قصيدة لشهاب الدين أبى يوسف يعقوب بن المجاور قال فيها :

أَعَيْنِيَ لا تَرْقى من العَبَرات ... صلى فى البكا الآصال بالبكرات
لعلَّ سيولَ الدمع يُطفئ فيضَها ... تَوَقُّد ما فى القلبِ من جَمَرَات
ويا قلبُ أَسعِرْ نار وجْدكَ كلَّما ... خبَتْ بادِّكارٍ يبعثُ الحَسَرات
ويا فَمُ بُحْ بالشَّجْوِ منك لعله ... يُرَوِّحُ ما أَلقى من الكُرُبَات
على المسجد الأقصى الذى جَلَّ قَدْرُه ... على مَوْطن الإخبات والصَلَوات
على منزل الأَملاك والوحى والهُدَى ... على مَشْهَد الأَبدال والبَدَلَات
على سُلَّم المعراج والصخرة التى ... أَنَافَتْ بما فى الأرض من صَخَرات
على القبلة الأُولى التى اتجهتْ لها ... صلاةُ البرايا فى اختلاف جهات
وما زال فيه للنبيين مَعْبَدٌ ... يُوالون فى أَرجائه السَّجدَات
لِتَبْكِ على القدس البلادُ بأَسرِها ... وتعلنُ بالأَحزان والتَّرَحَات
لتبك عليها مكةٌ فهى اختُها ... وتشكو الَّذى لاقَتْ إلى عَرَفَات
لتبك على ما حل بالقدس طيبةٌ ... وتشرحُهُ فى أَكرم الحُجُرات
لقد شتَّتُوا عنها جماعةَ أَهلها ... وكلُّ اجتماعٍ مُؤذنٌ بشَتَاتِ
فمن لى بِنُوَّاحٍ يَنُحْنَ على الذى ... شَجَانى بأصوات لهن شُجَاة
يُرِدِّدْنَ بيتا للخُزاعى قاله ... يُؤَبِّنُ فيه خيرة الخيرات
مدارسُ آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مُقْفِر العَرصَات[٣]

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥١ . (٢) الروضتين ج ٢ ص ٢٠٥ .

(١) الروضتين ج ٢ ص ٢٠٦ . والبيت الأخير للشاعر دعبل بن على الخزاعى فى قصيدة له يرثى أهل بيت النبى .

نلاحظ مما سبق ، أن الشعراء فى رثائهم لأبطال الحروب الصليبية التزموا بذكر الصفات الحقيقية للمرثى فى قصائدهم ، فذكروا من صفاته ما يتعلق منها بموضوع الجهاد ، والذب عن حياض المسلمين ، وبذل المجهود فى استرجاع ما فقد من بلادهم . ونلاحظ كذلك أن حزنهم وبكاءهم على أبطال المسلمين وقادتهم فى تلك الفترة لم يكن مرده إلى وفاة زعيم مسلم فقط ، بل لأن أحد المجاهدين الأفذاذ قد ابتعدوا عن ساحة الجهاد ، وتركوا خلفهم فراغاً لا يسهل سده ، ومن هنا كانت الكارثة وكان الرثاء ودليل ذلك قول الشاعر عندما رثى صلاح الدين الأيوبى :

لا تحسبوه ممات شخص واحد　　　فممات كل العالمين مماته (١)

وأما رثاء الشعراء لبلاد المسلمين ، فنلاحظ أنهم اهتموا بذكر ما حل بالمسجد الأقصى وبيت المقدس عامة ، نظراً لمكانة بيت المقدس فى نفوس المسلمين ، إذ فيه ثالث الحرمين الشريفين وهو مسرى النبى الأعظم .

وكان رثاؤهم كذلك موضوعيًا ، إذ تحدثوا عن نكبات المسلمين ، وما حل بهم من قتل وتدمير وتشريد ، كما تحدثوا عن أفعال الإفرنج ، ومعاييهم ، واستهتارهم بمقدسات المسلمين وحرماتهم .

وكان الهدف فيما يبدو لى من ذكر هذه الأمور بل من الرثاء فى جملته إثارة النخوة الإسلامية فى نفوس المسلمين ، ودفعهم إلى الجهاد واسترداد مقدساتهم . يؤيدنى فى ذلك قول أحد الشعراء فى آخر قصيدته وهو يرثى بيت المقدس :

فقل لذوى البصائر حيث كانوا　　　أَجيبوا الله ويحكم أَجيبوا (٢)

وقول الآخر وهو يذكر سقوط بيت المقدس أيضاً :

دعوناكم ، والحرب تَرْنو مُلِحَّةً　　　إلينا ، بأَلحاظ النُسور القَشَاعم

تُراقب فينا غارةً عربية　　　تُطيل عليها الرومُ عَضَّ الأَباهم

فإن أَنتُمُ لم تغضبوا بعد هذه　　　رمينا إلى أَعدائنا بالجرائم (٣)

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥١ .

(٣) الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ص ٢٨٦ .

الفصل الثانى

ظواهـــــره الفنيــــــة

كنا قد تحدثنا فى الفصل السابق عن موضوعات شعر الجهاد المختلفة وبينا أن شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية شاركوا بشعرهم فى إذكاء روح الجهاد فى صفوف المسلمين ، وكان لهذا الشعر دور كبير فى إخراج الصليبيين من بلاد الشام .

ولكى تكون صورة شعر الجهاد واضحة المعالم ، وجدت أنه من الضرورى أن أعقد فصلاً للحديث عن الظواهر الفنية فى شعر الجهاد فى فترة الحروب الصليبية ، أتحدث فيه عن لغة هذا الشعر وموسيقاه ، وعن الصبغ البديعى الذى استعمله شعراء الجهاد ، وكذا الصورة الفنية ، والنهج الذى كان سائداً فى قصائد شعراء الجهاد .

أولاً – لغة الشعر وموسيقاه :

والمقصود بلغة الشعر فى جانب منها مدى توفيق الشاعر فى اختيار ألفاظه للدلالة على المعنى الذى يريده ، وذلك من ناحية المضمون والجرس الموسيقى وتناغم الشكل والمضمون فى العبارة الشعرية .

ومن قديم ربط النقاد العرب بين اللفظ والمعنى ، فهذا ابن رشيق فى كتابه « العمدة » يربط بين اللفظ ومعناه بقوله « اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته » ثم قال : « وكذا إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ »(١)

أما عبد القاهر الجرجانى فقد أسس نظرية النظم على فكرة الارتباط العضوى بين المعانى والألفاظ .

---

(١) العمدة : ٢ – ١٢٤ .

ولما كانت الألفاظ وسيلة مهمة للتعبير عن الفكرة وجه النقاد عنايتهم لدراستها من نواح مختلفة يأتى فى أولاها فصاحة اللفظ .

وقد اشترط عبد القاهر لفصاحة اللفظ أن يكون « مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ، ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريباً ، أو عاميًّا سخيفاً »[1] .

فإذا طبقنا هذا المبدأ على لغة شعر الجهاد ، وجدنا أن شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية ابتعدوا عن استعمال العامية فى أشعارهم مخالفين بذلك كثيراً من الشعراء فى عصرهم الذين غلبت عليهم العامية بسبب البعد عن مواطن العروبة ، ونقص الثقافة ، وغلبة الأعاجم .

ومع أن شعراء الجهاد - كما قلنا - ابتعدوا عن العامية فى أشعارهم ، إلا أننا وجدنا كلمات أجنبية دخلت عليهم بفعل تأثرهم بالحروب الصليبية ، وبالصليبيين الذين عشاوا فى بلاد الشام واختلطوا بهم . كما سبق أن أشرت إلى ذلك فى فصل سابق ، ومن ذلك ما نجده عند ابن منير الطرابلسى فى قوله يخاطب عماد الدين زنكى :

برنست رأس برنس ذلة بعدما جاست حوايا جوسلين[2]

وكذلك عند ابن القيسرانى فى قصيدة له يمدح جمال الدين وزير الموصل بمناسبة فتح الرها فقال :

أَرى القُمْصَ يأْملُ فوت الرما ح ولابُدَّ أَن يُضرب الشَّائِلُ[3]

وقد وفق شعراء الجهاد فى اختيار ألفاظ قصائدهم التى تدل على المعنى الذى يريدون التعبير عنه ، فهناك انسجام كامل بين اللفظ والمعنى ، وبين اللفظ كذلك والجرس الموسيقى الذى يحدثه متناغماً مع ألفاظ العبارة ، فالكلمة ليست بنفسها كما يقول النقاد ، ولكن بغيرها أيضاً .

فإذا نظرنا مثلاً فى قصيدة ابن القيسرانى التى يقول فيها :

ضحكتْ تباشيرُ الصباح كأَنَّها قسماتُ نور الدين خير الناس

---

(١) أسرار البلاغة : ١ - ٩٨ .

(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩ .

المشترِى العُقْبىَ بأنفس قيمةٍ والبائعُ الدنيا بغيرِ مُكَاس

وسرى دعاءُ الخلقِ يَحْرُس نفسَه إنَّ الدعاءَ يُعَدُّ فى الحُرَّاس

راضَ الخطوبَ الصُّمَّ بعد جِمَاحِها وألَانَ من قلب الزمان القاسى

وأَعادَ نورَ الحقِ فى مِشْكَاته وأَقامَ وزن العدلِ بالقسطاس

واختارَ مجدَ الدين سائسَ مُلكه فحمى السياسةَ منه طَوْدٌ راسى

فهو الخبير بكل داءٍ مُعْضلٍ يأْسو جراحَ زماننا ويُواسى

سَكَّنْتَ شغْبَ الدَّهْرِ بعد تَـخَـمُّـطٍ وَأَلَنْتَ من عطْفَيه بَعْدَ شِماس

حتى منحت الخلقَ كلَّ مسرة فالناس فى عُرْس من الأعْرَاس [1]

نلاحظ أن الشاعر وفق كثيراً فى اختيار ألفاظه التى يمدح بها نور الدين بطل الجهاد ضد الصليبيين ، ففى البيت الأول نجد أنه استخدم كلمات « ضحكت - تباشير - الصباح » فى الدلالة على السرور والبشرى والفرح ، وهى كلها تعطى هذا المعنى وتدل عليه .

وكذلك نجد فى البيت الثانى قوله « المشترى العقبى، البائع الدنيا » وهى كلمات تدل على زهد ممدوحه ، ورغبته فى العمل للآخرة .

ونجد التوافق والانسجام كذلك بين اللفظ والمعنى فى قوله « سكَّنت » فالتشديد يعطى معنى المبالغة فى الفعل لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، وكذلك نجد الشىء نفسه فى قوله « تخمُّط » .

وإذا أردنا الحديث عن موسيقى الشعر فى هذه الأبيات فسنجد أن الشاعر استخدم البحر الكامل ، وهو بحر خفيف الإيقاع ، هادئ الوزن لكونه يحوى تفعيلة واحدة وإذا اجتمعت معه عناصر الشكل الأخرى أصبحت القصيدة ذات تأثير قوى على الوجدان والسمع .

ونغمة الأبيات توحى بالتناسق ، وقد تآلفت مع الموسيقى الداخلية تآلفاً جميلاً فوجدنا الشاعر يستخدم توالى حروف المد استخداماً بارعاً يوحى بالامتداد فى المعنى

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٢٠ .

والصوت ، ويعطى للقارئ والسامع راحة فى النفس .

ففى البيت الأول مثلاً نجد : تباشير ، الصباح ، كأنها ، قسمات نور ، الدين ، الناس . وفى البيت الثانى : المشترى ، العقبى ، قيمة ، البائع ، الدنيا ، مكاس .. إلخ .

واتسم شعر الجهاد بانعدام التكلف والتقعر فى ألفاظه ، وذلك أن الشاعر كان يقول القصيدة بعفوية تامة ، معبراً عن شعوره تجاه الحادثة التى يصفها ، ولذا فقد اتسم هذا الشعر بصدق العاطفة وحرارة الانفعال . مدح ابن منير الطرابلسى نور الدين بقصيدة قال فيها :

أَيـا نـورَ دِيـنٍ خَـبَـا نـورُه ومذ شاعَ عدلُك فيه اتَّقَدْ
رآك الصليبُ صليبَ القَنَاة أَمين العشَار مَتينَ العَمَدْ (١)

أحسن الشاعر كثيراً فى اختيار ألفاظه لأنها تتفق مع مضمون أبياته ، إذ نجد لكل لفظة مدلولاً ، وإيحاء قوياً بالمعنى ، وبينها جميعاً تلاؤم يسمونه مراعاة النظير .

ففى البيت الأول نجد لفظ « النور » ومعه « خبا » ومعه كذلك « اتقد » ليعبِّر تمام التعبير عن المعنى الذى قصده الشاعر .

وهكذا لو مضينا فى بقية الأبيات فسنجد أن الألفاظ تلاءمت مع معانيها وأحسنت التعبير عنها ، فنحن نحس بالمعركة مثلاً فى قوله :

زَبَنْتَهُم أمس عن صَرْخَدٍ فَفَضُّوا كأن نعَاماً شَرَدْ
ويومَ العريمة أَقْبَلْتَهُمْ غُـ ـراما يُثَعْلَبُ منه الأَسد
وقبلُ أَزَرْتَهُمُ فى الرُّها موازقَ مَزَّقْنَ جُرْدَ الجُرُدْ

فنجد عنف المعركة فى ألفاظه موازق - مزقن - جرد الجرد . قد نجد فى لغة الشاعر بعض الألفاظ الغريبة وهذا يدل على ثقافته اللغوية الواسعة ، ولعله رد فعل فى ذلك العصر لما شاع فى الكتابات والأشعار من روح العامية وابتذال اللغة الفصحى وتدنيها .

ونلاحظ كذلك أنه اختار القافية الساكنة الروى ، وهى تسهم إلى حد كبير فى

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٢٠

عنف الإيقاع وقوته ، وفى التعبير عن الحماسة التى تختلج فى نفس الشاعر .

أما الموسيقى الداخلية فى الأبيات ، فالملاحظ أن الشاعر قد استغل الإيقاعات المتشابهة استغلالاً بارعاً فى استحداث موسيقى داخلية . فمن ذلك مثلاً توالى حركات المد ، أو تكرار حرف بعينه كالقاف والدال .

ومع أن شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية دفعتهم حماستهم وعواطفهم الجياشة أن تكون أشعارهم سهلة الألفاظ ، واضحة المعانى ، بعيدة عن التكلف والتقعر ، إلا أننا لاحظنا أن بعضهم يستعمل أحياناً ألفاظاً صعبة ، يبدو التكلف فيها واضحاً . وذلك بدافع الحرص على استعمال المحسنات البديعية أحياناً ، وعلى إظهار قدرتهم اللغوية وثقافتهم العربية الأصيلة .

ومن ذلك ما نجده عند ابن منير الطرابلسى فى مدحه لنور الدين ، إذ قال :

وأَعادَ وجْهَ الحقِّ أَبيضَ ناصعاً　　　إصلاته وصَلاَته وصِلاَته

تُغْرِى بحشحثة اليَرَاع بَنَانُهُ　　　إن لَذَّ حشحثة الكئوس لداته (١)

أو قصيدته الأخرى التى وصف فيها جيش نور الدين بقوله :

بَعَرَمْرَمٍ صَلمتْ وَعَاوِعُهُ عُرَى　　　أَسماعَ جيحون وَسَيْف البربرِ (٢)

فنحن نلاحظ صعوبة اللفظ وغرابته فى قوله : « صلمت ، وعاوعه » .

وتميز شعر الجهاد بتأثير الموسيقى الداخلية فى أبيات القصائد ، ونلاحظ هذا التأثير فى توالى حركات المد ، كقول ابن القيسرانى .

ضحكتْ تباشيرُ الصباح كأَنَّها　　　قسماتُ نور الدين خيرِ الناس

المشترِى العُقْبى بأَنفس قيمة　　　والبائعُ الدُّنْيا بِغَيْرِ مُكَاس (٣)

وتبدو الموسيقى الداخلية كذلك فى حسن التقسيم ، ومثاله قول ابن منير الطرابلسى يمدح نور الدين :

---

(١) الروضتين ١ - ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ١ - ٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ١ - ٧٨ .

النَّـاسُ أَنتَ ، والملـوكُ شَـرطٌ تُعَدُّ لَيْثًا ، ويُعَدُّونَ نَقَده[1]

والترصيع فى أبيات القصيدة يعطيها جرساً موسيقياً جميلاً ، تطرب له الأذن الموسيقية ، وقد وجدنا هذا النوع من البديع المحبب فى قصائد شعراء الجهاد . مثال ذلك قول ابن منير الطرابلسى يمدح نور الدين :

بعماد الدِّينِ أَضحتْ عُروَة الديـ ـن مَعْصُوباً بها الفتحُ المبين[2]

وكذلك قول ابن القيسرانى يمدح نور الدين :

قُـدْتَ الجيـادَ ، وحَصَّـنْتَ البلادَ وَأمَّنْتَ العبادَ فأنتَ الحلُّ والحَرَمُ[3]

ولابن القيسرانى قصيدة مدح بها نور الدين زنكى بمناسبة استرداده حصن حارم من الصليبيين مطلعها :

هذى العزائم لا ما تدَّعى القُضُبُ وذى المكارمُ لا ما قالت الكُتُبُ

أجاد الشاعر كثيراً فى استخدام الموسيقى الداخلية للأبيات ، فنحن نلمح توالى حركات المد فى قوله :

غضبتَ للدِّينِ حتى لم يَفُتْكَ رِضَى وكانَ دينُ الهُدَى مَرْضَاتُهُ الغضَبُ
طَهَّرْتَ أَرضَ الأَعادي مِنْ دِمَائِهِمُ طهارةً كل سَيْفٍ عِنْدَهَا جُنب

وهكذا فى بقية الأبيات .

شىء آخر فى هذه الموسيقى ما نجده من الترصيع وهو من الفنون البديعية فى مثل قوله : « استطار شرار » فى البيت التالى :

حتى استطارَ شرارَ الزَّنْد قَادحُهُ فالحَرْبُ تُضْرَمُ والآجالُ تُحْتَطَبُ

كذلك نجد حسن التقسيم ، والتوازن الدقيق فى داخل البيت . فالبيت الأول مثلاً يمكن أن يقسم من الناحية الموسيقية إلى أربعة أقسام متساوية : غضب للدين ، حتى لم يفتك رضى ، وكان دين الهدى ، مرضاته الغضب . والبيت الثانى كذلك : طهرت أرض الأعادى ، من دمائهم ، طهارة كل سيف ، عندها جنب ... إلخ .

---

(١) الروضتين ١ - ٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ١ - ٢٠ .
(٣) المصدر نفسه ١ - ٢١ .

مما سبق لاحظنا أن شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية استخدموا فى شعرهم اللغة الفصحى ، وابتعدوا عن استعمال العامية سواء فى الألفاظ المفردة أم فى العبارة الشعرية .

وحرص شعراء الجهاد كذلك على استخدام الألفاظ السهلة ذات الإيقاع الموسيقى الجميل .

ورأينا كذلك أن شعر الجهاد يتميز بجزالة الألفاظ والتراكيب ، مع الدقة التامة فى صياغتها وإحكام تأليفها ، وهذه الجزالة فيما نعتقد جزالة أصيلة ، لأن شعراء الجهاد كانت لديهم الثقافة الشعرية القديمة الواسعة التى أهلتهم لهذه الجزالة ، كما كان موضوع الجهاد نفسه محتاجاً إلى إبراز معانى الفخر والقوة والبطولة ، وكان لابد للألفاظ أن تتلاءم مع هذه المعانى .

كذلك استخدم شعراء الجهاد معظم الأوزان الشعرية المعروفة ولم يقتصروا على بحر بعينه أو بحور معدودة ، لأن شعر الجهاد قد اتسع لمعان كثيرة كما رأينا فى دراسة موضوعاته : مديح وهجاء ورثاء ووصف ، كما أن اختيار البحر لا يخضع للتعمد بقدر ما يخضع للعاطفة والحس الفنى الدقيق ، وقد ثبت أن تحديد بحر بعينه لموضوع لا يتعداه جهد ضائع لأن موسيقى الوزن ليست إلا جزءاً واحداً من الشكل وأن عناصر كثيرة أخرى تسهم فى الإيقاع الموسيقى داخل الأبيات ، وهكذا ما أحسه شعراء الجهاد تلقائياً ، فكتبوا فى الطويل والبسيط والوافر والمتقارب والمتدارك والكامل وغيرها من البحور ، ولم يربطوا بين موضوع وبحر ، لأنهم حشدوا عناصر الشكل جميعاً للتعبير عن مشاعرهم الفياضة فى إيراد المعانى الحماسية فى شعر الجهاد .

* * *

ثانياً - الصبغ البديعى :

عرّف الخطيب القزوينى البديع بقوله : « هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة »(١) .

وقد استخدم شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية بعض ألوان البديع ، وخاصة الجناس والطباق ، إذ كانا أكثر الألوان البديعية استخداماً فى شعر الجهاد .

وكان العماد الأصفهانى من أكثر الشعراء استخداماً للجناس والطباق فى تلك الفترة . فقد رثى صلاح الدين الأيوبى بقصيدة قال فيها :

مَنْ للعُلا من للذُرى مَنْ للهُدَى ... يحميه من للبّأْس مَنْ للنَّائلِ ؟
طلب البقاءَ لملكه فى آجل ... إذْ لم يَثِقْ ببقاءِ مُلْك العاجل
بَحْرٌ أَعادَ البرَّ بحرا بِرُّهُ ... وبسيفه فُتِحَتْ بلادُ السَّاحل
مَنْ كَانَ أَهلُ الحقِّ فى أيامه ... وبعزه يُرْدُونَ أهْلَ الباطلِ
ما كنتُ أَستسقى بغيرِك وابِلًا ... وَرَأيتُ جودَكَ مُخجلا للوابل(٢)

فنحن نلاحظ فى هذه الأبيات تكلفاً واضحاً ، وصنعة ظاهرة . فهناك الجناس فى قوله : « آجل ، عاجل » ، « بحر ، بحر » ، « بر ، بر » ، إلى جانب الجناس المردد (وابل وابل) وتكرار (من) خمس مرات فى البيت الأول و « بقاء » مرتين فى البيت الثانى و « أهل » مرتين فى البيت الرابع ، وهناك الطباق بين « آجل ، عاجل » ، و « بحر ، بر » ، « الحق ، الباطل » .

ويبدو التكلف على أشده فى البيت الثالث وخاصة فى الشطر الأول منه ، وبحراً أعاد البر بحراً بره ، فالمجانسات والمطابقات فيه لم تكشف المعنى بوضوح ، وكذلك أثقلت البيت حرف الراء الذى تكرر أربع مرات .

وممن أكثر من استخدام الجناس كذلك ابن منير الطرابلسى ، وكان يعبث أحياناً بأسماء الأعلام الأعجمية التى يوردها فى قصائده ويشتق منها أفعالاً سعياً وراء المجانسة ،

---

(١) بغية الإيضاح ، ج ٤ ص ٢ .
(٢) الروضتين ٢ - ٢١٧ .

وكان يهدف من ذلك إلى التجديد فى الصور البديعية . مثال ذلك قوله يمدح نور الدين بمناسبة فتحه عزاز وغيرها :

تَبرنس منها البرنس الثِّيابَ　　وحلته من وقع أَحْلَابِها [1]

وقال فى قصيدة أخرى يمدح نور الدين ويذكر فعله بالأفرنج :

فبرنستَ البرنسَ لفَاعَ خَسْفٍ　　وَجُرِّعَ مُرَّ جَوْسَك جُوسَلين [2]

ومن الأمثلة كذلك على استخدامه الجناس بكثرة قصيدته التى مدح فيها نور الدين بقوله :

أَيا نورَ دين خَبا نورُه　　ومذ شاعَ عدلُك فيه اتَّقَدْ
رآك الصليبُ صَليبَ القَنَاة　　أَمِينَ العثار مَتين العَمَدْ
ويومَ العريمة أَقْبَلْتَهم　　عُراماً يُثعلبُ منه الأَسد
حبست مليكهم فى الصفاد　　وعفوك عنه أعمَّ الصَّفَدْ
وقبلُ أَزَرْتَهُمْ فى الرُّها　　موازق مزقن جُرْد الجرد [3]

فنحن نجد الجناس فى البيت الأول بين « نور ، نور » وفى البيت الثانى بين « صليب وصليب » و (أمين) و (متين) وفى البيت الثالث بين « عريم ، عرام » وفى البيت الرابع بين « الصفاد ، الصفد » وفى البيت الخامس بين « موازق ، مزقن و « جرد ، الجرد » وفى البيت الأول طباق بين (خبا) و (اتقد) .

وقد استخدم شعراء الجهاد أنواع الجناس المختلفة ، فهناك الجناس المستوفى ومثله قول ابن القيسرانى :

وفتحٌ حديثٌ فى السماع حديثهُ　　شَهِيٌّ إلى يَوْم المعاد مَعَادُهُ

وكذلك الجناس المحرف ومثاله قول ابن منير الطرابلسى :

وزلَّتْ لعيشكَ أَقدَامُها　　وزال لبطشك إقْدامُها

---

(١) الروضتين ١ - ٧١ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٨٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢١ .

وكذلك الجناس الناقص فى قول ابن منير :

جَزَرْتَ جزيرتَها بالسيو ... ف حتى تشاءَمها شامُها

وجناس المضارع فى قول ابن القيسرانى :

طغى وبغى عَدْواً على غلوائه ... فَأَوْبَقَهُ الكُفران عَدْوَاهُ والكفرُ

والجناس اللاحق كذلك فى قول ابن منير الطرابلسى يمدح نور الدين :

فَيَدٌ تَحْسمُ النوائب عَنَّا ... وَيَدٌ تَقْسِمُ الرغائب فينا

وكما استخدموا الجناس بكثرة ، فقد استخدموا الطباق كذلك ، مدح ابن القيسرانى نور الدين بمناسبة فتحه حصن حارم بقصيدة طويلة استخدم فيها الطباق فقال :

غَضِبْتَ للدِّينِ حتى لم يَفُتْك رِضًى ... وكان دينُ الهُدَى مرضاتُه الغَضَبُ

نلاحظ فى هذا البيت أن الشاعر استخدم الطباق فى تأكيد معنى أن الغضب للدين هو إرضاء له ، وبذلك لم نشعر بالتكلف والتعسف فى تكرار الطباق مرتين فى البيت الواحد ، لأنه استخدمه فى تأكيد المعنى وإقراره فى نفوسنا . وكذلك فعل فى البيت الثانى حين طابق بين الطهر والنجاسة ، فقد طهر نور الدين الأرض من دماء الأعداء ، ولو لم يفعل السيف ذلك بهم لكان جُنباً لأنه لم يغضب لدين الله . قال :

طَهَّرْتَ أرضَ الأَعادِى من دمائهم ... طهارةً كُلُّ سَيْفٍ عندها جُنُبُ

ونجد الطباق الجميل كذلك فى قوله :

أَجسادُهم فى ثيابٍ من دمائهم ... مسلوبةٌ وكأَن القوم ما سُلِبُوا

فقد استغل الشاعر الطباق فى هذا البيت ليعبر عن أجساد الفرنجة العارية من ثيابها بقوله : « مسلوبة » ثم جعل الدماء التى كستها ثياباً لها فكأنها ليست مسلوبة . وبهذا الطباق ربط بين الصورتين صورة العرى بسبب القتل ثم صورة الدماء التى تكسو الأجساد والتى جعلها ثياباً لهذه الأجساد .

أما الشهاب العزازى فقد طابق بين « أمرنا ، نهينا » فى قوله :

وَجَاهَدْنَا العدوَّ كما أُمِرْنا ... وَجَانَبْنَا الخلافَ كما نُهينا

وهذا الطباق غير متكلف وينسجم مع معنى البيت الذى أراده الشاعر ، لأن

الإسلام أمر بجهاد العدو ، ونهى عن الفرقة والاختلاف بين المسلمين .

ومن الطباق كذلك قول الشاعر يذكر فتح أنطاكية فى زمن الظاهر بيبرس :

أَقبل الصبحُ وهِي شِرْكٌ وما أَدبـ ـر إلَّا وكُـلُـهَّـا تَـوْحِـيـدُ

فطابق الشاعر بين « الشرك ، التوحيد » وهذا الطباق كذلك غير متكلف وينسجم مع الواقع ، إذ إن المدينة كانت فى صبيحة المعركة ملأى بالمشركين وفى نهاية اليوم امتلأت بالمسلمين بعد انتصارهم على أعدائهم ، ومن هنا كانت المطابقة بين الشرك والتوحيد فى غاية الجمال .

ومن أنواع الطباق التى استعملها شعراء الجهاد ما يسمى : « بالمقابلة » من ذلك قول ابن سناء الملك وهو يصف ملك الإفرنج :

غَدا بادويلُ وهو يَلْعَنُ نَفْسَهُ وَحُقَّ لتلك النَّفْسِ أَن تَرْبَح اللَّعْنَا
يُرَوِّعُه الصُّبْحُ المنيرُ إذا بَدَا ويوحِشُه اللَّيْلُ البهيمُ إذَا جَنَّا [١]

فقد طابق الشاعر بين الشطر الأول فى البيت الثانى وبين شطره الثانى وذلك حين أراد التعبير عن شدة خوف ملك الإفرنج ، فهو يخاف فى النهار ، كما يخاف فى الليل ويعيش فى خوف دائم ، ورعب مستمر . ولهذا جاءت المطابقة مستساغة لا تكلف فيها ولا تعقيد .

ومن ألوان البديع الأخرى التى وجدناها فى شعر الجهاد « التصريع » وهو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب [٢] . ومثال ذلك قول ابن منير الطرابلسى فى قصيدة يمدح بها نور الدين :

أَمَامَ المحاريب برًّا حَصُورا وتحتَ الحُروبِ هِزَبْراً هَصُورَا

وكذلك يقول ابن القيسرانى فى مطلع قصيدة يمدح بها عماد الدين زنكى :

هو السيفُ لا يُغْنِيكَ إلَّا جِلَادُه وهل طَوَّقَ الأَملاكَ إلَّا نِجَادُه

والترصيع كذلك من الألوان البديعية الجميلة التى وجدناها فى شعر الجهاد ، وهى

(١) ديوان ابن سناء ص ٣٢٤ .
(٢) انظر : بغية الإيضاح ٤ - ٩٩ .

تضفى على كلمات البيت موسيقى جميلة . مثال ذلك قول ابن القيسرانى :

بعمادِ الدين أَضحتْ عُروةُ الديـ   ـن معصوباً بها الفتحُ المبين

وقوله كذلك :

قدت الجياد ، وحصنت البلاد   وأمنت البلاد فأَنت الحِلُّ والحَرَمُ

ومن أمثلة الترصيع كذلك قول العماد الأصفهانى فى رثاء صلاح الدين الأيوبى :

مسعـودةٌ غـدواتُه ، محمـودةٌ   رَوَحَـاتُهُ ، ميمـونةٌ ضَحَـوَاتُـهُ

ومن ألوان البديع التى وجدت كذلك فى شعر الجهاد ما يسمى بتجاهل العارف ومثاله قول الحكيم الجليانى وهو يصف الإفرنج بعد استيلاء صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس ، قال :

ويا ضُحَى السَّبتِ ما للقومِ قد سَبَتُوا   تَهودوا أَم بكأْس الطَّعْنِ قَدْ سَكِرُوا
ويا ضريحَ شعيبٍ ما لهم جَثَمُوا   كمدين أَمْ لَقُوا رَجْفاً بما كفروا[1]

ويطول بنا الحديث إذا عرضنا لكل أنواع البديع التى زخر بها شعر الجهاد وقد اقتصرنا على المشهور المعروف منها ، وإن كان شعراء الجهاد استخدموا أكثر ألوان البديع المعروفة ، وكان أكثر استخدامهم للطباق والجناس .

والحقيقة أن معظم أشعار الجهاد لم يتكلف أصحابها فى البديع تكلفاً ممقوتاً مثلما نجد فى الموضوعات الأخرى فى العصر نفسه .

وواضح أن موضوع الجهاد كان صادراً عن عاطفة جياشة أغنت الشعراء عن تعمل الصنعة والتكلف الممقوت ، بل نجد على العكس من ذلك استخداماً بارعاً للبديع يجعله نسيجاً متكاملاً مع المضمون بحيث يسهم الجناس والطباق وغيرهما من الألوان البديعية فى تجلية المعنى وتأكيده ، وإن كان لا يخلو بعض شعر الجهاد من التكلف البديعى الذى يخرجه عن كونه فيضاً عاطفياً أو تعبيراً وجدانيًا .

* * *

(١) الروضتين ٢ - ١١٦ .

ثالثاً - الصورة الفنية :

بينت فيما سبق أن شعر الجهاد فى معظمه كان صادراً عن عاطفة جياشة ، ولهذا كان طبيعياً أن يفرغ الشعراء مضمون قصائدهم فى صور فنية جميلة تبرز روعة المعانى ، وتصوغ الأفكار صياغة محسوسة دقيقة .

وتعتمد الصورة الشعرية على المجاز بأنواعه المختلفة وعلى التشبيه .

وقد عد ابن رشيق القيروانى الاستعارة أفضل المجاز فقال عنها : « الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس فى حلى الشعر أعجب منها ، وهى من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها »[1] .

مدح ابن القيسرانى نور الدين بمناسبة أخذه حصن حارم ، فوصف المعركة بقوله :

حتى استطار شرارَ الزَّنْدِ قادِحُه فالحرب تُضْرَمُ والآجالُ تحْتَطَبُ

فالاستعارة فى هذا البيت استعارة تصويرية جميلة ، لأنه عندما جعل الحرب ناراً تضرم جعل حطبها آجال الأعداء ترعى فيها وتأتى عليها .

ونرى كذلك تشبيهاً تمثيلياً رائعاً فى قوله :

والنَّقْعُ فوقَ صِقال البيضِ مُنْعَقِدٌ كما اسْتَقَلَّ دُخانٌ تحته لَهَبُ

فقد شبه ما انعقد فى سماء المعركة من الغبار والعثير بدخان كثيف أسود بينما جعل السيوف اللامعة لهباً مضيئاً مشرقاً . وهذا البيت يذكرنا ببيت بشار :

كأَن مُثَارَ النَّقْع فوقَ رؤوسنا وأَسيافنا لَيْلٌ تهاوى كواكِبُهْ

ولكن ابن القيسرانى حاول التجديد فى الصورة ، فبشار جعل العثير ظلاماً والسيوف كواكب ، بينما نجد ابن القيسرانى جعل العثير دخاناً والسيوف لهباً ، وإن تميز بيت بشار بحركة السيوف وهو ما نفتقده فى بيت ابن القيسرانى .

وفى نفس القصيدة يصور ابن القيسرانى معاقل الكفار بعد أن كسر شوكتها وقد بقى فيها بعض أولئك الكفار لا حول لهم ولا طول ، فيشبههم بحية رقطاء قطع رأسها

---

(١) العمدة ، ج ١ ص ٢٦٨ .

فلم يبق منها إلا بقية الجسد والذنب وقد التوى وأصبح يدل على فقدان الحياة . يقول :

لَمْ يَبْقَ منهم سِوى بيض بلا رَمَقٍ كما التوى بعدَ رأْسِ الحيةِ الذَّنْبُ

كذلك نجد فى قوله :

وائذن لموجك فى تطهيرِ ساحِلِه فإنَّما أنتَ بَحْرٌ لُجُّه لَجِبُ

فقد جعل الشاعر جيش نور الدين موجاً عارماً لجيًّا يستعان به فى تطهير أرض المسلمين من رجس الكفار ، ونرى فى هذه الصورة توفيقاً من الشاعر ، لأن الموج بطبيعته فيه عرام وقوة ، وفيه حركة دائبة ونشاط ، وفيه اكتساح ومد . ولم ينس الشاعر فى هذه الصورة أيضاً أن الموج أولاً وأخيراً يمكن أن يطهر أرض المسلمين من وجود الكفار فيها وهم رجس ينبغى أن يطهره الماء .

ولابن منير الطرابلسى قصيدة يمدح بها نور الدين ، امتلأت بالصور الفنية الجميلة التى تدل على مقدرة شعراء الجهاد على الإبداع . يقول الشاعر فى قصيدته :

ضحكتْ تباشِيرُ الصباح كأَنها قسماتُ نور الدين خيرِ الناس

المشترِى العقبى بأَنفسِ قيمةٍ والبائِعُ الدُّنْيا بغير مُكَاسِ

نلاحظ فى قول الشاعر : « ضحكت تباشير الصباح » تشبيهاً مقلوباً وهو جيد فى الدلالة على أن المشبه أتم من المشبه به واقوى فى المعنى . وفى البيت كذلك استعارة فى قوله : « ضحكت تباشير الصباح » وهى تعنى التفاؤل .

وفى قول الشاعر فى وصف نور الدين :

سَكَّنْتَ شَغْبَ الدهر بعد تَخَمُّطٍ وأَلَنْتَ من عِطْفَيْهِ بعد شِماسِ

استعارة مكنية فى « سكنت شغب الدهر » و« ألنت من عطفيه » ومن الصور الجميلة والجديدة التى نلاحظها فى هذه الأبيات قول ابن منير :

وسرى دعاءُ الخلقِ يحرسُ نفسه إنَّ الدعاءَ يُعَدُّ فِي الحُرَّاس

فقد شبه الشاعر الدعاء بالحارس الذى يحمى الممدوح . وفى البيت نفسه إطناب فى قوله : « سرى دعاء الخلق .. » إن الدعاء يعد فى الحراس ، وهو إعادة المعنى لتقريره فى النفس .

وفى قول الشاعر :

ولو أنَ فَيْضَ النِّيلِ فَائِضُ نَيْلِه لم تفتقر مصرٌ إلى مِقْياس

صورة جميلة وجديدة وتظهر فيها روح العصر والبيئة ، لأن عدل نور الدين - كما يقول الشاعر - يكفى عن مقياس النيل لأنه سيستمر دائماً فى الازدياد .

ومع أن الشاعر قد استخدم صوراً شعرية جميلة فى هذه القصيدة ، إلا أننا وجدنا كذلك أنه استخدم صوراً قديمة سبق إليها . من ذلك قوله : « المشترى العقبى ، البائع الدنيا » فقد وردت هذه الاستعارات فى شعر الأقدمين ، وفى القرآن الكريم بوجه خاص .

والاستعارة فى قوله : « وأعاد الحق فى مشكاته » استعارة قديمة ، كذلك وردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿**مثل نوره كمشكاة فيها مصباح**﴾[1] .

ولابن منير الطرابلسى قصيدة أخرى فى مدح نور الدين يقول فيها :

أَيا نورَ دينٍ خَبَا نُورُه ومذ شاع عدلك فيه اتَّقَدْ
رآك الصليبُ صليبَ القناةِ أَمين العِثَار متين العَمَدْ

استطاع الشاعر عن طريق التصوير الفنى أن يصوغ معانيه بطريقة مؤثرة مقنعة ، فقد استغل اسم ممدوحه نور الدين فى تورية لطيفة إذ جعله محيياً لنور الإسلام بعد أن كاد يخبو بالقعود عن نصرته ، ثم جعله يتقد مرة أخرى بجهاد نور الدين .

وقد صور الشاعر صلابة نور الدين بصلابة ظهره ، وأنه متين العمد كما صور هزيمته الصليبيين بسلبه ما بأيديهم ، وإشاعته الثكل فيهم . يقول :

تَهُمُّ فتسلبه ما اقتنى وَتدْأى فتثكله ما احتشد

وشبه الشاعر الصليبيين بالنعام الشارد بعد المعركة التى خسروها ، حين جعلهم يتماوتون كالثعالب بعد أن أتوا إلى المعركة شجعاناً كالأسود . يقول :

زَبنْتَهُمُ أمسِ عَنْ صَرْخَد فَفَضُّوا كأَن نَعاماً شَرَدْ

وفى نهاية الأبيات نجد الشاعر يصور انقلاب الأحوال بالمسلمين بأنه خرق فى

---

(١) سورة النور الآية : ٣٥ .

الزمن ، وأن نور الدين هو الذى وقع هذا الخرق ، ثم جعله مرة أخرى كأنه رمح التوى ، وأن نور الدين قد أخذ على عاتقه تقويمه وتثقيفه . يقول :

مررتُ بعكًّا عند تعليق سُورها وَزَنْدُ أُوار النَّارِ من تحتها وار

فَعَايَنْتُها بعد التنصر قد غَدَتْ مجوسيةَ الأَبراجِ تَسْجُدِ لِلنَّارِ

وقد أبدع الشهاب الحلبى كثيراً فى تصوير معركة حصن المرقب التى انتصر فيها المسلمون . وقد استخدم التشبيه المركب فى تصوير هول المعركة واشتدادها واحتدام القتال وأهواله . فشبه الشاعر السيوف اللامعة من خلال السهام بالبرق المتألق من خلال السحب السوداء الممطرة . قال :

والبِيضُ من خَلَلِ السِّهام كأَنها بَرْقٌ تَأَلَّقَ فى غَمام صَيِّبِ

ونجد عدداً من الصور الفنية الجميلة فى قصيدة ابن القيسرانى التى هنأ فيها عماد الدين زنكى بمناسبة فتح الرها ، فقد جعل للنصر ثغراً باسماً مشرقاً تأخذ السيوف منه لمعانه وإشراقه فى قوله :

وعن ثَغْرِ هذا النصر فلتأْخذِ الظُّبَا سَنَاها وإن فَاتَ العيونَ اتقادُه

ونجد كذلك الاستعارة المكنية فى تشبيهه للمنبر بالإنسان الفرح الذى يهتز طرباً ، فى قوله :

ولا منبرٌ إلَّا تَرَنَّحَ عُودُه ولا مصحف إلَّا أنار مِدَادُهُ

ومن أمثلة الصور الجديدة التى أوجدها شعراء الجهاد عن طريق الاستعارة ، قول ابن منير الطرابلسى فى مدح نور الدين :

ومستنقذ الدين من أُمة أَزال المحاريبَ أَصنامُهَا

فقد تحدث الشاعر عن الكفار الذين استولوا على أرض المسلمين وأزالوا ما فيها من مساجد ، فسماهم الأصنام التى أزالت المحاريب ، وجعل نور الدين مستنقذ الإسلام من تلك الأمة الكافرة .

وفى القصيدة نفسها يقول ابن منير مخاطباً ممدوحه :

دَلَفْتَ إليها تقتفيك الأُسو د والبيض والسمرُ آجامها

جعل الشاعر نور الدين أسداً تتبعه فرسانه وهم أسود مثله ، وهذه استعارة معهودة معروفة ، ولكنه أضاف إليها جزئية جديدة فى هذا التصور جعل البيض أى السيوف والسمر أى الرماح آجام هذه الأسود ، فكأنه وصف كثافة السيوف والرماح فى جيش المسلمين واجتماعهما معاً بأنها غابة ، وفى ذلك نوع بديعى لطيف وهو التناسب أو مراعاة النظير لأن الآجام من طبيعة الأسود .

* * *

من استعراضنا السابق لبعض الصور الفنية عن شعراء الجهاد نلاحظ أن شعر الجهاد حفل بالصور الفنية الجميلة ، وأن شعراء الجهاد استطاعوا تصوير أفكارهم عن طريق إحساسهم الفنى بها ، وعمق إدراكهم للمضمون .

وقد وجدنا أن هناك صوراً جديدة فى شعر الجهاد وجدت بتأثير الحروب الصليبية وانفعال الشعراء بها ، كما وجدت كذلك صور فنية قديمة أخذها هؤلاء الشعراء عن سابقيهم ، وكانوا أحياناً يضيفون لهذه الصور معانى جديدة رغبة فى التجديد ، من ذلك تشبيه الممدوح بالسيف ، فهذا تشبيه عرفه الأقدمون ، ولكن ابن منير عندما أراد استخدام هذا التشبيه فى مدحه قال :

يا صارما بيمينِ اللهِ قَائمُهُ   وَفِى أَعالِى أَعَادِى الله حَدَّاهُ

فجعل ممدوحه كالسيف وأضاف إلى هذا التشبيه جزئية جديدة وهى أن الممدوح مدعوم من الله ولهذا فهو يتغلب على الأعداء فى كل حين .

أما تشبيه الممدوح بالبحر فى الكرم والعطاء ، وبالجبال فى الرزانة والحلم ، وبالأسد فى البأس والشدة ، فهى صور قديمة منقولة عن الأقدمين وتتكرر فى شعر الجهاد وغيره .

* * *

رابعاً - نهج القصيدة :

أوضح ابن قتيبة فى كتابه (الشعر والشعراء) النهج المألوف للقصيدة العربية بعد أن وضع شعراء الجاهلية أساسها ، فبين أن الشاعر يقف على الأطلال يبكى ويستبكى ، ويصف ما يجد فى الدار من آثار ، ثم يخرج من ذلك إلى النسيب ، ثم يصف ما يقطع من المفاوز ، وما ينضى من الركائب ، وما يتجشم من هول الليل وسهره ، وطول النهار وهجيره ، ثم يخرج إلى مدح المقصود ، ليوجب عليه حق القصد ويستحق منه المكافأة .

وقد التزم الشعراء بهذا النهج فترة طويلة حتى جاء العصر العباسى فخرج بعض شعرائه على نهج القصيدة العربية ، ورأوا أن الابتداء بذكر الأطلال ، ووصف الرحلة أمر لا ينبغى الالتزام به فى مثل عصرهم الذى تغيرت فيه هذه الأشياء ، وأصبحت لا قيمة لها .

وقد رأينا أن معظم شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية لم يلتزموا كذلك بنهج القصيدة العربية إذ كانت طبيعة الموضوع الذى يتحدثون عنه مختلفة تماماً عن الموضوعات العادية التى كان يتطرق إليها الشعراء الأقدمون ، والدليل على ذلك أن شعراء الفتوح فى عصر صدر الإسلام أسقطوا هذه المقدمات ، لأن طبيعة موضوع الجهاد تختلف عن كل الموضوعات الأخرى . يقول النعمان القاضى فى ذلك : « وكما تخفف شعر الفتح من المقدمة الغزلية والطللية تخفف بالضرورة من النظام التقليدى للقصيدة الذى ساد فى الشعر العربى »[١] .

وقد تأثر شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية بنماذج معينة من التراث الشعرى القديم عن طريق محاولة المحاكاة والاحتذاء، ولم يجعلوا قصائدهم معارضة واضحة للشعراء الأقدمين ، لأننا نعلم أن من شروط المعارضة أن يتفق المحدث مع القديم فى الوزن والقافية والروى ، ولكننا نجد فى قصيدة ابن منير مثلاً تأثراً واضحاً بقصيدة أبى العتاهية فى مدح المهدى التى مطلعها :

أَلا ما لسيدتى مالها   أَدلَّتْ فأَجمل إدلالها
وإلَّا فَفِيمَ تَجَنَّتْ وما   جَنَيتُ سقى الله أَطلالَها[٢]

فكتب ابن منير يمدح نور الدين بمناسبة فتحه أحد الحصون ، فتخير نفس الوزن

---

(١) شعر الفتوح الإسلامية ص ٢٣٩ .
(٢) ديوان أبى العتاهية ص ٣٧٥ .

الذى كتب فيه أبو العتاهية ، ولكنه غيَّر القافية حتى يدارى أخذه من أبى العتاهية الذى تكشفه فى بعض الأبيات حين نجدها احتذاء للشاعر القديم . يقول ابن منير :

ولو لم تُسَلِّمْ إليك القلو ... بُ هواها لما صح إسلامُها

وهو مأخوذ من قول أبى العتاهية :

ولو لم تطعه بنات القلوب ... لما صحح الله أَعمالها

غير أن ابن منير وغيره من شعراء الجهاد حاولوا أن يجددوا فى إطار التقليد فكانت لهم بطبيعة الحال ذاتيتهم الخاصة فى بعض الصور الفنية فى أشعارهم .

وقد كان أكثر تقليد شعراء الجهاد فى هذه الفترة لأبى تمام والمتنبى ولعل السبب فى ذلك يعود إلى كون هذين الشاعرين قد وصفا حروب المسلمين ضد الروم بقصائد عديدة نالت إعجاب شعرائنا ، فتأثروا بها وقلدوها . بالإضافة إلى كون المتنبى وأبى تمام برزا كأشهر شاعرين فى عصرهما .

مدح ابن القيسرانى نور الدين بمناسبة استيلائه على حصن إنب سنة أربع وأربعين وخمسمائة بقصيدة مطلعها .

هَذِى العزائِمُ لا ما تَدَّعِى القُضُبُ ... وذِى المكارمُ لا ما قالتِ الكُتُبُ

وقد عارض ابن القيسرانى كما هو واضح أبا تمام فى قصيدته المشهورة التى مدح بها المعتصم بمناسبة فتحه عمورية التى مطلعها :

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... فى حَدِّهِ الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ

ولكن مطلع ابن القيسرانى لا يضاهى مطلع قصيدة أبى تمام فى قوته ومعناه .

ولابن القيسرانى قصيدة مدح فيها مجير الدين حاكم دمشق ، ووصف الإفرنج المنهزمين بقوله :

صَابَ الغَمَامُ عليهم والسهام مَعاً ... فما دروا أَيها الهطَّالَةُ الدِّيَمُ

وهذا التصوير يظهر أن المنهزمين لا يفرقون بين كثرة السهام التى تخترق أجسادهم وبين المطر النازل عليهم .

وقد أخذ ابن القيسرانى هذه الصورة من قول المتنبى فى وصف الروم المنهزمين أمام سيف الدولة :

يغشاهمُ مطرُ السحابِ مُفَصَّلًا ... بمُـهَـنَّـد ومُـثـقَّـفٍ وسِـنَـانِ

وقد أشار أبو شامة المقدسى إلى أن أبا الفرج عبد الله بن سعد الموصلى قد قلد المتنبى عندما مدح نور الدين بقصيدته التى مطلعها :

ظُبى المواضى وأَطراف القنا الذّبل ... ضوامن لك ما حازوه من نقل [1]

قال أبو شامة : « حاول ابن أسعد فى هذه القصيدة ما حاوله المتنبى فى قوله : « غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ، فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون ، وقد أحسنا معاً عفا الله عنهما » [2] .

وممن قلد المتنبى الشاعر سعادة الضرير الحمصى فى قصيدته فى مدح صلاح الدين حيث قال فيها :

تعودتَ ضربَ السيفِ والطعنَ بالقنا ... وكلُّ امرئٍ مُغرى بما قد تعودا

أخذ هذا المعنى من قول المتنبى فى مدح سيف الدولة :

لكل امرئ من دهره ما تَعوَّدَا ... وعادة سيف الدولة الطعنُ فى العِدا

ولم يقتصر شعراء الجهاد على المتنبى وأبى تمام إذ قلد الشهاب العزازى عمرو ابن أم كلثوم فى قصيدته التى يقول فيها :

ونحنُ السابقونَ إلى المعالى ... ونـحـنُ الحاكـمـون الآمـرونـا
ونحن الغالبون إذا غَزَوْنَا ... ونحن الصابرون إذا غُزينا [3]

فنحن نلاحظ أنه قلد عمرو بن أم كلثوم فى معلقته المشهورة التى مطلعها :

ألا هبى بِصَحْنِك فأصْبحينا ... ولا تبقى خمور الأَنْدَرِينَا

وقصائد الجهاد تتسم بالوحدة الموضوعية لأن الشاعر يصف غرضاً واحداً وهو الجهاد ، وإن كان فى القصيدة الواحدة مدح للممدوح ، وحثه على الجهاد ووصف المعركة ، فهذه كلها ذات هدف واحد يجمعها موضوع الجهاد .

---

(١) الروضتين ١ - ١٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٩ .
(٣) ديوان الشهاب العزازى (مخطوط) ص ٥٧ .

الباب الرابع

أهم شعراء الجهاد

في الحروب الصليبية

الفصل الأول

شعـــراء مـــن الشـــــام

مُقَـــدِّمـــة

كثُرَ الشعراء الذين هزّتهم أحداث الحروب الصليبية فى بلاد الشام ومصر وغيرهما من البلاد الإسلامية وانفعلُوا بمعارك الجهَاد فانطلقت أشعارهم بمعانى الحمَاسَة والفِدَاء .

وقد أحاط بعض الملوك أنفسهم بطائفة من الشعراء ، تخلد مآثرهم ، وتذكر جهَادهم ضدّ الصليبيين الغُزاة . وقد كان هؤُلاء الشعراء تمتلىء نفوسهم حماسة وغيرة على أوطان المسلمين ، كما كانت تمتلىء حقداً وكراهية على الصليبيين ، ولذا فلا غَرَابة أن نراهُم يمجدون أبطال المسلمين ، ويصفون شجاعتهم وبطشهم بأعدائهم ويعددون المعارك التى خاضوها ، ويطلبون منهم المزيد من التضحيات لإخراج الصليبيين نهائيًا من بلاد المسلمين .

وقد رأيت من تمام دراسة شعر الجهاد فى فترة الحروب الصليبية أن أُترجم لأشهر الشُّعراء الذين عاصرُوا هذه الحروب وتحدَّثوا عنها سواء أكانوا من شُعراء الشام - وهى مجال دراسة هذا البحث - أم من غيرهم من شعراء المسلمين فى شتى أقطارهم الذين هزَّتهم أحداث الحروب الصليبية التى جرت فى بلاد الشام .

وتقتضى أمانة الترجمة لهؤُلاء الشعراء أن أعرض لحياتهم ، ثم أتحدث عن موضوعات شعرهم على اختلافها ، ثم أجرى بعد ذلك دراسة تفصيلية لشعر الجهاد عندهم ، من حيث موضوعاته وأُسلوبه الفنى .

* * *

أولًا - ابن القيسـراني :

هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر ابن داغر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي [1]. وقد شك ابن خلكان في رفع نسب ابن القيسراني إلى الصحابي الجليل خالد بن الوليد فقال : « هكذا يزعم أهل بيته ، وأكثر المؤرخين وعلماء الأنساب يقولون : إن خالداً رضى الله عنه لم يتصل نسبه ، بل انقطع منذ زمان والله أعلم » [2]. وقد أيد هذا التشكك صاحب كتاب « نَسَب قُريش » فذكر أن نسب خالد بن الوليد انقطع ولم يتصل [3].

ولد ابن القيسراني في مدينة عكّا سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وقد غادرها صغيراً إلى قيسارية [4]، ونشأ في هذه المدينة ، ونسب إليها [5]، ثم ترك قيسارية وهو شاب بعد استيلاء الصليبيين عليها إلى دمشق ، وهناك تتلمّذ على يد شاعر الشام المشهور ابن الخياط ، ولازمه وقرأ عليه الأدب ، وجمع ديوانه بعد ذلك ، وعنه يقول ابن الخياط : « كل ما رواه عنى الشيخ الأجل الأديب أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير فهو ما سمعه منى وقرأه عليَّ ، وما رواه غيره فخالف ما في نسخته هذه فلا يعتد به » [6]، كما قرأ الأدب أيضاً على توفيق بن محمد الدمشقي [7]، وانتقل بعد ذلك

---

(١) انظر إلى ترجمته في : (وفيات الأعيان ٤ - ٤٥٨ ، ومعجم الأدباء ١٩ - ٦٤ - ٨١ ، والوافي بالوفيات ٥ - ١١٢ ، وتاريخ الأدب العربي ٥ - ٤٨ ، ومرآة الزمان ٨ - ٢١٣ ، والنجوم الزاهرة ٥ - ٢٠٢ وذيل تاريخ دمشق ٣٢٢ ، والأعلام ٧ - ٣٤٧ ، وقلادة النحر بأعيان وفيات الدهر ٤ - ١٥٨ ، والروضتين ١ - ٩١ ، والبداية والنهاية ١٢ - ٢٣١ ، وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره ص ٥٠) .

(٢) وفيات الأعيان ٤ - ٨٥ .

(٣) نسب قريش ص ٣٢٨ .

(٤) **قيسارية** : بلد على ساحل بحر الشام ، وهى تعد من أعمال فلسطين ، وكانت قديماً من المدن الكبيرة . انظر : (معجم البلدان ٤ - ٤٢) .

(٥) مرآة الزمان ٨ - ٢١٣ .

(٦) ديوان ابن الخياط ص ٢٣١ .

(٧) معجم الأدباء ١٩ - ٦٤ - ٨١ .

إلى حلب فى طلب العلم فسمع من هاشم بن أحمد الحلبى وأبى طاهر الخطيب ، كما سمع منه أبو سعيد السمعانى والحافظ ابن عساكر وأبو المعالى الحظيرى وغيرهم (١) .

عاد الشاعر مرة أُخرى إلى دمشق وعمل بإدارة الساعات التى على باب الجامع الأموى ، ولكن إقامته بدمشق لم تطل كثيراً ، لأنه هجا حاكمها تاج الملوك بورى ، وفر هارباً إلى حلب ، ملتجئاً إلى حكامها الزنكيين (٢) .

وفى حلب اتصل ابن القيسرانى بكبار رجال الدولة ومدحهم ، كما اتصل بعد ذلك بعماد الدين زنكى وابنه نور الدين وخلد فتوحاتهما وانتصاراتهما المتكررة على الصليبيين .

وقد استطاع من خلال قصائده أن يصور سياسة نور الدين وخطته فى توحيد القوى الإسلامية لتكون صفًّا واحداً ضد المعتدين (٣) .

وقد عاصر ابن القيسرانى أهم أحداث الحروب الصليبية التى جرت فى عهد عماد الدين ونور الدين ، كما شاهد كثيراً من أحداثها قبل اتصاله بالزنكيين « فقد سمع بأنباء الحملة الصليبية الأُولى صبيًّا ، وأنه قد شرد من بلده على يد الغزاة الصليبيين يافعاً ، وعاصر حركة التوسع الصليبى فى المنطقة شابًّا ، ثم شهد حركة البعث الإسلامى الممثلة فى قيادة عماد الدين ونور الدين القوية رجلًا ناضجاً تجاوز الأربعين من العمر ، وعندما قاربت رحلته فى هذا العالم على الانتهاء كانت الشواهد كلها تشير إلى مد إسلامى حثيث مقابل انحسار صليبى حثيث . ومعنى ذلك أنه قدر لابن القيسرانى إبان سنى حياته السبعين أن يشهد مولد الحركة الصليبية ثم اشتدادها واستفحالها ، وأخيراً تضعضعها وبداية انحسارها (٤) .

عاد الشاعر فى آخر حياته إلى دمشق ، ومدح حاكمها مجير الدين آبق ، ولكنه توفى بعد عشرة أيام من وصوله بسبب حمى أصابته ، وجاء معها إسهال مفرط ، وكان

(١) معجم الأدباء ١٩ - ٦٤ - ٨١ .

(٢) خريدة القصر - قسم شعراء الشام ، ج ١ ص ١٣١ .

(٣) الأدب العربى من الانحدار إلى الازدهار ص ١٩ .

(٤) صدى الغزو الصليبى فى شعر ابن القيسرانى ص ١٩ .

موته فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان عام ثمانية وأربعين وخمسمائة ، ودفن فى دمشق [1] .

وقد كان ابن القيسرانى « أديباً شاعراً ، مسترسلًا فاضلًا ، بليغ النظم مليح المعانى كثير التطبيق والتجنيس ، وله يد قوية فى علم النجوم والأحكام والهيئة وحفظ الأخبار والتواريخ » [2] .

أشار بعض المؤرخين إلى ديوان ابن القيسرانى ، فذكر ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة إلى أن للشاعر ديوان شعر مشهورا [3] ، كما أشار إلى الديوان كذلك أبو شامة فى كتابه الوضتين ، فذكر أنه اطلع عليه ، وقرأ فيه رسالة وجهها الشاعر إلى نور الدين يذكر جهاده ومآثره [4] ، غير أنه لم يعثر لابن القيسرانى إلّا على ديوان شعر صغير ذكر فيه بعض قصائده فى الغزل والمديح ، وأهمل ذكر قصائده فى ذكر جهاد نور الدين وعماد الدين [5] .

* * *

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٢ ، وفيات الأعيان ٤ - ٤٥٨ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ٥ - ٣٠٢ .

(٤) الروضتين ، ج ١ ص ١٨ .

(٥) لا يزال الديوان مخطوطاً فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، وأشار إليه الزركلى فى الأعلام فى الجزء السابع ص ٣٤٧ ، وبروكلمان فى تاريخ الأدب العربى الجزء الخامس ص ٤٨ .

أَغـرَاضُ شِـعره وَمَـوقف شِـعر الـجِهَاد
مِن بَـين هَـذِه الأَغـرَاض

من مطالعتنا لديوان ابن القيسرانى ولقصائده المتفرقة التى وردت فى كتب الأدب القديمة وكتب التاريخ ، تبين لنا أن أغراض شعره تنحصر فى أمور ثلاثة : الغزل ، والمدح ، وذكر الأحداث الكبرى التى تتعلق بجهاد المسلمين ضد الصليبيين[1] ، وسنتحدث عن هذه الموضوعات التى تتعلق بشعر الجهاد عند الشاعر :

أولًا – المَـدح :

عاش ابن القيسرانى فى فترة هامة من فترات الحروب الصليبية ، وشاهد الأحداث الجسام التى كانت تجرى بين المسلمين وأعدائهم ، وقد أثرت هذه الأحداث فى نفسية الشاعر ، فخلَّدها بعدة قصائد ، ووصف أحداثها ، ومدح أبطالها .

ذكرنا فى ترجمة الشاعر أنه عاش فى شبابه فى دمشق ، وشهد بعض المعارك التى وقعت بين المسلمين وأعدائهم ، ففى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة استطاع تاج الملوك بورى حاكم دمشق أن يهزم الصليبيين عند دمشق فمدحه ابن القيسرانى بقصيدة قال فيها :

الحـقُّ مبتهـجٌ والسَّـيفُ مبتسـمٌ ... ومالُ أَعـدا مجـير الدين مُقتَسـم
قـدتَ الجيـادَ وحصَّنتَ البـلادَ ... وأَمَّنت العبادَ فأَنتَ الـحِلُّ والـحَرَمُ
وجئتَ بالخيـلِ من أَقصى مرَابِطهَـا ... مَعاقِدُ الحزمِ فى أوسـاطها الحـزم
حتى إِذا ما أَحـاط المشركونَ بنـا ... كالليـلِ يلتهمُ الدُّنيـا له ظُـلَمُ
وأَقبـلُوا لا مِـنَ الإِقبَـالِ فى عَـدَد ... يؤُود حـاسِبَهُ الإِعيـاءُ والسَّأَمُ
أَجريتَ بحراً مِنَ الـمَاذِىِّ معتكراً ... أَمـواجُه بأَوَاسِى اليـأْسِ تَلْتَـطِمُ
وسُسْت جندكَ والرحمنُ يكلـؤه ... سيـاسة ما يُعـفى أَثرهَـا نَـدمُ

---

(١) أورد له ابن خلكان فى وفيات الأعيان ١ – ١٧ بيتين فى هجاء ابن منير الطرابلسى ، ولم نعثر له على غيرهما .

وقفتَ فى الجيش والأَعـلامُ خافقـة ... بالنَّصـر كل قَنَـاة فـوقهَـا عَـلَـمُ
يحوطُك اللّـه صَـوناً عن عُيُـونهـم ... واللّـهُ يَعصِـمُ مَنْ باللّـه يعتصم (١)

وفى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة أغار الشهيد عماد الدين زنكى على حصن بارين ، فاجتمع ملوك الفرنج وقاتلوه قتالًا شديداً ، ولكن الله نصره عليهم ، واستطاع أن يأخذ الحصن منهم ، وكان هـذا الحصن « من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها ، وتقطعت السبل فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم » . وقد خلد الشاعر هـذا النصر بقصيدة قال فيها :

حَـذارِ منّـا وأَنَّـى ينفـعُ الحَـذَرُ ... وهِـى الصّـوارمُ لَاتُبقِـى ولَاتَـذَرُ
وأَين ينجـو ملُوكُ الشِّركِ مِن مَـلِك ... مَـنْ خيلُه النَّصر لَا بَلْ جنـدُه القَـدَرُ
سلوا سُيُوفاً كأَغمادِ السُّيوف بِها ... صَـالُوا فَمَـا غَمَدوا نَصْلًا وَلَا شَهرُوا
حتى إِذَا ما عمادُ الدينِ أرهَقَهُـمْ ... فى مـأْزقٍ من سَنَاه يُبْرقُ البَصَـرُ
وَلَّوْا تضـيق لَهُـم ذرعـاً مسـالكهم ... والـمَـوتُ لاملجـأٌ منـهُ ولاوَزَرُ
وأَصـبحَ الـدين لاعينـاً وَلَا أَثـراً ... يَـخَـافُ والكفرُ لاعـين ولَا أَثـر
فَلَا تَـخَفْ بعـدهـا الإفرنج قاطبـة ... فالقَـومُ إِنْ نَفَـرُوا أَلْوى بهم نَفَـرُ
إِنْ قَاتلوا قُتِـلُوا أَوحَـاربُوا حُرِبُـوا ... أَوطَاردوا طُرِدوا أَوحاصَروا حُصِرُوا
وطـالمـا استفحلَ الخطبُ البهيم بهم ... حتـى أَتـى مـلكٌ آراؤه غُــرَرُ
والسَّيفُ مُفْتَرعٌ أبكَارَ أَنفسـهم ... وَمن هُنـالك قيـلَ الصَّـارمُ الـذَّكرُ
ولَا انثَـى النصّـرُ عن أَنصـارِ دولتـه ... بحيث كان وإِنْ كانوا بـه نُصِـرُوا
حتى تعـودَ ثغورُ الشـامِ ضـاحكةً ... كأَنَّـمَا حَـلَّ فِى أكنافها عُمَـر (٢)

نلاحظ فى بداية هذه القصيدة أن الشاعر يحذر المشركين من بأس المسلمين ، لأن أُمة الإسلام أُمة قوية ، قادرة على هزيمة أعدائها فى كل حين . ثم يصف الشاعر بعد ذلك الهزيمة الساحقة التى أوقعها عماد الدين بالصليبيين والتى جعلت جزءًا منهم يفر من أمامه بعد أن رأى الموت يحل بالجزء الآخر ، فيذكر الشاعر بعد ذلك أن هؤلاء

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٥٤ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٣٤ .

الأعداء كان لهم فى الماضى صولة وجولة حتى قيض الله للمسلمين عماد الدين ، فقضى عليهم ، وأزاح المسلمين من شرهم .

وفى آخر القصيدة يربط الشاعر بين ماضى المسلمين وحاضرهم ، فيحرِّض ممدوحه على مواصلة الجهاد حتى يطهر أرض الشام من بقايا الصليبيين ، ويعيدها كما كانت فى الماضى زمن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، صافية للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع .

ونلحظ فى القصيدة كذلك بعض المحسنات البديعية التى كان الشاعر يحرص على الإتيان بها ، فالاقتباس من القرآن الكريم فى البيت الأول فى قوله : ﴿ **لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ** ﴾ [1] ، وكذلك الجناس بأنواعه المختلفة فى الأبيات كلها ، وحسن التقسيم فى البيت الثامن فى قوله : « إن قاتلوا قتلوا » ، « أو حاربوا حربوا » ، « أو طاردوا طردوا » ، « أو حاصروا حصروا » وفى القصيدة بعض المحسنات الأخرى .

لم يقتصر مدح ابن القيسرانى فى هذه الفترة على عماد الدين وحده ، بل مدح كذلك بعض كبار رجال الدولة الذين شاركوا فى هذه الفتوح ، ومن هؤلاء القاضى كمال الدين بن الشهرزورى [2] ، فقد مدحه الشاعر بمناسبة فتح الرها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقد كانت هذه المدينة « من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلًّا ، وهى إحدى الكراسى عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية ، ثم قسطنطينية والرها » [3] .

وقد كان هذا الفتح العظيم مثار إعجاب الشاعر ودهشته ، وقد عبَّر عن هذا الإعجاب بعدة قصائد كان منها قصيدته التى مدح بها ابن الشهرزورى وهى قوله :

إنَّ الصَّفائح يوم صَافَحت الرُّهَا ... عطفتْ عليها كلَّ أَشْوسَ ناكب

فتحُ الفُتوحِ مُبشراً بتمامه ... كالفَجرِ فى صَدر النَّهار الآيب

---

(١) سورة المدثر ، الآية ٢٨ .

(٢) القاضى كمال الدين بن الشهرزورى من الشخصيات الهامة التى اعتمد عليها عماد الدين ووالده نور الدين ، وتولى قضاء دمشق أيام نور الدين ، وكان يشرف على المدارس والمساجد والأوقاف . (ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩) ، والروضتين فى صفحات متفرقة .

(٣) الروضتين ، ج ١ ص ٣٨ .

وبعد هذه المقدمة يربط الشاعر بين هذا النصر وبين انتصار المسلمين فى الماضى على المشركين فى موقعة « بدر » ، وقد كان ربط الحاضر بالماضى من سمات شعر ابن القيسرانى ، ولعله كان يهدف منه إلى بعث الحمية والنخوة فى نفوس المسلمين واستثارة هممهم للجهاد ، فنراه يقول :

لله أية وقفة بدريَّة ... نُصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظَفرٌ كمالَ الدين كنتَ لِقَاحَهُ ... كم ناهضٍ بالحرب غير مُحارب
وأَمدكم جيشُ الملايك نصرة ... بكتائبٍ محشوثةٍ بكتائب

وفى الأبيات الأخيرة من القصيدة يتهكم الشاعر بالصليبيين المنهزمين ، فيرشدهم إلى طريق الفرار ، وهو الطريق الذى قدموا منه إلى بلاد المسلمين ، وإذاً فليس عليهم إلَّا أن يعودوا إلى بلادهم إذا أرادوا النجاة يقول :

إلى أينَ يا أَسرى المَهَالِكِ بعدَها ... ضَاقَ الفضاءُ على نَجَاةِ الهَارِبِ
شَدًّا إِلى أَرضِ الفرنجةِ بعدها ... إِنَّ الدروبَ على الطريق اللَّاحِب
أَفَغَرَّكُم والثأْرُ رهنُ دمائكم ... ما كانَ من إِطراق لَحْظِ الطَّالِب
وإِذَا رأَيتَ الليثَ يجمعُ نَفْسَه ... دون الفريسَةِ فهو عينُ الواثب (١)

وبعد أن تُوفى عماد الدين ، قام بالأمر بعده ابنه نور الدين ، فتابع جهاد والده ، وسار على طريقته ، وقد حقق الله على يديه كثيراً من الانتصارات ، وهو الذى مهد لخليفته صلاح الدين طريق النصر على الصليبيين فيما بعد . وقد تابع شاعرنا ابن القيسرانى وصف معارك نور الدين ، ومدحه فى كثير من المناسبات .

أضفى الشاعر على نور الدين صفات الصالحين الأتقياء ، وقد كان كذلك ، وشبهه بـ (عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز) فى حسن السيرة والعدل بين الناس والزهد فى متاع الحياة الدنيا . وقد مدحه كذلك بجهاده العظيم ضد الصليبيين ، وانتصاره المتكرر عليهم . ولم ينس الشاعر أن يصف ممدوحه بالكرم والجود وبذل المال ، والنخوة والشهامة والانتصار للحق فيقول :

للَّه عزمُك أى سيف وغى ... طُبِعَتْ مضاربُه على القَهْر

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٨ .

ما زُقَّتِ الحَربُ العَوانُ به ... إلَّا انجلى عن مِعْقَلٍ بِكْر
وهل وجهُ نور الدين غيرُ سنىً ... صَدَعَ الدُّجى عن خجْلة البَدر
ملكٌ مَهَابته طَلِيعَتُه ... أَبداً أَمامَ جُيوشه تَسْرى
كم فَلَّ كيدَهم بصاعقةٍ ... شَغَلَتْ قُلُوبهم عَنِ الفِكر
تركتْ حُصُونَهُم سُجُونهم ... فالقَومُ قبلَ الأَسر فِى الأَسر
يا سَائلى عن نَهج سِيرَتِه ... هَلْ غَير مفرق هَامة الفَجر
عَال حقيقٌ من تَأَمَّلَهُ ... أَن يحيى العُمرين بالذِّكْرِ
وشهامةٌ فى اللَّه خَالصة ... عقدت عليه تمائم الأَجر
ونَدَى يَدٍ ما ضرَّ واردها ... أَن لا يبيت مجاور البحر[1]

والذى يبدو لنا أن التصاق الشاعر بنور الدين ورؤيته لأكثر أعماله الحربية التى انتصر فيها على الصليبيين جعلته يعجب به كثيراً ويجله ويحترمه ، ولم يخف هذا الإعجاب ، بل خلده فى كثير من قصائده ، وعدد بعض صفاته التى كان يراها ويعجب بها .

ومن الصفات التى ذكرها الشاعر اشتغال نور الدين بمجاهدة نفسه وحملها على فعل الخير ، وكذلك مجاهدة الأعداء المتربصين بالأمة الإسلامية ، ولذا فحياة نور الدين كلها جهاد وتضحية ، وصفات نور الدين الحسنة جعلته قدوة لغيره من الناس ، ونلحظ هنا مبالغة الشاعر فى وصف الممدوح ، حيث جعله يقسم التقى على الأتقياء ، كما جعله يشبه بالأنبياء فى كثير من صفاتهم .

وفى نهاية القصيدة يعبِّر الشاعر عن حب الناس لممدوحه ، فيذكر أنهم لو استطاعوا لفدوه بآبائهم وأُمهاتهم وهذا أقصى ما يستطيعه الإنسان يقول :

ذو الجِهَادَيْنِ من عدو ونفس ... فهو طول الحياة فى هيجاءِ
فهو المالِكَ الذى أَلْزَمَ النَّاسَ ... سُلُوكَ المَحَجَّةِ البيضَاءِ
قد هَدَيْتَ الملُوك للعَدلِ لَمَّا ... سِرْتَ فى الناسِ سيرةَ الخُلَفاءِ
قاسماً ما مَلَكْتَ فِى الناس حتى ... لقسمت التُّقَى على الأَتقياءِ

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ١٩ .

صَـاغَكَ اللَّـهُ من صَمِيم المَعَالى   حيث لا نسـبة سـوى الآلاءِ
وكأَنَّ القِبـاءَ منك لـمَـا ضَـمَّ   مـن الطهـر مسـجد بِقُبَـاءِ
أَنت إِلَّا تَكُنْ نَبِيًّا فَمـا فَاتَـك   إِلَّا خَـلائِـق الأنـبـيـاءِ
رأْفَـة في شهـامَـة وعفـاف   في اقتـدار وسطوة فى حيـاءِ
وجمـالٌ ممنطـقٌ بجـلال   وكـمـالٌ مُتَـوَّجٌ ببـهَـاءِ
أَعجب النَّاس منك أَنك فى الحـر   بِ شـهابُ الكتيبـةِ الشَّهبـاءِ
وكأَنَّ السُّيوف من عزمِك المـ   ـاضى أَفادتْ ما عنـدها من مَضَـاءِ
وَلَعَمْرى لو استطاع فَداك القـ   ـومُ بـالأُمهَـاتِ والآبَـاءِ (١)

نلاحظ فى قصائد ابن القيسرانى التى قالها فى المدح أنه كان لا يبدؤها بمقدمة غزلية على عادة الشعراء الأقدمين ، بل كان يبدأ مباشرة بذكر الممدوح ، هذا إذا كانت هذه القصائد فى وقت الحرب ، أما قصائده التى قالها فى زمن السلم فقد كان يبدؤها بالمقدمة الغزلية ، ثم يصف الممدوح ، ويطلب العطاء ، مثال ذلك قصيدته فى مدح القاضى كمال الدين الشهرزورى ومطلعها :

أَيَا عاذلى فى الحب مَالِي وَلِلعَذْلِ   وياهاجرى هل من سبيل إلى الوصْل ؟
أحين استجارتْكَ الـمَلاَحَةُ فى الهوى   بَـخِلْتَ كأَنَّ الحسن فى ذمة البخل ؟
لِىَ اللَّهُ من صَبٍّ تَـمَلَّكَهُ الـجَوَى   فأَمسى أَسيراً رهن حبل من الـخَبْل
مُنِيتُ بمثـل البدر فى مُسْتَقَرِّه   يُريك المنالَ الصعب فى المنظر السهل
إذا ما التقينا جَالَ طرفِى وطرفُه   فَأَنْظُـرُ من دمعٍ وينظرُ من نَصْلِ (٢)
فيـا ويحَ قلبى مَـنْ بَلَاهُ بِـحُبـهِ   ومَـنْ دَلَّ أَلحاظى على ذلك الـدلِّ

وبعد عدة أبيات يخلص الشاعر إلى مدح ممدوحه ، فيقول :

أَلم تـر أن الشَّيبَ بَيْـنَ جَوانِـحى   أَقَامَ مُقَام الفضلِ عِنْـدَ أَبى الفَضل
عقيـدُ المَعالى بيـن كَفَّيـهِ والنَّدى   مَـواثيـقُ عَقْـدٍ لاتُـرَوَّعُ بالـحَـل

ثم يتطرق بعد ذلك إلى ذكر كرمه ، وبذله ، وكثرة عطاياه وهباته ، وهو يريد تذكيره بنفسه ليغدق عليه ، فيقول :

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ١٨ .   (٢) أى ينظر من عيون كأنها النصل فى الشدة والتأثير .

إِلى ماجدٍ أَموالُه بيــد النَّــدَى فليسَ عليها من وكيلٍ سوى البَذْلِ (١)

وللشاعر قصيدة أُخرى يصف فيها بعض معارك نور الدين ، ووقائعه استهلها بمقدمة غزلية قال فيها :

أَمَا وخيــال زار مِمَّنْ أُحِبُّــهُ لَقَــدْ هَاجَ من ذكراكَ ما لاَ أَغبُّــهُ
إِذَا ما صَبَا قلبُ المحب إِلى الصِّبا ذكرتُ نسـيماً بالثغـور مَهَبُّــهُ
فيا نفحات الشام رِفقاً بمُهجــةٍ يحامى عليها مُدْنف القلب صَبُّــهُ
فلاَ تسأَلنَّ الصبَّ أَينَ فُؤَاده فَإِنَّ فُـؤَاد المرءِ مع مَنْ يُحبُّـه (٢)

وبعد هذه الأبيات التى جانس فيها بين « أُحِبُّهُ ، أَغبُّهُ » فى البيت الأول ، وبين « صَبَا ، صِّبَا » فى البيت الثانى ينتقل إلى مدح نور الدين فيعدد كثيراً من مآثره ، ويذكر بعض انتصاراته على الصليبيين ، فيقول :

حمى قُبة الإسلام بالخَيل فاغتدت وأَوتادُها جُـرْدُ الطعان وَقُبُّـهُ
فكم هبـوة أوقعن بالكفر تحتهـا فمـا انقشعتْ إِلَّا وللذل جنبـه
كيومِ الرُّها الورهاءِ والهامُ يانعٌ مَلِئٌ برعى الهُنـدوانى خِصْبُـهُ
وعارم يوماً بالعريمـة فاغتدتْ كوادى ثمـود إِذ رغا فيـه سـقبه
وعاصِى على العاصِى بأَرعنَ خاطب دَمُ الإِفك حتى أَنكحَ النصلَ خطبهُ
بإِنّب لما أَكسب المال وانثنى بصـاحبِ أَنطاكية وهـو كَسْبُهُ
غداةَ هوى شَطرين للسَّيف رأسه وللرّمح حتى تَوَّج الرأس قلبه
وقائعُ محمودية النَّصر لم تزل غريباتها عن موطن السَّيف غَرْبُه
يقومُ مقامَ الجيشِ فيها وَعِيدُهُ وتفعلُ أَفعالَ الكتائِبِ كُتْبُهُ (٣)

وهكذا كانت مدائح ابن القيسرانى تعبّر عن حقيقة مشاعره تجاه قادة المسلمين الذين أبلوا بلاءً حسناً ضد الصليبيين ، ولم يكن هدفه مجرد الكسب المادى الذى يتطلع إليه الشعراء فى مدائحهم .

---

(١) معجم الأدباء ، ج ١٩ ص ٧٢ - ٧٥ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٧٤ .
(٣) الروضتين ، ج ١ ص ٧٤ .

وقد كان شاعرنا يُعبِّر عن أماني المسلمين وتطلعاتهم إلى الانتصار النهائى على الصليبيين .

حقيقة أن الشاعر كان يلجأ أحياناً إلى المحسنات البديعية على عادة شعراء عصره لكنه لم يكن يوغل فيها كثيراً كغيره من الشعراء الذين لم يكن لهم نفس الأمانى والتطلعات ، ولم يكن يمدح لمجرد العطاء ، لأنه كان فى غنى عن ذلك لقربه من حكام الدولة النورية ، ومكانته الكبيرة عندهم ، ولهذا - وكما قلنا - كان مدحه صادقاً معبراً عن حقيقة ما يكنه فى نفسه للممدوح من حب ووفاء وتقدير .

ثانياً - وَصفُ المَعَارك :

عاصر ابن القيسرانى كما ذكرنا كثيراً من أحداث الحروب الصليبية ، ووصف بعض المعارك الهامة التى خاضها قادة المسلمين وانتصروا فيها ، ففى جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة حاصر عماد الدين زنكى مدينة الرها ، وكانت هذه المدينة مقدسة عند النصارى ، واستطاع فتحها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً ، ولما دخلها « استباحها ونكس صلبانها وأباد قساوسها ورهبانها وقتل شجعانها وفرسانها وملأ الناس أيديهم من النهب والسبى »(١) . وقد وصف الشاعر هذه المعركة بقصيدة مطلعها :

هُـو السَّيفُ لا يُغْنيـك إلَّا جِـلَادُه ... وهَـلْ طَـوَّقَ الأَمـلاكَ إلَّا نِـجَـادُه

وعـن ثَغْرِ هذا النَّصر فلتأْخذِ الظُّبَـا ... سَنَاها وإن فات العيـونَ اتقـادُهُ(٢)

وبعد هذه المقدمة يصف الشاعر عظم هذا الانتصار ، ورفعة شأنه ، وأن عماد الدين استطاع بهذا النصر أن يعلى من شأن الإسلام ، وأن يحقق للمسلمين الأمن والعز والاطمئنان ، يقول :

سمتْ قُبَّـة الإِسـلام فخراً بطـوله ... ولم يَـكُ يسمو الدينُ لولَا عِمـادُه

وزاد قسيمُ الـدَّولة ابنُ قسيمهـا ... عـن اللَّـه ما لا يُستطاع زيـاده

لِيَهْـنَ بنى الإيمـان أَمْنٌ تَرَفَّعَـتْ ... رَواسيـه عِزًّا واطمـأَنَّ مِهَـادُه(٣)

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨ .

وقد كانت مدينة (الرُّها) من أوائل المدن الكبيرة التى استعادها المسلمون من الصليبيين ، ولذا فقد كان حديث فتحها حديثاً « يلذ للأسماع ، ويشتهى تكراره فى كل حين » . وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى بقوله :

وفتحٌ حديثٌ فِي السَّماع حديثُه ... شَهِيٌّ إِلَى يَوْم المَعاد مَعَادُه
أَرَاحَ قُلوباً طِرْنَ عن وكُناتها ... عليها قوافِ كلُّ صَدْرِ فُؤَاده[1]

وعلى عادة الشاعر فى تعلقه بالجناس فقد جانس بين كلمتى « حديث ، حديث » ، كما جانس بين « معاد ، معاد » ، وفى البيت الثانى لجأ إلى التشبيه حيث شبه قلوب المسلمين بالطيور وهى تقفز فرحاً بهذا النصر الكبير .

وبعد ذلك يتطرق الشاعر إلى وصف مناعة المدينة وحصانتها ، ويشير إلى أن كثيراً من الملوك عجزوا عن نيلها ، ولم يستطع ذلك إلَّا عماد الدين الذى شبهه بالحصان القوى الذى لا يخضع ولا يلين لأحد .

وقد أراد الشاعر بوصف المدينة أن يثبت أن القائد الإسلامى قام بعمل جبار عظيم لا يستطيعه الآخرون ، انظر إليه يقول فى وصف المدينة :

تفوتُ مدى الإبصارِ حتى لو أنَّها ... تَرَقَّتْ إليه خانَ طَرْفاً سَوَادُه
وجامحةٌ عَزَّ الملُوكَ قيادُها ... إلى أن ثَنَاها مَنْ يَعزُّ قِيَادُهُ[2]

وبعد هذا الوصف يتطرق الشاعر إلى وصف المعركة التى خاضها عماد الدين حتى استطاع الاستيلاء على مدينة (الرُّها) ، فيذكر احتدام المعركة بين الجانبين ولمعان السيوف عند الطعان ، ثم يشير بعد ذلك إلى الخدعة الحربية التى لجأ إليها عماد الدين حتى سَهُل عليه فتح المدينة ، إذ قامَ - بعد أن تعذّر عليه فتح الرُّها - بمهاجمة المدن الصغيرة التى تحيط بها ، وتظاهر بعزمه على الانصراف عنها . وقد كان فعله هذا دافعاً لحاكم الرها « جوسلين » على ترك المدينة ، والانصراف عنها لقضاء بعض أعماله الخاصة ، فلما علم نور الدين بذلك عاد إليها مسرعاً وحاصرها واستطاع فتحها بسهولة .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٣٨ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٣٨ .

وبعد ذلك يشير ابن القيسرانى إلى ما فعله عماد الدين من إطلاق سراح الأسرى المسلمين ، وشد وثاق الكافرين وأخذهم أسرى ، يقول :

كأَنَّ سَنَا لمعَ الأَسنةِ حولَهُ ... سِرارٌ ولكن فى يديه زِنَاده
فأَضرمها نارين حَرباً وخدعة ... فما راعَ إِلَّا سُورها وانهِدَادهُ
فيا ظفراً عَمَّ البلادَ صلَاحُه ... بمن كانَ قد عمَّ البلادَ فسادُهُ
فلَامُطلقٌ إلَّا وَشُدَّ وثاقه ... ولَا مُوثَقٌ إلَّا وَحُلَّ صِفادُهُ
ولامنبرٌ إلَّا تَرنَّح عُودُهُ ... ولَامُصْحفٌ إلَّا أَنَارَ مِدَادُهُ (١)

وفى نهاية القصيدة يظهر الشاعر الشماتة بالصليبيين ، والسخرية الشنيعة بهم ، فليس أمامهم إلَّا ترك بلاد المسلمين ، والخروج منها سريعاً ، قبل أن يحل بهم الدمار .

ثم يذكر الشاعر وهو يصور حكم المشركين بالظلام الدَّامس ، أن امتداد هذا الظلام وانتشاره لا يعنى بقاءه إلى الأبد ، فإن نور الصباح كفيل بتبديد الظلام ، وتفتيته والقضاء عليه .

ونحن نلحظ من أبيات القصيدة أن الشاعر يصور هذه المعركة بأنها معركة بين الإسلام والكفر، ولذا فهو يبرز بعض المصطلحات الإسلامية ، كقوله : « ملوك الكفر » ، وإشارته إلى جند السماء الذين يساعدون عماد الدين فى حربه ، ولعله أخذ هذا المعنى من مشاركة الملائكة للمسلمين فى حربهم للمشركين فى معركة (بدر) ، انظر إليه يقول :

وَقُلْ لمُلوكِ الكُفْر تُسْلِمُ بعدَها ... ممالكَها إنَّ البلَاد بلَادُهُ
كذا عن طريقِ الصبحِ فلينتهِ الدُّجى ... فيَا طَالَمَا غَالَ الظلَام امتدادُه
ومن كانَ أَملاكُ السمَاوات جُنْدُه ... فأَيَّةُ أَرضٍ لم تَرُضْها جِيَادُه
ولِلَّه عزمٌ ماءُ سَحَّان وِردَهُ ... وروضة قسطنطينية مُستراده (٢)

وفى أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، استطاع تاج الملوك بورى حاكم دمشق أن يهزم الصليبيين عند دمشق وذلك عندما حاولوا الاستيلاء عليها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، ولحقت بهم هزيمة فادحة .

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٨ . (٢) الروضتين ، ج ١ ص ٣٨ .

وقد وصف ابن القيسرانى هذه المعركة بقصيدة جميلة ، بدأها بإظهار السرور والابتهاج بهذا النصر العظيم ، فالحق مبتهج ، والسيف دائم الابتسام ، ومال الأعداء مآله أن يكون غنيمة باردة فى أيدى المسلمين :

الحَقُّ مبتهجٌ والسَّيفُ مبتسمٌ   ومال أعدا مجير الدين مُقْتَسَم

ومجير الدين - كما يقول الشاعر - لم يدخل هذه المعركة إلّا وقد استعد لها ، فالخيل وهى عنصر هام من عناصر الحرب كانت متوافرة لديه ، كما أنه حصن بلاده وأمن المسلمين من كل غائلة ، وألقى فى قلوبهم الاطمئنان .

ولعل الشاعر يريد بهذه المقدمة أن يشير إلى أن تطبيق تعاليم الإسلام مكنت مجير الدين من تحقيق النصر ، وكسب المعركة ، يقول :

قدتَ الجيادَ وحصَّنتَ البلادَ وأَمَّـ   ـنتَ العبادَ فأَنتَ الحلُّ والحَرم
وجئت بالخيلِ من أَقصى مرابطها   معاقدُ الحَزْمِ فى أَوساطها الحزم (١)

ثم يصف الشاعر قوة الأعداء وكثرتهم ، فهم كالليل فى انتشاره وإحاطته وشدة سواده ، بحيث استطاعوا الإحاطة بالمسلمين من كل ناحية ، وكانوا من كثرة العدد بحيث يصعب حصرهم ، ويسأم الراغب فى عدهم .

ووصف الأعداء بالشدة والبأس والكثرة معنى تطرق إليه الشعراء الأقدمون ليظهروا بالتالى قوة ممدوحيهم ، وشدة مراسهم بالحروب ، يقول الشاعر :

حتى إذا مَا أَحَاطَ المشركون بِنَـا   كاللَّيلِ يلتهمُ الدنيـا لـهُ ظُـلَمُ
وأَقبلُوا لا منَ الإِقبال فى عَـدَدٍ   يـؤود حاسبَهُ الإِعياءُ والسأَم (٢)

وبعد ذلك يبدأ الشاعر بوصف المعركة التى خاضها مجير الدين ، فهو كان مشاركاً لجنوده فى القتال ، واقفاً تحت الأعلام الخافقة بالنصر ، يراقب المعركة عن كثب ، ويقود جيشه المظفر بحكمة ورفق ، وسياسة حكيمة تولد النصر ولا يعقبها الندم ، يقول :

وسُست جنـدَك والرحمنُ يكلؤه   سـياسةً مـا يُعفى أَثرهَا نَـدَمُ

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

وَقفْتَ فى الجيش والأَعلامُ خافقة بالنَّصْـر كُلُّ قنـاةٍ فَوْقَها عَـلَمُ
يَـحُوطُكَ اللَّـه صَــوناً عن عُيونهم واللَّـه يَعْصمُ مَـن باللَّـه يَعْتَصِمُ
حتى إِذَا بَـدَت الآراءُ ضَـاحكةً وأَقبلت أَوجـهُ الآراءِ تبتسـمُ
أَتبعت جنَّ سـراياهم مُضَـمَّرةً فيها نجومٌ إِذا جَدَّ الوَغى رُجِمُوا (١)

وبأسلوب يعتمد على المبالغة والتهويل ، وفخامة الألفاظ وجزالتها ، يبدأ الشاعر بوصف النصر الذى نتج عن هذه المعركة .

وأوصاف ابن القيسرانى تذكرنا بأوصاف المعارك عند المتنبى وأبى تمام ، فهو بلا شك استفاد منهما كثيراً ، وتأثر بهما ، وكان يقتبس أحياناً من المعانى التى ترد فى قصائدهما ، فوصف المشركين وهم لا يفرقون بين المطر النازل عليهم ، والسهام التى تخترق أجسادهم لكثرتها ، معنى ذكره المتنبى فى وصف الروم المنهزمين أمام سيف الدولة سنة خمس وأربعين وثلاثمائة . قال المتنبى فى هذا المعنى :

يغشـاهُمْ مطـرُ السَّحَاب مفصلا بِـمُثقَّـفٍ ومُهَنَّـد وسِـنَانِ (٢)

وقال ابن القيسرانى وهو يورد البيت فى ثنايا القصيدة :

والنصـرُ دانٍ وخيـلُ اللَّـه مُقبـلةٌ ترجـو الشَّـهادةَ فى الهيجـا وتَغْتنم
صـابَ الغمـام عليهم والسهام معـاً فَمَـا دَرَوْا أَيُّمَا الهَطَـالَّةُ الدِّيَـم (٣)

وهؤلاء المشركون الذين أقبلوا يطلبون قتل المسلمين ، وأخذ أموالهم ، عادوا بأسوأ حال ، فقد مات أكثرهم ، وأخذت أموالهم ، وكان ملكهم يتقدمهم فى موكب الهزيمة ، ويقودهم بسرعة حتى يحافظ على من بقى منهم .

وقد غادر هؤلاء الصليبيون بلاد المسلمين بعد أن تركوا أعز مقدساتهم فى أيدى المسلمين ، وكان الفناء والموت يتهددهم فى كل لحظة - وبهذا الأسلوب الشامت الذى يعبِّر عن فرحة الشاعر وابتهاجه بهذا النصر ، ينهى وصفه لهذه المعركة بقوله :

سَـروا لينتَهِبُوا الأَعمـارَ فانْتُـهِبُوا قَتْـلًا ويَغتَنِمُوا الأَمـوالَ فاغْتُنِـمُوا

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٥٤ .
(٢) ديوان المتنبى ، ج ٤ ص ١٨٢ .
(٣) الروضتين ، ج ١ ص ٥٤ .

وأَقبلت خيلُنـا تُردى بخيلهم ... مجنـونةً وعـلى أَرماحنـا التمم

وأَدبرَ الملك الطَّاغى يُزَعْزِعُـهُ ... حَـرُّ الأَسـنة وهـو البـاردُ الشَّـبَمُ

وافـوا دمـشقَ وظنـوا أنهـا جِـدَةٌ ... فَفَـارقُوهـا وفِى أَيْـديهـمُ العَـدَمُ

وأَيقنـوا مـع ضيـاءِ الصبـح أَنَّهم ... إن لم يَزولوا سِـراعاً زالت الـخِيَـمُ

فغـادروا أكـثر القُـرْبانِ وانْجَفَلُوا ... وخلفـوا أكـبر الصلبـانِ وانهزمُـوا

مستسلمين لأَيـدِى المسلمين وَقـدْ ... أغرى الفنا بتمادى خطفهم نهم (١)

ومن المعارك التى وصفها ابن القيسرانى المعركة التى وقعت بين نور الدين زنكى والصليبيين فى الموضع المعروف بآنب سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وقد استطاع نور الدين أن يكسب هذه المعركة ، وأن يقتل صاحب أنطاكية الذى كان يقود الإفرنج ، وعاد المسلمون بالغنائم والأسرى (٢) .

وقد مدح الشاعر نور الدين وهنأه بهذا النصر بقصيدة طويلة ، قلد فيها أبا تمام فى قصيدته التى قالها فى مدح المعتصم بمناسبة فتحه عمورية وهى من بلاد الروم .

بدأ ابن القيسرانى قصيدته بقوله :

هـذى العـزائمُ لا ما تَـدَّعى القُضُبُ ... وذِى المكارمُ لا مـا قالت الكُـتُبُ

وهـذه الهمم اللاَّتِـى متى خَطَبَـتْ ... تعثرتْ خَلْفَهـا الأَشعارُ والـخُطَبُ

صافحتَ يا ابن عماد الدين ذِرْوَتهَا ... براحـة للمسـاعى دونهـا تَعَبُ (٣)

هذه الأبيات تشبه إلى حد كبير أبيات أبى تمام فى ألفاظها ومعانيها فى قصيدته التى أشرنا إليها ، وهى قوله :

السيفُ أَصـدق أَنبـاءً من الكتب ... فى حَدِّه الـحَدُّ بين الـجِدِّ واللعب (٤)

ثم قوله بعد ذلك واصفاً عظمة الفتح :

فتـحُ الفتـوحِ تعـالى أَن يُـحيطَ بـه ... نَظْمٌ من الشعر أَو نَـثْرٌ من الخطب (٥)

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٥٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٥٨ .
(٤) ديوان أبى تمام ١ - ٤٠ .
(٥) المصدر نفسه ١ - ٤٥ .

ثم قوله واصفاً إدراك المعتصم أن الراحة الكبرى لا تنال إلّا بعد الجهد والتعب :

بَصُرتَ بالراحة الكبرى فلم تَرَهَا ... تُنال إلّا على جِسْرٍ من التَّعَبِ [١]

ونحن هنا لا نلحظ فارقاً كبيراً بين أبيات ابن القيسرانى وأبيات أبى تمام .

وقد أشار محمود إبراهيم إلى ظاهرة تأثر ابن القيسرانى بأبى تمام والمتنبى فقال عنه : « وهذه التبعية لم تكن تبعية عفوية نتجت عن ألفة طويلة للشاعر بهذا الشعر الحماسى الموروث ، بل كانت تبعية واعية مقصودة » [٢] . ثم قال بعد ذلك : « ولذا فهى لم تقتصر على التأثر بالجو العام لقصائد المتنبى ، بل تجاوزت ذلك إلى تفصيلات توحى باقتباس متعمد مدروس للصور والأخيلة والتراكيب والألفاظ والموسيقى » [٣] .

وفى بداية وصف هذه المعركة يقرر الشاعر أن نور الدين كان يغضب لله وحده ، وأن هذا القتال كان لمرضاة الله ، لأن دين الله - عَزَّ وَجَلَّ - تتجلى مرضاته فى الغضب له .

والشاعر وهو يمتلئ حماسة وغيرة لا يغفل استعمال المحسنات البديعية فالطباق المتكرر بين « الغضب ، والرضى » فى البيت الأول ، وبين « الطهارة ، والجنابة » فى البيت الذى يليه ، وهكذا يستمر فى استعمال هذه المحسنات فى الأبيات الأخرى ، يقول :

غضبتَ للدِّين حتى لم يَفُتْك رِضَى ... وكان دينُ الهُدى مَرْضَاتُه الغَضَبُ
طَهَّرْتَ أرضَ الأعادى من دمائهم ... طهارة كل سيف عندها جُنُبُ
حتى استطارَ شرارَ الزَّنْد قادِحُه ... فالحَرْبُ تُضْرَم والآجالُ تُحْتَطَبُ
والخيل من تحت قتلاها تقر لها ... قوائمُ خانَهُنَّ الركضُ والخَبَبُ
والنَّقْعُ فوقَ صقال البِيضِ منعقدٌ ... كما استقلَّ دُخانٌ تحته لَهَبُ
والسيفُ هام على هامٍ بمعركةٍ ... لا البيضُ ذُو ذمة فيها ولا اليَلَبُ [٤]
والنَّبْلُ كالوبلِ هطَّالٌ وليس له ... سوى القِسِيّ وَأَيْدِ فوقها سُحُبُ

---

(١) المصدر نفسه ١ - ٧٣ .

(٢) صدى الغزو الصليبى فى شعر ابن القيسرانى ص ١٧٢ .

(٣) صدى الغزو الصليبى فى شعر ابن القيسرانى ص ١٧٢ .

(٤) اليلب : هى الدروع ، وقيل : هى جلود تلبس مثل الدروع .

وللظُّبى ظَفَـرٌ حـلو مـذاقتُـهُ كأَنما الضـرب فيما بينهم ضَـرَبُ
وللأَسـنة عمَّـا فى صـدورهم مصـادر أَقُلُوبٌ تلك أَم قُلُبُ (١)

نلاحظ أن الشاعر فى هذه القصيدة ذكر بعض الأدوات الحربية التى استعملت فى هذه المعركة ، كالنبال والسيوف والأسنة ، وأشار إلى فعلها فى الأعداء ، وتأثيرها الشديد فيهم .

ومن الملاحظ كذلك أنه لجأ إلى استعمال الألفاظ الضخمة والإيحاءات المعبرة عن احتدام المعركة وشدتها وأهوالها .

مال ابن القيسرانى - كعادته - إلى استعمال المحسنات البديعية وخاصة الجناس الذى يحبه كثيراً ، فجانس بين « هام ، هام » ، وبين « النبل ، والوبل » ، وبين « الضرب ، والضرب » ، وبين « القلوب ، والقلب » .

ذكر الشاعر فى بداية هذه القصيدة أن المسلمين قتلوا عدداً كبيراً من أعدائهم ، وطهروا أرضهم من دمائهم النجسة ، حتى أن سيوف المسلمين على كثرتها أصبحت كلها نجسة لولوغها فى دم الأعداء ، وشبهها بصاحب الجنابة الذى يجب عليه الغسل .

وعندما أراد الشاعر أن يعبِّر عن هول المعركة وشدة احتدامها ، شبهها بالنار المستعرة ، ولكن وقودها الرجال بدلًا من الحطب ، هؤلاء الرجال الذين يتساقطون الواحد تلو الآخر ، يشكلون وقوداً طيباً لهذه المعركة التى تستمر فى الاستعار حتى ينتهى وقودها من الرجال .

أما خيل الأعداء فهى لم تعد تستطيع الحركة ، وأصبحت حائرة لا تدرى ماذا تفعل ، وقد خانتها قوائمها ، وأصبحت كالأسيرة ، وكل ذلك لأن فرسانها قتلوا وأبيدوا ، وهل تستطيع الخيل أن تتحرك دون فرسان ؟

ويعود الشاعر مرة أخرى ليؤكد على احتدام المعركة ، فيشير إلى صورة أخرى من صور المعارك ، وهى انعقاد الغبار الكثيف فوق رؤوس المتقاتلين من شدة الحركة حتى أن هذا الغبار ليحجب المتقاتلين ، وقد شبه الشاعر صورة هذا الغبار وهو يعلو رؤوس المحاربين بصورة مماثلة ، وهى صورة النيران الكثيفة التى يعلوها الدخان ، فيحجبها عن الرؤية .

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٥٩ .

ونحن نرى أن الشاعر وفق كثيراً فى هذا التشبيه ، فالمعركة التى تلتهم النفوس ، تشبه النار التى تقضى على ما حولها من غال ورخيص ، والغبار الذى يعلو سماء المعركة لا يبعد كثيراً عن الدخان الذى يعلو النيران الملتهبة .

وفى الأبيات الأربعة الأخيرة نرى الشاعر يستعرض فعل سلاح المسلمين بالأعداء ، هذا السلاح القوى الذى لا يرده راد ، ولا يقف دونه حائل ، وهو يفتك بالأعداء فتكاً ذريعاً دون هوادة أو رحمة .

وتبلغ عاطفة الشاعر ذروتها وهو يشبه حلاوة قتل الأعداء بحلاوة العسل ، ونحن لا نستغرب على شاعرنا هذا الاندفاع ، لأننا نعرف أنه شاهد فى بداية حياته فعل الصليبيين بالمسلمين ، وتنكيلهم بهم ، وها هو ذا اليوم يشهد انتقام المسلمين من أعدائهم ، وأخذ ثأرهم منهم ، كما يشهد فوق كل هذا وذاك انتصار المسلمين ، وبداية سيرهم فى الطريق الصحيح لاسترداد مقدساتهم وبلادهم من أيدى الصليبيين .

هذه نماذج من وصف الشاعر لبعض المعارك الإسلامية أوردناها عل سبيل المثال لا الحصر ، ونحن نرى أن هذه القصائد مع ما فيها من مبالغات فى بعض الأحيان إلا أنه يمكن للمؤرخ الاستفادة منها ، ولا سيما أن الشاعر يورد أحياناً بعض أسماء قادة الصليبيين الذين شاركوا فى هذه المعارك ، ويذكر أسماء الأسلحة التى استعملت فيها ، ويشير إلى نتيجة المعركة النهائية .

لم يشر المؤرخون إلى أن ابن القيسرانى كان يشهد المعارك بنفسه ، وخلو قصائده من الأوصاف الدقيقة للمعركة يوحى بأنه كان يصفها نتيجة السماع فقط ، وقد أشار محمود إبراهيم إلى هذا المعنى فقال : « إن الشاعر لم يكن يشهد هذه الوقائع بنفسه ، إذ لا يوجد نص تاريخى أو أدبى يشير إلى أن ابن القيسرانى شهد أياً من الوقائع التى كان يخوضها ممدوحوه ، وهذا يعنى أن مادة القصيدة الحربية عند ابن القيسرانى كانت تستمد من السماع والتصور ، لا من المشاهدة الحقيقية للمعارك »[1] .

وقد أشرنا فى الصفحات السابقة إلى أن الشاعر كان يستلهم كثيراً من صوره وألفاظه من المتنبى وأبى تمام ، وأنه كان معجباً بهما كثيراً ، وقد أضعف هذا التقليد روح الأصالة والابتكار عند الشاعر إلا أنه كان متأثراً بأحداث المعارك ، منفعلاً معها ،

---

(١) صدى الغزو الصليبى عند ابن القيسرانى ص ١٣٧ .

متطلعاً إلى النصر النهائى على الأعداء ، ولهذا كانت عاطفته قوية جياشة ، كان وصفه للمعارك ينبع من هذه العاطفة المتأججة . ولذا فليس من المستغرب أن نلمس بعض المبالغات فى ألفاظه وتعبيراته .

وعندما كان ابن القيسرانى يصف معارك المسلمين كان يصف إلى جانب ذلك فلول الصليبيين المنهزمة أمام الجيوش الإسلامية ، وقد تميز هذا الوصف بطابع التشفى وحب الانتقام ، كما كان الازدراء والسخرية من الصليبيين من سمات هذا الوصف .

وسوف نستعرض بعض قصائد ابن القيسرانى التى أورد فيها وصف المشركين وهم يفرون أمام المسلمين ، وسنتناول أبياتها بشىء من الشرح والتحليل .

ذكر أبو شامة [١] أن عماد الدين زنكى سار فى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى بلاد الإفرنج ، وأغار عليها ، فاجتمع ملوك الفرنج قرب حصن بارين ، وقاتلوا عماد الدين قتالًا شديداً ، ولكن الله نصره عليهم ، فهرب ملوك الفرنج ومن بقى معهم من فرسانهم إلى داخل الحصن ، واعتصموا فيه ، فحاصرهم عماد الدين حصاراً شديداً ، واستطاع الاستيلاء على الحصن ، « وكان حصن بارين من أضر بلاد الإفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خرَّبوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل » [٢] .

وقد وصف ابن القيسرانى هذا النصر بقصيدة مطلعها :

حَـذَارِ منَّا وأَنَّـى ينفـع الـحَـذَرُ وهى الصَّـوارمُ لا تبـقى ولا تَـذَرُ [٣]

وقد وصف فى هذه القصيدة انهزام المشركين أمام عماد الدين ، وصور الحالة البائسة التى عاشها الصليبيون وهم يتلقون هذه الهزيمة المنكرة أجمل تصوير .

وهكذا رأينا ابن القيسرانى وهو يعبِّر عن عاطفته الجياشة تجاه المشركين ، وهو يصف انهزامهم ، وتخاذلهم أمام المسلمين - وقد كانت روح التشفى والانتقام واضحة فى أبياته التى أوردناها فى الصفحات السابقة .

ونحن لا نستغرب من شاعرنا بروز الروح العدوانية للمشركين فى قصائده التى نعتقد أنه كان يعبِّر من خلالها عن شعور كافة المسلمين فى بلاد الشام وغيرها تجاه الصليبيين .

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٤ .

ويعود السبب فى ذلك إلى ما كان يفعله الصليبيون فى المسلمين فى بداية قدومهم إلى بلاد الشام . وقد أشرنا إلى بعض تلك الأفعال فى الباب الأول من هذا البحث ، وسنلاحظ كذلك أن روح العداء وحب الانتقام تلازم الشاعر فى كثير من قصائده فى شتى موضوعاتها .

ثالثاً – الحَثُّ على مُواصلَة الجِهَاد :

عاصر الشاعر بداية أحداث الحروب الصليبية ، واكتوى بنارها وهو فى بداية حَياته ، وشاهد عن كثب ما كان يفعله الصليبيون ببنى جلدته من قتل وتشريد ، وقد شب وبُغض الصليبيين يجرى فى دمه ، وكان دائم التطلع إلى إخراجهم من بلاد المسلمين . وعندما خالط عماد الدين ثم ابنه نور الدين وشاهد بداية هزيمة الصليبيين ، قوى الأمل فى نفسه بإخراجهم نهائيًا من بلاد الشام ، وقد انطبع هذا الشعور على معظم قصائده ، فلا نكاد نجد قصيدة يهنئ فيها بنصر إلا ويدعو فيها إلى مزيد من العمل ، والجهاد ، لتصفية الصليبيين .

وقد ركز الشاعر فى دعوته المتكررة على استرداد القدس ، وإعادتها إلى أيدى المسلمين .

وقد كانت مكانة القدس لدى المسلمين باعتبارها أُولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ووجود كثير من الأماكن المقدسة فيها ، حافزاً للشاعر لتكرار الدعوة لإخراج الصليبيين منها .

ففى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة أغار عماد الدين على حصن بارين واستطاع الاستيلاء عليه ، وهزم الفرنج شر هزيمة . فمدحه الشاعر بقصيدة حثه فيها على متابعة الجهاد ، حتى يتم له استرداد ثغور الشام كلها .

وقد ذكر الشاعر أن ثغور الشام ستكون فرحة مسرورة بعودتها إلى حوزة المسلمين مرة أخرى ، كفرحتها يوم دخلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأول مرة فى تاريخ المسلمين .

أجاد الشاعر كثيراً حينما ربط بين ماضى المسلمين وحاضرهم ، وقد أراد بهذا أن يستثير همة المسلمين ، كى يسيروا على خطى أسلافهم ، ويحققوا النصر الذى حققه أولئك من قبل ، انظر إليه يقول :

لا فارقت ظِلَّ مُحيي العدل لا معةٌ	كالصبح تَطْوِى من الأَعداءِ ما نَشَرُوا
ولا انثنى النصرُ عن أَنصارِ دولته	بحيثُ كان وإِن كانوا به نُصِرُوا
حتى تعودَ ثغورُ الشام ضاحكة	كأَنَّما حَلَّ فى أكنافها عُمَرُ (١)

وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة سار نور الدين إلى حصن حارم ، فحاصره ونهب سواده ، ثم سار إلى حصن آنب ففعل به كسابقه ، فاجتمع الفرنج لقتاله (وتصاف الفريقان ، واقتتلوا وصبروا ، وظهر من نور الدين الشجاعة والصبر فى الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس ، وانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج ، وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً)(٢) .

وقد هنأ ابن القيسرانى نور الدين بقصيدة طويلة ، عبَّر فيها عن فرحته وسروره بهذا النصر العظيم ، وأشار إلى الفارق الكبير بين ماضى المسلمين القريب وحاضرهم ، فقد كان المسلمون يعدون حماية بلادهم ظفراً كبيراً ، واليوم تتغير تلك الصورة القائمة ، ويحدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ ينتصر المسلمون ، ويأخذون معاقل الإفرنج ، الواحد تلو الآخر ، وكأن هذه المعاقل أصيبت بعدوى الحرب ، فلا يكاد يسقط أحدها حتى يتبعه الآخر ، وهذا المعنى أخذه الشاعر من قول أبى تمام وهو يصف فتح عمورية :

لما رأَتْ أختها بالأَمس قد خَرِبتْ
كان الخرابُ لها أَعْدَى من الجَرَبِ (٣)

وبعد أن وصف الشاعر حالة المسلمين الحاضرة ، التى حققها لهم نور الدين بدأ يحثه على مواصلة فتوحاته ، وأخذ المسجد الأقصى وما على نور الدين إلا أن يأذن لجيشه اللجب بتطهير سواحل البلاد من رجس الكفار فيتحقق له ما يريد ، يقول :

كُنَّا نَعدُّ حِمى أَطرافنا ظفرا	فملَكَتك الظُّبَى ما ليس تَحتسبُ
عَمتْ فُتوحُك بالعدوى مَعَاقِلَهَا	كأَن تسليم هذا عند ذا جربُ
لم يبقَ منهم سوى بِيض بلا رَمَق	كما التوى بعد رأس الحية الذَّنبُ

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٣٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٨ .
(٣) ديوان أبى تمام ، ج ١ ص ٥٢ .

فانهضْ إلى المسجد الأَقصى بذى لجب   يوليك أَقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذَنْ لموجك فى تطهير ساحله   فإِنَّمَا أَنتَ بَحْرٌ لُجُّه لَجِبُ [1]

وفى سنة خمس وأربعين وخمسمائة استطاع نور الدين أن يفتح كثيراً من بلاد الصليبيين ، كما استطاع أن يحتال على أسر زعيمهم جوسلين « وكان شيطاناً من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج فى حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه ، وشدة عداوته للملة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها » [2] .

وقد مدحه ابن القيسرانى ، وأشاد بهذا النصر العظيم ، وحثه على متابعة الجهاد ، ومواصلة الفتوحات ، لأن الدنيا كلها بحاجة ماسة إلى هذا الضياء الذى ينشره نور الدين ، وهو ضياء الإسلام والعدل .

وفق الشاعر كثيراً عندما شبه الإسلام بالضياء ، وشبه الكفر بالظلام الدامس كما كانت مطابقته بين كلمتى « الداجى ، والسنا » طبيعية بعيدة عن التكلف والتعقيد .

وبعد ذلك يحث الشاعر نور الدين على متابعة ما بدأه به ، ويخاطبه بعاطفة قوية تنبع من داخله ، ويبدو تأثره واضحاً وهو يقول : « كأنى بك يا نور الدين لن تقف عند هذا الحد ، لأنك ستتابع هذا الجهاد حتى يتم لك استرجاع المسجد الأقصى من أيدى الصليبيين . وتزداد حرارة العاطفة عند الشاعر ، ويقوى الأمل فى نفسه ، فيتخيل أن بيت المقدس قد أصبح طاهراً من رجس الصليبيين ، وعاد إلى أيدى المسلمين . وهنا يغلى الدم فى عروقه ، ويبدو حب الانتقام واضحاً فى كلماته ، وهو يقرر أن بيت المقدس لن يطهر إلا بسيل من دماء المشركين ، وأن على السيوف أن تؤدى ما عليها من فروض ونذور ، وتعمل عملها فى رقاب الصليبيين الغزاة .

ثم يمدح الشاعر نور الدين ، ويثنى على قوة عزيمته فى محاربة المشركين ، ويبالغ بعد ذلك فى مدحه ، فيقرر أنه لو قاتل المشركين وحده لاستطاع هزيمتهم ، وتحقيق النصر عليهم لما له من القوة والعزيمة ، ويبدو أنه أراد بهذا المديح دفعه إلى مواصلة الجهاد ، حتى يتم له استرجاع بلاد المسلمين كلها .

---

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٧٢ .

وهذا المعنى أخذه الشاعر من بيت أبى تمام وهو يصف المعتصم إذ قال :

لو لم يَقُدْ جَحْفَلًا يوم الوغى لَغَدَا ... من نفسه وحدَها فى جَحْفَلٍ لَجِبِ [1]

يقول ابن القيسرانى فى قصيدته :

فسر واملأ الدُّنيا ضياءً وبهجةً ... فبالأُفقِ الدَّاجِى إلى ذا السَّنَا فَقْرُ
كأنِّى بهذا العزمِ لا فُلَّ حَدُّهُ ... وأَقصاه بالأَقصى وقد قُضِى الأَمر
وقد أَصبحَ البيتُ المقدَّسُ طَاهراً ... وليس سوى جارِى الدماءِ لَهُ طُهْرُ
وقد أَدَّتِ البِيضُ الحِدادُ فروضَها ... فلا عهدهِ فى عُنُقٍ سيف ولا نذر
وصلَّت بمعراج النبى صَوَارِمٌ ... مساجِدُها شفع وساجدُها وِتْرُ
وإن يتيمم ساحلَ البحر مالكا ... فلا عَجبٌ أن يملك الساحلَ البحرُ
سللتَ سُيوفاً أثكلتْ كُلَّ بلدةٍ ... بصاحبها حتى تخوفَك البدْرُ
إذا سَار نُور الدين فى عزماته ... فقولا لِلَيلِ الإفك قد طَلَعَ الفَجرُ
ولو لم يَسْرِ فى عسكر من جنوده ... لكان له من نفسه عسكر مَجْر [2]
مليكٌ سمت شُمُّ المنابر باسمه ... كما قد زَهَتْ تِيهاً به الأَنْجُم الزُّهرُ [3]

وهكذا رأينا - بعد أن استعرضنا شعر ابن القيسرانى - أن معظم شعره كان يتعلق بموضوعات الجهاد ، وأنه أوقف حياته على محاولة دفع المسلمين لإخراج الصليبيين من بلاد الشام .

والشىء الذى يلفت النظر فى موضوعات شعر ابن القيسرانى خلوها من شعر الرثاء [4] ، ومع أن الشاعر عاصر عماد الدين زنكى ، وكان من المقربين إليه ، فإننا لم نعثر له على أية قصيدة فى رثائه ، وأرجح أن الشاعر رثى عماد الدين ولكن هذا الرثاء فقد مع ما فقد من شعره .

---

(١) ديوان أبى تمام ، ج ١ ص ٥٩ .

(٢) **المجر** : الضخم الكثير العدد .

(٣) الروضتين . ج ١ ص ٧٣ .

(٤) عدا قصيدة واحدة رثى بها سيف الدين غازى أمير الموصل ، وهو أخو نور الدين الأكبر . (الروضتين ١ - ٦٦) .

وقد تأثر ابن القيسرانى - كما أشرنا سابقاً - بأبى تمام وأبى الطيب المتنبى ، وقد ذكر محمود إبراهيم أن من أهم أسباب تقليد ابن القيسرانى لهذين الشاعرين أنهما برزا كشاعرين يصفان الحروب الإسلامية ضد البيزنطيين ، وهذا يشبه كثيراً الدور الذى قام به ابن القيسرانى فى وصف حروب المسلمين ضد الصليبيين ، وسبب آخر جعل ابن القيسرانى يتأثر بأبى الطيب وهو أن من أساتذته ابن الخياط ، وهذا أدب نفسه بحفظ أشعار المتقدمين وخاصة المتنبى ، فقلده ابن القيسرانى فى هذه الناحية . كما كان هناك اعتقاد سائد وهو أن الأقدمين أخذوا المعانى كلها وما على المتأخرين إلا أن يقلدوهم ويبرزوا تلك المعانى بأشكال أخرى[1] .

وقد ذهب هذا المذهب كذلك أحمد بدوى فقال : « يمتاز شعر ابن القيسرانى بأنه من النوع الجزل الفخم ، الذى ينحو فيه منحى شعراء العصر العباسى ، فيختار ألفاظه وعباراته من هذا الطراز الذى يجرى على ألسنة المثقفين من الشعراء ، وينأى عن ألفاظ العامة وأساليبها »[2] .

ولسنا مع أحمد بدوى فى أن ابن القيسرانى كان مجرد مقلد لأسلوب فحول الشعراء العباسيين ، لأننا لا نتصور أن كل شاعر يريد أن يقلد الجزالة فيحسنها .

والذى نراه أن ابن القيسرانى كان يصدر فى شعره عن ثقافة عربية أصيلة ، أحسن استيعابها ، واستخدامها فى شعره .

ثم إن موضوع الجهاد وانفعاله به أثر إلى حد كبير على الشاعر فجعله يتخذ هذا الشكل التعبيرى الجزل الذى يضاهى به فحول الشعراء العباسيين .

ولا شك أن شعر ابن القيسرانى كان صدى عميقاً لتطور الأحداث فى فترة الحروب الصليبية ، وكان له دور فى بعث الحماسة فى نفوس المجاهدين ، ودفعهم لبذل المزيد من التضحيات فى سبيل الله .

* * *

---

(١) صدى الغزو الصليبى فى شعر ابن القيسرانى ص ١٨٧ .

(٢) الحياة الأدبية بمصر والشام ص ١٤٧ .

ثانياً - أَحمد بن منير الطرابلسى :

فى مدينة طرابلس ، وفى سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ، ولد الأديب الشاعر ، مهذب الملك ، عين الزمان ، أحمد بن منير بن مفلح الطرابلسى (١)، ذكر أكثر المؤرخين أن أباه كان ينشد الأشعار ، ويغنى فى أسواق طرابلس .

قضى الشاعر طفولته فى مدينة طرابلس ، وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وأتقنهما ، وبرع فى نظم الشعر .

وقد أجمع المؤرخون القدامى على أنه كان شيعيًا مغالياً . قال عنه الأصفهانى فى الخريدة : « كان القيسرانى سنيًا متورعاً ، وابن منير مغالياً شيعيًا » (٢)، وقال عنه ابن خلكان : « كان رافضيًا خبيث اللسان » (٣). أما ابن العماد الحنبلى فقال عنه : « كان شيعيًا هجاء فائق النظم » (٤).

وقد أشار إلى هذه النقطة كذلك محمد باقر الموسوى صاحب كتاب (روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات) فقال : « وعلى الجملة فلا يعترى ساحة إمامة الرجل ، وحسن اعتقاده شك ولا ريب » (٥).

وقد أورد له بعض المؤرخين قصيدة تثبت تشيعه وتؤكده ، وهى قصيدة بعث بها إلى نقيب الأشراف فى بغداد الشريف الموسوى ، وذلك أن ابن منير كان قد أرسل

---

(١) انظر ترجمته فى : (خزانة الأدب ص ١٨٢ ، والوافى بالوفيات ٨ - ١٩٣ وما بعدها ، خريدة القصر قسم شعراء الشام ١ - ٧٦ وما بعدها ، وفيات الأعيان ١ - ١٥٦ وما بعدها ، والنجوم الزاهرة ٥ - ٢٩٩ ، والروضتين فى مواضع عديدة ، وذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٢ ، وشذرات الذهب ٤ - ١٤٦ ، ومرآة الزمان ٨ - ٢١٧ ، وروضات الجنات ص ٧٢ ، وكشف الظنون ١ - ٧٦٩ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ - ٩٧ ، وتذكرة الحفاظ ٤ - ١٣١٣ ، وتاريخ ابن الوردى ٢ - ٧٧ ، وتاريخ آداب اللغة العربية ٣ - ٢٠ ، والأعلام ١ - ٢٤٥ ، وخطط الشام ٤ - ٤٢ ، ومعجم المؤلفين ٢ - ١٨٤ ، والأدب فى بلاد الشام ص ١٨٦ وما بعدها ، والأدب بين الازدهار والانحدار ص ٤٦ ، والحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ١٣٦ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى ٥ - ٤٧ .

(٢) الخريدة ، ج ١ ص ٧٦ .

(٣) وفيات الأعيان ١ - ١٥٦ ، والنجوم الزاهرة ٥ - ٢٩٩ .

(٤) شذرات الذهب ٤ - ١٤٦ .

(٥) روضات الجنات ص ٧٢ .

هدية إلى الشريف الموسوى مع غلام له اسمه (تتر) ، كان يحبه كثيراً ، وقد أخذ الشريف هذه الهدية ، وأخذ معها الغلام ، فكتب له ابن منير قصيدة يعاتبه فيها على فعله قال فيها :

بالْمَشْعَرَيْنِ وبالصَّفَا والبَيتِ أُقسم والحَجَرْ
وبحرمة البيتِ الحرام ومَنْ بَناه أَو اعتمرْ
لئنِ الشريفُ الموسوى أَبو الرضا ابن أبى مُضَرْ
أَبدَى الجحودَ ولم يَرُدَّ علىَّ مملوكِى تَتَرْ
واليت آل أُمَيَّة الطهر الميامين الغُرَرْ
وجحدتُ بيعةَ حيدرِ وعَدَلْتُ عنه إلى عُمَر
وبكيتُ عثمانَ الشهيدَ بكاءَ نسوان الحضر
وإذا رووا خبر الغدِيرِ أَقول ما صحَّ الخبر
وإذَا جرى ذكر الصحا بة بين قومٍ واشتهر
قلتُ المقدمُ شيخُ تَيْـ ـمٍ ثم صاحبه عمر
وأَقولُ أَمّ المؤمنين عُقوقها إحدى الكُبَر
وأَقولُ ذنب الخارجين على على مُغْتَفَرْ
وأَقُولُ فى يوم تحا ر له البَصَائِرُ والبَصر
مالى مُضِلٌّ فى الورى إِلَّا الشريف أَبو مُضَر[1]

فلما بلغت هذه القصيدة الشريف الموسوى أعاد له غلامه .

ويبدو التشيُّع واضحاً فى هذه القصيدة ، لا سيما وقد اعتد الشاعر خروجه على معتقدات الرافضة ضلالًا ما بعده ضلال .

وقد علق محمد باقر الموسوى على هذه القصيدة فقال : « والعجب أن بعض العامة ذكرت أن هذا الرجل كان شيعيًّا فرجع عن مذهبه إلى التسنن ، واستدل بهذه القصيدة ، وغفل عن الشرط والجزاء وما عطف عليه »[2] .

---

(١) روضات الجنات ص ٧٢ .

(٢) روضات الجنات ص ٧٢ .

اشتهر ابن منير بلقب « الرفَّاء » ، وهذا يدل على أنه عمل فى مطلع حياته برفو الثياب وإصلاحها ، كما يدل ذلك أيضاً على أنه عاش فى مطلع حياته فقيراً معدماً [(١)] .

لم يتحدث المؤرخون كثيراً عن طفولة الشاعر ، وكيف قضى هذه الفترة من حياته ، غير أنه من المؤكد أنه عاش فى طرابلس حتى سقوطها فى أيدى الصليبيين سنة ثلاث وخمسمائة ، ثم هاجر منها إلى دمشق ، وكان عمره آنذاك قرابة الثلاثين عاماً .

وصل ابن منير إلى دمشق ، واتصل بحاكمها تاج الملوك بورى بن طغتكين ، ومدحه وأصبح أثيراً عنده ، لكن الشاعر هجا أعيان دمشق ، وأكابر رجالها ، مما جعلهم يسخطون عليه ، ويدبرون المكائد له .

وقد استطاع هؤلاء أن يثيروا تاج الملوك بورى عليه ، فأمر بسجنه ، وقطع لسانه ، فشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه ونفاه من دمشق [(٢)] .

والذى يبدو لنا أن تشيع الشاعر ، وغلوه فى ذلك ، وكونه هجَّاء مفذعا ، فاحش اللسان ، جعل أفاضل دمشق وكبراءها يحقدون عليه ، ويدسون له . كما يبدو لنا كذلك ، أن مكانته عند حاكم دمشق ، جعلت غيره من الشعراء يساعدون فى الكيد له ، ويعملون على إبعاده ، وقد أفلح هؤلاء ، فخرج من دمشق منفياً على أسوأ حال .

اتجه ابن منير إلى شيزر وأقام فيها يمدح أمراءها من بنى منقذ ، واستطاع أن يكسب ودهم ، وينال الحظوة عندهم [(٣)] .

عاد الشاعر مرة أخرى إلى دمشق ، بعد أن علم بوفاة حاكمها تاج الملوك بورى ، وتولية ابنه إسماعيل من بعده . وعاش فى دمشق فترة من الزمن ، غير أن إسماعيل تغير عليه ، لشىء بلغه عنه فأمر بصلبه .

علم ابن منير بهذا الخبر ، فهرب واختفى فى مسجد الوزير أياماً ، ثم غادر دمشق متوجهاً إلى البلاد الشمالية ، متنقلاً بين حماة وشيزر وحلب [(٤)] .

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ - ٢٩٩ ، ومرآة الزمان ٨ - ٢١٧ .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ٢ - ٩٧ ، والوافى بالوفيات ٨ - ١٩٣ .

(٣) الخريدة ج ١ ص ٧٦ .

(٤) تاريخ دمشق ٢ - ٩٨ ، الوافى بالوفيات ٨ - ١٩٣ وما بعدها .

ويعود الشاعر مرة ثالثة إلى دمشق ، ولكننا لا نعرف بالتحديد تاريخ هذه العودة ، ولا أسبابها كذلك . ويلازم الحظ العاثر شاعرنا فى هذه المرة كذلك ، إذ يحنق عليه وزير صاحب دمشق ابن الصوفى [1] فيفر من دمشق متوجهاً إلى شيزر ، ويقيم عند أمرائها بنى منقذ [2] .

ويبدو أن سبب نقمة الحكام عليه فى المرتين الثانية والثالثة لا يبعد كثيراً عن أسباب نقمتهم عليه فى المرة الأولى . كان إقذاعه فى الهجاء ، وتطرفه فى رافضيته من أقوى الأسباب الداعية إلى الحنق عليه ، والكيد له .

وقد أشار بعض المؤرخين إلى خبث لسانه ، وإقذاعه فى الهجاء ، فقال عنه الصفدى : « وكان خبيث اللسان » [3] كما قال عنه العماد الأصفهانى : « كان شاعراً مجيداً مكثراً هجَّاء » [4] ، وقال القلانسى عنه : « وكان أديباً شاعراً ، عارفاً بفنون اللغة وأوزان العروض ، لكنه مرهوب اللسان ، خبيث الهجاء ، مجيد فيه ، لا يكاد يسلم من مقاطيع هجائه ، منعم عليه ولا مسىء إليه ، وكان طبعه فى الذم أخف منه فى المدح ، وكان يصل بهجائه ، لا بمدحه وثنائه » [5] .

بعد وفاة ابن الصوفى وزير صاحب دمشق تولى الأمر من بعده معين الدين انر ، وكان جواداً حليماً محباً للخير ، فأرسل زين الدين بن حليم إلى شيزر ، ليعرض على ابن منير أمر العودة إلى دمشق مرة أخرى . ولكن الشاعر يرفض بشدة هذه الدعوة ، معللاً ذلك بكثرة أعدائه فى دمشق ، وخوفه على حياته .

ولما عاد ابن حليم إلى دمشق كتب إلى ابن منير يدعوه مرة ثانية إلى العودة ، ورغَّبه فى ذلك ، فأجابه ابن منير بخطاب طويل ضمَّنه اعتذاره عن العودة إلا إذا ضمن له ابن حليم السلامة من أعدائه المتربصين به [1] .

---

(١) هو مؤيد الدولة ابن الصوفى الدمشقى ، وزير صاحب دمشق مجير الدين آبق كان ظلوماً غشوماً مات سنة تسع وأربعين وخمسمائة بدمشق وسُرَّ الناس بموته « شذرات الذهب ٤ - ١٥٤ » .

(٢) الخريدة : قسم شعراء الشام - ج ١ ص ٩١ .

(٣) الوافى بالوفيات ج ١ ص ١٩٣ .   (٤) الخريدة : قسم شعراء الشام ١ - ٧٦ .

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٢ . وانظر فى هذا المعنى كذلك تاريخ دمشق ٢ - ٩٧ .

(٦) الخريدة ١ - ٩١ .

كان ابن منير أحد كبار الشعراء فى عصره ، وصف الأصفهانى شعره بقوله : « شعره ككنيته حسن ، ونظمه كلقبه مهذب ، أرق من الماء الزلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من نيل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنية » (١) ، ونقل الأصفهانى فى خريدته أن أسامة بن منقذ قال عن ابن منير : « كان مغواراً على القصائد يأخذها ويعول فى الذب عنها على ذمة للناقد أو للجاحد (٢) » وكانت أشعاره « لطيفة فائقة (٣) كما كان « فائق النظم (٤) .

انتقل الشاعر فى آخر أيامه إلى حلب ، حيث استقر فى جوار عماد الدين زنكى مؤسس الدولة الزنكية ثم ابنه نور الدين من بعده . وقد نال عندهما منزلة عظيمة ، وأصبح شاعرهما المفضل .

وقد استطاع ابن منير أن يصور وقائعهما مع الصليبيين ويمجد انتصاراتهما . وقد صورت هذه القصائد حقبة هامة من تاريخ جهاد المسلمين ومعاركهم ضد الصليبيين(٥) .

والتقى ابن منير فى حلب بابن القيسرانى ، وعلى عادة الشعراء المتماثلين والمتنافسين وقعت بينهما مكاتبات ومهاجاة ، واشتدت الخصومة بينهما ، « فكانا جرير العصر وفرزدقه ، وهما مطلع النظم ومشرقه ، وشق بالشام عرفهما ونشأ عرقهما » (٦) .

ذكر الصفدى أن ابن منير كان كثيراً ما يعيب على ابن القيسرانى أنه ما صحب أحد قط إلا نكب . فاتفق أن الشهيد عماد الدين زنكى سمع منشداً فى أثناء حصاره لقلعة جعبر (٧) يقول :

وَيْلِي من المُعْرِض الغضبان إذ نقل الـ	ـواشى إليه كلاماً كله زُورُ
سَلَّمتُ فازورَّ يثنى قوسَ حاجبه	كأننى كأسُ خَمْر وهو مخمور

(١) الخريدة : ١ - ٧٦ .
(٢) الخريدة : قسم شعراء الشام ١ - ٧٦ .
(٣) كشف الظنون ١ - ٧٦٩ .
(٤) شذرات الذهب : ٤ - ١٤٦ .
(٥) الأدب بين الانحدار والازدهار ص ٤٦ .
(٦) الخريدة : قسم شعراء الشام ١ - ٧٦ .
(٧) كان ذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقد قتل عماد الدين فى أثناء حصاره للقلعة (الروضتين ١ - ٤٢) .

فاستحسن عماد الدين هذين البيتين ، وسأل عن قائلهما فقيل له : هما لابن منير ، فأرسل إلى والى حلب يأمره بتجهيزه وإرساله إليه ، فليلة وصول ابن منير قتل عماد الدين . وعندما رجع إلى حلب قال له ابن القيسرانى وقد انتهز هذه الفرصة : هذه بكل ما كنت تعيرنى به [1] .

أشار الأقدمون إلى ديوان شعره ، فذكر ابن خلكان وابن العماد الحنبلى أن له ديوان شعر [2] ، أما العماد الأصفهانى فذكر أن له ديوان شعر لكنه لم يطلع عليه ، وإنما أثبت بعض قصائده نقلاً من أفواه الناس [3] . ولكن لم يعثر على هذا الديوان حتى الآن .

استمر ابن المنير مرافقاً لنور الدين زنكى ، أثيراً عنده ، يتمتع بمكانة عالية ، حتى وافته المنية بحلب ، في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ودفن فى جبل جوشن [4] .

ذكر ابن خلكان أنه زار قبره ، ووجد مكتوباً عليه :

من زار قبرِى فليكن موقناً　　　أن الذى ألقاه يلقاه
فيرحمُ الله امرءا زارنى　　　وقال لى : يرحمك الله [5]

* * *

(١) الوافى بالوفيات ٨ - ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٢) وفيات الأعيان ١ - ١٥٦ ، شذرات الذهب ٤ - ١٤٦ .
(٣) الخريدة : قسم شعراء الشام ١ - ٧٦ وما بعدها .
(٤) شذرات الذهب ٤ - ١٤٦ ، تذكرة الحفاظ ٤ - ١٣١٣ ، وتاريخ ابن الوردى ٢ - ٧٧ وغيرها .
(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٩ .

أغراض شعره :

تحدث الشاعر عن الأحداث الكبرى التى وقعت بين المسلمين والصليبيين، كما أجاد فى الهجاء والغزل ، وله قصائد فى الوصف وشكوى الزمان .

الهجـاء :

اشتهر ابن منير بكثرة هجائه ، وسلاطة لسانه . وقد ذكرنا فى ترجمته أنه طُرد من دمشق أكثر من مرة لأشياء ذكرت عنه ، وأثارت حفائظ الحكام ضده . وقد أراد حكام دمشق قطع لسانه فى إحدى المرات ، كما هموا بصلبه فى مرة أخرى . وقد كانت هذه المواقف بالإضافة إلى كونه رافضياً متعصباً من أهم الأسباب التى جعلته يحقد على الناس ، وينالهم بهجائه المقذع .

أشار القدامى - كما ذكرنا سالفاً - إلى ولعه بالهجاء ، واشتهار ذلك عنه ، ولكننا لم نجد له إلا قصيدتين فقط .

ونحن لا نشك فى أن لابن منير قصائد عديدة فى الهجاء ولعلها فقدت مع ما فقد من قصائده الأخرى .

ولابن منير قصيدة طريفة هجا فيها ملك النحاة [1] فى عصره فقال عنه :

أيا ملكَ النحو والحاءُ من ... تَهَجِّيه من تحت قد أعجموها
أَتانا قياسُك هذا الذى ... يُعَجِّمُ أشياءَ قد أَعربوها [2]
ولما تَصَنَّعتَ فى العَاصَوِىِّ ... غدا وجه جهلك فيه وجوها
وقالوا قَفَا الشيخ : إن الملو ... كَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها [3]

فى الأبيات السابقة ، هجا الشاعر ملك النحاة فى عصره ، فجعله جاهلاً ، لا يفقه

(١) ملك النحاة هو الحسن بن أبى الحسن صافى أبو نزار النحوى . ولد ببغداد سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وتعلم فيها ، ثم انتقل إلى دمشق واستوطنها ومات فيها سنة ثمان وستين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة الباب الصغير ، له مصنفات عديدة فى النحو « معجم الأدباء ٨ - ١٢٢ » .

(٢) **يعجم** : أى يجعله أعجمياً .

(٣) معجم الأدباء ٨ - ١٢٦ .

شيئاً فى النحو . وليت الأمر وقف به عند هذا الحد بل جاوز ذلك فجعله يفسد النحو ولا يصلحه ، ويقول الشاعر فى البيت الأخير إن ملك النحاة عمل بما فى الآية الكريمة ، فأفسد النحو جملة واحدة ، لأن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها .

وللشاعر قصيدة أخرى هجا فيها أحد البخلاء ، فوصف رغيفه الذى يصنعه ، فقال عنه :

رغيفه من ذرَّة يصنعه أو أصغرا
مبيتا ملفِّفا مبريقا مبيكرا
لو جاز فى عين الذى يأكله لما درى
أو بلع الصائم ألـ ـفاً مثله ما أفطرا
كأنما خبَّازُه به تحدى البشرا
فهات قل : أعرَضاً تجده أم جوهرا (١)

أجاد الشاعر كثيراً فى وصفه لرغيف البخيل ، هذا الرغيف العجيب الذى لايكاد يرى من صغره ، والذى لا يشبع الصائم منه ، لأنه أصغر من ذرَّة . ويُبدى الشاعر حيرته من هذا الرغيف فلا يدرى أهو عرض أم جوهر ..

والذى يظهر لنا بعد أن استعرضنا قصيدتى الشاعر ، أنه يجيد الهجاء إلى درجة كبيرة وأن القدامى وصفوه على حقيقته .

وهجاء ابن منير ، لا يبعد كثيراً عن هجاء سابقيه ، ممن اشتهروا بهذا اللون من الشعر كالحطيئة ، أو ابن الرومى فى أوصافه الهزلية المضحكة .

* * *

ولابن منير قصائد غزلية أوردتها بعض كتب الأدب والتاريخ أجاد فى بعضها وقلَّت إجادته فى البعض الآخر (٢) .

---

(١) الخريدة – قسم شعراء الشام – ١- ٩٠ .

(٢) انظر الوافى بالوفيات ٨ – ١٩٥ ، الخريدة ١ – ٨٠ ، وشذرات الذهب ٤ – ١٤٧ ، وغيرها .

وصف الأحداث الكبرى ضد الصليبيين :

عاش ابن منير فترة من حياته في كنف الملوك الزنكيين ، وعاصر المعارك التى خاضوها ضد الصليبيين ، وشهد بداية الانتصارات التى حققها عماد الدين زنكى على الصليبيين ، ثم ابنه نور الدين من بعده .

وقد مدح ابن منير قادة المسلمين ، وأشاد بجهادهم ، ووصف معاركهم ضد أعدائهم . كما حرص كثيراً على الدعوة إلى تحرير بلاد المسلمين وخاصة بيت المقدس .

ونستطيع أن نقسم موضوعات شعر الجهاد عنده إلى الموضوعات التالية :

(أ) المــــدح :

مدح ابن منير عماد الدين زنكى بعدة قصائد ، أشاد فيها بجهاده ، وذكر مآثره العظيمة ، وأفعاله ضد الإفرنج .

من هذه القصائد ، ما قاله ابن منير ، سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، عندما أغار عماد الدين على حصن بارين ، واستطاع أن يهزم ملوك الفرنج الذين اجتمعوا لقتاله ، « وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خرَّبوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها ، وتقطعت السبل ، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم » (١) .

وقد مدح ابن منير عماد الدين بقصيدة قال فيها :

فدتك الملــوكُ وأيّامهــــــــا	ودامَ لـنـقْـضِـك إبْـرامُـهــا
وزلـت لِـعَـينِك أقـدامُـهــا	وزال لـبـطـشـك إقـدامُـهــا
ولو لم تسلم إليك القلــو	ب هـواهـا لما صح إسلامها
أيا محيى العدل لما نعــــا	ه أيـامـى الـبـرايـا وأيـتـامـهـا
ومـسـتـنقـذ الـديـن مـن أمـة	أزال المحـاريـبَ أصـنـامـهـا

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ٣٤ .

دلفت لها تقتفيك الأســـو د والبيض والسمر آجـامهـا
جزرت جزيرتها بالسيـــو ف حتى تشاءَمهـــا شامهـا
وصـارت عـوارىٌّ أكنـــافـــه متى شئتَ أرخص مستامهـا [1]

فى هذه القصيدة مدح ابن منير عماد الدين بما فيه من الصفات التى تتفق مع الجهاد ، وما يتطلبه من صفات أخلاقية معينة . فالعدل فى الرعية من أهم الصفات التى ينبغى أن يتمتع بها القائد المسلم ، وعماد الدين ليس عادلاً فقط ، وإنما هو محيى العدل بعد أن كان ميتاً .

ومن مآثر عماد الدين كذلك أنه أنقذ دين الأمة المسلمة بعد أن كادت الأصنام تطغى على المحاريب ، واستطاع أن يعيد لأمة الإسلام مجدها العظيم .

تأثر ابن منير فى هذه القصيدة بقصيدة أبى العتاهية فى مدح المهدى التى مطلعها :

ألا ما لسيدتى ، ما لها ؟ أَدلَّـتْ فـأجـمـل إدلالهــــا
وإلا ففيم تجنتْ ومـــــا جنيتُ سقى الله أَطلالهــــا

وتخير الوزن الذى كتب فيه أبو العتاهية ، ولكنه غير القافية ليدارى أخذه من أبى العتاهية . ونجد أن قول ابن منير فى هذه القصيدة .

ولو لم تسلم إليك القلـــو ب هـواها لما صح إسلامها

مأخوذ من قول أبى العتاهية :

ولم لم تـطـعـه القلــــوب لمــــا قبل الله أعمالهــــــا

ولكن تقليد ابن منير لأبى العتاهية لم يقلل من أهمية قصيدته ، لأنه حاول أن يجدد فيها ، وأن يبرز بعض الصور الفنية التى تتلاءم مع عصره .

نلمس فى هذه القصيدة كذلك بعض المحسنات البديعية كالطباق فى البيت الأول بين قوله « نقضك ، إبرامها » ، وفى البيت السادس بين « البيض والسمر » . والجناس فى البيت الأول بين « أيامها ، وإبرامها » وفى البيت الثانى بين « زلت ، زال » ، « وعيشك وبطشك » وبين « أقدامها ، إقدامها » وفى الثالث بين « تسلم إسلام » وفى الثامن بين « جزرت ، جزيرتها » وبين « تشاءمها ، شامها » .

(١) الروضتين ج ١ ص ٣٥ .

ومع وجود صنعة فى القصيدة إلا أنها جيدة السبك ، سهلة الأسلوب ، تعبِّر عن فرحة الشاعر بهذا النصر العظيم .

وفى جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة استطاع عماد الدين أن يسترد مدينة الرها من الصليبيين ، وكانت هذه المدينة من أشرف المدن عند النصارى ، وأعظمها محلاً ، فحاصرها عماد الدين واستولى عليها ، وكان فتحاً عظيماً طار فى الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره وشهد خلق كثير من الصالحين والأولياء » [1] .

وبهذه المناسبة مدح ابن منير عماد الدين بعدة قصائد ، منها قوله فى إحداها :

صفاتُ مجدِك لفظٌ جَلَّ معناه ... فلا استردَّ الذى أعطاكه الله
يا صارماً بيمين الله قائمهُ ... وفي أعالى أعادى الله حدَّاهُ
أصبحتَ دون ملوك الأرض منفرداً ... بلا شبيه إذ الأملاك أشباه
مَلِكٌ تنامُ عن الفحشاء همته ... تُقى وتسهر للمعروف عيناه
وقد روى الناسُ أخبار الكرام مَضَوا ... وأين مما رَوَوْهُ ما رأينـاهُ
يا محييَ العدل إذ قامت نوادبـه ... وعامر الجود لما محّ مَغْنـاهُ
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما ... من لم يُتَوِّجْك هذا التاج إلَّاهُ [2]

يمتدح الشاعر ، عماد الدين بعدة صفات حميدة ، فهو سيف من سيوف الله المشهرة على الأعداء ، وهو كذلك يبتعد عن الفحشاء فلا يقترب منها ، بينما تسهر عيناه فى فعل الخيرات . وعماد الدين كذلك أحيا العدل فى زمن لم يكن العدل يعرف فيه ، كما أنه كان كثير الجود ، ولا يبالى بما ينفق .

يبدو أن الشاعر كان معجباً بعماد الدين إلى درجة كبيرة ، ويظهر هذا فى مبالغته الشديدة فى مدحه التى نلحظها فى هذه القصيدة ، من ذلك قوله أن عماد الدين ليس له شبيه فى ملوك الأرض ، وأنه أكرم من كل سابقيه .

وفى البيت الأخير يتوجه الشاعر بالدعاء لله عزَّ وجلَّ أن يحفظ عماد الدين ، وأن يبقيه ليحفظ للأمة الإسلامية دينها ودنياها .

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ٣٧ .

(٢) الروضتين : ج ١ ص ٣٩ .

وعندما توفى عماد الدين زنكى وخَلَفَهُ ابنه نور الدين ، وقام بأعمال جليلة ضد الصليبيين ، واصل الشاعر مدحه له ، ووصف أعماله ومعاركه ، فمن ذلك قصيدته التى قالها فى شهر رمضان من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة التى جاء فيها :

فداكَ من صَامَ ومَنْ أفطرا ... ومن سَعى سعيك أو قَصَّرا
وما الوَرَى أهلاً فَتُفدَى بهم ... وَهَل يُوازى عَرَضٌ جَوْهَرا
عَدْلٌ تساوى تحت أكْنافه ... مطافل العين وأسدُ الشَّرَى
يا نور دين الله كم حادث ... دَجَى وأسفرتَ له فانشرى
وكم حِمِى للشرك لا يهتدى الـ ... ـوهمُ له غادرته مجزرا
يا ملك العصر الذى صدره ... أفسح من أقطارها مصدرا
مناقب تَكْسِر كِسرى كما ... تقصر عن إدراكها قيصرا
لله أصْل أنت فرع له ... ما أطيب المجْنَى وما أثمرا
ما حَلَبُ البيضاءُ مُذْ صنتها ... إلا حرام مثل أم القرى
تَصَرّمَ الشهر الذى كنت في ... أوقاته من قدره أشهرا
جهاد ليل فى نهار غزا ... إذ كنت فيه الأصبر الأشكرا
أصدق ما يرشفه سامع ... ما هز من أوصافك المنبرا
أبقاك للدنيا وللدين من ... خلاك فى ليلهما نَيِّرا
حتى ترى عيسى من القدس قد ... لجا إلى سَيفكَ مُستنصرا (١)

يبدأ الشاعر هذه القصيدة بإظهار مكانة نور الدين العظيمة ، وعلو شأنه بين الناس ، فيقرر أن الناس كلهم أقل شأناً من نور الدين ، وأنهم لو اجتمعوا جميعاً ليكونوا له الفداء ، لما كانوا أهلاً لذلك .

وبعد ذلك يعدد ابن منير صفات ممدوحه ، فيذكر أن العدل من الصفات المميزة لنور الدين . ونحن نلحظ أن الشاعر يكرر هذه الصفة فى كل مدائحه ، ولا شك أنها من أعظم الصفات التى يمدح بها الملوك كما أشار لذلك ابن رشيق القيروانى فى كتابه العمدة (٢) .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٥٧ .

(٢) العمدة : ج ٢ ص ١٣١ .

ومن صفات نور الدين كذلك أنه يقتحم حمى الأعداء ، ولا يغادرها إلا وهى محطمة بائسة ذليلة ، كما أنه استطاع بفضل ما أوتى من مواهب أن يحمى بلاده ، وأن يجعل حرمتها كحرمة مكة المكرمة .

ونور الدين كذلك طيب الأصل والمنبت ، يتعبد لله فى الليل ، ويجاهد فى سبيله بالنهار .

وفى آخر القصيدة يبتهل الشاعر لله عزَّ وجلَّ أن يحفظ نور الدين ، وأن يبقيه ليحفظ للمسلمين دينهم ودنياهم ، وأن يطيل فى عمره حتى يسترد القدس الشريف .

تتخلل المحسنات البديعية ثنايا القصيدة ، فالطباق فى البيت الأول بين « الصيام والإفطار » وكذلك فى البيت الثانى بين « العرض والجوهر » ويلجأ الشاعر إلى الجناس ويتكلفه تكلفاً فى البيت السابع فى قوله : « تكسر .. كسرى » وقوله : « تقصر .. قيصر » فيأتى هذا الجناس بارداً لا جمال فيه .

ولابن منير قصيدة فى مدح نور الدين بجهاده ضد الصليبيين يقول فيها :

أيا نورَ دينٍ خبا نورُه ... ومذ شاعَ عدلُك فيه اتَّقَدْ
رآك الصليب صليب القناة ... أمين العثار متين العَمَدْ
تَهِمُّ فتسلبه ما اقتنى ... وتَدْئَى فتشكله ما احتشد
زَبَنْتَهمُ أمس عن صرخد ... فَفَضُّوا كأن نعامًا شرد
ويومَ العريمة أقبلتهم ... عُراما يثعلب منه الأسد
حبست مليكهم فى الصفاد ... وعفوُك عنه أعمُّ الصَّفدْ
وقبل أزرْتَهُمُ فى الرُّها ... موازقَ مزَّقْنَ جُرْدَ الجرد
بقيت تُرقِّع خرقَ الزمان ... قياماً لأبنائه إن قعد
تُثَقِّفُ من زَيْغِه ما التوى ... وتصلح من طبعه ما فسد (١)

نرى فى هذه القصيدة ، أن الشاعر لم يمدح نور الدين مدحاً مجرداً ، أو مقترناً بالفضائل الحسية المعروفة فى شعر المديح . ولكن مدحه لنور الدين كان موضوعياً ، مقترناً بفكرة الجهاد ، وبالدور الذى كان لنور الدين ضد الصليبيين ، فهو يقول : لقد

(١) الروضتين : ١ - ٢١ .

خبا نور الإسلام لقعود أبنائه عن نصرته ، والدفاع عنه ، ولكنه عاد إلى سابق قوته ، بفضل جهادك وتضحيتك . ويستطرد الشاعر فيقول : إن الصليبيين رأوا فيك مسلماً قوياً لا تهتز ولا تلين ، ولا تتعثر فى طريقك ، وأنهم أصيبوا بك ، فاستطعت أن تسترد من أيديهم ما ملكوه من أرض المسلمين ، واستطعت كذلك أن تقتل من أبنائهم الكثير .

ويضرب ابن منير أمثلة لذلك من واقع الحروب الصليبية فيقول : إن نور الدين قد استطاع أن يهزم الصليبيين فى معركة صرخد ، وأن يجليهم عنها ، كما استطاع أن يذيقهم الأمرَّين يوم العريمة ، فأصبحوا كالثعالب ، ترتعد من الخوف والوجل .

ويذكر ابن منير أن ممدوحه استطاع أن يوقع مليكهم فى الأسر ولكنه عاد فعفا عنه كرماً منه ومنة ، ويذكر الشاعر موقفاً آخر لنور الدين فى الرها ، حيث فرق جموع الصليبيين ومزقهم شر ممزق .

وفى آخر القصيدة يثنى الشاعر على ممدوحه بأنه استطاع أن يرقع خرق الزمان ، حينما انخرق بالمسلمين فى الماضى ، كما شبه الزمان كذلك بالرمح الملتوى ، وأن نور الدين قد أخذ على عاتقه تثقيفه وإصلاحه ، وأنه اجتهد فى تغيير تاريخ المسلمين فى هذه البقعة من الأرض .

استخدم ابن منير بعض الألوان البديعية فى هذه القصيدة ، كالجناس فى البيت الأول بين « نور ونور » وبين « صليب وصليب » فى البيت الثانى ، وبين « عريم وعرام » فى البيت الخامس ، وبين « الصفاد والصفد » فى البيت السادس ، وبين « موازق ، مزقن » و « جرد وجرد » فى البيت السابع . ونجد المطابقة كذلك فى البيت الثالث بين « تسلب واقتنى » وفى البيت الثامن بين « قياماً وقعد » وفى البيت التاسع بين « تصلح و فسد » .

من استعراضنا السابق لبعض قصائد ابن منير فى المدح لاحظنا أنه كان يمدح بدافع من عقيدته ، واقتناعه الأكيد باستحقاق الممدوح للمدح . ولم يكن ابن منير متكسباً فى هذه القصائد ، أو طامعاً فى مجد شخصى ، أو مغنم يناله ، إنما كان جل اهتمامه منصباً على محاولة إخراج الصليبيين من بلاد الشام ، فكان ينتهز كل فرصة ليعبر عن فرحه واغتباطه بكل هزيمة تلحق بهم ، وبالتالى مدح القائد المسلم الذى حقق كل تلك الانتصارات .

وقد جدد ابن منير فى مدائحه ، فلم تكن مدحاً حسياً مجرداً من المعانى النفسية للممدوح ، وإنما كانت مدائحه موضوعية ، حيث اقترنت بفكرة الجهاد ، والدور الذى قام به الممدوح ضد الصليبيين .

(ب) هجاء المتخاذلين :

لما شبت نار الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، كان معظم أمرائها مختلفين فيما بينهم ، وكانت الأطماع السياسية تحرك الفتن بين أمراء المدن بين الفترة والأخرى ، كما كان الخلاف والفرقة هما طابع العلاقة السائدة بين الأمراء بعضهم مع بعض .

وعندما تولى عماد الدين زنكى قيادة الأمة الإسلامية ، استطاع أن يوحد شمل هؤلاء الأمراء بعد جهاد كبير قام به لهذه الغاية النبيلة . وجاء بعده ابنه نور الدين وسار على خطى والده فى جهاد الصليبيين ومحاولة جمع شمل المسلمين ليكونوا يداً واحدة على عدوهم .

كان أمير دمشق مجير الدين آبق أحد هؤلاء الأمراء الذين انصرفوا عن الجهاد ووالوا الصليبيين فى سبيل البقاء فى الإمارة ، وكان يطلب منهم حمايته بين الحين والآخر والدفاع عن إمارته ضد إخوانه المسلمين .

وفى سنة ست وأربعين وخمسمائة حاصر نور الدين دمشق ، وذلك عندما بلغه أن أهلها عاضدوا الإفرنج ونصروهم ، وأرسل رسله إلى والى دمشق « يقول أنا ما أوثر إلا صلاح أمر المسلمين ، وجهاد المشركين وخلاص من فى أيديهم من الأسارى ، فإن ظهرتم معى فى عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد » (١) . فلم يعد إليه الرسل بالجواب الذى يرضيه ، فأقام على حصار دمشق « ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحف ولا شد فى محاربة ، تحرجاً من قتل المسلمين ، وقال لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدى بعضهم بعضا وأنا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم فى مجاهدة المشركين (١) .

ولما طال الحصار ووقع الصلح بينه وبين والى دمشق على شروط قبلها الطرفان .

---

(١) الروضتين : ١ - ٨٠ ، ٨١ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١ ص ٧٨ .

وفى أثناء حصار نور الدين لدمشق كتب إليه ابن منير قصيدة حثه فيها على قتال أهل دمشق ، والاستيلاء على مدينتهم ، قال فيها :

يا نور دين الله وابنَ عماده — والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صَفِّر بحدِّ السيفِ دار أشائب — عَقَلوا جيادك عن بناتِ الأصفرِ
هُم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا — نارًا تحش بهم غداً فى المحشرِ
أذكوا بجلَّق حَرَّها واستشعرت — لفحاتها بين الصفا والمشعر
شَرِّدْ بهم مَن خَلْفَهُمْ مستنجداً — ما ظاهرَ الكفار من لم يَكفر
ما الغشُّ ممن أُمُّهُ نصرانة — لم تَختَتِنْ كالغش من متنصر
أذكتْ لنا هذى العزائم لا خبَتْ — ما غار من سنن الملوك الغبَّرِ
شَمِّرْ فقد مَدَّتْ إليك رقابَها — لا يدرك الغايات غير مشمر
أوَلَسْتَ من ملأ البسيطةَ عدلُه — واجْتَبَّ بالمعروف أنف المنكر
يا هضبة الإسلام من يُعصمْ بها — يُؤمنْ ومن يتول عنها يكفر (١)

فى هذه الأبيات يحرِّض الشاعرُ نور الدين على قتل أهل دمشق ، لأنهم وقفوا فى وجهه ، ووالوا أعداءه الصليبيين ، وقد كانت موالاتهم للفرنج عائقاً كبيراً لنور الدين عن أخذ بلاد الإفرنج واسترقاق نسائهم .

ثم يذكر الشاعر أن أهل دمشق شيدوا للنفاق صرحاً كبيراً بفعلهم السيىء ، وأنهم أوقدوا لأنفسهم بهذا العمل المنحرف ناراً توقد بهم يوم المحشر ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يرضيه عملهم السيىء .

ويدعو الشاعر نور الدين ويحرِّضه بشدة على تشريدهم وقتلهم ، لأنهم بمظاهرتهم للكفار أصبحوا فى حكم الكافرين الذين يستحقون القتل والتشريد .

ويقتبس الشاعر من القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿ **فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون** ﴾ [الأنفال : ٥٧] . ويوالى الشاعر تحريضه فيقول : إن وقوع الغش من النصرانى للمسلمين أخف بكثير من وقوعه من مسلم على مبدأ النصارى ، ولذا فإن عقاب الأخير يجب أن يكون أقوى وأشد قساوة .

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ٧٨ .

نلاحظ في هجاء ابن منير أنه كان موضوعياً ، متناسقاً مع فكرة الجهاد التي كان يدعو إليها . ففكرة الهجاء جاءت من كون حاكم دمشق المسلم وقف مع الإفرنج ضد المسلمين . والأوصاف التي أطلقها ابن منير على حاكم دمشق كانت كذلك واقعية ، لا تكلف فيها ولا زيادة ، فالنفاق ومظاهرة المشركين ، والوقوع في الكفر كلها تنطبق على هذا الرجل ، وبالتالي فلا بد من هجائه والدعوة إلى قتاله وإراحة المسلمين من شره .

ولابن منير قصيدة أخرى في مجير الدين أرسلها إلى نور الدين في أثناء حصاره لدمشق قال فيها :

أبوك أبٌ لو كان للناس كلهم ... أباً ورضوا وطء النجوم لفَنَّدوا
وما مات حتى سَدَّ ثلمة ملكه ... بك الله ترمى ما رماه فتصرد
صدمت ابن ذى اللغدين فانحل عقده ... وكالسلك قد أمسى يحل ويعقد
يُقَلِّب خلف السجفِ عيناً سخينة ... ويبكى بأخرى ذات شتر ويسهد (١)
ولا غرو قد أبقى أبوه وجدَّه ... له كل يوم ثوب عَجْزٍ يُجَدَّد
فيا راكبا إما عرضتَ فبلغنْ ... بيوتاً على جيرون بالذل تعمد (٢)
وقل لِمُبِيرِ الدين وهو مجيره ... بزعم له وجه الحقيقة أزبد
حملت الصليب باغياً ونبذتَهُ ... وثغرُك مطووس النبات وأدرد (٣)
وحاربت حزب الله والله ناصر ... لناصره ودين أحمدَ أحمدُ
تَنَصَّرْتَ حيناً والبلاء موكل ... ولا بُدَّ من يوم به تَتَهَوَّد
وأُقسم ما ذاق اليهودِ بإيليَا ... وموضعها من بُخْتُنَصَّرَ أسود
كبعض الذى جرعته فسرطته ... وأَيَّد فيه من عماك المؤيد
ولا ينته عزل إليك موجه ... وتصحيفه قتلٌ عليك مؤبد
رماك بباقلَّا دمشق فلم تكن ... سوى بقلة حمقاء بالحمْق تُحصَد
وجالدت جلَّاداً وأنت مؤنث ... تذكرت والجلاد أدهى وأَجلد
تطاولت لا نفس تسمى ولا أبٌ ... وراءَك زحفاً إنما أنت مُقْعَدُ

(١) الشتر : انقلاب في جفن العين .

(٢) جيرون : اسم من أسماء دمشق ، معجم البلدان ج ٢ ص ١٩٩ .

(٣)مطووس : أي جميل ، أدرد : الذى ليس في فمه أسنان .

تنصرتَ أُمَّاً بل تَمَجَّسْتَ والداً وعما فَعِرْقُ الكفر فيك مردّد
تخذت بنى الصوفى أسراً وأسرة لكى يصلحوا ما فى يديك فأفسدوا
لعمرى لنعم العبدُ أنت تجيعه المـ ـوالى وَتُوليه هوانا فيحمد(١)

فى هذه القصيدة كذلك يواصل ابن منير الطرابلسى هجاءه لمجير الدين حاكم دمشق ، ويحرص نور الدين على مهاجمته ، وأخذ بلاده ، لأنه لا يصلح لحكمها .

يبدأ ابن منير هجاءه بإيضاح حقيقة ضعف مجير الدين وعجزه ، فهو من ضعفه وهوانه يشبه السلك اللين ، الذى يحل ويعقد بسهولة تامة ، ولذا فإنه سينهار من الصدمة الأولى . ويوالى الشاعر حديثه عن هذه النقطة ، وهى ضعف مجير الدين فيقول : إننا لا نعجب من ضعفه وهوانه ، ذلك أن أباه ترك ملكاً ضعيفاً ومهلهلاً يتجدد ضعفه كل يوم .

ويتباكى الشاعر على حالة دمشق وأهلها ، ويحزنه ما هم فيه من الذل والهوان ، تحت ظل هذا الأمير الهزيل .

ويصف ابن منير مجير الدين بأنه مبير الدين ، ويقول له : « إن زعمك وادعاءك بأنك مجير الدين كذب لا حقيقة له وأن الواقع يشهد أنك على عكس اسمك ، فأنت مبير الدين » ثم يذكره بأفعاله السيئة وماضيه المظلم فيقول له : « ألم تحمل الصليب ؟ ألم تقف إلى جانب الإفرنج ، ألست باغياً ظالماً فى كل هذا ؟ ألم تحارب حزب الله ؟ » ويقرر الشاعر أن الله سينصر حزبه دون شك ولا ريب .

ويبدأ الشاعر بالتهكم والسخرية من مجير الدين ، وينعته بالأوصاف التى يستحقها فيقول له : أنك مذبذب لا تدرى ماذا تفعل ، فأنت تتنصر حيناً ، وتتهود حيناً آخر . ويؤكد الشاعر أن هذا التقلب ليس غريباً على مجير الدين ، فهو قد ورثه من أمه وأبيه وأعمامع ، وأصبح الكفر يجرى فى دمه وعروقه .

ويتحدث الشاعر فى آخر القصيدة عن ابن الصوفى وزير مجير الدين ، فيذكر أنه كان متسلطاً مفسداً ، وأنه كان سبباً فى خراب أمر مجير الدين ، ويتهكم الشاعر مرة أخرى على مجير الدين فيقول له : إنك نعم العبد الذليل المطيع ، الذى يتلقى الإهانة والمذلة من مواليه ، فلا يملك حيالها إلا الحمد والامتنان . وهذا غاية الضعف والمذلة والهوان .

(١) الروضتين : ج ١ ص ٨٧ ، ٧٩ .

من هذه القصيدة والتى قبلها ، نستطيع أن نقرر أن هجاء ابن منير الذى يتعلق بموضوع الجهاد ، يختلف كثيراً عن هجائه للأشخاص الذى رأيناه فيما سبق . فهجاؤه هنا كان موضوعياً إلى درجة كبيرة ، حاول فيه ألا يخرج عن غرضه الأصلى فى الهجاء . وكانت الأوصاف التى أطلقها على مهجوه مطابقة لواقعه بدرجة كبيرة .

وحاول فى هذه القصيدة كذلك أن يبتعد عن المحسنات البديعية المتكلفة ، فوفق فى ذلك واستطاع أن يبرز أفكاره فى أسلوب واضح المعانى قوى التعبير .

(ج) عظمة الفتوحات الإسلامية :

عاصر ابن منير الطرابلسى بداية الصحوة الإسلامية فى عهد عماد الدين زنكى وابنه نور الدين ، وشاهد عن كثب عودة بعض المدن الإسلامية إلى أهلها . وكانت أخبار هذه الانتصارات تثير الفرح فى نفسه ، فيصورها أحسن تصوير ، ويصف عظمتها ومكانتها عند المسلمين ، وتأثيرها على الصليبيين .

وصف ابن منير فتح مدينة الرها ، الذى وقع سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وكان يحكم هذه المدينة « جوسلين ، وهو عاتى الفرنج وشيطانهم ، والمقدم على رجالهم وفرسانهم » [(1)] وقد حاصر عماد الدين هذه المدينة وفتحها عنوة بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً وأعادها إلى حكم الإسلام .

وقد وصف ابن منير هذا الفتح فقال عنه :

أين الخلائق عن فتحٍ أُتيح له	مظلل أفقَ الدُّنيا جَناحَاهُ
على المنابر من أنبائه أَرَجٌ	مقطوبة بفتيق المسك رَيَّاه
فتحٌ أعاد على الإسلام بهجته	فافترَّ مِبْسَمُهُ واهتز عِطْفَاهُ
يهدى بمعتصم بالله فتكته	حديثُها نسخ الماضى وَأَنْسَاهُ
إن الرُّها غير عمّورية وكذا	من رامها ليس مغزاه كمغزاه
أختُ الكواكب عِزاً ما بغى أحدٌ	من الملوك لها وَقْماً فواتاه [(2)]
حتى دَلَفْتَ لها بالعزم يشحذُهُ	رأى يبيت فُوَيْقَ النجم مسراه

(1) الروضتين : ج ١ ص ٣٦ .

(2) وقم : الوقم الذل والقهر « لسان العرب ١٣ - ١٢٩ » .

مشمراً وبنو الإسلام فى شُغلٍ   عن بدءِ غرس لهم أثمار عقباه [١]

يبدأ الشاعر هذه الأبيات بالحديث عن عظمة هذا الفتح فيقول : أين الناس عن هذا الفتح العظيم ؟ لم لا يستبشرون به ، وقد ظللت جناحاه أفق الدنيا كلها ! ويقول بعد ذلك : إن المنابر قد امتلأت بأخبار هذا الفتح ، وروت أخباره العطرة الممزوجة برائحة المسك .

ويقول ابن منير : إن هذا الفتح قد أعاد للإسلام بهجته ، كما أعاد له مكانته الأولى .

وقد أراد الشاعر بهذا أن يشير إلى ماضى المسلمين فى بداية الحروب الصليبية عندما كان الصليبيون يستولون على بلاد المسلمين دون مقاومة تذكر ، أما الآن فقد اختلف الحال ، واستطاع عماد الدين بهذا الفتح العظيم أن يعيد للإسلام مكانته العظيمة .

ويجرى الشاعر مقارنة بين فتح عمورية فى عهد المعتصم بالله العباسى ، وبين فتح الرها فى عهد عماد الدين ، فيقرر أن فتح الرها أعظم بكثير من فتح عمورية ، وأن هذا الفتح لعظمته أنسى الناس كل فتح قبله .

ويتحدث الشاعر بعد ذلك عن مكانة الرها وعظمتها ، ليظهر بالتالى عظمة الفتح ، فيقول : إن هذه المدينة تطاول الكواكب فى الارتفاع وهى حصينة جداً يصعب نيلها ، أو الاستيلاء عليها . ويذكر أن أحداً من الملوك لم يستطع نيلها لصعوبة ذلك . ومع كل هذه الصعوبة فقد استطاع عماد الدين بعزمه القوى ورأيه النفاذ أن يستولى علىٔ هذه المدينة الحصينة . ويعيدها للإسلام مرة أخرى .

ابتعد الشاعر فى هذه القصيدة عن التكلف ، وجارى الطبع السليم وصدر عن عاطفته الإسلامية ، وربط الماضى بالحاضر كعادته دائماً ، فذكر فتح عمورية فى أيام المعتصم ليربط بين الحاضر المشرق لجهاد المسلمين والماضى والزاهر .

وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة تجهز نور الدين لمقاتلة الصليبيين ، فالتقى بهم فى الموضع المعروف بآنب . وقاتلهم وانتصر عليهم ، وقد « وجد اللعين البرنس مقدمهم صريعاً بين حماته وأبطاله ، فعرف وقطع رأسه ، وحمل إلى نور الدين وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس ، وقوة الحيل وعظم الخلقة ، مع

اشتهار الهيبة . وكثرة السطوة ، والتناهى فى الشر [(١)] » وقداستطاع نور الدين فى هذه السنة أن يملك كثيراً من حصون الفرنج وبلادهم .

وقد مدحه ابن منير ، وذكر هذا الفتح ووصف عظمته فقال :

فتح تعممت السماءُ بفخره   وَهَفَت على أغصانها عَذَبَاتُهُ
سبغت على الإسلام بيضُ حُجْلِهِ   واختالَ فى أوضاحها جَبَهَاتُهُ
وانهلَّ فوق الأبطحين غَمَامُهُ   وسرت إلى سكينها نفحاته
لله بلجة ليلة محصت بـــه   واليوم دَبَّجَ وَشْيَهُ ساعاتُه
حَطَّ القوامص فيه بعد قماصها   ضرب يصلصل فى الطلى صعقاتُه [(٢)]
نبذوا السلاح لضيغم عاداته   فَرْسُ الفوارس والقَنَا غاياته
لمجرب عُمَرِيَّة غضباتُه   لله معتصميَّة غزواته [(٣)]

يتحدث الشاعر عن هذا الفتح ، وشعوره بالفرح والخيلاء يملأ عليه جوانحه وبوادر الغبطة والسرور تظهر فى كل كلماته ، كيف لا ؟ وهذا الفتح افتخرت به السماء قبل الأرض وتعممت به فرحاً واعتباطاً .

ويذكر الشاعر أن نور الدين أسبغ بهذا النصر أزهى الحلل على الإسلام ، بحيث جعله يختال فرحاً وزهواً ، كما أن هذا النصر العظيم لم يكن تأثيره على المسلمين فى بلاد الشام وحدها بل تعدى ذلك إلى الأبطحين .

ويستطرد الشاعر فى وصفه لهذا الفتح ، فيذكر أن صوت السيوف كانت تبدو عالية ، وهى تنهال على رقاب المشركين وقادتهم ، وعندما رأى الصليبيون عظم المصيبة التى وقعوا فيها تركوا أسلحتهم لنور الدين وجيشه ، وفروا هاربين .

وفى آخر القصيدة يمدح الشاعر نور الدين ، ويذكر أنه كان لا يغضب إلا الله وحده كعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ويشبه غزواته بغزوات المعتصم بالله العباسى ، وذلك أن كلا القائدين حارب الإفرنج وأوقع بهم الهزائم الساحقة .

---

(١) الروضتين : ج١ ص ٥٨ .
(٢) **الطلى** : الأعناق واحدتها « طلية » .
(٣) الروضتين : ١ - ٦٠ ، ٦١ .

وفى سنة خمس وأربعين وخمسمائة « سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ، فملك بعضاً وأبقى بعضاً . فاجتمعت الفرنج ، فالتقوا مع نور الدين بدلوك ، فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها » (١) .

وقد مدحه ابن منير بقصيدة ذكر فيها هذا الانتصار ، فقال :

أعدتَ بعصرك هذا الأنيـــ ـق فتوحَ النبى وأعصارها
وكان مهاجرُها تابعيك وأنصارُ رأيكَ أنصارها
فَجدَّدت إسلامَ سلمانها وَعَمَّر جدك عمارها
وما يوم آنب إلا كتيـــ ـك بل طالَ بالبَوْع أشبارها
صدمتَ عزيمتها صدمةً أذابت مع الماءِ أحجارها
وفى تَلٍّ باشرَ باشرتهم بزحفٍ تَسَوَّرَ أسوارها
مشاهد مشهورة نَمْنَمَتْ على صفحة الدهر أسطارها
يلذ الأغانى ترجيعها وتستسفر السَّفرُ أسفارها
بنيتَ لوفد المنى كعبة يجير المعلق أشعارها
ملكت الأراضى مُغْبرَّة تكاد تُحدِّثُ أخبارها
وَصَلْتَ فأعززت مسكينها وَصُلْتَ فأذللت جَبَّارَها

يتحدث الشاعر عن الانتصارات التى حققها نور الدين فيقول : إن هذه الانتصارات تذكرنا بانتصارات المسلمين فى عهد النبى ﷺ ، فعصر نور الدين يشبه إلى حد كبير عصر النبى ﷺ . وقد أراد الشاعر أن يربط المسلمين بماضيهم ، ويحثهم على استرجاع قوتهم ومجدهم . ويشبه الشاعر الذين تبعوا نور الدين ، وآزروه بالمهاجرين الذين هاجروا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كما يشبه الذين أيدوا نور الدين فى آرائه بالأنصار ، الذين استقبلوا الرسول وأصحابه فى المدينة وآزروهم .

ويتحدث ابن منير عن موقعة آنب ، التى انتصر فيها نور الدين فيشبهها بالمعارك التى حدثت فى عصر النبوة الأولى ، ويبالغ فى وصفه ، فيجعلها تزيد على تلك المعارك ، وتفوقها بعدة مراحل .

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ٧٦ .

ويتحدث الشاعر كذلك عن موقعة تل باشر ، فيصف انتصار المسلمين فى هذه الموقعة ، وتبدو إمارات الفرح فى ثنايا كلماته .

يذكر ابن منير - وهو يتحدث عن تأثير هذه الانتصارات وعظمتها - أن الدهر سيكتب على صفحاته أخبار هذه الانتصارات ، كما أن المغنين سيترنمون بأخبارها ووقائعها ، وسيجدون لذلك لذة عظيمة ، أما المسافرون فستكون بهجتهم عظيمة ، وهم يقرأون أخبار هذه المعارك ، ويقطعون المسافات البعيدة وهم لا يشعرون بذلك من حلاوة ما يسمعون .

ويقول الشاعر ، وهو يذكر آثار هذا الفتح على واقع المسلمين : إنك يا نور الدين بنيت للمسلمين آمالاً عريضة ، وأشعرتهم بالعزة والرفعة ، إذ كانوا قبل ذلك لا يتوقعون كل هذه الانتصارات ، أما الآن فهم يتطلعون إلى مزيد من الانتصارات .

ويثنى الشاعر على نور الدين فيذكر أنه استولى على هذه الأراضى وهى بحالة سيئة ، وأهلها يعيشون فى بؤس وشقاء ، فعمل على إعزاز المساكين بإعطائهم حقوقهم كما قصم ظهر الجبارين وانتقم منهم .

نلاحظ فى هذه القصيدة ، أن الشاعر حاول أن يربط حاضر المسلمين بماضيهم ، وكان يهدف من وراء ذلك إثارة الحماسة فى نفوسهم ، ودفعهم ذلك إلى بذل مزيد من التضحيات فى سبيل الله ليستعيدوا مجدهم الذى حققه لهم آباؤهم ، ويعيدوا للمسلمين عزتهم التى ضاعت . فقام بإجراء مقارنة بين فتوح نور الدين ، وبين ما وقع للمسلمين من فتوحات فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام . وأشار إلى المهاجرين والأنصار ، وقرر أنه وجد من يشبههم ويعمل كعملهم من رجال نور الدين وأتباعه .

ونلاحظ فى هذه القصيدة حرارة العاطفة وتدفقها فى هذه الموسيقى السريعة الإيقاع لبحر المتقارب ، التى كانت تدفع الشاعر للتعبير عن فرحه وسروره بهذه الانتصارات .

(د) الحث على مواصلة الجهاد :

عاصر ابن منير الطرابلسى فترة هامة من أحداث الحروب الصليبية ، كما شاهد بعض معاركها مع قادة الزنكيين . وقد كان ابن منير وهو الذى خرج من بلده طرابلس سنة ثلاث وخمسمائة فاراً من الصليبيين عندما استولوا عليها ، كان يسره أن يرى هؤلاء

الصليبيين وهم يلاقون نفس المصير الذى لاقاه المسلمون بالأمس .

وقد كانت أنباء الانتصارات تهز مشاعره ، وتثير الحماسة فى نفسه ، وتدعوه إلى طلب المزيد .

وقد كان ابن منير ينتهز فرصة انتصار المسلمين فى بعض المعارك ، فيدعوهم للتماسك ، وبذل الجهد ، لاسترداد كافة بلاد المسلمين . وقد كان أكثر تركيزه على دعوة المسلمين لاسترداد المسجد الأقصى ، لأنه قبلة المسلمين الأولى ، وثالث الحرمين الشريفين ، وله فى نفوس المسلمين مكانة عظيمة . وكان استرجاع المسلمين للمسجد الأقصى يعنى سقوط دولة الصليبيين فى بلاد الشام .

فى سنة ست وأربعين وخمسمائة حاصر نور الدين مدينة دمشق ، وذلك عندما لجأ حاكمها مجير الدين إلى الصليبيين ، يستنجد بهم ضد إخوانه المسلمين . وقد كان مجير الدين يقف حائلاً بين هجوم المسلمين على ما يليه من ديار المشركين . وفى أثناء حصاره لدمشق مدحه ابن منير ، وحثه على أخذ هذه المدينة ، وإسقاط حاكمها ، كما حثه على مواصلة جهاده حتى يسترد القدس فقال :

يا هضبة الإسلام من يُعصم بها ... يؤمن ومن يتولَّ عنها يكفرِ

كانوا علىِ صلب الصليب سرادقا ... أنبَتْ بِنيّته بكل مذكر

آثارهم نجَسٌ أذالَ المسجد الـــ ... أقصى فَصُنْ ما دنسوه وَطَهَّـر

جار الخليل ومن بغزة هاشم ... بِلُهامِكَ المتدمشق المتمصر[(١)]

بعرمرم صلمت [(٢)] وعاوعَه عرى ... أسماع جيحون وسيف البربر [(٣)]

فى هذه القصيدة يحرض الشاعرُ نور الدين على أخذ المسجد الأقصى ، وتطهيره من نجس المشركين . ويدعو الشاعر إلى إعداد العدة ، ومهاجمة الصليبيين بجموع المسلمينفى بلاد مصر والشام . ويقول الشاعر : إن هذه الجموع المؤمنة، وهى تكتسح بلاد الصليبيين ستصل أخبارها إلى أقصى الأرض و سيحمد لها المسلمون فى كل مكان هذا الفعل الجميل .

(١) **اللهام** : الجيش الكثير « لسان العرب ١٦ - ٢٩ » .

(٢) **صلمت** : الصلم هو الإزالة والاستئصال ، **والوعاوع** جمع وعوع وهو : الخطيب الجبان .

(٣) الروضتين : ج ١ ص ٧٨ .

ولابن منير قصيدة أخرى فى تلك المناسبة جاء فيها قوله :

أيا سيف شَامَتْهُ يَدُ المَلِكِ صارماً فيمهد إذ يَسْرِى ويسرى فَيَمْهَدُ
دمشقُ دمشقُ إنما القدس سرحةٌ ومركزها صرح عليها مُمَرَّدُ
حموها لكى يحموا وقد بلغ المدى بهم أجلٌ حتم وعُمْرٌ محَدَّد
متى أنا راءِ طائر الفتحِ صادحاً يُرَفرِفُ فى أرجائها وَيُغَرِّدُ

فى هذه الأبيات نرى الشاعر يحث نور الدين على أخذ مدينة دمشق ، لأنها مفتاح بيت المقدس ، فإذا استطاع نور الدين أخذ هذه المدينة التى يوالى حاكمها الإفرنج سهَلَ عليه بعد ذلك أخذ بقية مدن الصليبيين .

وفى البيت الأخير تبدو عاطفة الشاعر قوية جياشة ، وينفعل كثيراً مع مشاهد القتال ، فيتمنى أن يرى الفتح وقد تم لنور الدين حتى تقر به عيناه ، ويطمئن قلبه .

وفى سنة سبع وأربعين وخمسمائة أخذ نور الدين حصن انطرسوس ، وقتل من كان فيه من الإفرنج ، وطلب الباقون الأمان على النفوس ، فأجيبوا إلى ذلك [١] كما استطاع فى هذه السنة كذلك استرداد عدد من الحصون . وقد هنأه ابن منير بقصيدة طويلة ، ذكر فيها هذه الفتوحات ، وحثه على مواصلة الجهاد ، حتى يتم له تحرير كافة بلاد المسلمين فقال :

إن الأولى أمِنُوا وِقَاعَكَ بعدها غروا وقد ركبوا الأَغَرَّ غُرورا
ألقِ العَصا فيمن أطاع ومن عَصَى منهم وَدَمِّر أرضهم تدميــرا
لا يلْههم أن قد مَنَنْتَ وشُنَّها شعواء تصلى الكافرين سعيرا
بَاكِرْ بركز قَناً تَنسفُ أُسَّها والخيل صُور كى تُزيرك صُورا [٢]
وترِيك لامَعةَ التّرِيكِ [٣] بساحة الـ أقصى مطهرة لها تطهيرا [٤]

فى هذه الأبيات تبدو عاطفة الشاعر قوية جياشة ، وهو يقول لنور الدين : إن أوائل الإفرنج أمنوا على أنفسهم لضعف المسلمين ، ولم يحسبوا حساب سطوتك وبأسك ،

(١) **الروضتين** : ج ١ ص ٨٦ .

(٢) **صور** : أى جماعة الخيل الكثيرة « لسان العرب ٦ - ١٤٥ » .

(٣) **التريك** : بيضة الحديد على الرأس « لسان العرب ١٢ - ٢٨٧ » .

(٤) الروضتين ص ٨٧ .

وأصابهم الغرور والكبرياء ، فلا بد من إخضاعهم بالقوة ، والقضاء على مطيعهم وعاصيهم ، وتدمير أرضهم وديارهم ، كى يتأوبوا جميعاً .

ولا يكتفى الشاعر بما قال ، وما أراده من القضاء على المشركين ، فيواصل تحريضه بقوة ، ويبدو الانفعال فى كلماته ، فيقول وهو يتميز من الغيظ : إن عفوك عنهم قد أطمعهم وغرهم ، فاترك هذا النهج ، وشنها عليهم حرباً شعواء تأكلهم جميعاً ، ولا تبقى منهم أحداً .

ويرى ابن منير أنه لابد من الاستعداد للحرب ، وأخذ الاحتياطات اللازمة لها ، كى يسهل على المسلمين أخذ بلادهم وطرد المشركين . وعندما يتم الاستعداد اللازم لابد من استرداد بيت المقدس ، وتطهيره من المشركين .

نلاحظ أن كلمات هذه القصيدة متلاحمة مع المضمون فى نسيج تعبيرى قوى فالتعبيرات القوية الجياشة ، والانفعال الشديد ، يناسبان الدعوة إلى الجهاد والحث عليه ، وهذا الموضوع لا بد له من الحماسة الشديدة كى يؤدى الغرض الذى قيل من أجله .

أما المحسنات البديعية فهى قليلة فى هذه الأبيات ، إذ إن الشاعر لم يلجأ إليها ولم يتكلفها ولم يثقل بها شعره فهناك جناس فى البيت الثانى بين قوله « العصا ، العصى » وكذلك فى البيت الرابع بين « صور ، صورا » .

لاشك عندنا فى أن ابن منير كان له دور هام فى الدعوة إلى تحرير مقدسات المسلمين ، كما كان له أثر بارز كذلك فى بعث الحماسة والحمية فى نفوس المقاتلين . وكان شعره الجهادى سجلاً حافلاً بتاريخ فترة هامة من فترات الحروب الصليبية ، حيث صور أحداث هذه الفترة ، ومدح قادة المعارك ، وأشاد بجهادهم ، وعاب على المتخاذلين المتقاعسين .

ولا شك كذلك أن شعر ، الجهاد أدى دوراً هاماً فى معارك التحرير بين المسلمين والصليبيين ، وكانت له حظوة وأثرة عند السلاطين والوزراء والأمراء والقواد . وكان الشعراء ألسنة الثناء والدعاية لانتصاراتهم وأعمالهم [١] .

من دراستنا لشعر ابن منير الطرابلسى رأينا أنه يخلو من شعر الرثاء ، حيث لم نعثر له إلا على قصيدة واحدة قالها فى رثاء سيف الدين غازى بن زنكى صاحب الموصل وهو أخو نور الدين محمود ، الذى توفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة [٢] .

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ص ٢٣٠ .

(٢) انظر القصيدة فى الروضتين ج ١ ص ٦٦ .

ونحن نعجب إذ لا نجد لابن منير رثاء لعماد الدين زنكى ، مع وجود ارتباط وثيق بين الشاعر وبينه . ويتفق ابن منير مع ابن القيسرانى فى هذه الظاهرة . والذى أرجحه أن هذا النوع من الشعر قد فقد مع ديوان الشاعر الذى لم يعثر عليه حتى الآن .

وقد أوضحت لنا هذه الدراسة أيضاً ان معظم قصائد ابن منير التى عثرنا عليها كانت تتعلق بموضوع الجهاد والحث عليه ، حيث كان هذا الموضوع يشغل أذهان المسلمين جميعاً .

وقد أدى هذا الشعر دوراً هاماً فى أحداث الحروب الصليبية ، إذ كان يبعث روح الحمية والجهاد فى نفوس المسلمين ، فيضحون بكل ما لديهم فى سبيل الله .

ولقد صور شعر ابن منير تاريخ كفاح المسلمين ، وجهادهم ضد الصليبيين فى تلك الفترة الحاسمة فى تاريخ الإسلام .

* * *

ثالثاً – أسامة بن منقذ :

هو الأمير الشاعر الأديب ، أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر الكنانى الكلبى الشيزرى [1] ولد فى قلعة شيزر [2] ، فى السابع والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ثمان وأربعمائة للهجرة . وقد كان لهذه القلعة الحصينة أهمية قصوى زمن الحروب الصليبية ، بالنسبة للصليبيين أو أمراء المسلمين الطامعين بها .

نشأ أسامة نشأة صالحة تحت رعاية والديه ، وقد كان والده يعوده الشجاعة والإقدام ، فكان يتركه يقتحم المخاطر منذ صغره ، فنشأ قوياً شجاعاً لا يهاب الموت .

وقد تلقى العلم فى بلده على عادة الأمراء فى ذلك الوقت ، فدرس الفقه والحديث وعلوم العربية ، وكانت له فيما بعد اليد الطولى فى الأدب والكتابة والشعر ، وقد ساعده على ذلك ، أن أقاربه أمراء شيزر كانوا مقصد الشعراء والأدباء ، وكان منهم عدد غير قليل من الشعراء ، وقد ذكر ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة أن أسامة بن مرشد كان يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب والجاهلية [3] .

وقد شب أسامة فى قلعة شيزر ، واشترك وهو فى الخامسة عشرة من عمره فى المعارك التى دارت بين أسرته وبين الصليبيين ، واستطاع أن يصد مع أسرته الغارة التى شنها عليهم حاكم أنطاكية الصليبى « تنكرد » .

بقى أسامة فى بلده يتقلب بين عطف والده وحب عمه حاكم شيزر ، غير أن عمه بعد أن رزق أولاداً فى آخر عمره انقلب على أسامة وتغير عليه ، إذ كان يخشى على أبنائه منه نظراً لشهرته وشجاعته ، وخشى أن يؤول الملك إليه بعد وفاته .

---

(١) انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ١ – ١٩٥ وما بعدها ، النجوم الزاهرة ٦ – ١٠٧ ، البداية والنهاية ١٢ – ٣٣١ ، الروضتين ج١ فى مواضع عديدة ، خريدة القصر ج ١ قسم شعراء الشام ص ٤٩٨ وما بعدها ، ديوان سبط بن التعاويذى ص ٣٩٨ ، ١٤٢ ، السلوك ١ – ١٢٥ ، هدية العارفين ص ١٩٦ ، شذرات الذهب ٤ – ٢٧٩ ، الوافى بالوفيات ٨ – ٣٧٨ وما بعدها ، الاعتبار فى مواضع عديدة ، المنازل والديار فى عدة مواضع ، الأعلام ١ – ٢٨٢ ، معجم المؤلفين ٢ – ٢٢٥ ، دائرة المعارف الإسلامية ٢ – ٧٩ وما بعدها ، أسامة بن منقذ .

(٢) تقع شيزر شمالى حماة ، وهى من أعمال الشام . وقد عرفها الصليبيون باسم شيزرة .

(٣) النجوم الزاهرة : ٦ ص ١٠٧ .

ولما شعر أسامة بهذا التحول غادر موطنه شيزر ، واتجه إلى الموصل ، وانتظم فى جيش عماد الدين زنكى حاكم الموصل آنذاك ، وبقى عنده تسعة أعوام يحارب الصليبيين تحت رايته ، وقد أبلى فى حروبه بلاء حسناً .

عاد أسامة مرة أخرى إلى موطنه شيزر عام اثنين وثلاثين وخمسمائة ، عندما هاجمها الصليبيون ، واشترك مع جيش عماد الدين فى الدفاع عنها ، وأبلى فى ذلك بلاء حسناً ، واستطاع المسلمون الانتصار على الصليبيين وإجلاءهم عن شيزر (١) .

ويبدو أن أسامة كان ينوى البقاء فى بلده ، غير أن وفاة والده قبل مجىء الصليبيين إلى شيزر بأيام ، ثم تغير عمه أبى العساكر سلطان بن منقذ عليه ، جعله يغادر شيزر مع إخوته نهائياً حيث لم يعد إليها مرة أخرى .

اتجه أسامة إلى دمشق ، واتصل بحاكمها معين الدين أنر . وقد اعتمد على أسامة فى كثير من الأمور الهامة ، واستطاع أسامة أن ينجح فى عمله نجاحاً منقطع النظير .

وقد استطاع أسامة فى هذه الفترة الهامة من تاريخ المسلمين مع الصليبيين أن يتصل بالفرنج ، ويقيم معهم علاقات ودية ، واستطاع بهذه المعرفة أن يدرس عن كثب أخلاق الصليبيين وعاداتهم (١) .

ولكن مقام أسامة فى بلاط البوريين فى دمشق لم يدم أكثر من ست سنوات ، والذى يبدو من القصيدة التى أرسلها أسامة إلى معين الدين أنر بعد خروجه من دمشق ، أن هناك من قام بالوشاية والدس عليه لدى حاكم دمشق معين الدين أنر ، مما جعل هذا الحاكم يتغير على أسامة ، قال أسامة فى قصيدته :

وُلُّوا فلما رَجَونا عَدلَهم ظلموا	**فَليتَهم حكموا فينا بما عَلِموا**
مَا مَرَّ يومًا بفكرى ما يريبهم	**ولا سَعَت بى إلى ما ساءهم قَدَمُ**
ولا أضعتُ لهم عهداً ولا اطلعت	**على ودائعهم فى صدرى التُّهـم**
تبدلوا بى ولا أبغى بهم بَدَلاً حسـ	**بى بهم أنصفوا فى الحكم أو ظلموا**
يا راكباً تقطع البيداءَ همتُهُ	**والعيسُ تعجز عما تدرك الهِمَمُ**

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ٣٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص ٧٩ .

بلغ أميرى معين الدين مألكةً من نازح الدار لكن وُدُّه أَمَمُ [1]
هل فى القضية يا من فضْلُ دولته وعدل سيرته بين الورى عَلم
تضيع واجب حقِّى بعد ما شهدت به النصيحةُ والإخلاصُ والخِدَم
هبنا جَنَينا ذنوباً لا يكفرها عذر فماذا جنى الأطفال والحرم [2]

والذى يبدو من هذه القصيدة أن أسامة كان متعلقاً بدمشق وحاكمها ، غير أن ابن الصوفى وزير معين الدين ، كان على رأس مدبرى المكائد لأسامة ، إذ خشى منه على مركزه .

اتجه أسامة بعد خروجه من دمشق إلى القاهرة ، واتصل بحكامها الفاطميين الذين أكرموه إكراماً شديداً لمكانته وشهرته . وقد روى أسامة ما وقع له عند قدومه إلى القاهرة فقال : « كان وصولى إلى مصر يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فأقرنى الحافظ لدين الله ساعة وصولى ، فخلع علىَّ بين يديه ، ودفع لى تخت ثياب ، ومائة دينار ، وخولنى دخول الحمام ، وأنزلنى فى دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش فى غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ، ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس ، كل ذلك لا يستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة ، إقامة فى لكرام واحترام وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج » [3] .

قضى أسامة فى مصر عشر سنين ، قاد أثناءها عدة حملات ضد الصليبيين فى بلاد الشام . وفى طريقه إلى دمشق سنة تسع وأربعين وخمسمائة فقد مكتبته ، وكل ما يملك ، وكان لهذا أثر كبير على نفسه [4] .

وفى دمشق اجتمع أسامة بنور الدين زنكى حاكم دمشق ، الذى كان يعد من أكبر قادة الحروب الصليبية فى وقته ، وخاض معه معارك عديدة ضد الصليبيين وقد أشار أبو شامة فى كتابه الروضتين إلى مشاركة أسامة فى حصار قلعة حارم سنة سبع وخمسين وخمسمائة تحت راية نور الدين فقال : « وكان معه فى هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ ، وكان من الشجاعة فى الغاية التى لا مزيد عليها » [5] .

---

(١) **مالكة** : أى رسالة ، **الأمم** : القرب .
(٢) معجم الأدباء ج ٥ ص ٢١١ ، الديوان ص ٤٠ .
(٣) الاعتبار ص ٦ .
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص ٧٩ ، الاعتبار ص ٣٥ .
(٥) الروضتين ج ١ ص ١٢٧ .

وفى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وقعت زلزلة عظيمة فى شيزر ، ودمرت حصنها على واليها تاج الدولة بن أبى العساكر بن منقذ ، وقتل عدد كبير من بنى منقذ فى هذه الزلزلة . وقد حزن أسامة كثيراً على وفاة أقاربه ، فقال فى رثائهم :

ما استدرج الموتُ قومى فى هلاكهم ولا تَخَرَّمَهُم مثنى ووحدانا
فكنتُ أصبرُ عنهم صبرَ مُحتسب وأحمدُ الخَطْب فيهم عَزَّ أو هانا
وأقتدى بالورى قبلى فكم فقدوا أخا وكم فارقوا أهلاً وجيرانا
ماتوا جميعاً كرجع الطرفِ وانقرضوا هل ما ترى تارك للحين إنسانا
لم يترك الدهْرُ لى مَن بعدِ فقدهم قلباً أُجَشِّمهُ صبراً وسلوانا
فلو رأونى لقالوا ماتَ أسعدُنا وعاشَ لِلهمِّ والأحزان أشقانا
هذى قصورهم أمست قبورَهم كذاك كانوا بها من قبل سكانا
بنو أبى وبنو عمى دمى دَمهم وإن أرونى مناواة وشنآنا
يُطيِّبُ النفس عنهم أنهم رحلوا وخلفونى على الآثار عجلانا (١)

قضى أسامة فى دمشق قرابة عشر سنين ، أحس بعدها بالتعب الشديد والإرهاق من جراء العمل المتواصل ، فغادر دمشق متجهاً إلى حصن « كيفا » سنة تسع وخمسين وخمسمائة حيث مكث فى هذا الحصن عشرة أعوام قضاها فى الكتابة والتأليف .

قطع أسامة إقامته فى حصن « كيفا » وعاد إلى دمشق ، عندما سمع بقدوم صلاح الدين إليها . وكانت تربطه علاقة طيبة بصلاح الدين ، إذ كانا يعملان جميعاً فى بلاط نور الدين زنكى . وقد رحب صلاح الدين كثيراً بأسامة ، وأغدق عليه الأموال والأعطيات ، وكان يستشيره فى كثير من أموره . ولما قدم أسامة على صلاح الدين أنشده قوله :

حَمِدت على طول عُمرى المشِيبا وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأنى حَييت إلى أن لقيتُ بعد العدوّ صديقا حبيبا (٢)

قضى أسامة بقية أيامه فى دمشق ، يشكو الكبر والضعف ، ويتحسر على نفسه وما آل إليه حاله ، وكان يقول :

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ١٠٦ .
(٢) البداية والنهاية : ج ١٢ ص ٣٣١ .

لا تحسدنَّ على البقاء معمَّرا　　فالموتُ أيسرُ ما يؤول إليه
وإذا دعوت بطول عمر لامرئٍ　　فاعلم بأنك قد دعوت عليه [1]

وقد وافاه الأجل المحتوم فى اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة . ولما علم صلاح الدين الأيوبى بوفاة أسامة عزَّى ابنه ، ثم تقبل العزاء فيه من علية القوم ، وقال لهم : « مات اليوم شاعر الأمة وفارسها » [2] وأمر بدفنه فى جبل قاسيون .

آثاره الأدبية :

تلقى أسامة بن منقذ العلم فى طفولته المبكرة ، حيث تعهده والده بالمربين والمعلمين ، وكانت هذه عادة الأمراء آنذاك .

حفظ أسامة القرآن الكريم فى صغره ، كما درس الأدب والنحو والحديث والتفسير على كبار العلماء الموجودين فى عصره ، وقد كانت أسرة الشاعر وهم أمراء شيزر « مثابة للشعراء والأدباء ، يقصدونهم مادحين ومترفدين ، ويقيمون فى كنفهم مكرمين ، وكانوا هم أيضاً علماء شعراء ، فأفاد أسامة من هذا المجتمع الأدبى الذى نشأ فيه أدباً جمّا ، وأولع بحفظ الشعر وروايته » [3] . وقد ذكر أسامة عن نفسه أنه كان يحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية [4] .

ويدل سعة اطلاعه ، وحرصه الشديد على القراءة . مكتبته الضخمة التى صحبها معه إلى مصر ، وفُقدت فى أثناء عودته منها ، وكان عدد كتبها يربو على أربعة آلاف مجلد .

والذى يبدو من حياة أسامة أنه تفرغ للتأليف والكتابة بعد أن تجاوز السبعين من عمره ، واستمر على ذلك حتى وفاته .

ولأسامة بن منقذ ما يقارب العشرين مصنفاً ، ضاع أكثرها ، وطبع بعضها ، والباقى لا يزال مخطوطاً حتى الآن [5] .

ومن هذه الكتب كتاب « الاعتبار » وقد كتب أسامة فى هذا الكتاب موجزاً

---

(١) معجم الأدباء : ج ٥ ص ٢٠٠ .
(٢) أسامة بن منقذ ص ١٩٢ .
(٣) المنازل والديار ص ٤٨ .
(٤) النجوم الزاهرة : ج ٦ ص ١٠٧ .
(٥) المنازل والديار ص ٤٩ .

لحياته كما صور عصره الذى عاش فيه فى حالتى السلم والحرب .

ومنها كتاب « المنازل والديار » وقد ذكر فى مقدمته سبب تأليفه فقال : « فإنى دعانى إلى جمع هذا الكتاب ، ما نال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جر عليها ذيله ، وصرف إلى تعضيتها حوله وحيله » ثم قال « فاسترحت إلى جمع هذا الكتاب ، وجعلته بكاء للديار والأحباب ، وذلك لا يفيد ولا يجدى ، ولكنه مبلغ جهدى [1] . وكذلك كتاب « لباب الآداب » . وكتاب « البديع فى نقد الشعر » وكتاب « الشيب والشباب » الذى ألفه لأبيه كما يقول ياقوت فى معجمه [2] ومن كتبه كذلك « أخبار لأحلام » ، « النساء » ، « القلاع والحصون » وجميعها لا تزال مخطوطة .

ولأسامة ديوان كبير ، وقد أثنى القدامى على شعره كثيراً . فقال عنه ابن كثير « أحد الشعراء المشهورين المشكورين » وقال أيضاً عنه « له أشعار رائقة ، ومعان فائقة ، ولديه علم غزير ، وعنده جود وفضل كثير » [3] .

وقال عنه ياقوت فى معجمه : « وفى بنى منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن أسامة أشعرهم وأشهرهم [4] .

أما الأصفهانى فقد أثنى عليه كثيراً فى خريدته فقال عنه : « أسامة كاسمه ، فى قوة نظمه ونثره ، يلوح من كلامه أمارة الإمارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، نشر له علم العلم ، ورقى سلم السلم ، ولزم طريق السلامة وتنكب سبل الملامة » [5] .

* * *

---

(١) المنازل والديار ص ٣ ، ٤ .
(٢) معجم الأدباء : ج ٥ ص ٢٠٨ .
(٣) البداية والنهاية : ج ١٢ ص ٣٣١ .
(٤) معجم الأدباء : ج ٥ ص ١٨٨ .
(٥) خريدة القصر ج ١ ، قسم شعراء الشام ٤٩٨ .

موضوعات شعره :

تطرق أسامة بن منقذ إلى شتى موضوعات الشعر ، وكان ديوانه حافلاً بالأشعار الجميلة الفائقة ، والمعانى اللطيفة العذبة . غير أننا لا نجد الهجاء فى شعره على كثرته ، ولعل مرد ذلك يعود إلى التربية السليمة التى تلقاها أسامة منذ صغره وإلى كونه من سلالة أصيلة ، توارثت الإمارة سنين عديدة ، وترفعت عن المهاجاة والمهاترة التى لا تليق بالأمراء .

وقد تعمد أسامة ألا يتطرق إلى هذا اللون من الشعر ، نجد ذلك فى قوله :

ظلمتُ شعرى وليس الظلم من شِيَمي ... يُطيعنى حين أدعوه وأعصيه
يهم أن يذكر القوم اللئام بما ... فيهم فأزْجرهُ عنْهُمْ وأثنيه
وَليس من خُلقِى ثلبُ الغنى وإنْ ... جَنَى ولا ذِكْرُ ذى نَقْص بما فيه (١)

وسنستعرض فى الصفحات القادمة موضوعات شعره بإيجاز ، كما سنتحدث عن موقفه من شعر الجهاد فى عصره .

أولاً - الغزل :

أفرد أسامة للغزل باباً مستقلاً فى ديوانه ، وغزل أسامة من النوع العفيف ، حيث ابتعد عن القول أو الوصف الفاحش . ونلمح فى غزله الحزن والتشكى والعتاب .

ونحن نرجح أن اسامة لم يكن من طراز أولئك الشعراء الذين يقضون معظم أوقاتهم مع من يحبون ، ويتكلفون وصف ساعات عتبهم ولهوهم . فقد كانت حياته كلها كفاح وجهاد ، وتنقل دائم من مكان لآخر ، واشتغال بالعلم والكتابة والتصنيف . ورجل من هذا الطراز لا يجد وقتاً للعبث والمجون .

وقد علق العماد الأصفهانى فى خريدته ، على قصيدة لأسامة ، يتحدث فيها عن سلوه لمحبوبه ، عندما آنس منه تغيراً عليه ، فقال : « تأمل هذه المعانى والأبيات ، بعين التأنى والثبات ، تعرف أن قائلها من ذوى الحمية ، والنفوس الأبية ، والهمم العلية ،

---

(١) الديوان : ص ٢٤٣ .

وكل من يملكه الهوى ويسترقه ، قلما يطلقه السلو ويعتقه ، إلا أن يكون كبيراً غلب عقله هواه ، واستهجن فى الشهوات المذمومة نيل مناه » [١] .

ثانيـاً : الرثـــــاء :

فجع أسامة فى حياته بموت أقاربه فى الزلزال الذى وقع فى بلاد الشام سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة . وبسبب هذا الزلزال انهدم حصن شيزر موطن آبائه وأجداده ولم ينج منهم أحد . وقد تأثر أسامة بهذه الحادثة كثيراً ، وكانت سبباً فى تأليفه لكتابه « المنازل والديار » ، كما سبق أن ذكرت .

وقد رثى أسامة أهله وأقاربه بقصيدة حزينة باكية قال فيها :

ما استدرج الموت قومى فى هلاكهم ... ولا تَخَرَّمهم مَثنى ووحدانا
فكنت أصبر عنهم صبر محتسب ... وأحمد الخطب فيهم عز أو هانا
وأقتدى بالورى قبلى فكم فقدوا ... أخاً وكم فارقوا أهلاً وجيرانا
لكن سقيتُ المنايا وَسْطَ جمعهم ... رغماً فخروا على الأذقان إذعانا
وفاجأتهم من الأيام قارعةٌ ... سقتهم بكؤوس الموت ذيفانا [٢]
ماتوا جميعاً كَرجْعِ الطَرف وانقرضوا ... هل ما ترى تارك للحين إنسانا
لم يترك الدهر لى من بعد فقدهم ... قلباً أُجَشِّمُه صبراً وسلوانا
فلو رأونى لقالوا مات أسْعَدُنا ... وعاش للهم والأحزان أشقانا
بادوا جميعاً وما شادوا فواعجباً ... للخطب أهلك عُمَّاراً وعمرانا
هذى قصورهم أمست قبورهم ... كذاك كانوا بها من قبل سكانا
يُطَيِّبَ النفسَ عنهم أنهم رحلوا ... وخلفونى على الآثار عجلانا [٣]

فى بداية هذه القصيدة يعبِّر الشاعر عن عظم مصيبته ، وشدة فجيعته فى أهله وأقاربه ، فيذكر أن الموت أخذهم دفعة واحدة ، دون إمهال أو استدراج ، ولو أنه أخذهم واحداً بعد الآخر لكان الخطب أهون ، ولاستطاع أن يتجمل بالصبر والسلوان ، ويقتدى بغيره من الناس ، ممن فقدوا أهلهم وأقاربهم .

---

(١) خريدة القصر – قسم شعراء الشام ج ٥ ص ٥٠٢ وانظر بعض قصائده فى القول فى معجم الأدباء.
(٢) **الذيفان** : السم القاتل .
(٣) الروضتين : ١ – ١٠٦ .

ويقول أسامة بعد ذلك : إن موت هؤلاء الأقارب حطم قلبه ، فلم يعد له قلب يحتمل الصبر والسلوان . ويتخيل أسامة أن أقاربه لو قدر لهم العيش مرة أخرى ، ورأوه على حالته من البؤس والشقاء لعرفوا أنهم أسعد منه حالاً ، وأكثر راحة واطمئناناً .

وفى البيت الأخير يعزى أسامة نفسه ، ويهدئ من روعه وحزنه ، فيذكر أن عزاءه الوحيد فى أقاربه أنه لاحق بهم عما قريب .

ويكرر الشاعر فى رثائه شكوى الدهر ، لأنه أحزنه وأبكاه ، ولم يترك له أهلاً ولا أصحابا . كما يؤكد الشاعر أن موت أقاربه يجعله كالميت الذى يستحق البكاء والتعزية . ووردت هذه المعانى فى رثائه لبعض أقاربه ، حيث قال :

أصبحتُ لا أشكو الخطوبَ وإنما ... أشكو زمانا لم يَدَعْ لى مشتكى
أفنى أخِلَّائى وأهل مودتي ... وأبادَ إخوانَ الصفاءِ وأهلكا
عاشوا براحتهم ومِتُّ لفقدهم ... فَعَلَىَّ يبكى لا عليهم من بكا
وبقيتُ بعدهم كأنى حائرٌ ... بمفازة لم يلق فيها مسلكا (١)

ورثى أسامة كذلك ولده عتيق ، وبكاه فى أكثر من قصيدة ، وكان حزنه لموته شديداً . فما قاله فيه :

غَالبَتْنى عليك أيدى المنايا ... ولها فى النفوس أمر مطاع
فتخليتُ عنك عجزا ولو أغـ ... ـنى دفاعى لطال عنك الدفاع
وأرادت جميل صبرى فرامتْ ... مطلباً فى الخطوب لا يُستطاع (٢)

يذكر أسامة فى هذه الآيات أن المنايا خطفت منه ابنه ، ولم يكن له قدرة على دفعها ومقاومتها ، ولو أنه كان يستطيع ذلك لقاومها مقاومة شديدة ولعمل على دفعها وإزاحتها ، ولكن سلطانها كان أقوى من سلطانه ، فلم يملك أمامها إلا الخضوع والاستسلام .

حاول الشاعر أن يتجمل بالصبر على عادته فى الحوادث والخطوب ، ولكنه لم يستطع ذلك ، لأن الفجيعة كانت أقوى منه ، فتهاوى حزيناً باكياً .

---

(١) الديوان ص ٣٠٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٢٦ .

وقد تأثر الشاعر بوفاة ولده عتيق كثيراً ، لأنه لم يكن له إلا ولد آخر غيره . وكان يحبه كثيراً ، ويعتمد عليه ، وكان لا يرى له شبيهاً فى هذا الوجود ، كما أن عتيقاً كان عند أبيه ألذ من رغد العيش ، وأحلى من الحياة ، ولذا فإن الفجيعة فيه كانت عظيمة . يقول الشاعر :

كلما امتدَّ ناظرى رَدَّهُ الدمـ ـع حَسِيراً عن أن يرى لك شبها
لم يَرُقْنى من بعد فقدك مَرْأى فيـه للعين مُسْتَرادٌ ومَلهى
كنت عندى ألذَّ من رَغَد العيـ ـش وأحلى من الحياة وأشهى (١)

نلاحظ فى رثاء الشاعر لأهله وولده أنه كان متأثراً إلى حد بعيد بفاجعته فيهما ، وكانت قصائده تصور هذا الحزن العميق ، والفاجعة الأليمة ، وحيث أن رثاءه كان صادقاً ، ومعبراً عن حقيقة ما يشعر به تجاه هؤلاء الأقارب ، فإن كلماته كانت صادقة ومؤثرة ، وبعيدة عن التكلف والتصنع .

ثالثاً - الزهد والحكم :

عاش أسامة منذ صغره فى جو إسلامى محافظ ، فحفظ القرآن الكريم ودرس الحديث النبوى الشريف ، وقرأ الفقه والتفسير ، وتلقى العلم عن كبار مشائخ عصره . وكان والده تقياً صالحاً ، اشتغل بنسخ القرآن الكريم وداوم على تلاوته ودراسته .

وبيئة مثل هذه البيئة تجعل الإنسان قريباً من الله ، زاهداً فيها عند الناس . ويبدو أن الظروف القاسية التى مر بها أسامة فى بداية حياته ، ثم موت أهله وأقاربه فى زلزال شيزر ، وموت ابنه عتيق جعلته يزهد فى الدنيا ، ويتجه إلى الآخرة .

يتحدث الشاعر عن الموت ، فيذكر أنه حق لابد منه ، وأن على الإنسان أن يصبر على فقد قريبه ، ويحتسب ذلك عند الله ، لأن الصبر يعقبه الأجر ، أما البكاء فلا يعيد الميت إلى الحياة .

ويذكر الشاعر أن الموت سيصيب الجميع ، دون تفرقة بين غنى وفقير ، أو صغير أو كبير .

---

(١) خريدة القصر - قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ .

ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن الأموات ، فيذكر أنه لو أتيح لهم الكلام مع الأحياء لقالوا لهم : إن التقى خير زاد المرء إلى ربه . ثم ينصح أسامة الناس بالعودة إلى الله ، والصبر على طاعته ، لينالوا الفوز والفلاح فى الآخرة ، يقول :

مثوبة الفاقد عن فَقْدِه　　بصبره أنفعُ من وَجْدِه
يبكيه فى حزن عليه فهل　　يطمعُ فى التخليد مِنْ بَعدِه
ما حيلةُ الناس وهل من يدٍ　　لهم بدفع الموت أو صدِّهِ
وَوِرْدُه لابد منه فما　　ينكر ما لابد من ورده
سهامه لم يستطع ردها　　داوود بالمُحْكَم من سَردِه
ولا سليمان ابنه رَدَّهَا　　بملكه والحَشْدَ من جُنْدِه
عَدْلٌ تَساوى الخلق فيه فما　　يميز المالك من عبده
أما ترى أسلافنا عرسوا　　بمنزل دانٍ على بُعده
تبوءوا الأرض ولم يخبروا　　عن حَرِّ مثواهم ولا بَردِه
لو نطقوا قالوا التقى خير ما　　تَزَوَّدَ العبدُ إلى لحده
فارجع إلى الله وَثِقْ بالذى　　أتاك فى الصادق من وَعْده
للصابرين الأجر والأمن من　　عذابه والفوز فى خُلْدِه (١)

وكما رغب الشاعر فى العمل الصالح ، فقد رغب كذلك فى ترك الحرص على جمع المال ، لأن الله عزَّ وجلَّ ضَمَنَ للناس أرزاقهم ، وتكفل لهم بعيشهم . وما دام الأمر كذلك فإن على الناس أن يسألوا الله وحده ، ولا يقنطوا من رحمته . يقول فى هذا المعنى :

العجز لا يُنقِصُ رزقاً ولا　　يزيده حَول ولا فَحصُ
كلٌ له رزق سيأتيه لا　　زيادة فيه ولا نقص
قد ضَمِنَ الله لنا رزقنا　　جاءت به الآثار والنَّصُّ
فما لنا نطلب من غيره　　لولا قُنوط النفس والحِرْصُ (١)

---

(١) الديوان : ص٢٧٩ .
(٢) الديوان : ص ٥٠٦ .

عاش أسامة - كما ذكرنا فى ترجمته - عمراً طويلاً ، وتنقل فى البلاد الإسلامية ،ومارس الحياة بكل صورها وأشكالها ، وشغل كثيراً من الأعمال الهامة وقد أتاحت له هذه الحياة بجانب ما وهبه الله من ذكاء مفرط، دقة فى التمييز ، وسعة فى العقل ، فكان حكيماً لا يستهان به .

وبسبب كثرة تنقل الشاعر فى البلاد ، وتقلب الزمان به ، وما لاقاه من متاعب وأهوال فى حياته ، عرف أن الصبر هو العلاج الوحيد للمتاعب .

وأن على الإنسان إذا دهمه خطب لا يستطيع رده أن يصبر ويتحمل . وقد صاغ الشاعر هذا المعنى فى قوله :

تقلبُ أحوال الزمان أفادنى جميل الأسى فيما ينوب من الخَطْبِ
إذا حل ما لا يُستطاع دِفاعُه فما أجمل الصبر الجميل بذى اللُّبِ (١)

والمصائب التى تعترى الإنسان لابد أن تزول فى يوم من الأيام ، لأن الدهر لا يدوم على حال واحدة ، كما أن المصائب التى تصيب الإنسان إما أن تزول عنه وإما أن يزول هو عنها عندما يموت ، يقول الشاعر :

يُهوِّنُ الخَطْبَ أن الدهر ذو غِيرٍ وأن أيامه بين الورى دُوَلُ
وأن ما ساء أو ما سرَّ منتقل عنا وإلا فإنَّا عنه ننتقل (٢)

وتطرق أسامة بن منقذ فى شعره إلى موضوعات أخرى متفرقة ، منها شكوى الزمان ، الذى أتعبه وأنهكه ، لا سيما بعد تجاوزه سن الثمانين ، وإحساسه بالضعف والعجز . فمن ذلك قوله :

مع الثمانين عَاثَ الضعفُ فى جَلَدى وساءنى ضعف رِجلى واضطراب يديِ
إذا كتبتُ فخَطِّى جد مضطرِبِ كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدى عن حملها قَلَمَا من بعد حَطْم القنا فى لُبة الأسد
وإن مشيت وفى كفى العصا ثَقُلَت رجلى كأنى أخوض الوحل فى الجلد
فقل لمن يتمنى طول مُدَّتِه هذى عواقب طول العمر والمدد (٣)

---

(١) الديوان : ص ٥٢٣ .

(٢) الديوان : ٥٢٨ .

(٣) الروضتين : ج ١ ص ١١٤ .

ومن موضوعاته كذلك « الافتخار »حيث افتخر الشاعر بنفسه فى عدة قصائد، وعدد مزاياه ومفاخره، وصفاته التى انفرد بها عن غيره .

أظَنَّ العِدا أن ارتِحالِيَ ضائرى ضلالاً لما ظنوا وهل يَكْسُد التِّبْرُ
وما زادنى بعدى سوى بعد هِمَّةٍ كما زاد نوراً فى تباعده البدرُ
ولو كان فى طول البقاء فضيلةٌ لما انتقلتْ فى أفقها الأنجمُ الزُّهْرُ
ولو لزمت أغمادها البيض ما انجلت بها غمراتُ الحرب واتضح النصرُ
وهل فى ارتحالى عن بلاد تنكرتْ لمثلى أو للساكنين بها فَخْرُ
وهل يُنكر الأعداءُ فضلى وإنه لأسْيَرُ ذكرا أن يُوَارِيَه الكفرُ
ألستُ الذى ما زال كهلاً ويافعا له المكرمات الغُرُّ والنائل الغمرُ
وخائضُ وقْعَاتِ بَوارِقُها الظُّبَا ووابل هاتيك البروق دم همــرُ
يهول الرَّدَى منى تَقَحُّمِىَ الردى ويعتاده من جأشِى الرابط الذعرُ
ولو حكمت بينى وبينهم الظبا رضيتُ بما تقضى المُهنَّدةُ البترُ
ولكن تولى الحاكمان قضاءنا فكان أبو موسى لنا ولهم عمرو (١)

وللشاعر كذلك بعض القصائد فى الوصف، وشكوى الفراق، وذم الأصحاب .

* * *

(١) الديوان : ص ٢٠٠ .

رابعاً - شعـــر الجهـــاد :

يختلف أسامة عن غيره من الشعراء فى أنه شارك فى الحروب الصليبية ، وكان مقاتلاً من أشجع المقاتلين . وقد بدأ هذه المشاركة منذ حداثة سنه ، حيث اشترك مع قومه فى صد غارات الإفرنج على مدينتهم شيزر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة . وعندما انتقل إلى مصر ، أرسله وزيرها ابن السلار فى مهمة حربية إلى نور الدين ، مفادها أن يطلب منه منازلة الصليبيين فى طبرية ، ليشغلهم عن المصريين الذين كانوا يستعدون لملاقاتهم فى غزة . وقد اعتذر نور الدين عن القيام بهذه المهمة ، لأن ظروفه لم تكن تسمح له بالقيام بها فى ذلك الوقت . وبدلاً من أن يعود أسامة إلى مصر اتجه إلى عسقلان وقاتل الصليبيين هناك ، وأظهر بطولة نادرة [(١)] .

وعند عودته إلى دمشق اتصل بنور الدين زنكى ، واشترك مع جيشه فى حصار قلعة حارم سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، وكان عمره قد قارب السبعين ، وأبلى فى هذه المعركة بلاء حسناً .

وشعر أسامة الجهادى ينحصر فى مدح المجاهدين ، ووصف المعارك ، وسوف نستعرض هذا الشعر بشىء من التفصيل .

أولاً - المـــــدح :

عاصر الشاعر فترة طويلة من فترات الحروب الصليبية ، وعايش كثيراً من أبرز قادتها ، كما شارك فيها بنفسه فى فترات مختلفة .

وفى أثناء وجود الشاعر فى دمشق فى المرة الأولى قام معين الدين أنر بمحاربة الإفرنج واستطاع أن يهزمهم ، فمدحه الشاعر بقصيدة طويلة منها قوله :

كـل يـومٍ فـتـحٌ مـبـين ونـصـر   واعتلاءٌ على الأعادى وقهـــر
قد أتاك الزمانُ بالعذرِ والإعتاب   مما جنـاه إذ هــو غـــرٌّ [(١)]

---

(١) المنازل والديار : ص ٤٦ .
(٢) **الإعتاب** : أعتبه أى أعطاه العتبى وهى الرضى .

صدق النعتُ فيك أنت معين الـ ـــدين إنَّ النعوتَ فألٌ وزجر
أنت سيفُ الإسلام حقًّا فلا فـ ـــل غراريك أيها السيف دهـر
بك زاد الإسلام يا سيفه المخْـ ـــذَمُ عِزًّا وذلّ شركٌ وكفر (١)
ثق بإدراك ما تؤمل إن الله يـجـزى الـعـبـاد عـمـا أسـروا
لم تزل تضمر الجهاد مُسِرًّا ثم أعلنت حين أمكن جَهْرُ
كل ذُخْرِ الملوك يفنى وذخـــ ـــراك هما الباقيان أجر وشكر (٢)

يفتتح الشاعر أبياته بإظهار الفرح والسرور بهذا النصر الكبير الذى حققه ممدوحه ، ففى كل يوم نصر ، وفى كل يوم فتح جديد ، وقهر الأعداء والسيطرة عليهم ، تبرز فى كل يوم .

ويقول الشاعر بعد ذلك مخاطباً ممدوحه : إن الزمان قد رضى عليك ، وتغير عما كان عليه فى الماضى ، وأن نعتك بمعين الدين قد وافق الحقيقة تماماً ، لأنك تعين الدين وتؤازره ، وأنت كذلك سيف قاطع من سيوف الإسلام ، عز بك الدين ، وارتفع شأنه ، وذل الكفر وأهله .

ويحاول الشاعر أن يحول سكوت ممدوحه عن الجهاد فى الماضى إلى ثناء عليه ، فيقول له : إنك فيما مضى كنت تضمر الجهاد ، وتعد العدة له ، فلما تمكنت من ذلك أعلنت ما كنت تخفيه ، وأديت ما عليك . وأن الله سبحانه وتعالى سيعطيك أجرك ، كما أن الناس فى الدنيا سيشكرون لك جميل فعلك .

ومدح الشاعر كذلك صلاح الدين الأيوبى بعدة قصائد منها قوله :

يا ناصرَ الإسلام حين تخاذلت عنه الملوكُ ومُظْهِر الإيمـــــان
بك قد أعزَّ الله حزبَ جنوده وأَذلَّ حزبَ الكفـر والطغيـان
لما رأيت الناس قد أغواهم الشـ ـــيطان بـالإلحاد والـعـصـيـان
جَرّدتَ سيفك فى العدى لا رغـــ ـــبةً فى المغلك بل فى طاعة الرحمن
فضربتهم ضرب الغرائب واضعاً بالسيف ما رفعوا من الصلبان
وغضبتَ لله الذى أعطاك فصـــ ـــلَ الحكم غضبة ثائر حَرَّان

(١) المخذم : خذمه أى قطعه .
(٢) الديوان : ص ١٧٠ .

فقتلت من صدق الوغى ووسَمْتَ من نجَّى الفرار بذلة وهوان
وبذلت أموالَ الخزائن بعدما هَرِمَت وراء خواتم الخُزَّان
فى جمع كل مجاهدٍ ومجالدٍ ومبارز ومنازل الأقران
من كل من يرد الحروب بأبيض عَضْبٍ ويصدُر وهو أحمر قان
ويخوضُ نيران الوغى وكأنه ظمآن خاض موارد الغُدْرَانِ
قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى ماذا أتى بالأسد من خفان
لو أنهم صدموا الجبال لزعزعوا أركانها بالبيضِ والخرصان
فهم الذخيرة للوقائع بالعدى ولفتح ما استعصى من البلدان (١)

فى هذه القصيدة مدح الشاعر صلاح الدين ، وأثنى على صفاته الطيبة التى اكتسبها بجهاده وتضحيته فى سبيل الله . فصلاح الدين نصر الإسلام ، وجاهد فى سبيل الله ، فى الوقت الذى تخاذل فيه الآخرون عن تأدية واجبهم الجهادى .

وقد كان هدف صلاح الدين من هذا الجهاد نصرة دين الله ، واتباع أوامره ، ولم تكن له رغبة فى الملك أو مباهج الدنيا . كما كان صلاح الدين كذلك يغضب لله وحده ، وينتقم لدين الله ويبذل الأسباب التى تؤدى لنصرة الإسلام وإعلاء شأنه ،

عدد الشاعر بعض هذه الأسباب ، فذكر منها أن صلاح الدين بذل الأموال الطائلة فى جمع المجاهدين الصادقين ، الذين يبذلون نفوسهم فى طاعة الله ، ويخوضون المعارك وهم يتعطشون لشرب دم الأعداء ، والقضاء عليهم .

ومن صفات هؤلاء المجاهدين كذلك أنهم أبطال فى الحروب ، يشبهون الأسد فى قوتهم ، وشدة بأسهم ، فهم لو صدموا الجبال الراسية لزعزعوها ، ولذلك فهم عدة المعارك مع الأعداء ، كما أنهم عدة المسلمين فى فتح بقية بلدانهم ، واستعادتها من الأعداء .

ومدح الشاعر صلاح الدين بقصيدة أخرى ، أرسلها إليه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، قال فيها :

لَا زِلْتَ يا ملك الإسلام فى نعم قرينها المُسْعِدَانِ : النصر والظفرُ

---

(١) خريدة القصر : قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٣٢

تُردِى الأعادى وتستصفِى ممالكهم وعونُك الماضيان : السيف والقَدَرُ
أعدتَ للدهر أيام الشباب وقد أظله المُهرِمَانِ : الشيب والكبر
وجاد غيث نَدَاكَ المسلمين فمن سحابه المُغْنِيانِ : الدر والبـدر
وسرتَ سيرة عدل فى الأنام كمـا قضى به الصادقان : الشرع والسُّوَرُ
فَفُق بنصر على الكفار إنهـم يُرْدِيهُمُ المهلكان : الغدر والأَشَرُ
وما الفرار بمنجيهـم وخلفهـم من بأسه المدركان : السُّمْرُ والبتر
فاسلم وعش وابق للإسلام ما جرت الـ أفلاك والنَّيِّرانِ : الشمس والقمر(١)

فى هذه الأبيات يكرر الشاعر الصفات السابقة التى مدح بها صلاح الدين ، فهو ناصر الإسلام ، وقاهر الأعداء ، ومعيد ديار الإسلام إلى المسلمين . كما أنه الملك العادل ، الذى سار فى الناس سيرة حسنة ، كما أراد الله ورسوله .

وصلاح الدين سينتصر على الكفار ، ولن ينجيهم الفرار منه ، لأنه سيدركهم بالسيوف والرماح ، وسيرديهم عن آخرهم .

ويدعو الشاعر لصلاح الدين بطول الحياة ، والبقاء للإسلام ، ما بقيت الشمس والقمر .

فى مدائح أسامة بن منقذ نلحظ حرارة العاطفة ، وصدق الشعور ، حيث كان الشاعر يستجيب لدافع داخلى فى نفسه ، يدفعه للتعبير عن حبه وإعجابه بأبطال المسلمين وقادتهم . وكانت الصور التى يرسمها لممدوحيه متفقة مع مكانتهم الكبيرة فى نفوس المسلمين كأبطال حاربوا الصليبيين ، واستعادوا مقدسات المسلمين .

وقد دلت مدائحه على ما كان يعتمل فى داخل نفسه من ألم وحسرة على واقع المسلمين ، وما كان يأمله من نصر عليهم ، واسترداد بلاد المسلمين منهم .

وقد مدح أسامة بن منقذ كذلك بعض الشخصيات الكبيرة فى مصر والشام اعترافاً منه بفضلهم عليه ، ورداً لبعض إحسانهم الذى غمروه به .

ومن هؤلاء الأفضل بن عباس(٢) ، حيث أثنى على كرمه وبذله الذى عم الناس كلهم ، وأغناهم بعد فقرهم ، ووصفه بالغيث المنهمر الذى أعاد للأرض الميتة حياتها.

(١) خريدة القصر - قسم الشعراء ج ١ ص ٥٤٥ ، ٥٤٦ .

(٢) الأفضل بن عباس وزير مصرى استوزر للخليفة الفاطمى الفائز بن العاضد، قتله الإفرنج سنة خمس وخمسين وخمسمائة فى مدينة عسقلان بإيعاز من والده الفائز . (النجوم الزاهرة ٥ - ٣١٠) .

قال الشاعر :

لقد عَمَّ جُود الأفضل السيد الوَرَى — وأغنى غناءَ الغيث حيث يَصُوبُ
أعدتَ ربيع الناس فى كل بلدةٍ — فليس بها للرائدين جُدُوبُ
وجادت لهم يُمناك بالمال إنَّها — بَذولٌ على بخل الزمان وَهُوبُ[1]

ومدح الشاعر كذلك الملك الصالح طلائع بن رزيك[2] بعدة قصائد ، وكانت بينهما مودة كبيرة ، فمن مدحه فيه قوله :

للَّه دَرُّك من فتى أبْدَتْ به — أيامُنا بشرَ الزمان العابس
صدقت أمانى الخير فيه فلم تدعْ — صدراً يُضَمُّ على فؤاد آيس
نال العلا حتى أقر بفضله — وعُلاه كل مُعانِدٍ ومُنافِسِ
جود كماءِ المُزْنِ طَلْقٍ خالص — مِنْ منٍّ منَّان ومنع مماكس
ومواهبٌ لو قُسِمت بين الورى — ما كان يوجد فيهم من بائس
ونَدىَ يدٍ لو أنها مبسوطة — فِى الأرض أثمر كل عُودٍ يابس[3]

ومدح أسامة الملك الناصر صلاح الدين ، وكان قد اتصل به فى آخر حياته ، فأكرمه صلاح الدين إكراماً منقطع النظير ، وكان شديد الإعجاب به ، والاعتماد عليه ، فمن جملة مدائحه فيه قوله :

والناصر الملك المتوج ناصرى — وعُلاه قد خطت كتاب أمانِى
قد كنتُ أرهب صرف دهرى قبله — فأعاد صرف الدهر من أعوانى
أنا جارُه ويد الخطوب قصيرة — عن أن تنال مُجَاورَ السلطان
ملأَ القلوبَ محبةً ومهابة — فخلتْ من البغضاءِ والشنآن
لى منه إكرامٌ عَلَوتُ به على — زهر النجوم ونائل أغنانى
قَرَنَ الكرامة بالنَّوال مواليا — فعجزتُ عن إحصاءِ ما أولانى
فَلأَهْدِيَنَّ إلى علاه مدائحا — تَبْقَى على الأحقاب والأزمان[4]

نلاحظ فى مدائح أسامة بن منقذ أنه سار فيها على طريقة سابقيه ، فلم يجدد فى المعانى والأساليب . وقد اكتفى بإيراد صفات الكرم والبذل ومساعدة المحتاجين وهى صفات كثر ترددها فى أشعار القدامى .

---

(١) الديوان : ص١٦٢ . (٢) انظر ترجمته بشكل مفصل ص ٣٤١ من هذا البحث .
(٣) الديوان : ص ١٧٣ . (٤) خريدة القصر : قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٣١ .

ثانياً – وصف المعـارك :

تحدث الشاعر عن بعض المعارك التى خاضها المسلمون ضد الصليبيين زمن نور الدين زنكى ، وهذه القصائد تعتبر وثيقة تاريخية هامة لدارسى الحروب الصليبية ، لأن الشاعر عدد أسماء المعارك ، وذكر نتائجها ، وأشار إلى ما فعله المسلمون بقادتها .

كتب الملك الصالح طلائع بن رزيك قصيدة أرسلها إلى أسامة بن منقذ فى الشام ذكر فيها بعض وقائعه وسراياه إلى الإفرنج ، وحث أسامة على تحريض نور الدين على جهاد الإفرنج وغزوهم ، فلما اطلع العادل نور الدين على هذه القصيدة أمر أسامة بالرد عليها ، فقال أسامة :

أَبى اللهُ إلا أَن يكونَ لنا الأَمْرُ ... لتحيا بنا الدُّنْيا ويفتخرَ العَصْرُ
وتخدُمُنا الأيَامُ فيما نَرومُه ... وينقاد طوعا فى أَزمتِنَا الدهر
وتخضعُ أَعناقُ الملوكِ لعزِّنَا ... ويرهبُها منا على بعدنا الذِّكْرِ
بحيث حللنا الأَمن من كلِّ حادث ... وفِى سائِر الآفاق من بأْسنا ذُعْرُ

وبعد هذه المقدمة ، التى افتخر فيها الشاعر بقوة المسلمين ، وشدة بأسهم ، وانقياد الأيام لهم ، وخضوع الملوك لعزتهم ، وانتشار صيتهم وبأسهم فى الآفاق بدأ يعدد معارك المسلمين ، ويصف قوة جيشهم ، وشدة فعلهم فى الأعداء فقال :

نسيرُ إلى الأَعداءِ والطيرُ فوقَنا ... لها القوتُ من أَعدائنا وَلَنا النَّصْرُ
فبأْسٌ يذيبُ الصخْر مِنْ حرِّ نارِه ... ولطفٌ له بالماءِ يَنْبَجِسُ الصَّخْرُ
وجيشٌ إذا لاقى العدوَّ ظننتهم ... أَسودَ الشَّرَى عَنَّتْ لَها الأَدْمُ والعَفْرُ
تَرَى كل شهمٍ فى الوغى مثل سهمه ... نُفوذاً فما يثنيه خوف ولا كُثْرُ
هم الأُسْدُ من بيض الصوارِمِ والقنا ... لهم فى الوغى النَّاب الحديدة والظُّفْرُ
يرون لهم فى القتل خلداً فكيف بالـ ... ـلقاء لقوم قتلهم عندهم عُمْرُ
يظنون أَنَّ الكفرَ عصيانُ أَمرنا ... فما عنْدَهُمْ يوماً لإنعامِنا كُفْرُ
لنـا منـهـم إقـدامُـهـم وولاؤهـم ... ومِنَّا لَهُمْ إكرامهم والندى الغَمْرُ
بـنـا أُيِّدَ الإسـلامُ وازداد عِـزُّه ... وذلَّ لنا من بعد عِزَّتِه الكفرُ

أراد الشاعر أن يشير إلى كثرة انتصارات المسلمين ، فذكر أن الطير تلازم هذا الجيش ، وتسير معه حيث سار ، لأنها تدرك أن المسلمين سيقتلون أعداءهم ، فيكون لها القوت المتوافر ، ولذا فهى تحرص على ملازمة هذا الجيش حيث سار .

أما الجيش المحارب فله بأس شديد يذيب الصغر من شدته ، وإذا لاقى العدا فهو كالأسود المفترسة حين ترى الطعام أمامها .

ومن صفات هذا الجيش كذلك عدم خوفه من الموت ، لأنه يرى الموت فى سبيل الله تخليداً وبقاء .

ولعل الشاعر أراد أن يشير إلى الآية الكريمة : ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[1] .

وبهذا الجيش القوى ، وبقيادته المؤمنة ، أعز الله الإسلام ، ورفع شأن المسلمين ، وأذل الكفر وأهله بعد عزتهم ورفعتهم .

وبعد هذا الوصف الرائع للجيش الإسلامى يبدأ الشاعر بذكر غزوات المسلمين ويشير إلى فعلهم بالأعداء فيقول :

قتلنا البرنس[2] حين سار بجهله	**تَحُفُّ به الفرسان والعسكر المَجْرُ**
ولم يَبْقَ إلَّا من أَسرنا وكيف بالـ	**ـبقاءِ لمن أَخْنَتْ عليه الظُّبَا البُتْرُ**
وفى سجننا ابن الفُونْشِ[3] خيرُ ملوكهمْ	**وإن لم يكن خير لديهم ولا بِرُّ**
أَسرناه من حصن العريمة راغما	**وقد قُتِلَتْ فرسانُه فهم جزر**
وسَلْ عنهمُ الوادِى باقليسَ إنَّهُ	**إلى اليوم فيه من دمائهم غدر**
هُمُ انتشروا فيه لردٍّ رعيلنا	**فَمِنْ تُرْبِهُ يوم المعاد لهم نَشْرُ**

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٦٩ .

(٢) **البرنس حاكم أنطاكية** : وهو من أبطال الفرنج المشهورين ، قتله نور الدين فى الموضع المعروف بأنب سنة أربع وأربعين وخمسمائة (الروضتين ١ - ٥٨) .

(٣) **ابن الفونش** : هو حاكم صقلية ، خرج مع ملك الألمان لبلاد الشام واحتل حصن العريمة . فسار إليه نور الدين سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، واستولى على حصنه وخربه ، وأخذ ابن الفونس أسيراً مع كل من فى الحصن (الروضتين ١ - ٥٥) .

ونحن أَسرنا الجُوسَلِين[1] ولم يكن لِيَخْشَى من الأيام نائبةً تَعْرُو
وكان يظن الغِزُّ أَنَّا نبيعهُ بمالٍ وكم ظَنٍّ به يُهلك الغِزُّ
فلما استبحنا ملكه وبلاده ولم يَبْقَ مالٌ يُستباح ولا ثغر
كَحَلْناه نبغي الأَجر فِي فعلنا به وفِي مثل ما قد نَالَهُ يُحرزُ الأَجر
ونحن كسرنا البَغْدَوين[2] وما لِمَا كسرناهُ إبلالٌ يُرجَّى ولا جَبْرُ
فسله اللعين الحائنُ الخائن الذِى له الغدر دين : ما به صنع الغدر
وقد ضاقتِ الدُّنيا عليه بِرُحْبِها فلم يُنْجِه بَرٌّ ولم يَحْمِه بَحْرُ
أَفِي غدره بالخيلِ بعدَ يَمِينِه بإنجيلهِ بين الأَنام له عُذْرُ
دعتْه إلى نَكْثِ اليمين وغدرُه بذمته النفسُ الخسيسةُ والمكرُ
تَوَهَّم عجزا حلمنا وأَناتَنَا وما العجزُ إلَّا ما أَتى الجاهل الغمر
فلما تمادى غَيُّه وضلالُهُ ولم يثنه عن جهله النَّهيُ والزَّجْرُ
برزنا له كالليث فارق غيله وعادَاتُه كسرُ الفرائص والهصر
وسرنا إليه حين هاب لقاءنا وبان له من بأْسنا البؤس والشر
فولَّى يُبارى عائِراتِ سهامنا وفى سمعه من وقع أَسيافنا وَقْرُ
وخلى لنا فرسانه وحماته فَشطرٌ له قتل وشَطْرٌ له أَسر
إلى أَن يزور الجوسلين مساهما له فى دَيَاجٍ ما لليلتها فجر
ونرتجعُ القدسَ المطهر منهم فلم يبق منها فى ممالكهم شبر
إذا استغلقتْ شُم الحصونِ فعندنا مفاتحها : بيض مضاربها حمر
وإن بَلَدٌ عَزَّ الملوك مرامه ورُمناه ذَلَّ الصعبُ واستسهل الوعر

---

(١) **جوسلين** : هو حاكم مناطق شمال حلب . كان شديد العداوة للمسلمين ، وكان من دهاة الفرنج وعتاتهم . أسره نور الدين سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وكان فى أسره مصلحة عظيمة للمسلمين حيث سهل أمر الفرنج بعد ذلك (الروضتين ١ - ٧٢) .

(٢) **بلدوين حاكم بيت المقدس** : اشترك مع ملوك الفرنجة بالشام فى معركة حصن بارين ضد عماد الدين زنكى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة . واستطاع عماد الدين أن يهزمهم ويستولى على الحصن (الروضتين ١ - ٣٤) .

فتحنا الرُّهَا حين استباح عداتنا حماها وسنى مَلكُها لهم الختر[1]
جعلنا طلى الفرسان أَغماد بيضنا وملكنا أَبكارها الفتكة البكرُ
ونحن فتحنا تل باشر بعدها وقد عَجزتْ عنه الأَكاسرةُ الغر
أَتى ساكنوها بالمفاتيح طاعة إلينا ومسراهم إلى بابنا شهر
وتل عزاز صَبَّحَتْهُ جيوشُنا فلم تَحْمِه عنا الرجال ولا الجُدْرُ
وكم مثل هذا من قلاع ومن قُرى ومُزْدَرَعات لا يحيط بها الحصر
رددنا على أَهل الشآم رباعهم وأَملاكَهم فانزاحَ عنهم بها الفقر
فنالهم من عَوْدِها الخيرُ والغنى كما نالنا من رَدِّها الأَجرُ والشكر[2]

بدأ الشاعر أبياته بالحديث عن معركة آنب « التى قتل فيها البرنس حاكم أنطاكية » وقد وقعت هذه المعركة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وانتصر فيها نور الدين على الصليبيين وقتل حاكمهم « وكان من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخلقة مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة والتناهى فى الشر »[3] .

وتحدث الشاعر بعد ذلك عن معركة حصن العريمة التى وقعت بين نور الدين زنكى والصليبيين سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة والتى انتهت بانتصار المسلمين .

وقد ملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كل من به من رجل وصبى وامرأة وفيهم ابن الفونش ، وأخربوا الحصن[4] .

والمعركة الثالثة التى تحدث عنها الشاعر هى التى وقعت بين نور الدين جوسلين سنة خمس وأربعين وخمسمائة . وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة الفرنج وأسر جوسلين ، « وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج فى حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته ، وجودة رأيه ، وشدة عداوته للملة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها ،

---

(١) **الختر** : الغدر والخيانة .
(٢) ديوان أسامة ص ٢٠١ وما بعدها .
(٣) الروضتين ، ج ١ ص ٥٨ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٥٥ .

وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر ، لا يقف على يمين ولا يفى بعهد »[1] .

وأطال الشاعر فى الحديث عن المعركة التى وقعت بين المسلمين والصليبيين سنة أربع وثلاثين وخمسمائة . وقد اشترك فى هذه المعركة ملوك الفرنجة بما فيهم الملك بلدوين حاكم بيت المقدس .

وقد أشار أبو شامة إلى هذه المعركة ، فذكر أن عماد الدين زنكى سار فى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى بلاد الفرنجة وأغار عليها ، فاجتمع ملوك الفرنجة لقتاله بالقرب من حصن بارين « فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير ، ونصر الله المسلمين ، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم ، فدخلوا حصن بارين وفيهم ملك القدس لأنه كان أقرب حصونهم ، وأسلموا عدتهم وعتادهم ، وكثر فيهم الجراح .

ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحاصره حصاراً شديداً فراسلوه فى طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلا أخذهم قهراً ، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليه ما فيه ملوكهم من الحصر فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل ومن بالحصن لا يعلمون عن شيء من ذلك لقوة الحصر عليهم ، فأعدوا مراسلته فى طلب الأمان ، فأجابهم وتسلم الحصن »[2] .

وأشار أسامة بعد ذلك إلى فتح مدينة الرها الذى تم سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقد ففتحها عماد الدين زنكى ، وكان يحكمها جوسلين وهو من عتاة الفرنج ودهاتهم .

وقد حاصر عماد الدين هذه المدينة ثمانية وعشرين يوماً واستطاع فتحها ، وأعادها لحظيرة الإسلام[3] .

وأشار أسامة فى نهاية قصيدته إلى فتح تل باشر وتل عزاز وغيرهما من الحصون والمدن التى تم استعادتها من الصليبيين وإعادتها لحظيرة الإسلام . ولم يغفل الشاعر

(١) الروضتين ، ج ١ ص ٧٢ .
(٢) الروضتين ، ج ١ ص ٣٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٦ .

الإشارة إلى أن الهَدف من هذه المعارك كان ابتغاء ثواب الله ، وإعادة بلاد المسلمين إلى أصحابها .

نلاحظ أن هذه القصيدة عبارة عن استعراض تاريخي لبعض غزوات المسلمين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين ، وقد أراد الشاعر من وراء هذا الاستعراض إشعار طلائع بن رزيك بأن المسلمين فى بلاد الشام قد قاموا بواجبهم الإسلامى ، وجاهدوا فى سبيل الله ، واستردوا كثيراً من بلاد المسلمين ، وأنهم ما زالوا يسلكون هذا الطريق حتى يتم لهم طرد الصليبيين من بلاد الشام .

ولأسامة بن منقذ قصيدة أخرى فى وصف معارك المسلمين ، أرسلها إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك ردًّا على قصيدة كان أرسلها طلائع تحدث فيها عن جهاد المسلمين فى بلاد الشام فرد عليه أسامة بقصيدة مطلعها :

لك الفضل من دون الورى والمكارم ... فمن حاتم ما نال ذا الفخر حاتم

ثم وصف جهاد طلائع ، وغروه للإفرنج ، وتنكيله بهم فى البر والبحر ، فقال :

غزوتَهم فِى أَرضهم وبلادهم ... وجَحْفَلُهم فى أَرضها متزاحم
فأَفنيتهم قتلا وأَسرا بأَسْرِهم ... فَنَاجِيهُم مُسْتَسْلِم أَوْ مسالم
فلما أَبادتهم سيوفُك وانجلتْ ... عن الأَرض منهم ظلمةٌ ومظالم
غزوتَهم فى البحر حتى كأَنما الـ ... أَساطيلُ فيه موجُه المتلاطم
بفرسان بحر فوق دهم كأَنها ... على الماءِ طيرٌ ما لهن قوادم
يُصَرِّفُها فرسانها بأَعِنَّةٍ ... جَرَتْ حيث لم تُوصَلْ بهن الشكائم
إذا دفعوها قُلْتَ : فرسان غارة ... سروا بجياد ما لهن قوائم
يسوق أَساطيل الفرنج إليهم ... حمَامٌ وطير للفرنج أَشائم
دماؤهم فى البحر حُمْرٌ سوابح ... وهمامهم فى البر سُحْم جواثم(١)
فلم يَخْفَ فى فج من الأَرض هاربٌ ... ولم يَنْجُ فى لُجٍّ من الماءِ عائم

(١) سحم : السحمة هى السواد . والأسحم الأسود .

وعاد الأَسارى مُردفين وسُفنُهمْ تُقاد كما قاد المهارى الخزائم[٢]
وما دونَ أَن يفنى الفرنج وتفتح الـ ـبلاد سوى أن يمضى العَزْمَ عازِمُ
فيا ملكاً قد أَحْمَدَ الله سعيَه ونيته والله بالسر عالم
تَهَنَّ ثناءً طَبَّقَ الأَرضَ نَشْرُه هو المسلك لا ما ضمنته اللطائم[١]

فى هذه الأبيات يصف الشاعر فعل الملك الصالح طلائع بن رزيك بالإفرنج ، فيذكر أنه غزاهم فى أرضهم ، واستطاع أن يقهرهم ، ويبيدهم قتلاً وأسراً ، ولما أزال ظلمهم من الأرض ، اتجه إلى قتالهم فى البحر ، فأعد لهم أسطولاً ضخماً كالموج المتلاطم ، وجهز لهم جيشاً مدرباً قوياً لا يهاب الموت ، استطاع أن يقضى عليهم فى البحر كما استطاع ذلك فى البر .

ويثير الشاعر حماسة طلائع ، ويطلب منه المزيد من الجهاد ، فيقول له : يجب ألا تتوقف عن هذا العمل الجليل حتى تفنى الفرنج ، وتستعيد بلاد المسلمين ، ولك بهذا الفعل أجر من الله ، وثناء من الناس ، وسيرة عطرة تنتشر فى الأرض كلها .

لاحظنا فى قصائد أسامة التى تتعلق بالجهاد ، صدق العاطفة ، والرغبة الصادقة فى نصرة الإسلام ، وكان يعبِّر عما يختلج فى نفسه من حب للإسلام وأهله وكراهية للصليبيين .

وقد أشرنا فى بداية الحديث عن أسامة ، أنه شارك فى جهاد الفرنجة منذ صغره ، وعرفهم عن كثب ، وشاهد المآسى التى كانوا يرتكبونها ، فلا غرابة أن يشعر نحوهم بالكراهية ، ويبذل جهده فى محاولة إخراجهم من بلاد الشام .

وقد ابتعد أسامة فى قصائده عن التكلف والمبالغة ، وكان موضوعياً ، حيث وصف معارك المسلمين كما وقعت ، دون مبالغة أو تهويل ، وكانت مدائحه كذلك موضوعية متعلقة بالجهاد ، والثناء على الممدوح بجهاده وإخلاصه ونصرته للإسلام وأهله .

وقد أدى أسامة دوره فى معارك التحرير ، وكان لشعره أثر كبير فى دفع المسلمين إلى الجهاد ، وتحرير بلادهم من الصليبيين .

---

(١) **الخزائم** : جمع خزيمة وهى الثقب . والمراد بها هنا الطيور كأنها كلها مثقوبة الأنف .
والمهارى : جمع مهرة وهى ولد الفرس .
(٢) الديوان : ص ٢٢٤ .

رابعاً - الشهاب محمود الحلبى :

هو العلامة البليغ الأديب الشهاب محمود بن سلمان بن فهد الحلبى ثم الدمشقى (٢) ولد بحلب (١) سنة أربع وأربعين وستمائة ، ونشأ بدمشق ، وسمع فيها من الرضا بن برهان وابن عبد الدايم ، وأخذ العربية عن الشيخ جمال الدين بن مالك ، وأخذ الأدب عن المجد بن الظهير (٠) وسلك طريقه فى النظم والكتابة .

برع الشهاب فى علوم الفقه ، حتى عُيِّنَ قاضياً للحنابلة فى دمشق ، ثم تولى كتابة الإنشاء فى دمشق ، ثم فى مصر ، ومكث فيها نحو خمسين سنة ، وعمل بعدها فى كتابه السر بدمشق نحو ثمانى سنين حتى مات .

اشتهر الشهاب محمود بغزارة علمه ، وسعة اطلاعه ، وكان محباً لأهل الخير ، مواظباً على تلاوة القرآن ، والأدعية والنوافل . نقل ابن حجر العسقلانى عن الصفدى أنه قال عنه : « هو أحد الكملة الذين عاصرتهم ، وأخذت عنهم ولم أر من يصدق عليه اسم الكاتب غيره ، لأنه كان ناظماً ناثراً عارفاً بأيام الناس وتراجمهم ، ومعرفة خطوط الكتاب ، مع الأدب الكثير والديانة والعلم والرواية » (١) . وقال عنه النعيمى : لم يكن بعد القاضى الفاضل مثله ، وله خصائص ليست لغيره »(٢) ، أما ابن كثير فقال عنه فى البداية والنهاية : « لم يكن بعد القاضى الفاضل مثله فى صناعة الإنشاء ، وله خصائص ليست للفاضل من كثرة النظم والقصائد المطولة الحسنة البليغة » (٣) .

---

(١) راجع ترجمته فى : النجوم الزاهرة ٩ - ٢٦٤ ، معجم المؤلفين ١٢ - ١٦٧ ، البداية والنهاية ١٤ - ١٢٠ ، الأعلام ٨ - ٤٨ ، ٤٩ ، الدرر الكامنة ٤ - ٣٢٤ ، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع ٢ - ٢٩٥ ، فوات الوفيات ٢ - ٥٦٤ وما بعدها ، شذرات الذهب ٦ - ٦٩ وما بعدها ، الدارس فى تاريخ المدارس ٢ - ٢٣٦ ، كشف الظنون ٢ - ٢٦٦ ، ١٧٨٦ ، ١٨٢٧ ، ج ١ ص ٢٠٣ ، هدية العارفين ٢ - ٤٠٧ ، إيضاح المكنون ٢ - ٨٢ ، ٥٣٩ .

(٢) هناك إجماع على ولادة الشاعر فى حلب ، وخالف ذلك صاحب كتاب « الوفيات » فذكر أن مولده فى دمشق .

(٣) هو الإمام العلامة مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى شاكر الأربلى . أديب فقيه ، ولد باربل سنة اثنتين وستمائة ونشأ فيها ، وتعلم أصول العربية ، ودرس فى دمشق ، وهو من أعيان فحول الأدب ، له ديوان شعر ، وتوفى سنة ٦٧٧ هـ « النجوم الزاهرة ٧ - ٢٨٤» .

(٤) الدرر الكامنة ٤ - ٣٢٤ .

(٥) الدارس فى تاريخ المدارس ٤ - ٢٣٦ .

(٦) البداية والنهاية ١٤ - ١٢٠ .

نال الشهاب محمود إعجاب كثير من العلماء والأدباء ، وكانت له شهرة عظيمة فى عصره . قال فيه الأديب البليغ الطنبغا الجاولى [-٢] :

قال النحاةُ بأَن الاسم عندهُمُ غير المسمى وهذا القول مردودُ
الاسم عينُ المسمى والدليلُ على ما قلتُ أَنَّ شهابَ الدين محمودُ[-١]

وقد ذكر له القدامى عدة مؤلفات منها : حسن التوسل فى صناعة الترسل ، وأهنى المنائح فى أسنى المدائح ، وذيل على الكامل لابن الأثير ، والذيل على ذيل القطب اليونينى ، ومقامة العشاق ، ومنازل الأحباب ومنارة الألباب .

وقد طبع من مؤلفاته « أهنى المنائح » و « حسن التوسل » [٥] .

أما شعره ونظمه فقال عنه ابن حجر : « وقصائده كثيرة تدخل فى ثلاثة مجلدات وأما المقاطيع فقليلة ، ونثره يدخل فى ثلاثين مجلدا » [١] ولكننا لم نعثر للمؤلف حتى الآن على ديوان مطبوع ، وأكثر قصائده مبعثرة فى كتب التاريخ المطبوع منها ، والمخطوط .

وقد كانت وفاة الشاعر ليلة السبت الثانى عشر من شعبان سنة خمس وعشرين وسبعمائة فى دمشق [٢] .

موضوعات شعره :

أجمع القدامى على أن الشهاب محمود الحلبى كان كثير النظم والنثر ، وأن قصائده لو جمعت لجاءت فى ثلاثة مجلدات [٣] ، ولكننا لم نعثر إلا على قصائد قليلة للشاعر تدخل فى باب الغزل وشعر الجهاد .

---

(١) هو علاء الدين الطنبغا بن عبد الله المارداني . كان نائباً لحاكم حلب . وهو أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون . ولى حماة ثم حلب ، وتوفى ولم يبلغ خمسا وعشرين سنة ، وقد اشتهر بالشجاعة والكرم ، وكانت وفاته سنة ٧٤٤ هـ « النجوم الزاهرة ١- ١٠٥ » .
(٢) النجوم الزاهرة ٩ - ٢٦٤ .
(٣) الأعلام ٨ - ٢٤٨ .
(٤) الدرر الكامنة ٤ - ٣٢٤ .
(٥) النجوم الزاهرة ٩ - ٢٦٤ ، الدارس فى تاريخ المدارس ٢ - ٢٣٦ .
(٦) انظر البداية والنهاية ١٤ - ١٢٠ ، الدرر الكامنة ٤ - ٣٢٤ .

أولاً - شعر الجهاد :

تحدث الشهاب محمود الحلبى كغيره من شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية عن المعارك الإسلامية التى خاضها المسلمون فى عصره ضد الصليبيين الغزاة ، فوصف أحداثها ووقائعها ، ومدح أبطالها وقادتها ، وحثهم على مواصلة الجهاد حتى يتم استرداد كافة الأراضى الإسلامية ، كما رثى بعض أبطال هذه المعارك . وسنستعرض موضوعات شعره الجهادى بشىء من الدراسة والتحليل .

(أ) وصف المعارك :

تحدث الشهاب عن بعض المعارك الإسلامية التى خاضها الملك المنصور قلاوون والملك الأشرف خليل ضد الصليبيين ، والتى انتهت بانتصار المسلمين ، وإخراج الصليبيين نهائياً من بلاد الشام .

ففى سنة أربع وثمانين وستمائة خرج الملك المنصور قلاوون إلى حصن المرقب واستطاع فتحه فى يوم الجمعة الثامن عشر من صفر ، وقد استبشر المسلمون بهذا الفتح « لأن هذا الحصن كان مضرة على المسلمين ، ولم يتمكن أحد من ملوك الإسلام من فتحه لا الملك صلاح الدين ، ولا الملك الظاهر بيبرس البندقدارى »(١) .

وقد وصف الشهاب محمود هذه المعركة بقوله :

ولقد ذكرتُكِ والحياةُ كريهةٌ ... والموتُ يُرقبُ تحت حصن المرقب
والبيضُ من خُللِ السهام كأَنها ... بَرْقٌ تألق فى غمام صَيِّبِ
والحصن من شَفَقِ الحديد كأَنه ... عذراءُ تَرفُلُ فى رداءِ مُذْهَبِ
سَامَى السماءَ فمن تطاول نحوه ... للسمع مُسْتَرِقاً رماه بكوكب
والمنجنيقُ كأَنه مِنْ رَميه ... حيث استدارتْ مرْكبٌ فى لولب
الموتُ يلعب فى النفوس وخاطِرى ... يلهو بخمرة ذلك المُسْتَعْذَب(٢)

(١) البداية والنهاية ١٣ - ٣٠٥ وللظاهر بيبرس ترجمة فى كتاب الأخبار السنية فى الحروب الصليبية ص ٢٧٢ .

(٢) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٦١ ، وانظر : كنز الدرر وجامع الغرر ٨ - ٢٧٠ ، وقد ورد فيه أن الشاعر وجه هذه القصيدة إلى نائب الديار المصرية علم الدين سنجر الشجاعى .

وصف الشاعر هذه المعركة وصفاً حياً ينبض بالحياة ، ويبدو أنه كان شاهد عيان فى أثنائها ، فوصف بعض آلات الحرب التى استخدمت فيها ، وأشار إلى قوتها وشدة أهوالها .

بدأ الشاعر أبياته بوصف الجو العام للمعركة ، فذكر أن الإنسان فيها ينتظر الموت فى كل دقيقة ، ويترقبه فى كل لحظة ، والحياة فى مثل هذا الجو كريهة بغيضة ، لا يأمن الإنسان فيها على نفسه ، ولا يهدأ خاطره على الإطلاق .

ومطلع القصيدة يذكرنا بقول عنترة بن شداد لابنة عمه عبلة :

ولقد ذكرتكِ والرماحُ كأَنها　　أَشْطانُ بئر فى لبان الأَدهم

ويصف الشاعر احتدام المعركة وضراوتها ، فيذكر أن لمعان السيوف يبدو من خلال الأسهم الكثيفة المصوبة للأعداء ، وكأنه لمعان البرق الذى يظهر من خلال السحب الداكنة الممطرة ، وأما الحصن فهو يبدو من كثرة القذائف الملتهبة التى تصيبه وكأنه عروس عذراء تختال فى ثياب مذهبة لامعة .

ويختتم الشاعر أبياته بتكرار صورة المشهد المرعب فى هذه المعركة حيث الموت يلعب بالنفوس ، ويخطفها فى كل لحظة ، ولكن شاعرنا يلذ له هذا المنظر الجميل على بشاعته وقسوته ، لأنه ينتهى بانتصار المسلمين ، وخذلان الكافرين .

وفى سنة ثمان وثمانين وستمائة اتجه الملك المنصور قلاوون إلى طرابلس لفتحها ، فنازلها يوم الجمعة مستهل ربيع الأول وحاصرها بالمجانيق حصاراً شديداً وضيَّق على أهلها تضييقاً عظيماً ، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقاً ، فلما كان يوم الثلاثاء الرابع من جمادى الآخرة فتحت طرابلس فى الساعة الرابعة من النهار عنوة ، وشمل القتل والأسر جميع من فيها ، وغرق كثير من أهلها فى الميناء وسبيت النساء والأطفال ، وأخذت الذخائر والحواصل ، وقد كانت لها فى أيدى الإفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة إلى هذا التاريخ »(1) .

وقد تحدث الشهاب محمود الحلبى عن هذه المعركة بقصيدة طويلة قال فيها :

علينا لِمَنْ أَولاكَ نِعْمته الشُّكْرُ　　لأَنك للإسلام يا سيفَه الذُّخْرُ

(1) البداية والنهاية ١٣ - ٣١٣ .

نهضتَ إلى عليا طرابلس التِي أَقلّ عَنَاهَا أَن خندقها البحر
وقد ضَمها كالطوق إلا بقية كنحرٍ وأَنت السيفُ لاح له نَحْرُ
مُمَنَّعَةٌ بِكْر وهل فى جميع ما تَمَلَّكْتَه إلَّا مُمنعة بكر
فكم مَرَّ من دهر وما مسها أَذى وكم راح من عَصْرٍ وما راعها حَصْرُ
وكم ليث غاب رامها فى جيوشه وغاب ولم يُحْرِزْ له ظفرا ظفرُ
ففاجأَتها بالجيش كالموج فانثنتْ تميد وقد أَربى على نحرها السبر
كأَن المجانيقَ التِي أُوتِرتْ ضُحى عليها لها فى ثلم أَبراجها وِتْرُ
تُحَلِّقُ فى جو السماء وترتمِي إليهم كما ينقضُّ من حالق نسر
لها شَرَرٌ كالقصر تَرمِي به العدا فلا برجَ يستعصى عليه ولا قصر
ومن تحتها تلك الثقوب كأَنها إذا ما تَمَشَّتْ فى ضمير الثرى سِرُّ
فَزَلْزَلْتَهَا بالركض فانهدَّ رُكنها ولم يَبْقَ من دون المنايا لها ستر
قَسَمْتَهُم شَطرين غير غريقهم فللسيف شَطْرٌ والقيود لها شَطْرُ (١)

تحدث الشاعر عن هذه المعركة ، ووصف أحداثها وصفاً تاريخياً صادقاً التزم فيه جانب الصدق ، وتجنب المبالغة والتهويل .

بدأ الشهاب أبيات القصيدة بوصف مدينة طرابلس ، فأشار إلى الصعوبات البالغة التى اعترضت سبل فتحها ، فهى مدينة بحرية منيعة ، محصنة عالية البنيان . ولذا فقد امتنعت على كل الفاتحين ، واستعصت عليهم منذ زمن بعيد .

وبعد هذه المقدمة بدأ الشاعر وصف المعركة ، فذكر أن المنصور قلاوون اتجه إلى طرابلس بجيش كثيف ، فحاصر المدينة ، ونصب عليها المجانيق ، وصار يرميهم بحجارتها ، فترتفع فى جو السماء ثم تهوى عليهم ، كما يهوى النسر على فريسته ، فتحطمهم وتقضى عليهم .

ومظهر آخر من مظاهر المعركة أشار إليه الشاعر وهو عمل النقابين الذين ينقبون

---

(١) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٨٧ . وانظر كذلك كنز الدرر وجامع الغرر ٨ - ٢٦٦ ، والنجوم الزاهرة ٧ - ٣١٣ .

جدران حصن المدينة ثم يوقدون فيه النيران حتى تهوى تلك الجدر .

وفى ختام الأبيات أشار الشاعر إلى نهاية هذه المعركة ، فذكر أنها انتهت بانتصار المسلمين ، وكان الكافرون فيها بين قتيل وأسير .

والمعركة الأخرى التي تحدث عنها الشاعر هى معركة عكا التى وقعت سنة تسعين وستمائة ، وقد استطاع الأشرف خليل فى هذه المعركة أن ينهى الوجود الصليبى فى سواحل البلاد الشامية .

وقد أشار ابن كثير إلى هذه المعركة ، فذكر أن السلطان « صمم على الحصار فرتب الكوسات ثلاثمائة حمل ، ثم زحف يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى ودقت الكوسات دفعة واحدة عند طلوع الشمس ، فولت الفرنج عند ذلك الأدبار ، وركبوا هاربين فى مراكب التجار ، وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى ، وغنموا من الأمتعة والرقيق والبضائع شيئاً كثيراً جداً ، وأمر السلطان بهدمها وتخريبها ، بحيث لا ينتفع بها بعد ذلك ، فيسر الله فتحها نهار جمعة ، كما أخذتها الفرنج من المسلمين فى يوم الجمعة ، وسلمت صور وصيدا قيادتهما إلى الأشرف ، فاستوثق الساحل للمسلمين ، وتنظف من الكافرين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

وقد وصف الشهاب هذه المعركة بقصيدة طويلة قال فيها :

الحمدُ لله زالت دولة الصُّلُبِ ... وعزَّ بالترك دين النَّبيِ العربى
هذا الذِى كانت الآمال لو طَلَبَتْ ... رؤياه فى النوم لاستحيت من الطلب
لم يَبْقَ بعدها للكفر إذ خَرِبَتْ ... فى البر والبحر ما ينجى سوى الهرب
كم رامها ورماها قبله ملك ... جَمُّ الجيوش فلم يظفر ولم يُصِبِ
يا يوم عكا لقد أَنسيت ما سبقت ... به الفتوح وما قد خُطَّ فى الكتب
لم يبلغِ النطْقُ جهدَ الشكر فيك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
فَقَرَّ عينا بهذا الفتح وابتهجتْ ... ببشره الكعبةُ الغراءُ فى الحجب
وسار فى الأَرض مسرى الريح سمعتُهُ ... فالبَرُّ فى طَلَب والبحر فى هَرَبِ
وغاض زرق القنا فى زرق أَعينهم ... كأَنها شَطَنٌ تَهوِى إلى قلب
وجئتها بجيوش كالسيول على ... أَمثالها بينَ آجام من القضب

وجالت النّارُ فى أَركانها وغلت   فأطفأت ما بصدر الدين من كَرَب
أَضحتْ أَبا لهب تلك البروجُ وقد   كانت بتعليقها (حمالة الحطب)
وتمت النّعْمةُ العظمى وقد ملكت   بفتح صور بلا حَصْر ولا نَصَبِ
أُخْتان فى أَن كلا منهما جمعت   صليبة الكفر لا أَختان فى النسب
لما رأَتْ أَخْتها بالأَمس قد خَربت   كان الخرابُ لها أَعدى من الجرب[1]

بدا الشاعر هذه القصيدة بإظهار الفرح والسرور على زوال دولة الصليبيين ، ورفعة المسلمين وظهور شأنهم . وهذا الأمل - كما يقول الشاعر - لم يكن المسلمون فى السابق يحلمون به ، وها هو ذا الآن قد أصبح حقيقة واقعة يلمسها الجميع ، ويبرز الشاعر هنا حقيقة تاريخية وهى الدور العظيم الذى قام به الأتراك للدفاع عن الإسلام .

ويشير الشاعر إلى حقيقة أخرى وهى أن دولة الصليبيين فى بلاد الشام بسقوط عكا فى أيدى المسلمين تكون قد انتهت ، ومن هذا المنطلق يقول الشاعر : إن على الصليبيين أن يبادروا بالهروب إلى ديارهم بعد أن لم يبق لهم ملجأ فى ديار المسلمين .

ويبدأ الشاعر بعد ذلك بالحديث عن عظمة هذا الفتح وأهميته ، فيذكر أن فتح عكا فاق الفتوح التى وقعت قبله ، وأن الكعبة الغراء ابتهجت بهذا الفتح ، وأن ذكره سار فى الأرض سير الريح ، فابتهج به الجميع .

وعن وصف المعركة يقول الشاعر : إن رماح المسلمين القوية التى كانت تغوص فى عيون الصليبيين الزرقاء ، وكأنها الحبال المتدلية فى الآبار .

أما النيران التى أوقدها المسلمون فى أسوار المدينة فقد جالت فى أركانها ، والتهمتها فتساقطت بروج المدينة ، وتمت النعمة الكبرى للمسلمين باستسلامها مع غيرها من المدن .

نلاحظ فى هذه القصيدة أن الشاعر يكاد يكون قد التزم بالحقائق التاريخية التى صاحبت هذه المعركة ، فكانت قصيدته تسجيلاً أميناً لوقائعها وإن لم تخل من العاطفة الإسلامية الصادقة التى هزها الانتصار ، ونحس هذه العاطفة الدينية فى ذكره ابتهاج

(١) كنز الدرر وجامع الغرر ٨ - ٣١٥ وما بعدها . وانظر كذلك : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٣ ، والمنتخب فى تكملة تاريخ حلب (مخطوط) ص ٢٠٧ .

الكعبة بهذا النصر ، وفى ربطه بين الكفار وأبى لهب .

وقد شغلت الأفكار والصور الشاعر فابتعد عن التعقيد والمبالغة فى تعمد المحسنات البديعية التى تفسد المعانى .

ونلاحظ أن الشاعر فى هذه القصيدة استضاء بقصيدة أبى تمام فى مدح المعتصم عند فتحه عمورية ، بل إننا نجد أن شاعرنا اقتبس بيتاً كاملاً من قصيدة أبى تمام وهو قوله :

لما رأَت أُختها بالأَمس قد خربت   كان الخراب لها أعدى من الجرب

كان الشهاب محمود واقعياً فى أوصافه لمعارك المسلمين ، لم يجانب الحقائق التاريخية ، بل وصف المعارك كما حدثت ، ووصف أسلوب المعارك ، والأسلحة التى استعملت فيها . واستعان فى أوصافه بالتصوير الفنى الجميل الذى تبدعه عاطفته الدينية الصادقة ، وابتعد عن التكلف والمبالغة ، والإفراط فى استعمال المحسنات البديعية .

المــدح :

مدح الشهاب محمود الحلبى بعض قادة المسلمين الذين شاركوا فى الحروب الصليبية وأثنى على جهادهم العظيم ، وحثهم على بذل مزيد من الجهد لطرد الصليبيين نهائياً من بلاد المسلمين .

ففى سنة ثمان وثمانين وستمائة استولى الملك المنصور قلاوون على مدينة طرابلس ، بعد أن حاصرها حصاراً شديداً ، واستطاع فتحها ، واستولى على جميع ما فيها ، ثم هدمها ، وأمر ببناء مدينة أخرى أكثر حصانة وأمنا منها[١] .

وبمناسبة فتح مدينة طرابلس مدح الشهاب محمود سنجر[٢] بقصيدة قال فيها :

يا باسمَ الثَّغْر والأَبطالُ عابسة   وخائض البحر والهيجاءُ تضطرم

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١٣ .

(٢) هو سنجر بن عبد الله التركى الصالحى ، اشتهر بالدين والعدل فى الرعية ، تولى نيابة السلطنة أكثر من مرة ، وأبطل الله على يديه كثيراً من المظالم والمكوس . ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة ومات الثالث من رجب سنة تسع وتسعين وستمائة . « المنتخب فى تكملة تاريخ حلب » ص ٢٣٢ .

ليهنك الفتحُ والنصر الذِى اجتمعا ··· فقد تساوت لدينا فيهما النعم
كأَن سيفك ماءٌ فى تَلَهُّبِهِ ··· والهامُ طيرٌ على جَنْبَيْه يزدحم
كأَن عزمك والماءَ المحيط بهم ··· بحران موجهما فى الجو يضطرم (٢)

فى هذه الأبيات يثنى الشاعر على ممدوحه بشدة البأس ، وقوة المراس ، ورباطة الجأش ، وعدم الاكتراث بالأعداء ، فهو يبتسم والمعركة على أشدها ، غير مكترث ولا هياب ، أما غيره من الأبطال فيرتسم العبوس على وجوههم ، ويبدو ذلك واضحاً عليهم . ويشير الشاعر كذلك فى البيت الأول إلى أن سنجر شارك بقوة فى المعركة البحرية التى حدثت بين المسلمين وأعدائهم حول طرابلس وخاض البحر إليهم ، والمعركة على أشدها .

ويتحفنا الشاعر بعد ذلك بصورة شعرية جميلة ، حيث يشبه سيف ممدوحه الملتهب بالماء ، ويشبه رؤوس الأعداء بالطيور المزدحمة على هذا المورد من الماء لتشرب منه ، فإذا ما اقتربت منه لقيت مصارعها .

وعزم الممدوح قوى شديد ، فهو كالبحر الهائج ليس له استقرار ، ويقذف ببأسه الأعداء فيرديهم .

نلاحظ أن مدح الشاعر كان ذاتياً واقعياً ، فموضوعه الجهاد ، وقتال الأعداء وصفات المدح هنا هى : القوة والشجاعة ، وشدة البأس ، والفتك بالأعداء .

وهذه الصفات هى التى تناسب هذا الموقف وتصلح له ، ومن هنا كان الشاعر واقعياً فى مدحه ، أميناً فى قوله .

وفى سنة إحدى وتسعين وستمائة فتح الأشرف خليل قلعة الروم « وكان الفتح بعد حصار عظيم جداً ، مدة ثلاثين يوماً ، وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقا ، واستشهد من الأمراء شرف الدين بن الخطير ، وقد قتل من أهل البلد خلق كثير ، وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً » (١) .

---

(١) المنتخب فى تكملة تاريخ حلب (مخطوط) ص ٢٣٢ .
(٢) البداية والنهاية ١٣ - ٣٢٧ .

وقد امتدح الشهاب محمود الملك الأشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة طويلة قال فيها :

لك الرايةُ الغراءُ يَقْدمُها النصر ... فمن كقيباذ إن رآها وكيخسرو
إذا خَفقَتْ فى الأَرض هَدَّتْ بنودها ... هوى الشركُ واستعلى الهدى وانجلى الثَّغْرُ
وإن نُشِرَتْ مثل الأَصايل فى الوغى ... جلى النقعُ من لألاء طلعتها البدر
كأَن مثار النقع ليلٌ وخفقها ... بروقٌ وأَنت البدر والفلك الحتر[1]
وفتح أَتى فى إثر فتح كأَنها ... سماءٌ غدت تترى كواكبها الزُّهْرُ
فكم وَطِئْتَ طوعاً وكرهاً معاقلا ... مضى الدهر عنها وهى عانِسَة بِكْرُ
وما قَلعةُ الروم التى حُزْتَ فتحها ... وإن عَظُمَتْ إلَّا إلى غيرها جسر
طليعةُ ما يأْتى من الفتح بعدها ... كما لاح قبل الشمس فى الأُفق الفجر
فلا الريحُ يجرى بينهم لاشتباكها ... عليهم ولا ينهلُّ من فوقهم قطر
إذا صدموا شُمَّ الجبال تزلزلت ... وأصبحَ سهلا تحت خيلهم الوعر
ولو وردتْ ماءَ الفراتِ خيولهم ... لقيل هنا قد كان فيما مضى نهر
فيا أَشرف الأَملاك فُزْتَ بغزوةٍ ... تحصل منها الفتح والذِّكر والأَجرُ
لِيَهْنِكَ عند المصطفى أَن دينه ... توالى له فى يُمْنِ دولتك النصر
وبشراك أَرضيت المسيح وأَحمدا ... وإن غضب اليعفور من ذاك والكفر
فسرْ حيث ما تختار فالأَرضُ كلها ... تُطيعك والأَمصار أجمعها مصر
ودمْ وابق للدنيا ليحيا بك الهدى ... ويزهى على ماضى العصور بك العصرُ[2]

ويفتتح الشاعر قصيدته بإظهار عظمة الممدوح ، وشدة بأسه ، وكثرة انتصاراته . فالانتصار حليفه فى كل معركة ، ورايته تخفق دائماً بالعزة والكرامة ، ومع كل معركة يرتفع شأن الإسلام ، ويهوى الشرك وأهله .

وهذه المعركة التى نال الأشرف عليها الثناء ليست المعركة الأولى التى ينتصر فيها ،

---

(١) الحتر : الإحكام والشد .
(٢) البداية والنهاية ١٣ - ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، وانظر كنز الدرر وجامع الغرر ٨ - ٣٣٤ - ٣٣٨ .

فقبلها فتوحات كثيرة ، وانتصارات باهرة ، ومدن كثيرة استطاع الأشرف أن يأخذها قوة واقتداراً ، وقد كانت فيما مضى صعبة المنال .

وترتفع حرارة العاطفة عند الشاعر ، وتلتهب مشاعره بالحماسة ، فيقرر أن افتتاح قلعة الروم على عظمته ليس إلا جسراً ومعبراً لافتتاح غيرها من القلاع والحصون .

ويمتدح الشهاب محمود قوم الأشرف ، وهى الأتراك فيثنى على شجاعتهم العظيمة ، وانتصاراتهم المتتالية ، ويذكر أنهم لو صدموا الجبال الراسية لتزلزلت تحت أقدامهم ، ولو اقتحموا الصعاب لأصبحت سهلة ميسرة لهم .

ويعبر الشاعر بعد ذلك عن كثرة عدد المسلمين فيذكر أنهم لو عبروا بخيولهم نهر الفرات لشربته كله ، ولقال الناس فيما بعد : لقد كان فى هذا المكان نهر يجرى .

وقد اقتبس الشاعر هذا المعنى من إخبار النبى أن قوم يأجوج ومأجوج سيمرون فى آخر الزمان على بحيرة طبرية فى فلسطين ، وسيشربها أوائلهم ، فعندما يمر بها الأواخر يقولون : قد كنا نسمع أنه كان فى هذه البحيرة ماء .

وفى آخر أبيات القصيدة يهنئ الشاعر الملك الأشرف خليل على ما سيحصل له من أجر وذكر حسن ، ويقول له : إنك نصرت دين المصطفى ، وأعليت شأنه ، ولذا فإن محمداً والمسيح سيرضيان عنك ، ولا عليك بعد ذلك إذا غضب الآخرون .

ويدعو الشاعر للملك الأشرف بطول البقاء ليحقق للدين الإسلامى العزة والكرامة ، ويعلى من شأن المسلمين ، ويجعل عصرهم الذى يعيشون فيه من أجمل العصور وأزهاها .

كان الشاعر صادقاً فى مدحه ، التزم جانب الحقيقة ، فلم يمدح مدحاً خيالياً مجرداً ، ولم يطلق على الممدوح ألقاباً عامة كما كان يفعل الآخرون ، بل نراه يحدد صفات ممدوحه ، ويجعلها مرتبطة بموضوعه الذى يتحدث عنه ، وهو موضوع الجهاد . فنراه يمدحه بكثرة فتوحاته ، وبإعلائه شأن المسلمين فى عصره ، وبقضائه على المشركين وأخذ بلادهم ، بل عندما يدعو له بطول الحياة لا يجعل دعوته مطلقة عامة ، بل يقيدها بقيام الممدوح بإعلاء كلمة الله فى الأرض ونصرة المسلمين .

* * *

ثالثاً - الرثـاء :

رثى الشهاب محمود الملك المنصور قلاوون[1] بعدة قصائد ، وقد كان من المعجبين به كثيراً ، قال عنه : « وطرد عسكر الفرنج عن ساحل الشام ونفاه ، ولو لم يكن له غير فتح طرابلس الشام لكفاه »[2] . قال فى رثائه :

وكم من حصونٍ قد فتحتَ شواهق مصابيحها فى الأُفق أَنْجُمُه الزُّهْرُ
وأَطلعتَ فيها طائر السيف فاغتدى وليس له إلَّا رؤوسُ العدَى وَكْرُ
فلله كم بيض وسمر كواعب على رغمهم قد حازت البيضِ والسمر
وكـم فـارس من قيـده ودمـائـه مـراكـبـهُ دُهْـمٌ وأَلـوانـهـا شُـقْـرُ
وفى نعتك المنصور سِرٌّ لو أنهم وعوه لما قاموا أَمامك بل فَرُّوا
أَمَا سمعوا إذْ لم يَرْوا كَسْرَكَ العدا بحمص إلى أَن ليس يُرْجى لهم جَبْرُ
وكان لهم فى الأرض صِيتٌ وسمعةٌ فلم يبق فى الدنيا لهم بعدها ذكر
بلى سمعوا أَخبارَ جيشك قبلها فلما التقوه صَغَّر الخَبَرَ الخُبْرُ[3]

فى الأبيات السابقة رثى الشاعر المنصور قلاوون ، فذكر جهاده وأفضاله وأشار إلى شدة فتكه بالأعداء ، وكيف كان يقتلهم ويأسرهم .

ويتحدث الشاعر بعد ذلك عن أعداء المسلمين ، فيذكر أنهم كانوا ذوى بأْس شديد ، وكانت لهم القوة والاقتدار ، فلما جاء الملك قلاوون استطاع أن يقضى عليهم ، وأن يزيل ذكرهم من الأرض .

وفى النهاية يشير الشاعر إلى أن الأعداء كانوا يسمعون بأخبار قلاوون وجيشه ، فلما عاينوه عرفوا أنه كان أقوى مما كانوا يظنون .

وللشاعر قصيدة أخرى فى رثاء الملك المنصور قلاوون ، قال فيها :

---

(١) هو السلطان الملك المنصور قلاوون بن عبدالله التركى الصالحى . تولى الحكم فى سنة أربع وثمانين وستمائة ، وفتح طرابلس وغيرها من المدن التى فى أيدى الصليبيين . توفى يوم السبت السادس من ذى القعدة من سنة تسع وثمانين وستمائة ودفن بمصر . « انظر : البداية والنهاية ١٣ - ٣١٧ » .
(٢) درة الأسلاك فى دولة الأتراك ص ١٩٤ (مخطوط) .
(٣) المصدر السابق ص ١٩٤ .

ملكٌ مضى لسبيلِه وسبيلُه | فى نُصرة الإسلام حُكْمٌ يُقْتَفَى
سل يوم حمص[1] عن الألوف وقد سطا | فى شملها هل بعد ذاك تَأَلُّفَا
وانظر تجد تسعين أَلفا منهم | ذهبوا كما حكمتْ صوارمُه خَفَا
وغدوا وِطَاءً للورى فلكم ترى | من حافرٍ قد داس خَدًّا مُتْرَفَا
والمرقب العالِي الذى سامى السما | فغدا على نَهْرِ المَجَرَّةِ مشرفا
وافى إليه بعزمةٍ جاءَتْ به | يوم الإباءِ مُسَلِّمًا مُسْتَعْطِفَا
وكذا طرابلس التِى لم يَرْجُها | ملك سواه إذا تنبه أو غفا
ولكم أَبادَ عِدًى وكم أبدى يدا | ونَدَىَ وجَدَّدَ رَسْمَ مَكْرُمةٍ عَفَا
وأَقال مقتدرا وأغنى راجيا | وأَعان مُرْتَجِياً وسامح مسرفا
طُوبَى له حازتْ يداه وقد مَضَى | ما أَقرضَت فِى طاعةٍ أَوْ أَسلفا
فتلقت الأَملاكُ مقدِمَ رُوحِه | بأَجلَّ مِمَّا كان فيه وأَشرفا[2]

وفى هذه الأبيات كذلك يتحدث الشاعر عن تاريخ قلاوون المجيد فى مقاومة الصليبيين ، وفى نصرة الإسلام ، وإعلاء شأن المسلمين ، فيقول : لقد مضى المنصور قلاوون إلى الآخرة ، وقد كان سبيله فى الدنيا قوياً مشرفاً ، جديراً بالناس أن يسيروا على هديه ، ويقتفوا آثاره .

ويورد الشاعر بعد ذلك شواهد حقيقية على المعارك التى شهدها قلاوون ، وأبلى فيها بلاء حسناً ، فيذكر معركة حمص ، والمرقب ، وطرابلس ، وكلها كانت معارك حاسمة فى تاريخ المسلمين ، واستطاع قلاوون أن ينتصر فيها على المشركين بعد جهاد عنيف كما سبق أن ذكرنا .

ويذكر الشاعر بعد ذلك أن المنصور قلاوون لم يكن شجاعاً فى الحروب فحسب ، وإنما كان كريماً جواداً كذلك ، يحب مكارم الأخلاق والأفعال ، فهو يعين القادر والمرتجى ، ويتسامح مع الآخرين .

---

(١) وقعت معركة حمص سنة ثمانين وستمائة بين المسلمين والمغول ، وقد انتصر فيها المسلمون بعد عناء عظيم ، وقتل من المشركين جمع كبير « انظر البداية والنهاية ٢٣ - ٢٩٥ » .

(٢) درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) ص ١٩٥ .

ويدعو له فى النهاية بحسن الخاتمة ، ودخول الجنة جزاء ما قدمت يداه فى الدنيا .

وللشهاب محمود الحلبى قصائد غزلية ابتعد فيها عن التكلف وذكر الألفاظ الفاحشة البذيئة التى كثرت عند شعراء عصره [1] .

لاحظنا أن شاعرنا الشهاب محمود الحلبى قد شارك فى وصف الأحداث الكبرى التى كانت تدور فى عصره ، فوصف معارك المسلمين ، ومدح أبطالهم وقادتهم ورثاهم أحر رثاء عند وفاتهم .

وقد واكب شعره أحداث عصره من ناحية مضمونه ، وقد سلم هذا المضمون من المبالغات الممقوتة ، والتكلف البديعى الذى كان يثقل الشعر فى هذا العصر .

* * *

(١) انظر : شذرات الذهب ٦ - ٧٠ ، فوات الوفيات ٧ - ٥٧٠ .

الفصل الثانى

شعـــــــراء آخــــــــــرون

ذكرنا فى الفصول السابقة أن هدف الصليبيين الأول كان احتلال بلاد الشام ، وأخذ بيت المقدس من المسلمين ، وقد رأينا كيف أن هؤلاء الصليبيين اتجهوا فيما بعد لغزو بلاد مصر ، وركزوا بعض حملاتهم عليها .

ولم يقف المصريون مكتوفى الأيدى أمام هذا الغزو الكثيف ، وإنما قاوموه بكل شدة ، وأدوا دورهم كاملاً فى هذه المعارك .

وقد شارك المصريون إخوانهم الشاميين فى معاركهم ضد الصليبيين فى بلاد الشام ، واستطاعوا جميعاً - فيما بعد - إخراج الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ومصر بقيادة الملك الأشرف خليل الذى كان يحكم كلا البلدين .

وكما كانت هناك مشاركة فى الجهاد ، وبذل الأرواح فى سبيل الله ، فقد وجدت فى نفس الوقت مشاركة من نوع آخر ، هى المشاركة فى وصف هذه المعارك والحث على الجهاد ، وإخراج الأعداء من بلاد المسلمين .

وقد كان الدافع لهذه المشاركة هو إحساس المسلمين آنذاك بالوحدة الإسلامية فى كافة بلاد المسلمين ، وشعورهم بأن الخطر الذى يتهدد إخوانهم فى الشام إنما يتهددهم جميعاً .

وقد وجدت فى اثناء هذه الدراسة أى عدداً من الشعراء فى مختلف البلاد الإسلامية قد تحدثوا عن هذه المعارك ، وكان أكثرهم حديثاً عنها الشعراء المصريون ، ويعود السبب فى ذلك إلى ما كان بين مصر والشام من وحدة حقيقية فى فترات طويلة أثناء الحروب الصليبية ، وإلى ما كان يشعر به الجميع من خطر داهم يتهددهم جميعاً على أيدى الصليبيين .

وحيث إن الشعراء الذين سأترجم لهم ليسوا من الشام ، وإنما شاركوا فى وصف الأحداث الكبرى التى وقعت بين المسلمين ، الصليبيين فى بلاد الشام بدافع من عقيدتهم الإسلامية ، وشعورهم بالوحدة التى تربط بين المسلمين فى كل أقطارهم ، لذا فقد رأيت أن أفرد فصلاً مستقلاً أترجم فيه لبعض الشعراء الذين شاركوا فى وصف معارك الإسلام التى وقعت فى بلاد الشام وتحدثوا عن أبطال هذه المعارك فى ذلك القطر الإسلامى الشقيق .

أولاً – الملك الصالح طلائع بن رزيك :

هو الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمنى [١] . كان والياً على قوص وأسوان فى صعيد مصر ، ولما قتل الخليفة الفاطمى الظافر سنة أربع وأربعين وخمسمائة كتب إليه خدام القصر ، والقاضى الجليس عبد العزيز بن الحباب [٢] يستنجدون به ويدعونه للحضور إلى القاهرة ، وقد أرسل له القاضى الجليس قصيدة طويلة منها قوله :

دموعِىَ عن نظم القريض غوادِى — وشفَّ فؤادى شجوُهُ المتمادِى
وأَرّقَ عينى والعيونُ هواجعٌ — همومٌ أَقَضَّتْ مضجعِى ووسادِى
بمصرع أَبناءِ الوَصِىِّ وعِتْرَةِ النـ — ـبيى وآل الذاريات وصَادِ
فأَين بنو رُزيك عنهم ونصرهم — وما لهم من منعة وذِيادِ
أُولئِك أَنصارُ الهدى وبنو الردى — وسُمُّ العِدى من حاضر أَو باد [٣]

فلما سمع طلائع بالخبر قدم إلى القاهرة ، وجلس فى دست الوزارة، وتلقب بالملك الصالح ، وأخرج جسد الظافر من البئر التى رمى فيها ، ومشى بين يديه حافياً مكشوف الرأس ، حتى أبكى الناس ، ثم دفنه فى تربته [٤] .

---

(١) انظر ترجمته فى : النجوم الزاهرة ٥ – ٢٩٢ ، ٣٥٩ ، خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ١ – ٧٢ وما بعدها ، تاريخ ابن خلدون ٤ – ٧٥ ، الروضتين ١ – ١٢٠ ، الكامل فى التاريخ ١١ – ٢٧٤ ، قلادة النحر بأعيان وفيات الدهر (مخطوط) ٤ – ١٨٨ ، معجم المؤلفين ٤ – ٤١ ، الأعلام ٣ – ٣٢٩ . وانظر كذلك ديوانه .

(٢) هو القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى التميمى . جليس صاحب مصر ، وهو شاعر أديب مات سنة إحدى وستين وخمسمائة وقد جاوز السبعين . « انظر : النجوم الزاهرة ٢ – ٢٩٢ » .

(٣) النجوم الزاهرة ٥ – ٢٩٢ .

(٤) النجوم الزاهرة : ٥ – ٣١١ .

ولما تولى الخليفة الفائز مقاليد الحكم فى القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة عظم شأن طلائع ، وقام بأمور الحكم ، وسار فى الناس أحسن سيرة [1] .

ولما مات الفائز وبويع العاضد سنة خمس وخمسين وخمسمائة استمر ابن رزيك فى وزارته ، وزوج العاضد ابنته ، وعظم شأنه فى خلافة العاضد كثيراً ، واستبد بمقاليد الأمور ، وأخذ يتصرف بجباية الأموال ، فعظم هذا الأمر على أقرباء العاضد .

ولما رأت عمة العاضد الصغرى استبداد طلائع بالأمور دونهم ، وضعت له كميناً فى دهليز القصر ، فضربوه بالسكاكين ، وجرحوه جراحات بالغة ، وحمل إلى قصره فمات . وكان ذلك فى شهر رمضان من سنة ست وخمسين وخمسمائة [2] .

أجمع القدامى على أن الصالح كان شاعراً مجيداً ، وأديباً كبيراً . قال عنه صاحب كتاب الروضتين : « وكثر فى زمانه النثر والشعر ، وله قصائد كثيرة أرسلها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصرة الإسلام ، وشعره جيد محكم بليغ ، وله ديوان كبير » [3] وقال عنه ابن الأثير : « وكان الصالح كريماً أديباً له شعر جيد ، وكان ينفق على أهل العلم والأدب ويكرمهم » [4] أما العماد الأصفهانى فقال عنه فى خريدته : « ونفق فى زمانه النظم والنثر ، واسترق بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الدانى والقاصى بالعطاء ، وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام ، يذكر فيها قيامه بنصرة الإسلام » [5] .

وأجمع القدامى كذلك على أن الصالح كان إمامياً مغالياً فى التعصب لآل البيت ، وكانت أكثر قصائده فى مديحهم [6] .

وقد اشتهر عنه كثرة حروبه للصليبيين ، حيث وجه عدة حملات لقتالهم فى فلسطين ، وأجلاهم عن أجزاء كبيرة منها ، ولذلك لقب أبا الغارات [7] .

له ديوان شعر ، جمعه محمد هادى الأمينى ، وطبع فى العراق .

---

(١) النجوم الزاهرة : ٥ - ٣١١ .
(٢) انظر معجم المؤلفين ٥ / ٤١ .
(٣) الروضتين ١ - ١٢٠ .
(٤) الكامل : ١١ - ٢٧٤ .
(٥) خريدة القصر - قسم شعراء مصر ١ - ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٦) انظر تاريخ ابن خلدون ٤ - ٧٥ ، والنجوم الزاهرة ٥ - ٣١١ .
(٧) الخريدة - شعراء مصر ١ - ١٧٣ .

موضوعات شعره :

اشتمل ديوان طلائع بن رزيك على شتى موضوعات الشعر التى وجدت فى عصره ، وزاد عليها بشعر الجهاد حيث وجدنا فى ديوانه عدة قصائد تصف معاركه ضد الصليبيين ، وتحث نور الدين زنكى على مواصلة جهادهم .

وسنتحدث عن هذه الموضوعات أولاً ، ثم نتحدث بعد ذلك عن موضوعات شعر الجهاد ضد طلائع بن رزيك .

أولاً - المـدح :

مدح الشاعر آل بيت النبى بعدة قصائد ، وكان التشيع لهم هو الباعث له على هذا المدح ، ويبدو ذلك واضحاً جلياً فى ثنايا أبياته .

فمن جملة مدائحه قوله يمدح أهل البيت عليهم السلام :

مِنَ الأَحباب قَرَّبنِى ولائى ... ومن أَعداى برأنى بُرائِى
أَلا إِنِىِّ تَجرْتُ فكان بيعى ... لغير أئمتِى ولهم شرائِى
جريتُ إليهم طلقا عِنانِى ... وخَلَّفتُ السوابق من ورائِى
ولما صَحَّ لِى بهم اعتقادِى ... بنورُ هداهم استوفقت رائِى
ففى آل النبى نظمت مدحى ... وشَنَّفْتُ المسامع من ثنائِى
شربتُ وِدادهم نَهْلاً وعَلًّا ... وها أَنا واردٌ وِرْدَ الظِّماءِ
نجومٌ يهتدى السارِى إليها ... بها عند الصباح وفِى المساءِ
وهمْ لِى حين أَظْعَنُ خير زاد ... وإن أَمرضْ فذكرهُمُ شِفائِى
أَحَب إلىَّ من بصرى وسمعى ... ومالى والمسرة فى بقائى
فلى بولاءِ أَهل البيت نصر ... لدى الهيجاءِ معقود اللواءِ (١)

فى هذه الأبيات يظهر الشاعر تعلقه الشديد بآل بيت النبى عليه الصلاة والسلام ،

---

(١) الديوان ص ٥١ ، ٥٢ .

ويبدى لهم الخضوع المطلق ، ويقول فى ذلك : إنه شرب حبهم ، واستكثر من ذلك ، وما زال يرتوى من هذا المعين بشوق وشغف . وآل بيت النبى - كما يقول الشاعر - كالنجوم ، يهتدى بها الناس فى الصباح والمساء ، وهم كذلك خير زاد له عند الرحيل ، وذكرهم خير شفاء له عند مرضه .

وتزداد حرارة الحب والشوق لدى الشاعر تجاه أهل البيت ، فيذكر أنهم أحب إليه من بصره وسمعه ، ومن ماله ومن حياته ، وأنه بسبب موالاته لهم يوفق دائماً ، ويحالفه النصر والتأييد .

ويكرر الشاعر هذه الأوصاف والمعانى فى مدائحه لآل البيت ، ويبدو الغلو والمبالغة فى التشيع واضحاً جلياً فى أبياته ، حتى لتخرجه هذه المبالغة عن الحد المألوف فى مدح البشر ، فنراه يطلق صفات الألوهية علىَ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو يقول فيه مادحاً :

ما حَادَ عن حُبِّ البطين الأَنْزَعِ ... متجنبا لولائه إلَّا دَعى
وأَنا الذِى فى حبه وولائه ... لا قابل مَيْناً ولا بالمُدَّعى
ولقد حللتُ بحب آل محمد ... وولاى فيهم بالمَحَلِّ الأَرفعِ
فهم عتادِى فى الوغى وذخيرتى ... يوم المعاد وعُدَّتِى فى مضجعى
وإليهم فى كل خَطْبٍ موئلى ... وإليهم فى كل صعب مَرْجِعى
وإذا اعتصمتُ بهم نجوتُ من الردى ... وإذا انتصرتُ بهم وَجَدْتُهم مَعى
واللهُ يعلم أَننى فى مدحهم ... لا كالذى يخشى ولا المتصنع
لو قيل بعد المصطفى مَنْ صفوةُ الد ... نيا أَشرتُ إلى البطين الأَنزعِ
كم أَنزل الأَبطال حَدُّ حسامه ... فى الحرب من فوق المكان الأَمنع
كل المنايا فى مضارب سيفه ... تبدو لوجه الناظر المتطلع
أَضدادُ دينِى لو أَكلت وهم على ... قيد الحياة لحومهم لم أَشبع
فَمِنَ الكآبة لم أَزل متوجعا ... عَجَبِى لقلبِى كيف لم يتصدع[1]

(١) الديوان . ص ٢٨٩ .

لا شك أن الشاعر كان يمدح علياً وآل بيت النبى مدحاً مجرداً عن الأغراض، نابعاً من عقيدته فيهم، وإخلاصه لهم، وقد أشار إلى هذا بقوله:

والله يعلم أننى فى مدحهم لا كالذى يخشى ولا المتصنع

ولكنه كعادة الشيعة - فى الغلو والإفراط فى الإطراء - خرج بهذا المدح عن الحد الذى يعطى للبشر، إلى الحد الذى لا يعطى إلا لله عز وجل. فجعل اعتصامه بهم منجياً له من الردى، كما ذكر أنه كلما استنصر بهم وجدهم بجانبه. يقول فى ذلك:

وإذا اعتصمت بهم نجوت من الردى وإذا انتصرت بهم وجدتهم معى

وعلى هذا النمط تدور مدائح طلائع بن رزيك، ولذا فإننا لا نجد إلا مبالغة تخرج المديح عن حدود المعقول والمقبول، كما نجد فيها سرداً تاريخياً لأمجاد آل البيت، وتعداد فضائلهم، والحديث عن مناقبهم.

* * *

ثانياً - الرثاء:

أوقف الشاعر رثاءه على آل بيت النبى ﷺ [1]، فبكى قادتهم وتحسر على موتاهم، وتأسف على ما وقع لهم فى الماضى وأفاض فى التعبير عن مشاعره، وتقديره لهم.

ومن جملة مراثيه قوله من قصيدة يرثى الحسين بن علىّ عليه السلام:

يَا للرِّجالِ لِمُدْنَفٍ مجهود لم يُؤْتَ من هجر وطول صدود
نظر الغزال فما يغر بسحر ذا ك اللحظ منه ولا بحسن الجيد
هذا ولم يَعْلَقْ بذاتِ مُؤالِفِ ومَعاطِفِ وروادفِ ونُهودِ
لكنه غمًّا وحزناً مثل من غلبتْ عليه سُلَافةُ العنقود
أَسَفاً لموت الدين بعد حياته ودُثُور نهج مسالك التوحيد
ولأَجل ما قد بات آل محمد من مُبْدِئ فى ظُلمهم ومعيد

---

(١) الديوان: ص ١٥٩.

فإذا تذكرت الشهيدَ فمقلتى　　لا تنطوى إلا على التسهيد
منعوا الحسين من الفرات لقد　　أتوا فى قتله بالمعضلات السود
حملوا حريم المصطفى سَبْياً كأَمْـ　　ـثال الإماءِ على المطايا القود
أوصاهمُ الرحمنُ ودا فيهم　　فنفوهم بالقتل والتصفيد
فلذاك فى الليل الطويل عليهم　　لتململِى لم أَكتحل بهجود
لهفى على ما فاتنى من نصرهم　　لهفاً تشب وقود نار حقودى
إذا لم أَكن ممن يحامى عنهم　　كعوائدِى فى مصدرى وورودى
حتى يقول السامعون بموقفِى　　هذا التضوُّع عَرْف ذاك العود (١)

بدأ الشاعر أبياته بإظهار حزنه الشديد على حال الحسين وآل بيته ، وذكر أن ما يراه الناس عليه من الحزن والغم ليس بسبب تعلقه بالغوانى ، وتفكيره فيهن ، وإنما هو حزن وغم على ضياع الدين ، واندثار طرق التوحيد ، والظلم الذى وقع على آل محمد عليه السلام .

ويبدأ بعد ذلك بالحديث عما وقع للحسين رضى الله عنه وآل بيته فى العراق من خذلان وقتل وتشريد ، ويتمنى أنه لو كان معهم فى ذلك اليوم ، ليحامى عنهم ، ويدفع عنهم شر أعدائهم .

وللشاعر قصيدة أخرى فى رثاء الحسين ، نظمها فى يوم عاشوراء ، عام اثنين وخمسين وخمسمائة ، قال فيها :

لهفى على قَتْلَى أُبيح بهم　　حِمَى الدين المصون
ما فيهم إلا صريعٌ　　بالصوارم أو طعين
غَدَرَ الخؤون بهم هناك　　ولم يَفِ الثقةُ الأَمين
وخلتْ ديارهم ، كما يخلو　　من الأَسد العرين
يا عاذِلِى رفقاً فإنَّك　　فيهم عندى ظنين
كم ذا تهون من جليل　　مصابهم مالا يهون

(١) الديوان : ص ٧٥ .
(٢) الديوان : ص ١٥٩ .

فارفض عِداهم إن غَدَوْتُ   بدين جَدِّهِمُ تدين[2]

لم يأت شاعرنا بجديد فى رثائه لآل البيت ، وإنما اكتفى بسرد ما جرى لهم من أحداث فى العراق ، وكيف تم قتلهم وتشريدهم ، وأظهر حزنه الشديد وأسفه على تلك الأحداث المؤلمة .

وعاطفة الشاعر فى رثائه عاطفة صادقة ، تنبع من حبه وتعظيمه لآل البيت ، بل مغالاته الشديدة فى الحب والتعظيم .

ثالثاً : شعر الجهاد :

شارك الملك الصالح طلائع بن رزيك فى جهاد الصليبيين ، فكان يرسل الحملة تلو الأخرى إلى بلاد الشام ، لمقاومة المعتدين هناك ، ومساعدة جيوش الشام فى قتالها ضد الصليبيين .

وقد كان شعوره بالوحدة الإسلامية من أقوى الأسباب التى جعلته يخوض غمار هذه الحروب ، كما كان يشعر أن الصليبيين لو استطاعوا الاستيلاء على الشام لاتجهوا من فورهم إلى مصر .

وقد وصف طلائع معارك جيشه فى بلاد الشام فى عدة قصائد ، كان يرسلها إلى صديقه أسامة بن منقذ فى الشام ، ليطلعه على الجهد الكبير الذى كان يقوم به ، ويطلب منه حث نور الدين على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين ، وعدم الاطمئنان إلى وعودهم الكاذبة .

ونستطيع أن نلمح فى شعر طلائع الجهادى اتجاهين بارزين هما : وصف معاركه ضد الصليبيين ، وحث نور الدين على مواصلة جهادهم .

(أ) وصف المعارك :

تحدث الملك الصالح عن سراياه التى كان يرسلها للجهاد فى أرض الشام ، ووصف أعمالها وجهادها .

وله فى وصف معاركه عدة قصائد كان يرسلها إلى أسامة بن منقذ فى الشام ، ليطلعه على جهاده ، وليطلب منه حث نور الدين على مواصلة جهاده . فمن ذلك قصيدته التى يقول فيها :

قُلْ لابْنِ مُنقِذِ الذى ... قد حَازَ فى الفضل الكَمالا
فَلِذَاكَ قد أَضحى الأَنا ... مُ على مكارِمِهِ عِيَالا
هَلَا بذلتَ لنا مقا ... لا حين لم تَبْذُلْ فِعَالَا
مع أننا نُوليك صبـ ... ـبرا فى المودة واحتمالا
ونبثك الأَخبار إنْ ... أَضحتْ قصارا أَوطوالا
سارتْ سرايانا لقصـ ... ـد الشام تَعْتَسِفُ الرمالا
تُزْجِى إلى الأَعداءِ جر ... د الخيل أَتباعا توالى
حتى لقد رام الأَعا ... دى من ديارهم ارتحالا
واستاقَ عسكرُنا له ... أَهلا يحبهم ومالا
وسَرِيَّةُ ابن فُريجِ الطَّا ... ئِى طَالَ بها وَصَالَا
سارتْ إلى أَرضِ الخليـ ... ـل فلم تَدَعْ فيها خلالا
فلو أنَّ نورَ الدين يجـ ... ـعل فعلنَا فيهم مِثالَا
ويسيِّرُ الأَجنادَ جهـ ... ـرا كى يُنازِلهم نِزالَا
لرأَيتَ للإفرنج طُـ ... ـرًّا فى معاقِلها اعتقالا
وتجهزوا للسير نحـ ... ـو الغرب أَوْ قصدوا الشمالا
وإذا أَبَى إلا اطـرَا ... حاً للنصيحةِ واعتزالا
عُدْنا بتسليم الأَمو ... رِ لِحُكْمِ خَالِقنا تعالى[1]

وصف الملك الصالح فى الأبيات السابقة فعل جيوشه فى الصليبيين ، فذكر أنه سير إليهم عدة سرايا ، وأنها هاجمتهم واستاقت أموالهم وأهاليهم ، وأن الأعادى هموا بترك بلادهم ، والارتحال عنها ، من هول ما جرى لهم .

وبعد أن وصف الصالح لصديقه أسامة ما حل بالصليبيين من ذلة وهوان ، تمنى أن يقتدى نور الدين بفعله ، وأن يسير الأجناد لقتال الصليبيين .

---

(١) الديوان ص ١٢٥ ، والروضتين ١ - ١١٧ .

ويقرر الشاعر أن الصليبيين لن يسطيعوا مقاومة الجيش الإسلامى ، وسيضطروا لترك ديار الإسلام والاتجاه إلى بلادهم .

وفى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة استطاع الفرنج الاستيلاء على حصن حارم ، مستغلين تفرق الجيوش الإسلامية ، بسبب مرض نور الدين ، فلما علم الصالح بالأمر أرسل جيشاً كبيراً إلى غزة وعسقلان ، فقاتلوا الفرنج الذين فيهما ، واستطاع الجيش المسلم الانتصار عليهم وأسر عدد كبير منهم[1] .

وبهذه المناسبة أرسل الملك الصالح قصيدة إلى أسامة بن منقذ شرح له فيها حال هذه الغزوة قال فيها .

أَلا هكذا فِى اللهِ تمضى العزائمُ ... وتمضى لدى الرب السيوفُ الصَّوارم
وتستنزل الأَعداءَ من طَودِ[2] عِزِّهم ... وليس سوى سُمْرِ الرماح سلالم
وتُغْزَى جُيُوشُ الكُفْرِ فِى عُقْرِ دَارِها ... ويوطا حِمَاها والأَنوفُ رواغم
ويوفِى الكرامُ الناذرون بنذرهم ... وإن بُذِلَتْ فيه النفوسُ الكرائم
نذرنا مسيرَ الجيشِ فى صفر فما ... مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعاً ... مفاوز[3] وَخْدُ[4] العِيسِ فيهن دائم
فما هاله بُعْدُ الديار ولا ثنى ... عزيمته جهدُ الظما والسمائم
وواجههم جمعُ الفرنج بحملة ... يهون على الشجعان فيها الهزائم
فَلَقُّوهُمُ زُرْق الأَسنة وانطووا ... عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
وعادوا إلى حز السيوف فقطعت ... رؤوس وَحُزَّتْ للفرنج غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مُخَبِّرٌ ... ولا قيل: هذا وحده اليوم سالم
كذلك ما يَنْفَكُّ تُهْدىَ إلى العِدا ... وللوحش أَعراس لهم ومآتم
وما نحن بالإسلام للشرك هازم ... ولكننا الإيمان للكفر هادم[5]

---

(١) الروضتين ١ - ١١٥ .
(٢) فى الروضتين : من طول ١ - ١١٥ .
(٣) **المفاوز** : جمع مفازة وهى الصحراء .
(٤) **الوخد** : الإسراع فى السير بالنسبة للبعير .
(٥) الديوان ص ١٣٥ وما بعدها ، الروضتين ١ - ١١٥ .

بدأ الشاعر حديثه عن المعركة التى انتصر فيها جيشه على الصليبيين فى الشام، بإظهار الفرح والسرور بهذا الانتصار العظيم الذى أذل الأعداء، وحطم كبرياءهم.

ويشير الشاعر بعد ذلك إلى نقطة هامة فى تاريخ الحروب وهى : أن الكفر لابد أن يغزى فى عقر داره، ولعله يشير إلى قول النبى عليه الصلاة والسلام فى الحديث الشريف «**ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا**».

وبعد هذه المقدمة التى شرحت عظمة المسلمين، وقوة جيوشهم، بدأ الشاعر يتحدث عن المعركة ومقدماتها.

ذكر طلائع أن الجيش المصرى كان قوى العزيمة، شديد الإرادة، لم تثنه بعد المسافة، وأهوال الطريق، عن متابعة السير، لإدراك الأعداء والقضاء عليهم.

وعندما بدأت المعركة حمل الجيش الإسلامى على الأعداء حملة صادقة، فأشبعوهم قتلاً بالرماح والسيوف، وقضوا عليهم أجمعين.

أجاد الشاعر فى الحديث عن المعركة، ووصف أحداثها ونتائجها، وقد التزم جانب الصدق والأمانة، وابتعد عن المبالغة والتهويل.

وقد تحدث المؤرخ أبو شامة المقدسى عن هذه المعركة فقال : «وفى أوائل ربيع الأول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عساكرها إلى غزة وعسقلان، وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم، قتلاً وأسراً، بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير، وغنموا ما ظفروا به، وعادوا سالمين ظافرين. وقيل: إن مقدم الغزاة فى البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهى مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى، وعاد ظافراً غانماً»(١).

(ب) الحث على مواصلة الجهاد :

من أهم الأغراض الشعرية التى تطرق إليها الملك الصالح طلائع بن رزيك هى حث نور الدين زنكى على جهاد الصليبيين، وإخراجهم من بلاد الشام.

---

(١) الروضتين، ج ١ ص ١١٥.

وقد خصص لهذا الغرض قصائد عديدة ، كان يكتبها لصديقه أسامة بن منقذ ، ويطلب منه أن يبلغها إلى نور الدين .

ففي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ضايق الفرنج حصن حازم ، واستطاعوا الاستيلاء عليه بعد حصار شديد، وقد استغل الصليبيون مرض نور الدين ، وتفرق الجيوش الإسلامية ، فشنوا عدة غارات على المواقع الإسلامية ، وعاثوا فيها فساداً وتخريباً[1] .

وعندما سمع طلائع بما فعله الصليبيون ، أرسل جيشاً ضخماً إلى بلاد الشام لمساعدة أهلها على قتالهم ، وعندما أنهى جيشه مهمته ، وعاد إلى مصر ، أرسل طلائع قصيدة طويلة لأسامة بن منقذ ، وصف فيها فعل جيشه بالأعداء ، وطلب من أسامة حث نور الدين على قتال الفرنج ، فقال :

فقولوا لنور الدين لافُلَّ حَدُّهُ ... ولا حكمتْ فيه الليالي الغواشم
تَجَهَّزْ إلى أَرض العدو ولا تَهِنْ ... وتُظهِرْ فتورا إنْ مضتْ منك حَارِمُ
فما مثلها تُبدِ احتفالا به ولا ... يُعَضُّ عليها للملوك الأباهم
فعندك من أَلطاف ربك ما به ... علمنا يقيناً أنه بك راحم
أَعادك حيا بعد أن زعم الورى ... بأَنك قد لاقيت ما الله حاتم
بوَقتٍ أَصابَ الأَرضَ ما قد أَصابها ... وَحَلَّتْ بها تلك الدواهِي العظائم
وَخَيَّمَ جيشُ الكفر فِي أَرض شيزر ... فسيقت سبايا واسْتُحِلَّتْ محارم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة ... إليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت نَرُوعهُم ... ونحلف جهدا أَننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تُفَتَّرُ عنهمُ ... وليس ينجِّى القومَ منا الهزائم
فأَسطولنا أَضعاف ما كان سائرا ... إليهم فلا حصن لهم منه عاصم
ونرجو بأَن يجتاح باقيهمُ بهِ ... وتحوى الأَسارى منهم والغنائم[2]

---

(١) الروضتين ١ - ١١٤ .

(٢) الروضتين ١ - ١١٥ ، والديوان ص ١٤١ .

فى بداية الأبيات السابقة يحث الشاعر نور الدين على مواجهة الأعداء والاستعداد لحربهم ، ويخاطبه قائلاً : يا نور الدين ، يجب عليك ألا تتساهل فى قتال الأعداء وألا تظهر الفتور فى حربهم ، أما أخذهم مدينة حارم فيجب ألا يؤثر عليك ، ويثبط من عزيمتك .

ويعدد الشاعر بعد ذلك بعض نعم الله على نور الدين ، ليذكره بها ، ويطلب منه أن يؤدى لله حقه مقابل تلك النعم .

وشكر الله - كما يرى الشاعر - يتمثل فى جهاد الأعداء ، الذين استباحوا ديار المسلمين ، واستحلوا محارمهم .

ويشجع الشاعر نورَ الدين ، ويقوى عزيمته ، فيذكر له أن الجيش المصرى سيكون معه ، وأنه ما لبث كعادته يجاهد الأعداء فى البر والبحر ، وأنه لن يفتر عن ذلك حتى يقضى عليهم أجمعين .

ويؤكد الشاعر فى قصيدة أخرى كتبها لأسامة بن منقذ بعد شفاء نور الدين من مرضه أهمية جهاد العدو ، والاستعداد لحربه ، وأن هذه مهمة نور الدين الأساسية ، ولا سيما أن الله قد مَنَّ عليه بالشفاء ، وأهله لحرب الأعداء ، والجهاد فرصة يجب أن يغتنمها الإنسان لينال الثواب والأجر .

يقول الشاعر فى هذا المعنى .

وأَهَم المهـمِّ أَمرُ جِهاد الـ	ـكفر فاسمعْ فعندنا التحقيق
واصَلَتْهُمْ منا السرايا فأَشجا	هم بُكُورٌ مِنَّا لَهُمْ وطُروق
وأَباحتْ ديارهم فأَباد الـ	ـقوم قتل ملازم وحريق
وانتظرنا بزحفنا برءَ نور الد	ين عِلْمًا منا بأَن سَيُفِيقْ
وهو الآن فى أمان من الله	وما يعتريه أَمر يعوق
ما لهذا المهم مثلك مجد الديـ	ـن فانهضْ به فأَنت حقيق [1]
قل له لا عَدَاهُ رأْىٌ ولا زال	لديه لكل خير طريق

(١) مجد الدين : لقب أسامة بن منقذ .

أنت فى حَسْمِ داءِ طاغية الكـ ـفار ذاك المرجو والمرموق
فاغتنم بالجهاد أَجرك كى تلـ ـقى رفيقاً له ونعم الرفيق (١)

وكان الشاعر حريصاً على استرجاع مدينة القدس من أيدى الصليبيين ، باعتبارها قبلة المسلمين الأولى ، ومسرى النبى عليه السلام ، وكان يدرك تماماً أن استرجاع القدس يعنى نهاية الصليبيين فى الشام .

وقد استغل الشاعر فرصة قيام جيش مصر بعدة حملات بحرية فى سواحل الشام ، فأرسل قصيدة إلى أسامة بن منقذ يشرح له فيها الجهاد الذى بذله جيشه ، وطلب منه استرجاع بيت المقدس فقال فى ذلك :

بَلِّغوا قولَنا إلى الملك العا دل فهو الْمَرْجُوُّ والمأْمول
قل له كم تماطل الدين فى الكفـ ـار فاحذر أن يغضب المطول
سِرْ إلى القدس واحتسب ذاك فـ ـى اللهِ فبالسير منك يُشْفى الغليل (٢)

والاستعداد لجهاد الصليبيين ، والتحريض عليه ، كان الشغل الشاغل لشاعرنا الوزير طلائع بن رزيك وكان لا يرضيه إلا محق الكفرة عن بكرة أبيهم ، وإبادتهم عن آخرهم .

وكان الشاعر لا يفتأ يذكِّر نور الدين بهذه المهمة ، ويحرضه على سرعة الجهاد ، والاستعداد لإخراج الصليبيين من بلاد المسلمين . يقول فى ذلك قصيدة له وجهها – كعادته – إلى أسامة بن منقذ :

وأَلْمِمْ بنور الدين وأَعـ ـلمه بهاتيك القضيه
فهو الذِى ما زال يخـ ـلص منه أَفعالا ونيه
ويبيدُ جمع الكفر بالـ ـبيض الرقاق المَشْرَفِيَّه
فعساه ينهض نهضة يفنى بها تلك البقيه
إمَّا لنصرةِ دينه أو ملكه أَو للحميه (٣)

---

(١) الديوان ص ١٠٣ ، والروضتين ١ – ١١٦ .
(٢) الديوان ص ١٢٩ ، والروضتين ١ – ١١٩ .
(٣) الديوان ص ١٧٣ ، والروضتين ١ – ١١٦ .

من استعراضنا لشعر طلائع بن رزيك وجدنا أن شعر الجهاد عنده يمثل قمة شعره جودة وواقعية .

ويعود السبب فى ذلك إلى أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان يعد الجهاد قضيته الكبرى ، فكان لذلك يشارك فيه قولاً وعملاً ، وكان يدرك كذلك أن جهاد الصليبيين فى الشام يعد الخطوة الأولى لدفعهم عن مصر ، فكان يحرص على قتالهم ، والتحريض عليه .

وأسلوب المراسلات الذى اتبعه طلائع فى شعره يعد أسلوباً فريداً من نوعه ، حيث لم يسبقه إليه أحد من شعراء الجهاد فى عصره ، وهو يدل على مدى حرص الشاعر على هدفه الذى يسعى إليه ، وهو إيصال كلمته إلى نور الدين ، والتأثير عليه بوساطة أعز أصدقائه أسامة بن منقذ .

وعاطفة الجهاد عند الشاعر التى تمثلت فى شعره عاطفة صادقة جياشة ، وأسلوبه فى شعره واقعى إلى حد كبير ، حيث ابتعد الشاعر عن تكلف المحسنات البديعية ، واكتفى بوصف الوقائع التاريخية وصفاً يرتفع أحياناً عن طريق الصور الفنية إلى قمة شعرية عالية ، ويهبط أحياناً أخرى ليصير وثيقة تاريخية تسجيلية تعنى بالأحداث كما هى .

* * *

ثانياً – القاضى السعيد بن سناء الملك :

ولد القاضى السعيد هبة الله بن القاضى الرشيد جعفر بن سناء الملك محمد بن هبة الله بن محمد السعدى المصرى المعروف بابن سناء الملك فى مصر فى سنة خمسين وخمسمائة [1] .

وقد نشأ فى ظل أسرة عريقة ، عرف المجد طريقه إليها ، فوالده كان يشغل منصباً

(١) انظر ترجمته فى : خريدة القصر قسم شعراء مصر ١ – ٦٤ وما بعدها ، كشف الظنون ص ٦٩٦ ، ٧٣٢ ، ٧٦٦ ، هدية العارفين ٢ – ٥٠٦ ، إيضاح المكنون ٢ – ١٩٢ ، بدائع البدائع ص ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٣ شذرات الذهب ٥ – ٣٥ ، وفيات الأعيان ٥ – ١١٢ ، مفرج الكروب ٣ – ٧٧ ، ديوان ابن الساعاتى ٢ – ٣٨ ، وانظر كذلك ديوان ابن سناء الملك المطبوع ، خزانة الأدب ص ٦٧ ، ٢٥١ ، ٣٠٠ ، ابن سناء الملك حياته وشعره ، والأعلام ٩ – ٥٧ ، معجم المؤلفين ١٣ – ١٣٥ .

هاماً فى الدولة ، كما كان شغوفاً بالعلم وأهله ، قال عنه القاضى الفاضل : « ونعم الصاحب الذى لا تخلفه الأيام ، ولا يعرف له نظير فى الأقوام ، أمانة سعيدة ، وعقيدة متينة ، ومحاسن ليست بواحدة ، ومساع فى نفع المعارف جاهدة .

وكان حافظاً لكتاب الله ، مشتغلاً بالعلوم الأدبية ، كثير الصدقات »[1] .

ويدل لقب جده « سناء الملك » على أنه كان يشغل منصباً خطيراً فى الدولة الفاطمية فى مصر آنذاك .

وقد اهتم والده بتعليمه منذ الصغر ، وحرص على تنشئته نشأة صالحة ، فقرأ القرآن على الشريف الخطيب ، ودرس النحو واللغة على ابن برى ، وسمع الحديث من السلفى[2] . وهكذا جمع فى ثقافته بين علوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية .

وقد عمل ابن سناء فى ديوان الإنشاء فى مصر عند القاضى الفاضل ، وكان بارعاً فى الكتابة[3] .

وعندما رحل الفاضل إلى الشام مع صلاح الدين الأيوبى استدعى إليه ابن سناء الملك وجعله كاتم سره فى ديوان الإنشاء ، ولكن المقام لم يطب لابن سناء الملك فى بلاد الشام . إذ كان شديد الحنين إلى مصر ، فعاد إليها سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وبقى فى مصر يعمل وكيلاً للقاضى الفاضل فى إدارة أملاكه الواسعة ، حتى وفاة الفاضل[4] .

وبعد وفاة الفاضل ولاه الملك الكامل مسئولية ديوان الجيش ، ولكن ابن سناء لم يجد فى نفسه ارتياحاً لهذا المنصب ، فاعتذر عن الاستمرار فيه ، بعد أن قضى فيه قرابة عامين ، وقال فى ذلك :

قد عجز المملوك عن خدمة	ثَبَاتُه فى مثلها طَيْش
للجيش ديوان وما لى به	أُنس ولا عندى له عيش
وصرت مهزوما فلا تعجبوا	من واحد يهزمه الجيش[5]

(١) السلوك ص ١٣٩ .
(٢) ، (٣) شذرات الذهب ٥ - ٣٥ .
(٤) ابن سناء الملك - حياته وشعره ص ٤٥ .
(٥) الديوان : ص ١٨٥ .

وقد توفى ابن سناء بعد ذلك بقليل فى العشرة الأوائل من شهر رمضان سنة ثمان وستمائة بالقاهرة [1] .

آثاره العلمية :

ترك ابن سناء بعض الآثار العلمية منها :

١ - **روح الحيوان** : وقد اختصر فيه كتاب « الحيوان » للجاحظ [2] .

٢ - **دار الطراز** : وهو من أعظم آثار ابن سناء الأدبية ، وهذا الكتاب كله موشحات ، امتاز بها الشاعر عن غيره من شعراء عصره [3] .

٣ - **فصول الفصول وعقود العقول** : وقد جمع فى هذا الكتاب مجموعة من كتابات أدباء عصره لاسيما القاضى الفاضل [4] .

٤ - **الديوان** : وهو يشمل قصائد الشاعر ، وقد طبع أكثر من مرة وأجود طبعاته التى قام بتحقيقها محمد إبراهيم نصر .

وقد ذكر محمد إبراهيم نصر فى مقدمة ترجمة الشاعر أن له كتابين آخرين هما : « مختارات من شعر ابن رشيق القيروانى » ، « مساعد الشوارد » وذكر أنه لم يعثر على هذين الكتابين وإنما استدل على وجودهما من مكاتبات الشاعر للقاضى الفاضل [5] .

موضوعات شعره :

تطرق الشاعر إلى شتى موضوعات الشعر ، من مدح ، وغزل وهجاء ، ورثاء ووصف وحكمة وزهد . كما تحدث عن الحروب الصليبية ، فمدح أبطالها ووصف أحداثها .

وقد استحوذ المدح على معظم ديوان الشاعر ، وتلاه الغزل من حيث الكثرة ، وهذان الغرضان هما الأساسيان فى الديوان ، ثم جاءت الموضوعات الأخرى بشكل غير أساسى فى الديوان .

---

(١) وفيات الأعيان ٥ - ١١٢ .
(٢) كشف الظنون ص ٦٩٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٧٣٢ ، وشذرات الذهب ٥ - ٣٥ .
(٤) الأعلام ٩ - ٥٧ ، إيضاح المكنون ٢ - ١٩٢ .
(٥) ابن سناء الملك - حياته وشعره ص ٥٤ .

وسنتحدث عن أهم موضوعات شعره ، ثم نتطرق بعد ذلك إلى الحديث عن شعر الجهاد عند الشاعر .

أولاً – المـدح :

مدح ابن سناء الملك كبار شخصيات عصره ، من وزراء وأمراء وسلاطين .

وقد كانت معظم مدائحه فى القاضى الفاضل ، لأنه كان أستاذه وموجهه وكان يدين له بمنزلته العلمية ، ومكانته الأدبية ، وكذلك بمنزلته فى الدولة ، حيث ساعده القاضى الفاضل على احتلال مناصب رفيعة لدى حكام مصر .

وقد كان ابن سناء الملك يعترف بذلك الفضل كله للقاضى الفاضل ، فيقول فى ذلك :

ورأيتَ قَدْرِى فى البرية خَامِلًا ... فَجَعَلْتَ قدرى فى البرية نابها
فَليشْكُرنَّكَ مقْوِلِى عن مهجة ... نادتْ فكان نداك رَجْعَ جوابها
شَكَرَتْكَ نَفْسٌ أنت أَصلُ حياتها ... وبقائها وطعامها وشرابها(١)

ومن مدائح ابن سناء فى القاضى الفاضل قصيدة هنأه فيها بالقدوم من السفر ، وبشهر رمضان ، بدأها بمقدمة غزلية طويلة ، مطلعها :

يا قلبُ ويحك إن ظَبْيَكْ قد سَنَحْ ... فَتَنَحَّ جهدك عن مراتعهِ تَنَحْ

وبعد ذلك تخلص إلى المديح فقال :

أنتَ الذِى سَفَلَ الأَنامُ وقد علا ... أَنت الذى نَقَصَ الأَنامُ وقد رَجَحْ
أنت الذِى لم يقدحوا فى جوده ... أَنَّى وجودُ يديك أَوْرَى إذ قَدَحْ
طوقْتَهُـمْ مثل الحَمام بأَنْعُمٍ ... فَهُمُ بمدحك كالحمام إذا صدح
فسوى مديحك منهم لم يُستمع ... وسوى نوالك فيهم لم يُسْتَمَحْ(٢)

نلاحظ أن الشاعر كان يغلو فى مدائحه كثيراً ، ويبالغ حتى يخرج عن الحد المألوف وقد جعل ممدوحه أفضل الأنام كلها ، حيث علا وسفلوا ، ورجح ونقصوا .

---

(١) الديوان : ص ٢٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٨ .

وقد كانت المبالغة فى المدح سمة بارزة فى مدائح ابن سناء الملك ، فنراه فى قصيدة أخرى يمدح القاضى الفاضل ، ويثنى على جوده وكرمه ، ويجعله خير الأنام ومولاهم وفاضلهم . يقول فى ذلك :

يَدٌ يَدُ الله صاغَتْها لِبَسْط ندى ... أَوْ كَفِّ عدوى عِداً أوْ رَدٍّ كف رَدَى
يُعطى البحار ولكن لا ترى كَدَراً ... وينفث السحر لكن لا ترى عُقَدَا
خيرُ الأنام ومولاهم وفاضلهم ... عبدُ الرحيم ولا تَسْتثنى لى أحدا (١)

ولا يكتفى الشاعر بتلك الأوصاف ، فيجعل للقاضى أوصافاً تجعله فى مرتبة الألوهية ، فالناس لن يوفوا له حق نعمته عليهم حتى ولو عبدوه ، والملوك تقف على أبوابه زرافات ، ويدخلون عليه سجداً ، وإذا طلب منه أحد الرشاد هيأ له ذلك . يقول :

هم يجهدون ليوفوا حق نعمته ... وما يُوفى له حَقٌّ ولو عُبدَا
تأْتى الملوكُ إلى أَبوابه زُمَراً ... ويدخلون على أَبوابه سجدا
ما جاءَه بشر منهم ليرشده ... إلا وهيأَ له من أَمره رشدا (٢)

ومدح ابن سناء كذلك الملك العادل أبا بكر بن أيوب حاكم مصر بعدة قصائد ، منها قصيدته التى مطلعها :

على كل حال ليس لِى عنك مذهب ... وما لَغَرامى عند غيرك مطلب
وقد زعموا أَنى قُتِلْتُ وأَننى ... رضيت فما بال المليحة تغضب

وبعد المقدمة الغزلية الطويلة التى اعتاد الشاعر الاتيان بها فى مقدمة مدائحه ، تخلص إلى المدح ، فأثنى على قوة العادل ، وشدة بأسه ، كما أثنى على كرمه وجوده ، وكثرة ذلك ، فقال :

هو الملك المحيى المميتُ ببأْسه ... ونائله أَيان يرضى ويغضب
يَرَجِّيه ملآنُ الفؤاد مهابة ... لترجيه فهو المُرَجَّى المرجَّبُ
على بابه الأَملاك تزحم وفده ... وإن قربوا بالإذن فالوفد أَقرب

---

(١) الديوان : ص ٩٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩٣ .

وبعد أن مدحه بالكرم والشدة ، مدحه بالشجاعة والإقدام ، والمحاماة عن الدين . فقال :

إذا سلَّ سيف الدين فى حَوْمَةِ الوَغَى ... فقد سلَّ أَدْرَى بالقراع وأَدرب

وجرَّدَ ماضِى الكف والقلب ثابت ... فما قلبه يوم الوغى يتقلب

وفى نهاية القصيدة يعرب الشاعر عن عبوديته المطلقة لممدوحه ، وأنه أوقف حياته منذ الصغر على مدحه والإشادة به . يقول :

وإنِّىَ عبدٌ لم أَزل فيك قائما ... بمدحك أَشدو أَوْ بحمدك أَخطب

نظمتُ مديحِى فيك والسِّنُّ يافعٌ ... وهذا مديحِى فيك والرأس أَشْيَبُ (١)

من استعراضنا السابق لبعض الأمثلة من شعر المديح عند ابن سناء الملك ، وجدنا أن الشاعر لم يكن يمدح ممدوحه عن إعجاب ، وإنما كان العطاء ، بل الاستجداء وهو الدافع الأساسى له على مدائحه .

وقد سار الشاعر فى مدائحه على نهج الأقدمين ، فكان يبدأ مدائحه بمقدمة غزلية طويلة ، يتطرق بعدها إلى مدح ممدوحه ، ثم يطلب العطاء فى نهاية القصيدة .

وقد كانت المبالغة المستهجنة من سمات مدائح ابن سناء الملك ، وكان لا يتورع عن إطلاق صفات الألوهية على ممدوحيه ، وإنزالهم فوق منازلهم .

وقد شارك ابن سناء الملك فى مدح قادة الحروب الصليبية فى عصره ، فأشاد بجهادهم ، ووصف معاركهم ، وتغنى بانتصاراتهم .

وقد خص بالمدح فى أكثر قصائده بطل الحروب الصليبية وفارسها صلاح الدين الأيوبى ، فتحدث عن جهاده ومعاركه فى أرض الشام ، وكان يرسل قصائده فى مصر إلى الشام ، لتعرض على مسامع صلاح الدين فى ساحات الجهاد .

خاض صلاح الدين فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة معركة حامية مع الصليبيين قرب بانياس ، حيث خرج الصليبيون للقاء السلطان وقتاله ، « فالتقاهم وأنزل الله نصره على المسلمين ، وأسر فرسانهم وشجعانهم ، وانهزم رجالهم فى أول

(١) الديوان : ص ٦ ، ٧ .

اللقاء ، فكان فى جملة الأسرى مقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، وصاحب طبرية ، وأخو صاحب جبيل ، وابن القمصية ، وابن بارزان صاحب الرملة ، وصاحب جينين ، وقسطلان يافا ، وابن صاحب مرقية ، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدمين الأكابر ما زاد على المائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم »[1] .

وقد مدحه ابن سناء بعد هذا الانتصار العظيم بقصيدة نونية مطلعها :

أَبى صَدُّها أَن يجمعَ الحُسْنَ والحُسْنَى   ووجدى بها أَن أَجمع الجَفْنَ والجفْنَا

وبعد مقدمة غزلية طويلة انتقل الشاعر إلى ذكر الغزوات التى كان يشنها صلاح الدين على الصليبيين ، وتأثير هذه الغزوات عليهم ، وكيف أنها جعلتهم يستسلمون له ، ويخلون ديارهم من ساكنيها فراراً منه ورهبة . يقول :

أَقَام بدارِ الكُفْر تُجْبَى له الجِزَا   وتُودَى له القتلى وتُسْبَى له الحسنى
يشن عليها غارةً بعد غارة   فقد أَصبحتْ من شَنٍّ غاراته شنا
عَفَتْ وخلتْ من ساكنيها ديارهم   فلا معقلٌ يُنْشَى ولا منزل يغنى
زمانٌ على تلك المعاهد قد مشى   ودهر على تلك المعاقل قد أَخنى[2]

وبعد ذلك تحدث ابن سناء عن قيام صلاح الدين بنصر الإسلام ، وتحطيم عقائد الكفر ، وقتال المشركين ، وقتل من ثبت منهم ، وأسر الباقى .

ثم تحدث عن المعركة واشتدادها ، وكيف أن ملك الصليبيين فر هارباً يتحسس قفاه ، وهو لشدة ما رأى يحسب نفسه مطعوناً من الخلف ، ولا شىء من ذلك .

ثم يصف الشاعر بعد ذلك كيف أن صلاح الدين أسر ملوك الصليبيين ، وقضى على شوكتهم .

ثم يصف هؤلاء الملوك وهم يرفلون فى قيود الحديد ، ويبكون أنفسهم خوفاً وحسرة ، وكل منهم يلعن نفسه ، ويشكو مما أصابه . يقول :

أَقمتَ بها التوحيدَ لله وَحْدَهُ   وأُنسِيت فيها الروح والأَبَّ والابن[3]

(١) الروضتين ٢ – ٨ .
(٢) الديوان ، ج ٢ ص ٣٢٢ .
(٣) يشير إلى عقيدة التثليث عند النصارى .

ولما رأوه أَدبروا حين عاينوا أَعِنَّةَ خيل لا تعود ولا تُثْنَى
وقد وقفوا لَكِنْ لأَسر رقابهم وَقَطْفِ رؤوسٍ منهم آن أَن تُجْنَى
ثَبَتَّ لهم والسيف قد كَرِهَ الطلى وجالدتهم والقرن قد سَئِم القرنا
بِضرْب يُذيب الشمسَ فى الأُفق حَرُّه ويحرق ما بين القلوب من الشحنا
مضى مَلكُهُمْ فى أول الأَمر هاربا يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا
وأَضحى أَسيرا «بادويل» وغيره قرونُ ملوك كم أَبادوا لهم قرنا
أُسارى جُبارى لا يُرجونَ فِدْيَةً ولا يأْملون الدهرَ فكًّا ولا أَمنا
وهل زادهم بالسجن ضيقاً عليهم وقد جعل الأَرض الفضاءَ لهم سجنا
غدا «بادويل» وهو يلعن نفسه وَحُقَّ لتلك النفس أَن تربح اللعنا
يُرَوِّعُهُ الصبحُ المنيرُ إذا بدا ويوحشه الليلُ البهيم إذا جَنَّا
ويشرب لكن إن جرى دمعه دما ويطرب لكن إنْ شَدَا قَيْدُهُ لحنا
وقد أَصبح الإسلام والكفر كلما بنيتَ لذا ركنا هدمتَ لذا ركنا [1]

وبعد هذه المعركة توالت انتصارات صلاح الدين على الصليبيين فى بلاد الشام، فاستطاع أن يسترد كثيراً من المدن التى كانت بأيديهم، كنابلس والكرك وعكا ويافا وحصن مجدل وغيرها من البلاد الإسلامية التى استردها قبيل موقعة حطين [2].

وقد وصف ابن سناء هذه المعارك بقصيدة طويلة منها قوله :

هَلِ الْكَرَكُ الثكلى بأَولادها انتهتْ عن النسل مما جُرِّعَتْه من الثكل
وكانوا لها كالعِقْد إلا أنه وَهَى وأَضحى لها جيش ابن أَيوب كالغل
أَتاهم بمثل الرمل يُثْقِلُ خيلهم إلى الأُفق ما فوق الطريق إلى الرمل
عساكر أَرواح العساكر شربها وليس لها غير الفوارس من أَكل
يكلفهم غزو الفرنج بدارهم ويسهل إلا أَنه ليس بالسهل
فنابلس لما أَن نزلتَ بِرَبْعِها أَقامت بهم حق الضيافة والنزل

---

(١) الديوان : ص ٣٢٤ .
(٢) انظر : الروضتين ٢ - ٨٧ وما بعدها .

أَحسوا بِطَـلٍّ للخـريف فجاءَهم ... ربيـع من النبل المسـدد كالوبل
شَبَبْتَ وقودَ الحرب بالبيض والقنا ... عليهم فقـد أَضحت دماؤهم تغلى
وما أَغمدت عنهم سيوفك أوْ أَتت ... على الغِرِّ والشيخ المغفل والكهل
ولم يبق إلا من سبى الجيش منهم ... وإن كان يسبى الجيش بالحدق النجل
عذارى أَسارى كُبِّلتْ بشعورها ... فجرحها فى الساق والمعصم العَبْلِ
وقد شغلت عن أَهلها بإسارها ... وأَنت بشكر الله فى أَشغل الشغل
وعدت بفضل الله للخلق سالمـا ... وأَى زمان لم تعد فيه بالفضل [١]

ونلاحظ أن الشاعر أجاد فى هذه الأبيات كثيراً ، حيث كان يعبر عن فرحته الكبرى بهذه الانتصارات الباهرة ، وكان يتطلع مع غيره من المسلمين إلى الخلاص من الصليبيين ، فعبَّر عن هذه الآمال بقصيدته السابقة التى تتدفق فيها حرارة العاطفة . ويبدو فيها التعلق الشديد بالملك الناصر الذى يجسد أمانى الأمة الإسلامية فى تحقيق الخلاص من المشركين .

وبعد موت صلاح الدين لم يتوقف ابن سناء عن مدح أولاده ، ووصف معاركهم ضد الصليبيين فى بلاد الشام .

ففى سنة أربع وتسعين وخمسمائة نزل الفرنج على حصن تبنين ، فلما سمع الملك العزيز بهذا الخبر ، خرج بجيشه من مصر لملاقاتهم ، فلما سمعوا بمقدمه رحلوا خوفاً على أنفسهم [٢] .

وقد مدحه ابن سناء بقصيدة طويلة مطلعها :

الشامُ للإسلام دار القرار ... وكان من قبل طريقَ الفرار

ثم يصف بعد ذلك حصار الإفرنج لحصن تبنين ، وكيف اجتمع على هذا الحصار ملوك الفرنجة ، وقادتهم الكبار ، وكيف ضيقوا على أهله من جهة البحر والبر ، فلم يتركوا لهم منفذاً للخروج ، يقول عن ذلك :

---

(١) الديوان : ص ٢٢٣ وما بعدها .
(٢) الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣٣ .

جئتَ لتبنين وَمَنْ حولها — قومٌ كأَعداد الحصى للحصار
سدوا عليها الطرق حتى لقد — كادوا يسدون طريق القطار
ساق إليها الكفرُ أَجناسَه الـ — ـعظام قادتها الملوك الكبار
من كل من يزأَر من غيظه — كأَنه من مغرب الشمس نار
إِما على البر أتى راكضا — أَوْ بجناح القلع فى البحر طار[1]
وطبقوا البحر سفينا فما — بان وساروا فوقها فى قفار
ويمموا الثغر وطافوا به — وأَحدقوا كالغل لا كالسوار
وكان ذاك الثغر مع أَهله — وقبل أَن يحضره فى احتضار

وبعد أن وصف الشاعر حال المشركين ، وما هم عليه من قوة وجبروت ، بدأ يصف حالهم بعد وصول الملك العزيز ، فذكر أنهم عندما رأوه هربوا من شدة الخوف وسلكوا كل الطرق التى توصلهم إلى النجاة .

ويلتمس الشاعر عذراً لهؤلاء الفارين ، فالليل لا يثبت أمام النهار ، والضعيف لا يصبر على قتال القوى . يقول :

وكان أَهل الكفر فى جمرة — فعندما أَظللت طاروا شرار
وانهزموا للبحر إذ أَبصروا — بَحْر وَغى تَغْرَقُ فيه البحار
وعذرهم إن هربوا واضح — هل يثبت الليل أَمام النَّهار
أَمنت ذلك الثغر من عقره — ومنك لم يقدر عليه قدار
ومن حصار الكفر خلصته — بالبأْس بل من حلقات الإِسار[2]

وقد وصف الشاعر هذه المعركة بقصيدة أخرى مطلعها :

قَدِمْتَ بالنصر وبالمغنم — كذاك قُدُومُ الملك الأَكرم

ثم وصف فعل الملك العزيز بالمشركين المحاصرين لحصن تبنين ، فقال :

أَغثت تبنين وخلصتها — فريسة من ماضغى ضيغم

(١) **القلع** : هو شراع السفينة .
(٢) الديوان : ص ١٣٣ .

والكفر كالغُلِّ بها مُحْدِقٌ ... لا كسوار كان فى مِعْصَمِ
كم كافر كان بها مغرما ... والسيف يطفى حُرَقَ المغرم
ورام تبـنـين فقلنا له ... لو لم ينم عقلك لم تَحْلَم
فجاءه المولى العزيز الذى ... يكلا به الدين ولم يكلم
فردها سالمة منهم ... من بعد ما قيل لها سلمى
ما هذه الرمية معهودة ... بالقوس إذ ترمى عن الأَسهم
هى التى فى يوم بدر جرت ... لما رمى الله بها من رُمِى [1]

نلاحظ أن الشاعر فى قصيدتيه اللتين تحدث فيهما عن معركة تبنين ترك المقدمة الغزلية الطويلة التى اعتاد على الاتيان بها فى مقدمة قصائده ، كما نلاحظ كذلك أنه ترك طلب العطاء فى هاتين القصيدتين .

ويبدو أن شدة انفعاله بالأحداث التى يسمع عنها ، وتأثره الشديد بالانتصارات التى حققها ممدوحه ، جعلته ينسى نفسه ، فلا يطلب لها شيئاً ، كما جعلته يبتعد عن تكلف الحب ، والإطالة فيما لا داعى له .

وشعر ابن سناء يمتاز بحرارة العاطفة ، والحماسة المتدفقة ، حيث كان الشاعر يتفاعل مع أحداث الحروب الصليبية ، ويتألم لما يصيب بلاد المسلمين من اغتصاب ، ولما يلحق بالمسلمين من قتل وتشريد .

وإذا تتبعنا شعره الجهادى نجد أن الشاعر يحاول أن يربط بين ماضى المسلمين وحاضرهم ليدفعهم إلى بذل المزيد من التضحيات ، وكانت ثقافته الإسلامية تنعكس على هذا الشعر . من ذلك قوله فى وصف معركة تبنين :

ما هذه الرمية معهودة ... بالقوس إذ ترمى عن الأَسهم
هى التى فى يوم بدر جرت ... لما رمى الله بها من رمى

أراد الشاعر أن يشير إلى قول الله تعالى : ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾ [2] وهذه الآية نزلت فى معركة بدر التى شبه الشاعر معركة « تبنين » بها .

---

(١) الديوان : ص ٢٩٢ ، وما بعدها .
(٢) سورة الأنفال الآية : ١٧ .

نلاحظ كذلك أن ابن سناء لجأ إلى استعمال المحسنات البديعية في شعره وخاصة الجناس والطباق .

نجد أمثلة لذلك في قصيدته في وصف معركة « تبنين » حيث جانس بين « الحصى والحصار » في البيت الأول ، وبين « يحضره واحتضار » في البيت الثامن . كما طابق بين « البر » و « البحر » وبين « راكضا » و « طار » في البيت الخامس ، وبين « الليل » و « النهار » في البيت الحادى عشر .

ونجده يلجأ إلى الجناس كذلك في قصيدته الأخرى في وصف معركة « تبنين » فيجانس بين « يكلا ، يكلم » وبين « سالمة ، سلمى » وبين « رمى ، ورمى » .

ولغة الشاعر تمتاز بالفصاحة والوضوح ، وقد ابتعد عن العامية ، كما ابتعد عن استعمال الألفاظ الوحشية الصعبة .

ومن دراستنا لشعر ابن سناء نتبين أنه تأثر تأثراً كبيراً بأحداث الحروب الصليبية ، وانعكس هذا التأثر على شعره ، فوصف معارك المسلمين ، وأشاد بقادتهم ، وعبر عن تطلعات المسلمين في استرداد بلادهم .

وكان شعر ابن سناء حافزاً قوياً لقادة المسلمين على خوض المعارك ، وبذل التضحيات في سبيل الله .

والقصائد التى قالها ابن سناء في وصف جهاد المسلمين تعتبر من أجود شعره وأقواله ، لأنه كان يعبر عن عاطفته وأحاسيسه الداخلية التى يشعر بها تجاه وطنه الإسلامى ، ورغبته الملحة في تخليصه من أيدى الصليبيين .

ولابن سناء قصائد عديدة في الغزل وردت في ثنايا ديوانه المطبوع .

* * *

من دراستنا لبعض شعراء الجهاد في فترة الحروب الصليبية وجدنا أن هؤلاء الشعراء يختلفون عن غيرهم من معاصريهم ، إذ كانوا يعايشون الأحداث الكبرى التى كان يمر بها المجتمع المسلم والبلاد الإسلامية عموماً آنذاك ، فكانوا يتفاعلون مع الأحداث ، وتهزهم أنباء المعارك ، والانتصارات التى كان يحققها قادة المسلمين ، فيصورونها

بأشعارهم أجمل تصوير، وكانوا كذلك يحرضون قادة المسلمين على الجهاد حتى يتم لهم استرداد كافة بلاد الإسلام، وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد المسلمين.

وقد استخدم شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية مسميات جديدة نابعة من عصرهم، ووقعوا على بعض المعانى المبتكرة التى تتلاءم مع الأحداث التى عاينوها. فقد عبروا مثلاً عن الصليبيين بلفظ «المشركين» و «أهل الصليب» و «الكفرة» وهذه ألفاظ تتفق مع التوجيهات الإسلامية.

مثال ذلك قول ابن القيسرانى من قصيدة له فى مدح نور الدين :

تركتَ قلوبَ الشرك تشكو جراحها   فلا زالتِ الشكوى ولا اندمل الجُرْح [(1)]

ولأسامة بن منقذ من قصيدة فى مدح نور الدين قال فيها :

فلما استعدناها من الكفر عنوة   ولم يبق فى أَقطارها لهم أَثر
رددنا على أَهل الشآم رِباعهم   وأَملاكَهم فانزاحَ عنهم بها الفقر [(2)]

ويقول الشهاب محمود الحلبى من قصيدة له فى مدح الأشرف خليل بمناسبة فتحه عكا سنة تسعين وستمائة :

الحمدُ لله زالت دولة الصُّلُبِ   وعزَّ بالترك دينُ النبى العربى
هذا الذِى كانتِ الآمالُ لو طلبت   رؤياهُفىالنوملاستحيتمنالطلب [(3)]

ولابن منير الطرابلسى قصيدة هنأ فيها نور الدين قال فيها :

لقد غلت الصليب بِحَرِّ حربٍ   يُشيبُ أُوارُها لِمَمَ الليالى
وشمت لنصر هذا الدين ناساً   تَحَرَّم منه كل حِمىً حلال [(4)]

كما أكد شعراء الجهاد المعانى الإسلامية فى شعر المديح، فكانوا يمدحون القائد المسلم بكثرة جهاده وغزواته وقيامه بنصرة الإسلام والمسلمين، وتحقيقه العدالة بين الناس، وابتعدوا بذلك عن استعمال الألفاظ الجوفاء ذات الدلالة العامة التى كانت

---

(١) الروضتين ١ - ٧٠ .
(٢) ديوان أسامة ص ٢٠١ .
(٣) كنز الدرر، ج ٨ ص ٣١٥ .
(٤) الروضتين ١ - ٦٩ .

شائعة فى عصرهم فى شعر المديح لأنها لا تتفق مع أغراض الجهاد وأهدافه .

مدح ابن منير الطرابلسى نور الدين بقصيدة أثنى فيها عليه ، حيث قام بنصرة الإسلام ، واستطاع أن يعيد إليه قوته ومكانته فقال :

رددتَ على الإسلام عصْر شَبَابِهِ … وثباته من دونه وثباتُه
سبغت على الإسلام بِيضَ حُجوله … واختالَ فى أوضاحها جبهاتُه
صدمَ الصليبَ على صلابة عُودِهِ … فتفرقتْ أَيدِى سَبَا خشباتُه (١)

أما ابن القيسرانى فقد مدح نور الدين ، لأنه كان يغضب الله وحده ، وكان يغزو بلاد الشرك ابتغاء مرضاة الله وليس للكسب المادى الذى يسعى له الآخرون .

يقول فى ذلك :

غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْكَ رضى … وكان دينُ الهدى مرضاته الغضبُ
من كان يغزو بلَاد الشرك مكتسبا … من الملوك فنور الدين محتسب (٢)

ويقول أسامة بن منقذ فى المعنى نفسه مادحاً نور الدين :

أَسمعت دعوة الجهادِ فلبا … ها مليك بالمكرمات خليق
ما له عن جهاده الكفرَ والعد … ل وفعل الخيرات شغل يعوق (٣)

أما العماد الكاتب فقد مدح نور الدين بإحيائه للعدل فقال :

يا محيى العـــدل الذِى فى ظله … من عدله رعت الأُسود مع المَهَا (٤)

وظهرت فى هذا العصر كذلك الدعوة إلى تمجيد الأتراك والإشادة بجهادهم . ونبعت هذه الدعوة من شعور المسلمين بالوحدة الإسلامية التى تربطهم ، وإحساسهم أن الأتراك هم الذين قاوموا الصليبيين بشدة ، وأبدوا شجاعة عظيمة فى قتالهم .

وقد أحس شعراء الجهاد بهذا الدور ، فامتدحوا الأمراء ، وتغنوا بجهادهم .

---

(١) الروضتين ١ - ٦٠ .
(٢) الروضتين ١ - ٥٩ .
(٣) الروضتين ١ - ١١٧ .
(٤) المصدر نفسه ١ - ١٥٠ .

مدح ابن سناء الملك صلاح الدين الأيوبى بمناسبة فتحه حلب سنة تسع وسبعين وخمسمائة بقصيدة طويلة قال فيها :

بدولة الترك عَزَّتْ دولةُ العرب ... وبابن أَيوب ذلت شيعة الصُّلُبِ (١)

ومدح الشهاب محمود الحلبى الملك الأشرف خليل فقال :

الحمد لله زالت دولة الصلب ... وعز بالترك دين النبى العربى (٢)

ومن المعانى التى اتفق عليها شعراء الجهاد فى هذا العصر حثهم ممدوحيهم على استرجاع البلاد الإسلامية ، وخاصة بيت المقدس ، ولم يكن هذا الشعور موجوداً عند غيرهم من الشعراء ، نظراً لانصرافهم إلى ملذاتهم وأمورهم الخاصة .

مدح ابن القيسرانى نور الدين بمناسبة فتحه بعض الحصون سنة خمس وأربعين وخمسمائة بقصيدة طويلة قال فيها :

فَسِرْ واملأ الدنيا ضياءً وبهجة ... وأَقصاه بالأَقصى وقد قضى الأَمر

وقد أَصبح البيت المقدس طاهرا ... وليس سِوى جارِى الدماءِ له طهر (٣)

وقال أسامة بن منقذ فى قصيدة له يمدح نور الدين كذلك :

ونرتجع القدس المطهر منهم ... فلم يبق منها فى ممالكها شبر

إذا استغلقت شُمُّ الحصون فعندنا ... مفاتحها : بيض مضاربها حُمْرُ (٤)

أما الملك الصالح طلائع بن رزيك فقد كان يريد من نور الدين أن يفنى المشركين كلهم ، فلا يبقى منهم أحداً . يقول فى ذلك :

فهو الذِى مازال يُخْـ ... ـلص منه أَفعالا ونيه

ويبيد جَمْعَ الكفر بالـ ... ـبيض الرقاق المشرفيه

فعساه ينهضُ نهضة ... يُفنى بها تلك البقيه (٥)

---

(١) ديوان ابن سناء ، ص ١ .

(٢) كنز الدرر ٨ - ٣١٥ .

(٣) الروضتين ١ - ٧٣ .

(٤) ديوان أسامة : ص ٢٠١ .

(٥) الروضتين ١ - ١١٦ .

وقد تميز شعراء الجهاد عن غيرهم من معاصريهم بأنهم كانوا لا يسرفون فى استعمال المحسنات البديعية فى أشعارهم ، وإنما كانت هذه المحسنات ترد فى أشعارهم عرضا . ويعود السبب فى ذلك إلى أنهم كانوا يتحدثون عن الجهاد ، وأنباء المعارك بدافع من أنفسهم، وكانوا يعبِّرون عن تطلعات الشعب المسلم فى استرداد بلاده ومقدساته ، فلم يكن هناك مجال لدى الشعراء لتقصد المحسنات البلاغية ، وتعمد إيرادها ، كما كان يفعل غيرهم من الشعراء .

ويعد شعر الجهاد كذلك وثيقة تاريخية هامة ، حيث تحدث شعراء الجهاد عن معارك المسلمين ضد الصليبيين ، فوصفوا أحداث تلك المعارك ، وتحدثوا عن نتائجها ، وذكروا أبطالها ، وكانوا يصفون أحياناً الأسلحة التى استعملت فى المعركة ، كالسيف والرمح والنبال والمنجنيقات وسواها .

ونجدهم كذلك يستعرضون فى قصائدهم أسماء المدن التى تقع فيها المعارك ، وأسماء قادة الصليبيين فى بعض الأحيان ، كما يحرضون على قتال الصليبيين ويحملون على الأمراء المتقاعسين .

* * *

خاتمة

كان شعر الجهاد الإسلامى فى فترة الحروب الصليبية التى استمرت نحو قرنين من الزمان هو شغلى الشاغل فى خلال الصفحات التى سلفت من هذا البحث ، وقد كان الدافع وراء هذا البحث معرفة عمق الشعور الدينى عند المسلمين فى هذا الزمن المتأخر من تاريخهم ورصد آثار هذا الشعور لا فى مجال الحروب والطعان فحسب ، بل فى ميدان الشعر أيضاً ، لاعتقادى الجازم بأن الشعر لم ينفصل عن الحياة فى أى دور من التاريخ الإسلامى ، ولابد أنه كان صدى لحياتهم ومشاعرهم وأفكارهم .

وقد صح ما توقعته ، فقد أدى بى البحث إلى نتائج مهمة يأتى فى مقدمتها تأكيد ارتباط الشعر بالحياة ، وتأكيد معنى الجهاد وقيمته فى حياة المسلمين فى تلك العصور التى وصفت بالتخلف والانحلال ، ثم استبان لى أيضاً أن الحروب الصليبية أثرت فى حياة المسلمين وشعرهم تأثيراً قوياً ، وأن شعر الجهاد كان ثمرة موضوعية لهذا التأثير عكس حياة الجد والإيمان من خلال عصر اتصف بالهزل والانحلال .

بل إن شعر الجهاد بقيمته الموضوعية قد أثر فى فنون الشعر الأخرى التى كانت سائدة فى هذه العصور ، فضعف الغزل والهجاء وشعر الخمر واللهو ، لأن الشعراء الرئيسيين قد شغلوا بالمعارك الكبرى بين الإسلام والصليبية ، يمدحون قادة المسلمين المخلصين ، ويهجون المتقاعسين الخائنين ، ويهزجون بالانتصار ، ويثيرون النخوة والحمية فى أوقات الضعف والاستسلام ، وقد انتعشت إلى جانب شعر الجهاد فنون أخرى تتواءم معه مثل شعر الزهد والحكمة وكل ما يحض على الفضيلة والخلق .

ولا شك أن البحث قد كشف عن نتيجة مهمة أخرى وهى أهمية شعر الجهاد بوصفه وثيقة تاريخية سياسية اجتماعية ، تؤكد ما ترويه صفحات التاريخ عن معارك الإسلام والصليبية أو تنفيه ، وتكشف عن دوافع كثيرة وحقائق ربما أهملتها روايات المؤرخين .

وقد أكد البحث حقيقة الوحدة الإسلامية فى العصور التى خاض فيها برغم كل ما ترويه كتب التاريخ عن مظاهر التمزق والخلاف بين الأقطار الإسلامية ، فقد جاشت مشاعر الشعراء المسلمين فى كل مكان وخاصة مصر بكل الانفعالات الصادقة حينما كانت تجرى أحداث المعارك فى الشام .

وإلى جانب هذه النتائج الأساسية العامة التى توصل إليها البحث ، فقد ضم مجموعة كبيرة من نصوص شعر الجهاد تجتمع لأول مرة فى بحث متكامل ، وبعضها ينشر لأول مرة أيضاً ، إذ استخرجته من كتب مخطوطة .

كذلك قدم البحث دراسة تحليلية متكاملة لشعر الجهاد من حيث موضوعاته التى ضمت : الدعوة إلى الجهاد ، والتحريض على مواصلة القتال ، ووصف المعارك ، ومديح قادة المسلمين المخلصين وهجاء الكفار والخونة والمارقين من المسلمين ، ورثاء القادة الأبطال ومدن الإسلام التى خربتها الصليبية ، وقدم البحث أيضاً دراسة تحليلية لشعر الجهاد من حيث عناصره الشكلية ، فحلل لغته وموسيقاه وصوره الفنية وزخارفه البديعية ونهج قصيدة الجهاد . وقد أثبت أن شعراء الجهاد كانت تدفعهم عواطفهم الإسلامية الصادقة إلى الإبداع والتجويد دون التكلف والتصنع المقيت والتقليد لمجرد التقليد والفراغ .

ثم قدم البحث بعد ذلك كله ، دراسة تحليلية لأهم شعراء الجهاد فى فترة الحروب الصليبية من بلاد الشام وغيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى وتأتى مصر فى مقدمتها إحساساً بالمسئولية الإسلامية ومشاركة قوية فى أحداثها ، فدرسنا شعر ابن القيسرانى وابن منير الطرابلسى ، وأسامة بن منقذ الكنانى ، والشهاب الحلبى ، ثم أشعار طلائع بن رزيك ، وابن سناء الملك .

هذه هى النتائج الرئيسية التى توصل إليها هذا البحث ، وهناك نتائج أخرى كثيرة جزئية تضمنتها تلك الصفحات التى سلفت من هذه الدراسة التى لم أبلغ من ورائها إلا وجه الله تعالى ، والحقيقة العلمية التى هى مطلب كل مؤمن ، وعلى الله قصد السبيل .

* * *

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم :

ثانياً : المصادر المخطوطة :

- **أخبار الدول وآثار الأول** : تأليف حسن بن حسين القرمانى - مخطوط تحت رقم (٨٨٥) من مكتبة الحميدية بالسليمانية فى اسطنبول .

- **التذكرة الصفدية** : تأليف خليل بن أيبك الصفدى - مخطوط تحت رقم (٤٢٠) أدب بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

- **تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم** : تأليف محمد بن على بن محمد حمويه الدمشقى - مخطوط تحت رقم (١٥٠١) أدب - بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

- **درر التيجان وغرر تواريخ الزمان** : تأليف أبى عبد الله الداودانى - مخطوط تحت رقم (٩١٣) من مكتبة دامار إبراهيم باشا بالسليمانية .

- **درة الأسلاك فى دولة الأتراك** : تأليف حسن بن عمر ، المعروف بابن حبيب - مخطوط تحت رقم (٩١١) بالمكتبة السليمانية .

- **ديوان ابن القيسرانى** : لمحمد بن نصر بن صغير القيسرانى - مخطوط تحت رقم (١٤٨٤) أدب بدار الكتب المصرية .

- **ديوان التلعفرى** : لمحمد بن يوسف بن شهاب الدين التلعفرى - مخطوط تحت رقم (٤٤٢) أدب - بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

- **ديوان الشهاب العزازى** : مخطوط تحت رقم (٤٧٩) أدب بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

- **روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر** : لمحب الدين محمد بن الشحنة الحنفى -

مخطوط تحت رقم (٨٧٠) من مكتبة دامار إبراهيم باشا بالسليمانية .

- **قلادة النحر بأعيان وفيات الدهر** : تأليف محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد أبى مخرمة - مخطوط تحت رقم (٤٤١٠) تاريخ - بدار الكتب المصرية .

- **المنتخب فى تكملة تاريخ حلب** : لعلاء الدين أبى الحسن على بن خطيب الناصرية الحلبى - مخطوط تحت رقم (٩٢٢) عام - من مكتبة دامار إبراهيم باشا بالسليمانية .

- **عقود الجمان فى تاريخ أهل الزمان** : تأليف محمود بن أحمد المعروف بالعينى - مخطوط تحت رقم (٢٣٢٢) من مكتبة أسعد أفندى بالسليمانية .

ثالثاً - المصادر المطبوعة :

- **أسرار البلاغة** : للإمام عبد القاهر الجرجانى - الطبعة الأولى ، نشر مكتبة القاهرة بمصر سنة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

- **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** : للقاضى مجير الدين الحنبلى - نشر مكتبة المحتسب فى عمان سنة ١٩٧٣ م .

- **الاعتبار** : لمجد الدين أبى المظفر أسامة بن منقذ - تحرير فيليب حتى طبع بمطبعة جامعة برنستون ونشرته مكتبة المثنى فى بغداد سنة ١٩٣٠ م .

- **إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون** : لإسماعيل ابن محمد البغدادى - طبع بمطبعة وكالة المعارف بمصر سنة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

- **البداية والنهاية** : لأبى الفداء الحافظ بن كثير - نشر مكتبة النصر بالرياض ومكتبة المعارف فى بيروت عام ١٩٦٦ م .

- **بدائع الزهور فى وقائع الدهور** : لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفى - نشر جمعية المستشرقين الألمانية - طبع فى القاهرة سنة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

- **بدائع البدائه** : لعلى بن ظافر الأسدى - طبع دار الطباعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٢٧٨ هـ

- **البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع** : لعلى الشوكانى - نشره معروف باسندوه - وطبع بمطبعة السعادة بالقاهرة (بدون تاريخ) .

- **تاريخ الطبرى** : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى - طبع ونشر دار القاموس الحديث فى بيروت (بدون تاريخ) .

- **تاريخ ابن الوردى** : لزين الدين عمر بن الوردى - طبع ونشر المطبعة الحيدرية بالنجف سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

- **تاريخ ابن خلدون** : لعبد الرحمن محمد بن خلدون - طبع فى بيروت سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

- **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل** : لمحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزرى - تحقيق عبد القادر طليمات - طبع ونشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م .

- **تراجم رجال القرنين المعروف بالذيل على الروضتين** : للحافظ شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة المقدسى - نشره السيد عزت العطار الحسينى - الطبعة الثانية - نشر دار الجيل فى بيروت سنة ١٩٧٤ م .

- **تذكرة الحفاظ** : لأبى عبد الله شمس الدين محمد الذهبى - الطبعة الرابعة - نشر دار إحياء التراث العربى فى بيروت « بدون تاريخ » .

- **تهذيب تاريخ ابن عساكر** : لأبى القاسم على بن الحسن بن عساكر - اختصار وترتيب عبد القادر بدران - طبع فى دمشق بمطبعة روضة الشام سنة ١٣٢٩ هـ .

- **خريدة القصر وجريدة العصر** : للعماد الأصفهانى الكاتب - قسم شعراء الشام « تحقيق الدكتور شكرى فيصل - الطبعة الأولى بالمطبعة الهاشمية بدمشق - ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م » وقسم شعراء مصر - تحقيق أحمد أمين وآخرين - نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر فى القاهرة (بدون تاريخ) .

- **خزانة الأدب وغاية الأرب** : لأبى بكر على ، المعروف بابن حجة الحموى - طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق (بدون تاريخ) .

- **الدارس فى تاريخ المدارس** : لعبد القادر محمد النعيمى الدمشقى - تحقيق جعفر الحسنى - طبع بمطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٦٧ هـ .
- **الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة** : لشهاب الدين ابن حجر العسقلانى - الطبعة الأولى - بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية فى الهند سنة ١٣٥٠ هـ .
- **ديوان ابن الساعاتى** : لبهاء الدين على بن رستم الخراسانى - تحقيق ونشر أنيس المقدسى - طبع فى بيروت بالمطبعة الأمريكانية سنة ١٩٣٨ م .
- **ديوان ابن النبيه المصرى** : لكمال الدين على بن محمد بن النبيه المصرى - تحقيق عمر محمد الأسعد - نشر دار الفكر فى بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩ م .
- **ديوان ابن الخياط** : لأبى عبد الله محمد بن على التغلبى - تحقيق خليل مردم بك - طبع بالمطبعة الهاشمية بدمشق ، ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
- **ديوان ابن عنين** : لشرف الدين محمد بن نصر الأنصارى الدمشقى - تحقيق خليل مردم بك - الطبعة الثانية - نشر دار صادر فى بيروت (بدون تاريخ) .
- **ديوان ابن سناء الملك** : للقاضى السعيد هبة الله بن القاضى الرشيد جعفر - تعليق وتصحيح الدكتور محمد عبد الحق - نشر دار الجيل فى بيروت سنة ١٩٧٥ م . وديوان ابن سناء الملك - تحقيق محمد إبراهيم نصر ، ومراجعة الدكتور حسين نصار - نشر دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .
- **ديوان أبى العتاهية** : نشر دار صادر ودار بيروت فى لبنان - طبع سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- **ديوان أبى تمام** : شرحه الخطيب التبريزى وحققه محمد عبده عزام - طبع ونشر دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٦ م .
- **ديوان أسامة بن منقذ** : تحقيق أحمد أحمد بدوى ، وحامد عبد الحميد - طبع فى المطبعة الأميرية بمصر ، ونشرته وزارة المعارف العمومية بمصر سنة ١٩٥٣ م .

- **ديوان طلائع بن رزيك** : جمعه وحققه محمد هادى الأمينى - طبع بمطابع النعمان بالعراق ، ونشرته المكتبة الأهلية فى العراق سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .
- **ديوان المتنبى** : شرحه أبو البقاء العكبرى - ضبطه وصححه مصطفى السقا وآخرون - طبع ونشر مكتبة مصطفى البابى الحلبى فى القاهرة سنة ١٣٩١ هـ .
- **ديوان فتيان الشاغورى** : لأبى محمد فتيان بن على الأسدى - تحقيق أحمد الجندى - طبع بالمطبعة الهاشمية بدمشق ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٧ هـ .
- **ذيل تاريخ دمشق** : لأبى يعلى حمزة بن القلانسى - طبع فى بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٩٠٨م .
- **رحلة بن جبير** : لمحمد بن أحمد بن جبير الكنانى - طبع ونشر دار صادر ودار بيروت سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- **الروضتين** : لشهاب الدين المقدسى ، المعروف بأبى شامة - نشر دار الجيل فى بيروت (بدون تاريخ) .
- **روضات الجنان فى أحوال العلماء والسادات** : لمحمد باقر الموسوى الأصبهانى - الطبعة الثانية سنة ١٣٤٧ هـ .
- **زاد المعاد فى هدى خير العباد** : لمحمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية - طبع ونشر مكتبة الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب** : لكمال الدين عمر بن أحمد بن العديم - طبع فى المطبعة الكاثوليكية فى بيروت ، ونشره المعهد الفرنسى فى دمشق سنة ١٩٥٤ م .
- **السلوك لمعرفة دول الملوك** : لأحمد بن على المقريزى - تحقيق محمد مصطفى زيادة - طبع فى القاهرة بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٦ م .
- **شرح المعلقات السبع** : لأبى عبد الله الحسين بن أحمد الزوزنى - الطبعة الثانية - نشر دار الجيل فى بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- **صحيح مسلم** : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى - طبع ونشر عيسى البابى الحلبى بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

- **طبقات الشافعية الكبرى** : لعبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى - الطبعة الأولى - بمطبعة الحلبى بالقاهرة (بدون تاريخ) .
- **العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده** : لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - الطبعة الرابعة - طبع ونشر دار الجيل فى بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- **فوات الوفيات** : لمحمد بن شاكر بن أحمد الكتبى - طبع فى مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٥١ م .
- **الفيح القسى فى الفتح القدسى** : لمحمد محمد القرشى الأصفهانى الكاتب - طبع فى ألمانيا سنة ١٣٠٥ هـ - ١٨٨٨ م .
- **القاموس المحيط « أربعة أجزاء »** : لمجد الدين الفيروز أبادى - نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر - وطبع مؤسسة فن الطباعة بمصر (بدون تاريخ) .
- **الكامل فى التاريخ** : تأليف عز الدين بن الأثير - نشر دار صادر ودار بيروت فى بيروت سنة ١٩٦٦ م .
- **كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون** : تأليف مصطفى عبد الله الشهير بحاجى خليفة - الطبعة الثالثة - بالمطبعة الإسلامية بطهران ، ونشر مكتبة الجعفرى بطهران سنة ١٣٨٧ هـ .
- **كنز الدرر وجامع الغرر** : لأبى بكر بن عبد الله بن أيبك الداودارى - تحقيق أولرخ هارمان - طبع فى القاهرة بمطبعة عيسى الحلبى سنة ١٣٩١ هـ .
- **لسان العرب** : لجمال الدين محمد بن منظور - نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة بمصر وطبع بمطابع كوستاتسوماس وشركاه بالقاهرة (بدون تاريخ) .
- **المختصر فى أخبار البشر** : لعماد الدين إسماعيل أبى الفداء - الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية بمصر (بدون تاريخ) .
- **مختار الصحاح** : لمحمد بن أبى بكر الرازى - الطبعة الأولى - نشر دار الكتاب العربى فى بيروت سنة ١٩٦٧ م .

- **مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان** : تأليف أبى محمد عبد الله بن أسعد اليافعى البسنى - طبع فى بيروت ونشرته مؤسسة الأعلمى فى بيروت سنة ١٣٩٠ هـ .
- **نسب قريش** : لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيرى - نشره ليفى بروفنسال وطبع فى دار الطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٥٣ م .
- **مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان** : تأليف شمس الدين يوسف سبط بن الجوزى - الطبعة الأولى - بمطبعة حيدر أباد ونشر مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٧٠ هـ .
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر** : لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - طبع سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- **مضمار الحقائق وسر الخلائق** : لمحمد بن تقى الدين الأيوبى - تحقيق الدكتور حسن حبشى - الطبعة الأولى - طبع فى مطبعة دار الهنا بمصر ونشره عالم الكتب (بدون تاريخ) .
- **معجم البلدان** : لياقوت بن عبد الله الحموى - طبع ونشر دار صادر ودار بيروت فى بيروت (بدون تاريخ) .
- **معجم الأدباء « عشرون جزءا »** : لياقوت الحموى - الطبعة الثانية بالمطبعة الهندية بمصر سنة ١٩٢٤ م .
- **مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب** : لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل - تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - نشر دار القلم فى بيروت سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٦٠ م .
- **المنازل والديار** : لأسامة بن منقذ - تحقيق الأستاذ مصطفى حجازى - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .
- **المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم** : لأبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى - الطبعة الأولى - بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٥٩ هـ .

- **النجوم الزاهرة** : لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى - مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى مصر (بدون تاريخ) .
- **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** : تأليف بهاء الدين بن شداد - تحقيق جمال الدين الشيال - الطبعة الأولى - نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر بمصر سنة ١٩٦٤ م .
- **هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** : لإسماعيل البغدادى - طبع وكالة المعارف الجليلة بمصر - ونشر مكتبة المثنى فى بغداد سنة ١٩٥١ م .
- **الوافى بالوفيات** : تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى - الطبعة الأولى - سنة ١٣٨١ هـ .
- **وفيات الأعيان وأنباء الزمان** : تأليف أحمد بن محمد بن خلكان - وتحقيق الدكتور إحسان عباس - طبع فى مطبعة الغريب فى بيروت (بدون تاريخ) .

رابعاً - المراجع :

- **أباطيل وأسمار** : تأليف محمود شاكر - الطبعة الثانية بمطبعة المدنى بالقاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- **ابن سناء الملك** : تأليف محمد إبراهيم نصر - طبع بالمطبعة الثقافية بمصر ونشرته الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١ م .
- **أثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية** : تأليف الدكتور مختار القاضى - طبع فى مطابع الأهرام ونشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر - سنة ١٩٧٢م
- **الأخبار السنية فى الحروب الصليبية** : لسيد على الحريرى - الطبعة الأولى بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٣١٧ هـ .
- **الأدب فى بلاد الشام فى عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك** : تأليف الدكتور عمر موسى باشا - الطبعة الثانية - نشر المكتبة العباسية بدمشق (بدون تاريخ) .
- **الأدب فى العصر الأيوبى** : تأليف الدكتور محمد زغلول سلام - طبع ونشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ م .

- **الأدب العربى من الانحدار إلى الازدهار** : للدكتور جودت الركابى - الطبعة الأولى بمطبعة زيد بن ثابت ، ونشر دار الفكر بدمشق سنة ١٣٩٤ هـ .
- **بغية الإيضاح لتخليص المفتاح** : تأليف عبد المتعال الصعيدى - الطبعة السادسة - طبع ونشر مكتبة الآداب ومطبعتها بالقاهرة .
- **تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا** : تأليف الدكتور نور الدين حاطوم - الطبعة الأولى - نشر دار الفكر الحديث فى لبنان سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .
- **التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية** : للدكتور أحمد شلبى - الطبعة الأولى ، نشر وطبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٧ م .
- **تاريخ العرب (مطول)** : تأليف فيليب حتى وآخرون - الطبعة الرابعة بمطابع الغندور فى بيروت سنة ١٩٦٥ م .
- **تاريخ معرة النعمان** : تأليف محمد سليم الجندى - طبع بمطبعة الترقى بدمشق ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومى بدمشق سنة ١٣٨٣ هـ .
- **تاريخ الأدب العربى (الجزء الخامس)** : تأليف كارل بروكلمان - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب - طبع ونشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٥ م .
- **تاريخ الشعوب الإسلامية** : تأليف كارل بروكلمان - ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى - نشر دار العلم للملايين فى بيروت - الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٨ م .
- **تاريخ آداب اللغة العربية** : لجرجى زيدان - تحقيق شوقى ضيف - طبع فى القاهرة سنة ١٩٥٧ م .
- **تاريخ الحروب الصليبية** : تأليف ستيفن رنسيمان - ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى - الطبعة الأولى - بمطبعة النجوى فى بيروت ، ونشر دار الثقافة سنة ١٩٦٧ م .
- **تاريخ مصر الإسلامية** : للدكتور جمال الدين الشيال - نشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧ م .
- **تأملات فى الاحتلالين الصليبى والصهيونى** : للدكتور أنيس قاسم ، نشر الدار العربية للكتاب فى ليبيا سنة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

- **تحفة الأنباء بتاريخ حلب الشهباء** : للدكتور بيشوف الجرمانى - طبع فى المطبعة الأدبية فى بيروت سنة ١٨٨٠ م .
- **الجهاد فى سبيل الله** : لأبى الأعلى المودودى - نشر دار الفكر الحديث فى لبنان (بدون تاريخ) .
- **الجهاد فى الإسلام** : لتوفيق على وهبة - نشر دار اللواء فى الرياض - وطبع سنة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م .
- **الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى** : للدكتور نظير حسان سعداوى - طبع بمطبعة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
- **الحرب الصليبية الأولى** : للدكتور حسن حبشى - الطبعة الأولى بمطبعة الاعتماد فى القاهرة ، ونشر دار الفكر العربى سنة ١٩٤٧ م .
- **الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى بمصر والشام** : لمحمد سيد الكيلانى مطبعة دار الكتاب العربى بمصر ونشر مكتبة مصر سنة ١٩٤٩ م .
- **الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب** : تأليف محمد العروسى المطوى - الطبعة الأولى - نشر دار الكتب الشرقية بتونس سنة ١٣٧٤ هـ .
- **الحركة الصليبية** : للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الثالثة - نشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٥ م .
- **الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام** : للدكتور أحمد أحمد بدوى - طبع ونشر مكتبة نهضة مصر - الطبعة الأولى (بدون تاريخ) .
- **دائرة المعارف الإسلامية** : تحرير فنسنك وآخرين - ترجمة عبد الحميد يونس وآخرين - مطبعة دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- **الدولة الإسلامية تاريخها وآثارها** : تأليف عبد الحميد العبادى وآخرين - طبع بمطابع المصرى سنة ١٩٥٤ م .
- **سياسة صلاح الدين الأيوبى فى بلاد مصر والشام والجزيرة** : تأليف دريد عبد القادر نورى - طبع فى مطبعة الإرشاد فى بغداد - ونشرته جامعة بغداد (بدون تاريخ) .

- **الشرق الأوسط والحروب الصليبية** : تأليف السيد الباز العرينى - طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ، ونشرته دار النهضة المصرية سنة ١٩٦٣ م .
- **شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام** : تأليف النعمان عبد المتعال القاضى - نشر الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .
- **صدى الغزو الصليبى فى شعر ابن القيسرانى** : للدكتور محمود إبراهيم - طبع فى مطبعة دار القلم فى بيروت - ونشره المكتب الإسلامى فى دمشق ومكتبة الأقصى فى عمان - الطبعة الأولى سنة ١٩٧١ م .
- **صلاح الدين الأيوبى بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين** : نشر دار الرسالة فى بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٣٩٤ هـ .
- **الظاهر بيبرس** : للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - طبع فى مطبعة مصر بالقاهرة فى سلسلة أعلام العرب رقم (١٤) (بدون تاريخ) .
- **العدوان الصليبى على بلاد الشام** : للدكتور جوزيف نسيم يوسف - نشر دار الكتب الجامعية بمصر - الطبعة الثالثة سنة ١٩٧١ م .
- **فضل الجهاد والمجاهدين** : للشيخ عبد العزيز عبد الله بن باز - طبع بمطابع الجيش بالرياض - الطبعة الثانية سنة ١٣٩٤ هـ .
- **القدس ومعاركنا الكبرى** : تأليف محمد صبيح - طبع فى مصر سنة ١٩٧٠ م .
- **قصة الحضارة** : تأليف ول ديورانت وترجمة محمد بدران - طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ونشرته جامعة الدول العربية سنة ١٩٧٥ م .
- **قيام الدولة الأيوبية فى مصر** : لعلى البيومى - مطبعة دار الفكر الحديث بمصر - الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢ م .
- **قيام دولة المماليك فى مصر والشام** : للدكتور أحمد مختار العبادى - طبع بمطبعة دار النهضة العربية فى بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- **كفاحنا ضد الغزاة** : للدكتور محمد مصطفى زيادة - نشر وطبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٥ م .

- **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية** : للدكتور سهيل زكار - الطبعة الثانية بمطبعة دار الفكر فى بيروت سنة ١٩٧٣ م .

- **محمد بن نصر القيسرانى - حياته وشعره -** : لفاروق أنيس جرار - نشر دائرة الثقافة والفنون فى عمان سنة ١٩٧٤ م .

- **مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى** : تأليف سعيد عبد الفتاح عاشور وعبد الرحمن الرافعى - الطبعة الأولى بمطبعة دار الهنا - نشر دار النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ م .

- **مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى** : للدكتور على إبراهيم حسن - طبع فى مطبعة الاعتماد فى مصر ، ونشرته مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٧ م .

- **معجم المؤلفين** : لعمر رضا كحالة - نشر مكتبة المتنبى ، ودار إحياء التراث العربى فى لبنان سنة ١٣٧٦ هـ .

- **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى** : للمستشرق زامباور - ترجمة زكى محمد حسن وآخرين - طبع فى مطبعة جامعة فؤاد الأول - ونشرته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية سنة ١٩٥١ م .

- **الناصر صلاح الدين الأيوبى** : للدكتور محمد سامى الدهان - عدد (٢٧٠) من سلسلة اقرأ - طبع ونشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠ م .

- **نور الدين محمود** : للدكتور حسين مؤنس - نشر الشركة العربية للطباعة والنشر بمصر - الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ م .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا

مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

صدق الله العظيم

فهرس الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥
دراسة المصادر	١٠
تمهيد	١٣
(أ) الشام وشعر الجهاد	١٥
(ب) فكرة الجهاد ومعناه فى الإسلام	١٩
الباب الأول :	
الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، تاريخها وآثارها	**٢٥**
الفصل الأول : مراحل الصراع بين الإسلام والصليبية فى بلاد الشام	٢٧
١ - الأسباب الدينية	٢٧
٢ - الأسباب التجارية	٢٨
٣ - الأسباب السياسية	٢٩
٤ - الأوضاع الداخلية فى أوروبا	٢٩
- حالة الشرق الإسلامى عند بداية الحروب الصليبية	٣٠
- الأحداث الكبرى فى تاريخ الحروب الصليبية	٣٢
الفصل الثانى : الآثار الثقافية والاجتماعية للحروب الصليبية	
(أ) الأثر الثقافى	٤٧
(ب) الأثر الاجتماعى	٥١

الموضـوع	رقم الصفحة

الباب الثانى :

الشعر فى فترة الحروب الصليبية **٥٥**

الفصل الأول : موضوعات الشعر بصفة عامة وظواهره الفنية ٥٧

١ - المدح ٥٧

٢ - الهجاء ٦٢

٣ - الرثاء ٦٤

٤ - الحكم والزهد ٦٨

الفصل الثانى : شعر الجهاد من الناحيتين الأدبية والتاريخية ٧٣

الباب الثالث :

دراسة تحليلية لشعر الجهاد فى الحروب الصليبية ٩٥

الفصل الأول : موضوعات شعر الجهاد ٩٧

أولاً : الدعوة إلى الجهاد ٩٨

ثانياً : وصف المعارك ١٠٥

ثالثاً : التحريض على مواصلة الجهاد ١١٥

رابعاً : المديح ١٢٣

خامسا : الهجاء ١٣٧

(أ) هجاء الصليبيين ١٣٧

(ب) هجاء المتقاعسين ١٤١

سادساً : الرثاء ١٤٢

(أ) رثاء الأبطال ١٤٢

(ب) رثاء الديار ١٤٢

الفصل الثانى : ظواهره الفنية ١٥٠

الموضـوع	رقم الصفحة

أولاً : لغة الشعر وموسيقاه ١٥٥

ثانياً : الصبغ البديعى ١٦٢

ثالثاً : الصورة الفنية ١٦٧

رابعاً : نهج القصيدة ١٧٢

الباب الرابع :

أهم شعراء الجهاد فى الحروب الصليبية ١٧٥

الفصل الأول : شعراء من الشام ١٧٧

أولاً : ابن القيسرانى ١٧٩

ثانياً : ابن منير الطرابلسى ٢٠٤

ثالثاً : أسامة بن منقذ ٢٣١

رابعاً : الشهاب محمود الحلبى ٢٥٦

الفصل الثانى : شعراء آخرون ٢٧١

أولاً : الملك الصالح طلائع بن رزيك ٢٧٢

ثانياً : القاضى السعيد بن سناء الملك ٢٨٥

خاتمـة : ٣٠١

المصادر والمراجع ٣٠٣

أولاً : القرآن الكريم ٣٠٣

ثانياً : المصادر المخطوطة ٣٠٣

ثالثاً : المصادر المطبوعة ٣٠٤

رابعاً : المراجع ٣١٠

* * *

٤

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٣٢٦٠ / ١٩٧٩م

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدي - ١١٢٣١